جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

مصر والحروب الصليبية

رسالة أعدّت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

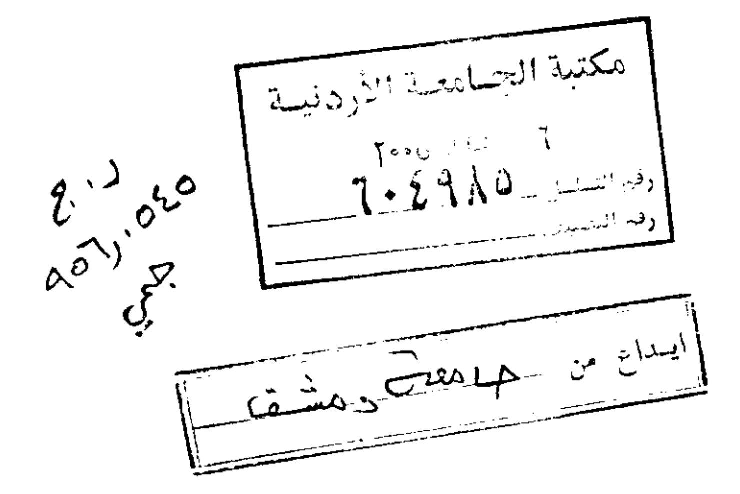
بإشراف

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

إعداد

جميل جمول

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م





بسم الله الرحمن الرحيم

{وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ
وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ
وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا}

(٨٠) سورة الإسراء

صدق الله العظيم



بطاقة شكر

عميق الامتنان والشكر والعرفان

للأستاذ الدكتور سهيل زكّار

العالم العابد في محراب العلم

راجياً أن يكون قدوتي التي أنتفع بها في قابل الأيام

وجزيل شكري

إلى الدكتور المهندس نابغ غزّال أسود

وإلى كل العاملين

في مكتبات مدينة وجامعة نوتنغهام

والمكتبة البريطانية في لندن

والعاملين في مكتبة كلية الآداب في جامعة حلب

تقديم

تُعدُّ الحركة الصليبية إحدى حلقات الصراع بين الشرق والغرب عموماً ، والشرق الإسلامي والغرب المسيحي خصوصاً ، ولئن برزت هذه الحركة على شكل حملات وجموع تحرّكت من أوروبا صوب بلاد الشام للاستيلاء على بيت المقدس وانتزاعه من أيدي المسلمين ، فإنها غالباً ما تطلّعت تجاه مصر ورنت بأبصارها إليها ، إذ أدرك الصليبيون في بلاد الشام — وتحديداً في القدس — أنّ مصر بمواردها البشرية والمادية الضخمة ، هي مركز المقاومة الفعلية في العالم الإسلامي ضدّ الغزو الصليبي ، لذا يجب عليهم لتأمين احتلالهم للقدس ، وضمان قدرتهم على التوسّع في مختلف أرجاء بلاد الشام ، أن يسيطروا على مصر ، ويضعوا أيديهم على مقدّراتها.

وبناءً على ما تقدّم كان اختياري «مصر والحروب الصليبية» موضوعاً لرسالة الدكتوراه ، ولعلّ عدداً كبيراً من المؤرّخين والباحثين العرب ، وغير العرب ، كتبوا أبحاثاً ورسائل علمية ارتبطت بالحروب الصليبية ودور مصر فيها ، إلاّ أنّ معظم تلك الدراسات جاءت قاصرةً في أبحاثها ، أو محدودةً في تحليلاتها ، وعامّةً في جغرافيتها ، فلم تبحث بشكل رئيس ومميز حول مصر ، وإنّما تعدّتها إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى. وإذا لم يكن جائزاً إغفال أهمية بعض الأبحاث ، أو غضّ النظر عن نتائجها واستنتاجاتها ، فإنّ بحثنا يشكّل محاولة لقراءة جديدة ، علّنا نتمكّن بها من استجلاء ما مثّلته مصر بالنسبة لدعاة الحملات الصليبية والقائمين عليها ، إذ غدتْ جهودهم تتّجه إلى مصر أولاً ، لأنّ فيها مفاتيح بيت المقدس ، ولأنها — أي مصر — حسب رأيهم ، رأس الأفعى التي يودّون التهامها ، وهي مورد لا ينضب من الإمكانات والقدرات يرغبون في السيطرة عليها ، كما أنّ موقعها الاستراتيجي جعل منها نقطة العبور والالتقاء ، إلى جانب أنّ مصر ، ظلّت تمارس دوراً قيادياً شامياً ، فكان طبيعياً أن يوجّه الصليبيون كل قوّتهم نحو مصر.

كما يستمدّ البحث أهميته من تركيزه الشديد على وحدة مصر وبلاد الشام ،

وطرحه إشكالات عدّة ، وإثارة تساؤلات كثيرة ، وتقصّي الحقيقة المطلقة ، جاعلاً أحداث التاريخ فرصةً علمية لأخذ الدروس والعبر ، واستخلاص النتائج والأسباب. وكان اختيارنا لمصر – كموضوع للبحث – خلال عصري الفاطميين والأيوبيين ، ليس لأن دورها قد انتهى مع نهاية الحكم الأيوبي فيها ، إذ ظلّت في العصر المملوكي تتبوّأ زعامة العالم الإسلامي ، ولكنّنا آثرنا أن نركّز في بحثنا على حقبة الحكم الأيوبي في مصر ، لأنّ دور الصمود والمواجهة قد أفل تماماً ، بعدما خبت جذوة الحروب الصليبية ، ومات لويس التاسع ، ولم تعد أوروبا تبالي كثيراً بأوضاع المسلمين وشؤونهم ، فيما غدا الكيان الصليبي في بلاد الشام آيلاً للسقوط إلى حدّ كبير ، ولم يكن ينتظر سوى صدمة صغيرة فيصبح رماداً تذروه الرياح. وبذا فإنّ مصر ، كما تبدّل حكمها ، تبدّل – أيضاً – دورها ، فتملّكت زمام المبادرة النهائية ، وانطلقت إلى مرحلة التحرير وطرد الصليبيين صوب بلادهم ، وهذا يتطلّب بحثاً آخر ، ودراسة جديدة.

وأمّا ما قمنا به من تسليط الضوء على حملة الإسكندرية الصليبية ، فذلك لأنها تنضوي تحت ما رمى إليه البحث ، وهو دراسة دور مصر وأهميته في حقبة الحروب الصليبية ، فضلاً عن أنّ الحملة تمثّل امتداداً لتطلعات الغرب الأوروبي للسيطرة على مصر.

وقد واجهتني أثناء بحثي عدّة صعوبات ، من أهمّها معاناتي – الطريفة أو الغريبة – مع الألفاظ ، إذ غالباً ، وكأنّني أنحت في صخر ، ما أقف ساعات أمام نصّ تاريخي أريد أن أعبّر عنه بكلمات تفيه حقّه من الأمانة التأريخية ، وتبتعد به عن السردية ، أو اللغة المقعّرة ، فأبحث عن رابط للجمل والنصوص ، وعن ألفاظ تحافظ على روح النص وقوّته ، كما عانيتُ من كثرة المصادر التي تكتب عن الحروب الصليبية ، وهذا ما جعلني أتأنّى في طبيعة اختيار المصادر الأكثر فائدة للبحث ، وجهدتُ في وضع مقياس ثابت أستطيع من خلاله تخيّر المصادر الأصلية في بحثي من تلك التي لا تحوي إلاّ إشارات بسيطة لا تفي بالغرض المطلوب ، وسلكتُ سبيل المقارنة والموازنة والتحليل والاستنتاج ، لأصل إلى صياغة مقبولة تمكّنني من فهم الأحداث

والغور في عمقها لاستقراء الأسباب والنتائج. كما أضنتني تماماً مسألة الضبط الدقيق لزمان الأحداث ، خصوصاً عندما يتعلّق الأمر بتاريخ معركة ، أو وفاة قائد مسلم أو صليبي ، أو حدوث طارئ مفاجئ ، فكان عليّ حساب التاريخ بدقّة انطلاقاً من زمن معلوم محدّد ، ومن ثمّ مقابلة ذلك التاريخ الهجري بالميلادي ، ليتمّ ضبطه أيضاً ، فضلاً عن ذلك فقد انتابني قلق دائم من أن أكون قد انسقتُ خلف تتابع الأحداث ونسيتُ موضوعي أو هدفه ، أو حتّى حِدْتُ عنه قليلاً ، لذلك كثيراً ما أصابتني حالات توقّف طويل ، كنتُ خلالها أتأمّل ما أنجزتُ وإعادة قراءته بتروٍّ وإمعان ، وذلك ما أثّر كثيراً على زمن إعداد البحث ، كما أدّى إلى سيطرة القلق عليّ فأصبحتُ كأنّ الريح من تحتي ، ولكنّني غالباً ما كنتُ أعود إلى الكتابة بهمّة أكبر ، وعزيمة أشدّ ، يقيني في ذلك من أنّ قلق الباحث هو حافز كبير له ليتعب أكثر ويبذل كلّ جهد ممكن ، كي يخرج بحثه بأبهى صورة وأكملها. وبناءً على ما تقدّم فقد حاولتُ أن أتجنّب كل ما ليس له علاقة بموضوع البحث ، ممّا قد يخرج به عن نطاقه العام ، كما تعمّدتُ أن أتجنّب حشر تراجم غير مجدية لسلسلة طويلة من الأعلام الذين مرّ ذكرهم ضمن سياق البحث ؛ كما أنّي نحوتُ إلى المحافظة على أسلوب وحدة الحدث وتطوّره لكي أعطي صورة واضحة — قدر الإمكان — عن حدوده وأبعاده ، ممّا دفعني في بعض الأحيان إلى التريث في تحليل الأحداث والتعليق عليها وإبراز نتائجها إلى ما بعد نهاية كلّ حدث ، كما لم أغفل دور الأسطول المصري ، ودور أهل مصر الذين أبدعوا في الدفاع عن ثرى بلدهم ، وصنعوا العديد من الانتصارات ، وأهمّها نصر المنصورة ، أثناء زحف الحملة السابعة صوب القاهرة ، حيث قذفوا مقدّمة الجيش الصليبي بالحجارة والأخشاب ، فكانت بداية نهاية الحملة وإخفاقها.

هذا ، وخطّتي في العمل أنّني بدأتُ بعد المقدّمة بمدخل هو عبارة عن دراسة لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدتُ عليها ، ثمّ قسّمتُ البحث إلى ستّة فصول الأول منها عنوانه «الفاطميون والحملة الصليبية الأولى» حيث تحدّثت فيه عن مجيء الحملة الأولى إلى بلاد الشام ، وضربها الحصار على أنطاكية ، وكيف استقبلت هناك وفداً

فاطمياً للتحالف مع الصليبيين ، ضدّ السلاجقة ، وناقشت هذا الخبر وأوضحت نتائجه ، ومغبّة التعاون مع أعداء الأمّة ، أياً يكن الهدف ، ثمّ ذكرتُ انتهاز الفاطميين فرصة انشغال السلاجقة بالتصدي للصليبيين ، فاستولوا على صور ، وكذلك بيت المقدس ، ولكن الصليبيين تقدّموا صوب ساحل بلاد الشام ، ودقّوا ناقوس الخطر ، ووصلوا إلى الرملة ، وفكّروا بغزو مصر ، ثمّ عدلوا عن ذلك ، وساروا إلى القدس ، حيث ضربوا عليها الحصار ، فيما كان الحاكم الفاطمي افتخار الدولة قد عمل ما أمكنه لحماية المدينة والدفاع عنها ، ولكن المدينة سقطت بيد الصليبيين بعد أربعين يوماً من الحصار ، وارتكبوا مجزرة فظيعة. وذكرتُ ردّة الفعل الفاطمية الرسمية ، فقد اكتفى الأفضل بتوبيخهم. ثمّ أشرتُ إلى معركة عسقلان والتوسّع الصليبي في الجليل ومدن ساحل بلاد الشام واستيلائهم على أرسوف وقيسارية ، وانتقلتُ للحديث عن بدء المواجهات الصليبية الفاطمية ، فكانت موقعتا الرملة ، الأولى والثانية ، واستيلاء الصليبيين على عكّا ، وحدوث موقعة الرملة الثالثة التي أخفقت في صدّ الزحف الصليبي ، فسقطت طرابلس ، وبيروت ، وصيدا. وقد أكّدتُ على موقف الفاطميين المتقاعس واللامسؤول ، وأردفت ذلك في الحديث عن التعاون الأول بين القاهرة ودمشق ضدّ الصليبيين ، الذي أثمر في التخفيف عن صور ورفع الحصار الصليبي عنها. ثمّ ذكرتُ محاولة بلدوين الأول ملك بيت المقدس غزو مصر ، وذكرتُ أهمية مصر وحجم دورها منذ بداية الحروب الصليبية ، وانتقلتُ لذكر خبر التعاون الثاني بين القاهرة ودمشق ضدّ الصليبيين ، وسقوط صور ، والموقف الفاطمي اللامبالي. ثمّ تحدّثتُ عن سقوط عسقلان بيد الصليبيين ، وتطلّعهم تجاه مصر ، التي باتت محطّ أنظارهم وطموحاتهم.

لذا ، كان بدهياً في الفصل الثاني أن نتحدّث عن «الصراعات على السلطة في مصر ونهاية الخلافة الفاطمية» وشرحنا أن الصراع الإسلامي الصليبي قد أخذ منحى جديداً مع وفاة بلدوين الثالث ملك القدس ، وانتقال الحكم إلى أخيه عموري الأول ، إذ وجّه أنظاره صوب مصر التي كانت تعاني من الضعف والفوضى وانتشار الاغتيالات

السياسية ، وأوضحتُ تماماً ما شكّلتـــه مصر في سياسة نـــور الـــدين وعمـــوري الأول ، وذكرتُ توجّه الحملة الأولى من قبل نور الدين إلى مصر التـــي أوكل قيادتـــها إلى أســـد الدين شيركوه ، وردّة الفعل الصليبـــي عليـــها ، وتوجّه عمـــوري الأول إلى مـــصر. ثمّ عدّدتُ أسباب إرسال نور الدين حملتـــه الثانـــية صوب مصر ، وحدوث معركة البابـــين التـــي انتصر فيـــها المسلمون بقيادة شيركوه. وأوردتُ حصار الإسكندرية ، ثمّ انسحاب جيش نور الدين من مصر ، ومن ثمّ عودة نور الدين مجدّداً لإرسال جيشه الذي نجح هـــذه المرّة بقيادة شيركوه في ضمّ مصر ، وتوحيد بلاد الشام مع مصر. وبـــينتُ أهمية هذه العملية ونتائجها ، ثمّ ذكرتُ وفاة شيركوه وانتقال السلطة في مصر إلى ابن أخيـــه صلاح الدين ، الذي شرع يتصدّى للمؤامرات الداخلية التـــي دبّرها رجال القصر الفاطمي ، ثمّ التحـــرّك البـــيزنطي بحملة ضخمة قصدتْ دمياط ، وشرحتُ أسباب استـــهدافها لبدء عملية غـــزو مصر ، ثمّ ذكرتُ حصار دمياط والخطط الإسلامية للقتال والدفاع ، وإخفـــاق الحملـــة. وأسهبتُ في تبـــيان أسباب ذلك الإخفاق بالنسبة للمسلمين والصليبـــيين والبـــيزنطيين معاً ، وعدّدتُ نتائجه أيضاً ، التـــي كان أهمّها شروع صلاح الدين بالتمهيد لإزالة الخلافة الفاطمية ، وإقامة الخطبة للعبّاسيين في القاهرة ؛ وناقشتُ موقف الشعب المصري ، ثمّ رويتُ مؤامرة عمارة اليمنـــي ، وثورة كنـــز الدولة ، كونـــهما آخر المحاولات لإحياء الخلافـــة الفاطمية في مصر ، وتلا ذلك طرح بعض التساؤلات ومناقشتـــها.

أمّا الفصل الثالث فحمل عنوان «الأيوبـــيون والحملة الصليبـــية الثالثة» ، والتـــي قدمت إلى الشرق ، نتـــيجة معركة حطّين ، وفتح بـــيت المقدس على يد صلاح الـــدين ، واستغاثة الصليبـــيين بالغرب الأوروبـــي ، فتحرّك الإمبراطور الألمانـــي فردريك بربروسا صوب الشرق ، ولكنـــه غرق في أحد الأنـــهار وزال خطره. ثمّ ذكرتُ قيام الـــصليبـــيين بضرب حصار قاسٍ على عكّا ، ووصول الملك الفرنسي فيليب أوغسطس والملك الإنكليزي رتشارد قلب الأسد ، وما تلا ذلك من سقوط عكّا ، وشرحتُ أثَر سقوطها على المسلمين وصلاح الدين ، وذكرتُ المذبحة البشعة التـــي ارتكبها رتشارد بحق الأسرى المـــسلمين ، وأوضحتُ نتائج سقوط عكّا بـــيد الـــصليبـــيين ، ثمّ انتقلـــتُ إلى موقعـــة أرســـوف ،

ونتيجتها الصعبة والقاسية على المسلمين ، كما ذكرتُ نتائج هذه الموقعة ، وتطرّقتُ إلى الأحداث السياسية بعدها ، حيث بدأت المفاوضات بين الطرفين المسلم والصليبي ، وقد بينتُ أسباب قبول كل طرف الدخول في هذه المفاوضات ؛ وذكرتُ العروض الطريفة التي قدّمها رتشارد قلب الأسد بزواج أخته من العادل ، وتوسّعتُ في شرح تمسّك الطرفين بعسقلان ، على اعتبار أنها مفتاح مصر ، وإصرارهما على تملّكها ، ثمّ رويتُ رضوخ رتشارد قلب الأسد لمطالب صلاح الدين في المفاوضات ، وشرحتُ أسباب ذلك. و لم أنسَ المرور على خبر مواجهات يافا ، ثمّ توقّفتُ عند صلح الرملة طويلاً ، إذ ذكرتُ بنود الصلح ، وعدّدتُ أسباب صلاح الدين للقبول به ، وتوسّعتُ في شرح آثاره ، وبينتُ أنّ الحملة الثالثة لم تحقّق أهدافها ، وركّزتُ في هذا الفصل كثيراً على دور مصر وأسطولها البحري الذي جهد في دعم صمود عكّا – قبل سقوطها – واستمرّ يناوش الصليبيين ويقضّ مضاجعهم ، وذكرتُ أنّ مصر دعمت صلاح الدين بالمال والرجال ، وتمكّن بفضلها من تشكيل مكافئ قوي لرتشارد وحملته ، وعرّجتُ بعد ذلك على ذكر خبر الحملة الصليبية الرابعة لتوضيح هدفها الأصلي وهو مصر ، ولتبيان أنّ مصر باتت راسخة في عقول الأوروبيين والغربيين من أنها قاعدة السلطان ، وبيت الأمان ، وتملك مفاتيح بيت المقدس ، ثمّ ذكرتُ بإيجاز شديد بعضاً من أحداث هذه الحملة ونتائجها.

وفي الفصل الرابع أكملتُ الحديث عن «الأيوبيين والحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة» فبحثتُ في أوضاع الدول الأيوبية والنزاع بين أفراد الأسرة بعد وفاة صلاح الدين ، ومحاولات العادل كسب النزاع وتملّك مصر ، وتمكّنه من تحقيق ذلك. ثمّ انتقلتُ للحديث عن ظروف قيام الحملة الصليبية الخامسة بعد نجاح العادل في توحيد الأيوبيين تحت سلطته ، وشعور الغرب بسوء أوضاع الصليبيين ، فكان مجمع اللاتيران ، وذكرتُ مقرّراته والهدف الرئيس لهذا المؤتمر ، ووصول الجموع المجرية إلى بلاد الشام وإخفاقها في تحقيق نتيجة تُذكَر ، ورحيلها صوب بلادها. ثمّ انتقلتُ للحديث عن استعدادات التجهيز لقيام الحملة ، واختيارها دمياط هدفاً لها ، ثمّ إبحار الحملة من

عكّا في جيش ضخم صوب دمياط ، التـي ضرب عليـها الصليبـيون حصاراً شـديداً. وانتقلتُ لشرح العمليات العسكرية بـين المسلمين والصليبـيين ، وسقوط برج السلـسلة ووفاة العادل، ووصول إمدادات أوروبـية غربـية كان على رأسـها النائـب البـابوي بـيلاغيوس ، الذي تسلّم قيادة الحملة. وقد أوضحتُ أثر قيادتـه ، وما سبّبتـه من تنافر بـين رجال الدين والقادة العسكريين ، وكان ذلك أحد أسباب إخفاق الحملة.

ثمّ تحدّثتُ عن مؤامرة ابن المشطوب ، والحرج الذي سبّبتـه للكامل محمد ، وأردفتُ في الحديث عن تعاضد دمشق ممثلةً بالمعظّم عيسى مع القاهرة للتصدّي للزحف الصليبـي ، ثم ذكرتُ عروض الكامل للصلح ، والتـي سبّبت خلافاً قوياً بـين المندوب البـابوي والقادة العسكريين ، وتوسّعتُ في شرح أسباب عرض الكامل. وانتقلتُ للحـديث عـن سقوط دمياط ، ونتائج ذلك الحدث ، وتجديد الكامل لعرضه ، وزحف الصليبـيين نحـو القاهرة ، وأبديتُ رأيي في خطّ سير الصليبـيين ، وذكرتُ المقاومة الرائعـة للمـصريين ، وبراعة الكامل محمد العسكرية ، التـي أوقعت الصليبـيين في مأزق عسير ، وتوسّعتُ في شرح عرض النائب البابوي ، الذي رحّب به الكامل ، وقمتُ باستعراض عوامل إخفـاق الحملة ، لأنتقل بعدها فوراً صوب النـزاعات التـي تجدّدت بـين أفراد الأسرة الأيوبـية عقب جلاء الحملة الصليبـية الخامسة ، ثمّ تحدّثت عن قدوم الإمبراطور الألمانـي فردريك الثانـي على رأس الحملة الصليبـية السادسة ، والتـي برز فيـها نجم الأمير فخر الـدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، الذي استطاع التوفيق بـين فردريك الثانـي والكامل محمد ، فولدت اتفاقية يافا ، التـي عدّدتُ بنودها ، وتوسّعتُ في شرح ردود الفعـل الإسـلامية عليـها ، ثمّ ذكرتُ دخول فردريك الثانـي إلى بـيت المقدس ، وبعدها عودتـه صوب بلاده. ثمّ أبحرتُ في الفصل الخامس ، حيث ذكرتُ وفاة السلطان الكامل وعودة الخلافات بـين أفراد الأسرة الأيوبـية ، التـي انتـهت باستـيلاء الصالح نجم الدين أيوب علـى مصر ، وتربّعه على عرشها. ثمّ عرّجتُ على ذكر الجموع الفرنسية والإنكليزيـة التـي وصلت إلى بلاد الشام ، ولم تحقّق شيئاً يُذكر ، وقد أوضحتُ دور مصر في التصدّي لهـذه الجموع وإحباط تحرّكها ، ولم أنسَ ذكر محاولة تحرير الناصر داود لبـيت المقـدس ، ثمّ

عدتُ للحديث عن الخلافات والنـزاعات الأيوبـية التـي أدّت إلى تفجّـر مـشكلة الاستعانة بأطراف خارجية للصراع ، فكان الحديث عن الزحف الخوارزمي صوب القدس ، وإخراج الصليبـيين منـها. ثمّ تعرّضتُ لنـهاية الخوارزمية على يد التحالف الأيوبـي. وانتقلتُ للحديث عن ظروف قيام الحملة الصليبـية السابعة ، ومن ثمّ انتقلتُ للحديث عن الاستعداد للحملة وإبحارها ، وناقشتُ بشكل مطوّل موقف فردريك الثانـي منـها. ثمّ ذكرتُ التحرّك الأيوبـي للتصدّي للصليبـيين ، الذين أبحروا مع لويس التاسع ملك فرنسا صوب قبرص ، وبعدها انطلقوا صوب دمياط ، حيث تمكّنت الحملة بسهولة من الاستـيلاء عليـها ، وقد ناقشتُ أسباب ذلك وخصوصاً موقف الأمير فخر الدين يوسف ابن شـيخ الشيوخ ، وما لبثت أن سرت مع الصليبـيين الزاحفين صوب القاهرة ، ورصدتُ موقـف الشعب المصري الرائع في المنصورة ، ودوره الكبـير في تغيير مسرى القتال لصالح المسلمين. وكنتُ أوردتُ خبر وفاة الصالح أيوب وتسلّم شجر الدر للسلطة ، ثمّ ذكرتُ تراجع لويس التاسع صوب دمياط ، وبطولة الأسطول المصري الذي حاصر لويس وحملتـه ، وشدّد من هجماتـه عليـهم حتّى اضطرّ الملك الفرنسي لويس التاسع إلى الاستسلام. وبحثتُ بعـد ذلك ظروف مقتل توران شاه ونـهاية الحكم الأيوبـي في مـصر ، ثمّ توقيـع المماليـك البحرية اتفاقية مع لويس التاسع ، ورحيل الحملة الصليبـية السابعة مـدحورة. وعرّجـتُ بعدها على ذكر نتائج إخفاق الحملة ، وذكرتُ بشكل بسيط جداً ما أسماه بعضهم الحملـة الصليبـية الثامنة ، حيث أوضحتُ أنـها قامت أيضاً للوصول إلى مصر ، على الرغم من أنّ وجهتـها الأولى كانت تونس.

وفي الفصل السادس كانت لنا وقفة متأنـية مع حملة بطرس الأول دي لوزغنان على الإسكندرية ، فذكرتُ أوضاع الصليبـيين ومصر في القرن الثـامن الهجـري / العاشـر الميلادي، وشرحتُ أثر الدعاة في قيام الحملة ، وأسباب اختـيار الإسكندرية هدفاً لهـا ، وانتقلتُ للحديث عن الحملة ووصولها إلى الإسكندرية ، وتوسّعتُ في تفصيل الخراب الذي سبّبتـه للمدينة ، والسلب والنـهب الذي لحق بأهلها ، وأبرزتُ أسباب رحيل الحملـة ، وإخفاق بطرس الأول في السيطرة على الإسكندرية ، كما عدّدتُ نتائج الحملة وآثارها على

جميع الأطراف.

وأخيراً ختمتُ البحث بمحاولة رسم صورة مبسّطة وواضحة لنتائج هذه الدراسة ، وبينتُ في الخاتمة فلسفة الرسالة وكنهها ، والدلائل والأبعاد التي رمتْ إليها في خطابها. وأتبعتُ الخاتمة بعدد من الجداول لأهمّ شخصيات ومعارك البحث ، وعدد من الخرائط — أيضاً — لأوضّح الساحة الجغرافية التي قامت عليها أحداث الحروب الصليبية موضوع الدراسة.

وختاماً ، وبعد ثمانية أعوام تتلمذتُ فيها على يديه ، ونهلتُ من علمه ، وغنمتُ الكثير من طباعه وصفاته ، لا يسعني إلاّ أن أقدّم شكري العظيم وامتناني وعرفاني لأستاذي الفاضل ، الأستاذ الدكتور سهيل زكّار ، الذي رعاني ووجّهني التوجيه السديد ، وأمدّني بالكثير الكثير من المصادر ، وكان لتوجيهاته وتشجيعه إياي وصبره عليّ أثر كبير في مواصلة البحث والدراسة. أرجو من الله العلي القدير أن يطيل عمره ، ويمدّه بموفور الصحة والعافية ، ويحفظه لنا ، ولأسرته الكريمة ، ويمتّعنا بعلمه وأخلاقه.

وها أنا ذا أضع رسالتي هذه بين يدي أعضاء لجنة الحكم الكريمة من الأساتذة المختصّين ، لتقويمها ، مع تقديري الكبير لجهودهم وفائق احترامي وشكري.

والله ولي التوفيق.

مدخل

المصادر والمراجع: دراسة وتقويم

نظراً لطول الحقبة الزمنية المدروسة، فقد تناولتُ عدداً كبيراً من المصادر والمراجع، ولكن أهميتها اختلفت بحسب فصول الدراسة، فكانت أساسية لفصل، وثانوية لآخر؛ سوى القليل منها الذي شمل معظم جوانب البحث.

ويجدر بنا الانتباه إلى أمرين اثنين: الأول هو صعوبة التعامل مع المصادر العربية وغير العربية على السواء، لأن معظم مؤرّخي تلك المصادر كانوا من رجال الدين، ممّا يعني اختلافاً كبيراً في التدوين والرؤية التأريخية للأحداث، وبالتالي فهذا يخلق صعوبة شديدة لمحاولة التوفيق بين وجهات النظر المتباينة أصلاً، بحكم انتمائها، والمتشدّدة أكثر بحكم وضعها الديني واللاهوتي. أما الأمر الثاني فهو يخصّ المصادر العربية، حيث نجد أنّ مؤرّخي الجزيرة لم تكن تهمّهم أخبار مصر، باستثناء ابن الأثير الذي كان عمله موسوعياً، هذا إلى أنّ أخباره كانت موجزة فيما يتعلّق بمصر. وكدليل على ما ذكرناه عن مؤرّخي الجزيرة نجد أنّ ابن الأزرق الفارقي الذي كان معاصراً لحقبة الحملة الأولى لم يتطرق أبداً إلى أخبار الحروب الصليبية، واكتفى بسرد أحداث آمد وميافارقين، ورصد تحرّكات الأراتقة.

ويمكن لنا أن نقسّم مصادر الحروب الصليبية من حيث الساحة الجغرافية إلى قسمين:

١- مصادر شرقية.

٢- مصادر أوروبية.

والمصادر الشرقية هي مصادر عربية، ومصادر سريانية، ومصادر أرمنية.

أمّا المصادر الأوروبية فهي مصادر إغريقية ، ومصادر لاتينية.

ويُلاحظ أنّ أغلب المصادر العربية المتعلّقة بحقبة الحروب الصليبية كانت مصادر إسلامية ، في حين كانت المصادر المسيحية مكتوبة بعدّة لغات : لاتينية ، وإغريقية ، وسريانية ، وبعضها بالأرمنية.

المصادر العربية :

هذا ، وقمنا بترتيب المؤرّخين العرب ترتيباً جغرافياً ، بدءاً من الجزيرة ، ثمّ بلاد الشام ، وصولاً إلى مصر.

- **ابن الأزرق الفارقي**

«أحمد بن يوسف بن علي» ولد بمدينة ميافارقين سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦م ، وسافر في شبابه إلى دمشق ، وقصد العراق ، وقضى عدّة سنوات في بلاد الكرج «جورجيا». والمرجّح أنّ وفاته كانت حوالي سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦م[١]. واقتصرت إفادتي من كتابه «**تاريخ آمد وميافارقين**» على خبري مقتل الأفضل بن بدر الجمالي ، وسقوط عسقلان.

- **ابن الجوزي**

«عبد الرحمن بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي» ولد في بغداد حوالي سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦م ، وفيها توفّي سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م ، وكان غزير الإنتاج ، واسع التصنيف[٢] ، ومن أهمّ كتبه في التاريخ «**المنتظم في تواريخ الملوك والأمم**» ، وأفدتُ منه حول قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام وسقوط القدس ، وارتكاب المجزرة بأهلها ، والتوسّع الصليبي في سواحل بلاد الشام الفاطمية..

---

١) د. سهيل زكار : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية – ج١١ – ص ٥٠١٦.
٢) د. سهيل زكار : الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ٥٠١٧.

• **ابن الأثير**

«عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني» ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م ، وتوفّي في الموصل سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م[1]. وقد اعتمدتُ على كتابيه «**الكامل في التاريخ**» و «**التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل**».

كان أسلوب ابن الأثير في «الكامل» سلساً بسيطاً ، اتّبع طريقة الحوليات ، وحاول ذكر أغلب الأحداث ، غير أنه استخدم أحياناً عبارات التعظيم للأمر والتفخيم له ، وغالباً ما ابتعد عن نقد الخبر وتحليله ، ولكن ذلك لا يمنع كونه من أهمّ المصادر في حقبة الحروب الصليبية ، فهو يصحب الباحث منذ شرارة الحملة الصليبية الأولى ، حتّى نهاية الحملة السادسة ، لذا فإنّ إفادتي منه كانت كبيرة جداً.

ففي الفصل الأول يرصد لنا قدوم حشود الحملة الأولى ، وتأسيس إمارة أنطاكية الصليبية ، وسقوط القدس ومعظم مدن ساحل بلاد الشام ، وتقاعس الفاطميين عن القيام بأي تحرّك إيجابي. وفي الفصل الثاني يصف حملات نور الدين على مصر ، وإخفاق الحملة الصليبية — البيزنطية على دمياط ، وقيام الخطبة العباسية في القاهرة ونهاية الدولة الفاطمية. أما في الفصل الثالث فيبرز ابن الأثير المشاركة الفعّالة والمهمّة للأسطول المصري في التصدّي للحملة الصليبية الثالثة ، ويذكر مدى مساهمة مصر في دعم صمود عكّا ، قبل أن تسقط بيد رتشارد قلب الأسد ، وعقد صلح الرملة. وعلى الرغم من النشأة الموصلية لابن الأثير ، وقربه من آل زنكي حكّام الموصل ، فقد أنصف صلاح الدين الأيّوبي عند ذكره خبر وفاته ، إذ عدّد مناقبه وخصاله الحميدة دونما تحيّز ، وهذه نقطة مضيئة تُحسَب لصالح ابن الأثير ومنهجيّته في التأريخ. ثمّ يحدّثنا عن أخبار الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية ، ونسير معه في الفصل الرابع لنتعرّف

---

١) د. سهيل زكار : الموسوعة الشامية — ج١٤ — ص ٧-٩.
Francesco Gabrieli: Arab Historians of the Crusades , London , 1969 , pp. XXXI-XXXII.
J. A. P. Jones: The Crusades, London , 1984 , p. 45.

أخبار الحملة الخامسة ، ومؤامرة ابن المشطوب ، وتآزر المعظّم عيسى والكامل محمد ، وإخفاق الصليبيين وجلائهم عن دمياط ومصر ، ثمّ يذكر قدوم فردريك الثاني والحملة الصليبية السادسة ، واتفاقية يافا وتنازل الكامل محمد للصليبيين عن القدس ، وأثر ذلك على مشاعر المسلمين.

أمّا كتاب ابن الأثير «**الباهر**» فقد صنّفه للتأريخ للأسرة الأتابكية التي عاش وذويه في كنفها ، وكان والده مصدر الكثير من معلوماته ، وكذلك مشاهداته وسماعاته من معاصريه ، كما اعتمد على مصادر عدّة ، أهمّها ما كتبه ابن أبي طي الحلبي (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣١م) ، والعظيمي ، وابن الأزرق الفارقي ، والعماد الأصفهاني ، وبهاء الدين بن شدّاد[١]. وانحصرت إفادتي من «الباهر» في أخبار حملات نور الدين الثلاث صوب مصر ، ونجاحه في ضمّها وتوحيدها مع بلاد الشام ، وإخفاق الحملة الصليبية – البيزنطية على دمياط ، وقيام الخطبة للعبّاسيين في القاهرة ، وزوال الدولة الفاطمية.

- **ابن القلانسي**

«حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي» ولد في دمشق سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧م ، وتوفي في دمشق سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م ، وعلى الرغم من أن ابن القلانسي كان وضع كتابه الحولي لتاريخ دمشق جنوبي بلاد الشام ، إلاّ أنه تعدّى ذلك ليشمل الوطن العربي والعالم الإسلامي كلّه ، وترجع أهمية كتابه «**تاريخ دمشق**» إلى كونه من معاصري أحداث الحروب الصليبية زمن الحملتين الأولى والثانية. وقد اهتمّ ابن القلانسي بالصياغة اللفظية السجعية ، ولكنه لم يسرف في ذلك كغيره من المؤرّخين[٢] ، وأفدتُ من كتابه في أخبار الحملة الصليبية الأولى وموقف الفاطميين منها ، وسقوط بيت المقدس ، وموقعة عسقلان ، والتوسّع الصليبي في ساحل بلاد الشام ،

---

١) د. سهيل زكار : الموسوعة الشامية – ج١٤ – ص ٧-٩.

٢) د. سهيل زكار : الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ٥٠٠٩-٥٠١٠.

وسقوط المدن الفاطمية ، والتعاون بين طغتكين والفاطميين.

- **العظيمي**

«محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن نزار أبو عبد الله التنوخي الحلبي» ولد سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٩٠م ، وتوفّي سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦١م ، وكتابه «**تاريخ العُظيمي**» الذي اتّبع فيه طريقة الحوليات[١] ، أفدتُ منه في أخبار حقبة الحملة الأولى وقدوم الصليبيين ، وقيام إمارة أنطاكية ، وسقوط القدس ، والتوسّع الصليبي في سواحل بلاد الشام الفاطمية ، وسقوط مدنها الواحدة تلو الأخرى.

- **ابن شدّاد**

«بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم» وشُهِر بابن شدّاد ، نسبة إلى أخواله ، وقد ولد في الموصل سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥م ، وتوفّي في حلب سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م[٢] ، ويعدّ كتابه «**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**» من أهم كتب السيرة حول صلاح الدين ، إذ وضعه بدون تكلّف ولا صنعة كلامية ، وبأمانة وبساطة واعتدال وعقلانية ؛ وأفدتُ من كتابه في أخبار حملات نور الدين على مصر ونجاحه في ضمّها إلى بلاد الشام ، وتصدّي صلاح الدين للحملة الصليبية البيزنطية على دمياط ، ونهاية الخلافة الفاطمية ؛ أمّا في الفصل الثالث فقد أفدتُ من «النوادر السلطانية» بشكل كبير جداً ، حيث أمدّنا بمعلومات تفصيلية دقيقة عن تحرّكات صلاح الدين في مواجهة رتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة ، ولاحظنا مدى مشاركة الأسطول المصري في دعم صمود عكّا ، قبل أن تسقط في يد الصليبيين ؛ وانفرد ابن شدّاد بتصوير ألم صلاح الدين عند وقوع مجزرة أمام أسوار عكّا ، وأسف صلاح الدين لتوقيع صلح الرملة ، كما فصّل ابن شدّاد في بيان بضائع القافلة المصرية التي

---

١) د. سهيل زكار : الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ٥٠١١. محمد ضامن : إمارة حلب في ظل الحكم السلجوقي – بيروت – ١٩٩٠ – ص ٢٤.

٢) د. سهيل زكار : الموسوعة الشامية – ج١٥ – ص ٤.

وقعت في أيدي الصليبيين.

- **سبط ابن الجوزي**

«شمس الدين أبو المظفّر يوسف بن قزا أوغلي» ولد في بغداد سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦م ، وتوفي في دمشق سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م[١] ، وصنّف كتابه «**مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**» على طريقة الحوليات ، وأفدتُ منه في الفصل الثاني حول أخبار حملات نور الدين على مصر ، والحملة الصليبية البيزنطية على دمياط ، وسقوط الخلافة الفاطمية في مصر ؛ أمّا في الفصل الثالث فانحصرت الفائدة حول أخبار الحملة الصليبية الثالثة ، وسقوط عكّا ، ودور الأسطول المصري ، وصلح الرملة ، ورحيل رتشارد قلب الأسد وحملته.

- **ابن العديم**

«الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة» ولد في حلب سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢م ، وتوفّي في القاهرة سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٣م ، وكتابه «**زبدة الحلَب من تاريخ حلب**» الذي استخلصه من مواد كتابه بغية الطلب ، وجعله على شكل الحوليات ، ونقل فيه عن العُظيمي ، وابن القلانسي ، وابن الجوزي ، وابن الأثير ، وابن شدّاد[٢]. وقد أفدتُ منه في أخبار الحملة الصليبية الأولى ، وتأسيس إمارة أنطاكية الصليبية ، وسقوط القدس ، وحملات نور الدين على مصر ، ونجاحه في توحيدها مع بلاد الشام ؛ كما أفدتُ منه في الفصل الخامس حيث أخبار الخوارزمية وتوغّلهم في بلاد الشام وتوجّههم نحو القدس ، وطرد الصليبيين منها.

- **أبو شامة**

«عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن إبراهيم بن محمد المقدسي» ، ولقبه شهاب الدين. ولد في دمشق سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢م ، وقُتِل فيها

---

١) د. سهيل زكار : الموسوعة الشامية — ج١٥ — ص ٦.

٢) د. سهيل زكار : الموسوعة الشامية — ج١٦ — ص ٣-٩.

سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧م[1]. واعتمدتُ على كتابه «**الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**» في تتبّع أخبار حملات نور الدين على مصر ، وسعيه الحثيث لتوحيدها مع بلاد الشام ، وتمكّنه من ذلك ، ثمّ قدرة صلاح الدين على ردّ الحملة البيزنطية عن دمياط ، وتمهيده لإعلان الخطبة العباسية في القاهرة ، ونهاية الدولة الفاطمية في مصر. أما في الفصل الثالث ، فقد أفدتُ منه في رصد أحداث الحصار الصليبي لعكّا ، وقدوم الملك الفرنسي والملك الإنكليزي على رأس الحملة الصليبية الثالثة ، وسقوط عكّا ، وألم صلاح الدين وحزنه لحدوث مجزرة قرب أسوار عكّا ، ثمّ بدء المواجهات مع رتشارد قلب الأسد في أرسوف ويافا ، وخبر استيلاء الصليبيين على القافلة التجارية المصرية ، ودخول الطرفين في مفاوضات صعبة أدّت إلى توقيع صلح الرملة ورحيل رتشارد قلب الأسد وحملته. أمّا في الفصل الرابع فقد أفدتُ من كتابه «**الذيل على الروضتين**» في تسطير أخبار النزاعات بين أفراد الأسرة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ، وقدوم الحملة الصليبية الخامسة ، ومؤامرة ابن المشطوب ، وسقوط دمياط ، وزحف الصليبيين صوب القاهرة ، وتعثّرهم عند المنصورة ، ثمّ الدخول في المفاوضات مع الكامل محمد ورحيلهم عن مصر ؛ كما أفدتُ منه في أخبار الحملة الصليبية السادسة وقدوم الإمبراطور الألماني فردريك الثاني ، وتوقيع اتفاقية يافا ، وما أثارته من غضب المسلمين واستيائهم من دخول الصليبيين إلى القدس وسيطرتهم على أمرها. أمّا في الفصل الخامس فكانت إفادتي محدودة جداً ، سوى بعض الأخبار عن نزاعات أفراد الأسرة الأيوبية ، ونجاح الصالح أيوب في تملّك مصر ، وانتزاع الخوارزمية القدس من أيدي الصليبيين وطردهم منها ، وقدوم الحملة الصليبية السابعة إلى مصر ، واستيلائها على دمياط ، ووفاة الصالح أيوب ، وخبر مقتل ابنه المعظّم توران شاه على أيدي المماليك البحرية. لقد اعتمد أبو شامة في «الروضتين» على مصادر متنوعة ، فنقل عن ابن القلانسي ، والأصفهاني ، وابن أبي طي الحلبي ، وابن الأثير ، وابن شدّاد ،

---

١) الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج٢٠ – ص ٦٩. د. يوسف غوانمة : إمارة الكرك الأيوبية – عمّان – ١٩٨٢م – ص ٣١.

وسبط ابن الجوزي ، وابن العديم ؛ ويبدو أنّ أبا شامة قد حاول عدم التأثر بأساليب أولئك المؤرّخين ، فظهر مصنّفه أخفّ غموضاً في أخباره ، وأقلّ تقعّراً في لغتــــه – خـصوصاً بالمقارنة مع الأصفهانـــي – ومع ذلك بدا جلياً اهتمامه بالصناعة اللفظية «السجع» أثنـــاء ذكره الخبر ، وإكثاره الشديد من الشعر ، ممّا قد يضع الباحـــث التـــاريخي أمـــام بعـــض الصعوبات ، أمّا في «الذيل» فاعتمد أبو شامة على سبط ابن الجوزي ، وعلى مشاهداتـــه وأسماعه ، إذ غدا معاصراً لمعظم أحداث الأسرة الأيوبـــية بعد وفاة صلاح الدين. وعلـــى الرغم من ذلك نجد أن أخبار «الذيل» كانت مقتضبة ، وبعيدة عن ذكر الأحداث المهمـــة شرحاً وتفصيلاً ، فاكتفى أبو شامة بالوفيات ، واهتم بالقرّاء والشيوخ ، ولكنـــه ابتعد عن الصناعة اللفظية ، هذا واعتمد أبو شامة طريقة الحوليات لتدوين الروضتين والذيل.

- **ابن واصل الحموي**

«جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل» ولد في حماة سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٨م ، وتوفّي فيـــها سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨م ، كـــان ابـــن واصـــل موسوعيّ المعارف ، كتب بالأدب ، والهندسة والجغرافيا والطـــب والتـــاريخ ، واختـــصّ بالتأريخ لبنـــي أيّوب[1] ، وأفدتُ من كتابـــيـــه «**مفرّج الكـــروب في أخبـــار بنـــي أيوب**» و«**التاريخ الصالحي**».

لقد نـــهج ابن واصل في «مفرج الكروب» طريقة عرض الأخبار حسب تسلـــسلها الزمنـــي ، وقد نقل عن عدد من المؤرخين الذين تقدّموا عليـــه أو عاصروه ، مثـــل ابـــن الأزرق الفارقي ، والعماد الأصفهانـــي ، وابن الأثير ، وابن شدّاد ، وسبط ابن الجـــوزي ، وابن العديم ، وأبـــي شامة. وقد أكْثَرَ من الاقتباس بشكل خاص من كتابـــي ابن الأثـــير ، الكامل والباهر ، وأفدتُ من كتابـــه «مفرج الكروب» في الفصل الثانـــي حول سعي نور الدين إلى ضمّ مصر عن طريق حملاتـــه الثلاث ، ونجاحه في ذلك ، وتصدّي صلاح الدين للحملة الصليـــبـــية – البـــيزنطية على دمياط ، ثمّ إقدامه على إلغاء الخطبـــة للفـــاطميين

---

1) د. سهيل زكار : الموسوعة الشامية – ج٢١ – ص ٨.

Fracesco Gabrieli: op. cit, pp. XXXI-XXXII

ونـهاية حكمهم في مصر. كما أفدتُ منـه في الفصل الثالث إفادة كبـيرة ، إذ تتبعنـا أخبار الحملة الصليـبـية الثالثة ، وبدايات الحصار الصليـبـي لمدينة عكّا ، مـن أجـل إعادة احتلالها ، وقدوم الملك الفرنسي فيليب أغسطس والملك الإنكليزي رتـشارد قلـب الأسد ، وسقوط عكّا في أيدي الصليـبـيين ، وموقعة أرسوف ، وصلح الرملة.

واستطعنا أن نتلمّس أهمية دور مصر في التصدّي لهذه الحملة ، كما اطّلعنا على صعوبة المفاوضات بـين صلاح الدين ورتشارد قلب الأسد ، بسبب رغبة الطرفين في الاسـتيلاء على عسقلان لأنـها بوّابة مصر. وفي الفصل الرابع أمدّنا ابن واصل بمعلومات وافية عـن النـزاعات بـين أفراد الأسرة الأيوبـية ، بعد وفاة صلاح الدين ، ومحـاولات أخيـه العادل توحيد الدولة الأيوبـية والسيطرة على مصر ، التي كانت حينذاك حاضرة الدولـة ورأسها. وأفدتُ منـه في رواياتـه عن أخبار الحملة الصليـبـية الخامسة وتوجّهها إلى مصر ، واستيلائها على دمياط ، وزحف الصليـبـيين نحو القاهرة ، وإجراءات الكامـل للتصدّي لهم ، وتكاتف أفراد الأسرة الأيوبـية ، وإخفاق الحملة ، وجلائها عن دميـاط ، ثمّ يخبرنا ابن واصل بقدوم فردريك الثانـي والحملة الصليـبـية السادسة ، وعقد اتفاقيـة يافا بـين الإمبراطور والكامل محمد ، الذي تنازل للصليبـيين عن بـيت المقدس ، ممّا نتج عنـه ردود أفعال صاخبة وحادّة من قبل المسلمين. وفي الفصل الخامس غدا ابـن واصـل شاهد عيان لأحداث الحملة الصليـبـية السابعة ، إذ أقام بالقاهرة عدّة سنوات أيام الصالح نجم الدين أيوب ، وعاش سقوط الحكم الأيوبـي في مصر ، ثمّ في بلاد الشام ، وانفرد ابن واصل بوصف ما حدث داخل مدينة بـيت المقدس ، عندما سلّمها الـصالح إسماعيـل — صاحب دمشـق — للصليبـيين ، وأخبرنا ابن واصل بإسهاب عن تقدّم المغـول صـوب بغداد ، وقضائهم على دولة الخوارزمية ، الذين نـزحوا صوب بلاد الـشام ، وهـاجموا القدس ، وقضوا على الوجود الصليـبـي في المدينة. ويفصّل ابن واصل أخبـار سـقوط دمياط السريع بـيد الملك الفرنسي لويس التاسع ، ووفاة الصالح أيوب ، وظهور زوجتـه شجر الدر ، وقدوم توران شاه بن الصالح أيوب ، وسقوط الحكم الأيوبـي في مصر بمقتله على يد المماليك البحرية.

أمّا كتاب «**التاريخ الصالحي**» فقد دوّنه ابن واصل على طريقة الحوليات ، وكانت رواياته مختصرة ودقيقة ، وأفدتُ منه بشكل كبير في الفصل الثاني ، حيث روى لنا أخبار حملات نور الدين على مصر ، ونجاح صلاح الدين في ردّ الحملة الصليبية البيزنطية عن ثرى دمياط ، وإقامة الخطبة للعباسيين ونهاية الدولة الفاطمية. وفي الفصل الثالث نرصد أخبار الحملة الصليبية الثالثة وتوقيع صلح الرملة. أمّا في الفصل الرابع فنقرأ عن نزاعات أفراد الأسرة الأيوبية ، بعد وفاة صلاح الدين ، وقدوم الحملة الصليبية الخامسة ، ورجوعها عن مصر خائبة مدحورة ، ثمّ قيام الحملة الصليبية السادسة ، ومجيء الإمبراطور الألماني فردريك الثاني ، وأخذه القدس سلماً من الكامل محمد ، وتسويغ ابن واصل لهذا الأمر ، وأفدتُ منه في الفصل الخامس في بعض أخبار الصالح أيوب.

- **أبو الفداء**

«عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب» ، ولد في دمشق سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣م ، ونشأ في حماة ، وفيها نال ثقافته ، وتدرّج في المناصب السياسية والعسكرية حتّى وصل إلى منصب سلطنة حماة وملكها سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢م ، وظلّ يشغل هذا المنصب حتّى وفاته سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م[١].

ويُعدّ كتاب «**المختصر في تاريخ البشر**» أهم ما خطّه أبو الفداء في ميدان التاريخ ، حيث جعل الكتاب تذكرة لنفسه اختصر فيها بشكل أساسي ما أودعه ابن الأثير في كامله ، ثمّ وصل أخباره حتّى عصره ، وكانت أخباره متزاحمة ومقتضبة ، فابتعد عن التحليل واكتفى بالسرد ، ونهج طريقة الحوليات لتدوين كتابه. وقد أفدتُ منه في الفصل الثاني ، حيث أخبار حملات نور الدين صوب مصر ، وتمكّنه من تحقيق ذلك ، وصدّ صلاح الدين الحملة البيزنطية الصليبية على دمياط ، ثمّ إعلان الخطبة للعبّاسيين في القاهرة ، وإزالة الخلافة الفاطمية ومحو مظاهرها. أمّا في الفصل الثالث فكانت الإفادة في

١) د. زكّار : الموسوعة الشامية – ج٢ – ص ٣.

ذكر أخبار الحصار الصليبي لعكّا ، ونشاط الأسطول المصري ، وسقوط عكّا ومجزرة الأسرى ، ثمّ وقعة أرسوف ، وتوقيع صلح الرملة ، ورحيل رتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة. وأفدتُ منه في الفصل الرابع ، حيث النزاعات بين أفراد الأسرة الأيوبية وقدوم الحملة الصليبية الخامسة وحصار دمياط ، ومؤامرة ابن المشطوب وسقوط دمياط ، ثمّ إخفاق الحملة وجلائها عن مصر ، وخبر مجيء الحملة الصليبية السادسة ، وتوقيع اتفاقية يافا بين الكامل محمد والإمبراطور الألماني فردريك الثاني ، واستياء المسلمين من هذه الاتفاقية. وفي الفصل الخامس أفدتُ منه في أخبار النزاعات بين أفراد الأسرة الأيوبية ونجاح الصالح أيوب في تملّك مصر ، وتوغّل الخوارزمية في بلاد الشام ، وانتزاعهم القدس من الصليبيين ، ثمّ قدوم الحملة الصليبية السابعة وسقوط دمياط ، ووفاة الصالح أيوب ، ومعركة المنصورة وأسر الملك الفرنسي لويس التاسع ، ومقتل توران شاه ونهاية الحكم الأيوبي في مصر.

وبذا نكون قد استعرضنا أهمّ مؤرّخي الجزيرة وبلاد الشام ، الذين عدنا إلى مؤلّفاتهم خلال بحثنا.

وسننتقل الآن إلى مؤرّخي مصر ممّن كتبوا عن حقبة الحروب الصليبية.

- **النويري**

كان أحد المظاهر الحضارية للعصر المملوكي نبوغ عدد من المؤرّخين الموسوعيين ، ومن أشهرهم النويري «شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري» وعُرِف بالنويري نسبةً الى قريته نويرة في مصر ، وقد ولد سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٨م ، وتوفي سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م[1]. ونهج في كتابه «**نهاية الأرب في علم الأدب**» طريقة عرض الأخبار دون الالتزام بالترتيب الزمني ، كأن يبدأ بأخبار السلاجقة حتى نهاية دولتهم ، ثم يعود منذ البداية لعرض أخبار الفاطميين ، وهكذا. أمّا مصادره ، فمنها العماد الأصفهاني ، وابن الأثير ، وابن شدّاد ، وأحياناً ينسب بعض

---

١) زكّار : الموسوعة الشامية – ج ٢٢ – ص ٤.

رواياتـــه إلى كلمة : قال .. ، أو قال المؤرّخ.

وأسلوب النويري سهل بسيط يبتعد فيـــه عن التعقيد واللبس ، وقد أفدتُ منـــه في الفصل الأول حيث قدوم الحملة الأولى وخروج الجيش الفاطمي للاستيلاء على القدس ، ثم التوسّع الصليـــبـــي في السواحل الشامية الفاطمية ، وسقوط القدس ، وعكّا ، وطرابلس ، وبـــيروت ، وصيدا ، وصور. وفي الفصل الثانـــي كانت أخبار الصراعات بـــين الـــوزراء على السلطة وطلب النجدة الخارجية ، ممّا استدعى قدوم شيركوه وصلاح الدين ، ثم زوال الدولة الفاطمية. أمّا في الفصل الثالث فكانت الإفادة كبـــيرة حول بدء حصار عكّا من قبل الصليـــبـــيين ووصول جحافل الحملة الصليـــبـــية الثالثة ، وسقوط عكّا بـــيد رتـــشارد قلب الأسد ، ملك إنكلترا ، ثم توقيع صلح الرملة ، ووفاة صلاح الدين.

- **ابن أيبك الدواداري**

«أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري» ولد ونشأ في القاهرة ، ولمّا انتقل أبوه إلى دمشق صحبـــه معه ، وظلّ فيـــها حتّى وفاة أبـــيـــه سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٤م ، والمرجّح أنـــه عاد إلى القاهرة ، وعمل على تأليف كتاب عنـــها[1] ، ولكن الذي يعنـــينا هـــو كتابـــه الضخم «**كنـــز الدرر وجامع الغرر**» المكوّن من تسعة أجزاء ، والمدوّن حتّى سنة ٧٣٥ هـ ، إذ توفّي ابن أيبك سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥م.

وأفدتُ من جزئه السادس ، الذي حمل عنوان «**الدرّة المـــضيّة في أخبـــار الدولـــة الفاطمية**» في تلقّف أخبار الفاطميين في مصر عند مجيء الحملة الصليـــبـــية الأولى وسقوط القدس في أيديـــهم ، والتوسّع الصليـــبـــي في سواحل بلاد الشام الفاطميـــة ، وســـقوط عسقلان.

وأفدتُ – أيضاً – من جزئه السابع الذي حمل عنوان «**الدُّرّ المطلوب في أخبار ملوك بنـــي أيوب**» حيث أخبار حملات نور الدين على مصر واستيلائه عليـــها ، ونجاح صلاح الدين في التصدّي للحملة البـــيزنطية الصليـــبـــية على دمياط. أمّا في الفصل الثالث فأمدّنا

---

١) ابن أيبك : كنـــز الدرر – ج٧ – ص ١٨. ويذكر أنّ اسم الكتاب هو «اللقط الباهرة في خطط القاهرة».

بأخبار الحملة الصليبية الثالثة والمواجهات عند أسوار عكّا ، ومشاركة الأسطول المصري. وفي الفصل الرابع كانت الإفادة حول أخبار النزاعات بين أفراد الأسرة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين وقدوم الحملة الصليبية الخامسة ، ثمّ الحملة الصليبية السادسة واتفاقية يافا. وأفدتُ منه في الفصل الخامس حول قدوم الخوارزمية إلى بلاد الشام وتحرير القدس من الصليبيين ، ووصول الحملة الصليبية السابعة وإخفاقها عند عتبات المنصورة ومقتل توران شاه ونهاية الحكم الأيوبي في مصر.

والملاحظ أنّ السمة الغالبة لكتاب «كنز الدرر» لابن أيبك هي الإيجاز الشديد ، والاكتفاء بالإشارة إلى الأحداث الكبرى الرئيسية ، دون الدخول في التفاصيل ، وكثيراً ما لجأ في «الدرة المضيّة» إلى دمج حوادث سنتين مع بعضهما بعضاً. وقد اتّخذ الحوليات طريقةً لعرض أخباره في كلا الجزأين.

- **المقريزي**

«تقي الدين أحمد بن علي المقريزي» ولد في القاهرة سنة ٧٦٦ هـ / ١٣٦٥م ، وتوفّي فيها سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م ، وقد حصل المقريزي على ثقافة عالية ، والتحق بعدد من الوظائف السامية ، كما قام بزيارة عدد من بلدان المشرق العربي ، خاصة دمشق ومكّة ، حيث أقام في كلّ منهما مدّة طويلة ، وكان إنتاجه غزيراً ، تحديداً في ميادين التاريخ[1] ، وهو يعد شيخ المؤرخين المصريين وصاحب مدرسة تاريخية ، سمتها تنوّع المادّة وتعدّد مصادرها. ويجدر بنا الانتباه إلى أنّ المقريزي لم يكن معاصراً للحقبة الأيوبية ، وأنّ أخباره عنهم كانت في بعض الأحيان موجزة وقصيرة ، ولكن على الرغم من ذلك فاق ما كتبه عن عصر الدولة الأيوبية في سفره التاريخي «**السلوك لمعرفة دول الملوك**» معظم المؤرّخين من معاصري الأسرة الأيوبية ، ولعلّ مردّ ذلك أنه أفاد من جميع مصنّفات المؤرّخين واللاحقين ، وزاد عليهم — أحياناً — من مصادر أخرى مفقودة حفظها لنا

١) د. زكار : الموسوعة الشامية — ج٢٥ — ص ٣.

كتابــه «السلوك» الذي دوّنــه على طريقة الحوليات[1].

وقد أفدتُ منــه في الفصل الأول ، حيث أمدّنا بأخبار التوسّع الصليــبي علــى ساحل بلاد الشام. وفي الفصل الثانــي كانت أخبار الصراعات على الــسلطة في مــصر ، والتنافس بــين نور الدين وعموري الأول – ملك بــيت المقدس – من أجل السيطرة على مصر ومقدّراتــها ، ونجاح نور الدين في الفوز بــها ، وتوحيدها مع بلاد الشام ، وتصدّي نائبــه صلاح الدين للحملة الصليــبــية – البــيزنطية ، وإخفاقها ورحيلــها ، وإعــلان الخطبة للعباسيين في القاهرة ، ونــهاية الدولة الفاطمية. أما في الفصل الثالــث ، فرصــدنا أخبار الأسطول المصري الذي جاهد بشدّة لتصل المؤن والذخائر إلى أهل عكّا وحاميتــها الواقعين تحت الحصار الصليــبــي ، وما تلاه من سقوط عكّا ، وموقعة أرسوف ، ثمّ صلح يافا ، ورحيل رتشارد قلب الأسد. وفي الفصل الرابع أفدتُ منــه كثيراً في أخبــار قــدوم الحملة الصليــبــية الخامسة ، وضربــها الحصار على دمياط ، وحــدوث مــؤامرة ابــن مشطوب ، ثمّ سقوط دمياط ، وزحف الصليــبــيين صوب القاهرة ، والتعــاون بــين المعظم عيسى والكامل محمد ، وما نتج عنــه من إخفاق الحملة ، وجلاء الصليــبــيين عن دمياط ومصر ، ثمّ مجيء الحملة الصليــبــية السادسة وفردريك الثانــي ، وعلاقتــه الطيبة مع الكامل محمد ، وتأثير فخر الدين ، ابن شيخ الشيوخ ، على الاثنــين ، ممّــا أدّى إلى توقيع اتفاقية يافا ، حيث تنازل الكامل محمد عن القدس لصالح الصليــبــيين. وفي الفصل الخامس أفدتُ منــه في تتبّع أخبار الخوارزمية وانسياحهم في بلاد الشام ، ودعوة الــصالح أيوب لهم ، ودخولهم القدس ، وقيام الحملة الصليــبــية السابعة ، وتمكّن لويس التاسع – ملك فرنسا – من الاستيلاء على دمياط ، ووقوعه في مأزق المنصورة ، وهزيمتــه وجنده ، ووقوعه في الأسر ، ومقتل توران شاه ، ونــهاية الأيوبــيين في مصر.

كما أفدتُ منــه في الفصل السادس حول قدوم حملة بطرس الأول دي لوزغنان إلى الإسكندرية وما فعلتــه من دمار ونــهب ، ثمّ عودتــها إلى قبرص.

---

١) د. غوانمة : المرجع المتقدّم – ص ٣١.

أمّا كتاب المقريزي الآخر «**اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**» فكانت الإفادة منه ، كما هو واضح من العنوان ، كبيرة جداً بالنسبة للفصلين الأول والثاني ، إذ أمدّنا بأخبار الحملة الصليبية الأولى واستيلائها على القدس ، وارتكابها مجزرة مروّعة في داخلها ، كما تتبّعنا التوسّع الصليبي في سواحل بلاد الشام الفاطمية ، وسقوط عكّا ، وطرابلس وبيروت ، وصيدا وصور ، وعسقلان ، والتعاون بين القاهرة ودمشق ، وتحرّكات الأسطول المصري. أما في الفصل الثاني فرصدنا التنافس بين نور الدين وعموري الأول من أجل السيطرة على مصر ، وإخفاق عموري فيما نجح نور الدين في توحيد مصر وبلاد الشام ونهاية الخلافة الفاطمية في مصر.

كما كانت إفادتي يسيرة من كتاب المقريزي الثالث «**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**» والمعروف بالخطط المقريزية ، بسبب تركّز مادّته على ذكر خطط القاهرة ، وحاراتها ، ومعالمها العمرانية والدينية ، ورصد تاريخها ، وتطوّر أحوالها في مختلف العصور ، خاصةً منذ بداية الفتح الإسلامي لمصر ، حتّى الأيام الأخيرة من حياة المقريزي ، سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩م.

وقد بَزَّ المقريزي بخططه جميع مَنْ تقدّمه من كتّاب هذا النهج ، ومَنْ عاصره منهم ، وتميّز عنهم بالمسح الشامل والدقيق والمفصّل ، فقد ضمّ كتابه موضوعات جغرافية متنوّعة ، وأخباراً للنشاط البشري في مصر ، سواء أكان زراعياً أم تجارياً أم صناعياً ، هذا إلى جانب استطرادات تاريخية ، وتراجم شخصية. وقد أفدتُ من هذه الخطط المقريزية في أخبار الحملتين الصليبيتين الخامسة والسابعة ، وفي توضيح أهمية موقع دمياط ، وما طرأ عليها من تطوّرات.

- **البدر العيني**

«محمود بن أحمد بن موسى» ، ولد سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦١م ، ونشأ في عينتاب ، وكان أبوه قاضيها ، ورحل البدر إلى حلب ، وتفقّه فيها ، وزار القدس ، وتحوّل إلى القاهرة سنة ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦م ، ونزل في المدرسة الظاهرية ، وعمل خادماً فيها ،

وولي حسبة القاهرة سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩م ، ثمّ تولّى عدّة وظائف تعليمية ودينية ، وكانت وفاته سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١م[1]. وكتابه الضخم «**عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**» أفدتُ منه بشكل كبير في الفصل الأول حول قدوم الحملة الصليبية الأولى وسقوط القدس ، ووقوع المذبحة بداخلها ، وتقاعس الفاطميين عن نجدتها. أمّا في الفصل الثاني فكانت أخباره غزيرة عن حملات نور الدين على مصر ، ونجاحه في توحيدها مع بلاد الشام ونهاية الدولة الفاطمية. وفي الفصل الثالث أفدتُ منه في أخبار الحملة الصليبية الثالثة ، وحصار عكّا ، وسقوطها بيد رتشارد قلب الأسد ، والمجزرة عند أسوارها ، وأفدتُ منه – أيضاً – في إبراز دور الأسطول المصري ، وعسر المفاوضات بين الطرفين المسلم والصليبي بسبب أهمية موقع عسقلان ، وأظهرنا تأثير وقوع القافلة التجارية المصرية بيد الصليبيين ، وتوقيع صلح الرملة ، ووفاة صلاح الدين.

هذا واعتمد البدر العيني على مؤرّخين كُثُر ، نذكر منهم : العظيمي ، ابن الجوزي ، العماد الأصفهاني ، ابن الأثير ، ابن أبي طي ، ابن شدّاد ، سبط ابن الجوزي ، أبو شامة ، النويري ، أبو الفداء ، ابن كثير. وبذا يمكن لنا أن نتبين مدى أهمية مصدره وشموليته ، وتعدّد رواياته ، وقد اتّبع طريقة الحوليات في تدوينه.

- **النويري الإسكندراني**

«محمد بن قاسم بن محمد النويري الإسكندراني» ، ومعلوماتنا عنه مستمدّة ممّا دوّنه عن نفسه في مواضع متفرّقة من كتابه المهمّ «**الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية**». فمسقط رأسه هو قرية «النويرة» بصعيد مصر ، وانتقل إلى الإسكندرية ، في شهر ذي الحجة سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م ، وتزوّج بها ، وخرج منها هارباً بنفسه وعياله إبّان غارة القبارصة عليها ، ثمّ رجع إليها ، وعكف على تأليف هذا الكتاب لطول إقامته في الإسكندرية ومحبّته لها ولأهلها ، فضلاً

---

١) د. زكّار : الموسوعة الشامية – ج٢٤ – ص ٤-٥.

عمّا نــزل بالمدينة من خراب ودمار خلال حملة بطرس الأول دي لوزغنـــان[1] ، فـــألّف كتابـــه «ليقف عليـــه من يأتي من المسلمين بعد عصرنا هذا ليعملوا بـــه ما اتّفق بـــــها فيما مضى من الزمان ، ولتجتـــهد ملوك مصر الآتية بعد ملوك عصرنا في حفظهـــا مـــن الفرنج بتكثير القياد بـــها ، والتركيز فيـــها لحراستـــها»[2].

أمّا تاريخ وفاة النويري الإسكندرانـــي ، فهو مجهول مثل تاريخ مولده الذي لم يذكره في ترجمتـــه لنفسه ، والمرجّح أنّ وفاتـــه كانت ســـنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨م ، فقـــد بـــدأ بتصنـــيف كتابـــه في شهر جمادى الآخرة سنة ٧٦٧ هـ / شباط ١٣٦٦م ، أي بعد الحملة بنحو خمسة أشهر ، ثمّ ذكر أنـــه انتـــهى من عمله في شهر ذي الحجّة من سنة ٧٧٥ هـ / أيار ١٣٧٤م ، ولكنـــه يورد مجموعة من الأخبار تتجاوز ذلك التاريخ حتّى شهر رجـــب سنة ٧٧٩ م[3].

ويدور الموضوع الرئيسي لكتاب «الإلمام» حول حملة ملك قبرص بطـــرس الأول دي لوزغنان على الإسكندرية في شهر محرم من سنة ٧٦٧ هـ / تشرين الأول ١٣٦٥م ، وقـــد أورد النويري الإسكندرانـــي تفاصيل مسهبة لا نجدها في المصادر العربـــــية المعاصـــرة أو المتأخرة ، غير أنـــه — وبتأثير من مهنتـــه كناسخ للكتب — اســـتطرد كـــثيراً في ذكـــر معلومات شتّى ، فبدت أخبار الحملة كجزر صغيرة متناثرة وسط المحيط ، فضلاً عن أنـــه لا يتقيّد بالتتابع المنطقي للأحداث ، فيورد أحداثاً وقعت بعد الحملة ، ثمّ يعود للحملة ذاتـــها أثناء وجودها في الإسكندرية ، ومع ذلك فإن كتاب النويري الإسكندرانـــي يبقى المصدر الأهم ، كونـــه شاهد عيان على قدوم الحملة ورحيلها ، وعلـــى النتـــائج والآثـــار الـــتي خلّفتـــها على الإسكندرية.

---

١) النويري الإسكندرانـــي : الإلمام بالإعـــلام فيما جرت بـــه الأحكام والأمور المقضية في وقعـــة الإســـكندرية — تحقيـــق : د. عزيـــز سوريـــال عطيـــــة — (٧) أجـــزاء — حيدر آباد — الهنـــد — ١٩٦٨/١٩٧٦م — ج٢ — ص ٢١٩-٢٢٠.

٢) النويري الإسكندرانـــي : المصدر نفسه — ج٢ — ص ٢٢٢.

٣) من ذلك مثلاً خبر الموت الأسود. النويري الإسكندرانـــي : المصدر نفسه — ج٦ — ص ٤٢٣.

هذا وقد عُدتُ إلى عدد كبـــير من المصادر التاريخية ، التي لا تقلّ أهمية عن المـــصادر المتقدّم ذكرها ، وتفاوتت إفادتي منــها بحسب فصول الرسالة ، وسنذكر بعــضاً منـــها كالآتي :

- «**تاريخ مدينة دمشق**» لابن عساكر (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٦م).
- «**الفتح القسي في الفتح القدسي**» للعمـــاد الأصفهانـــــي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م) وأفدتُ منـــه بشكل كبـــير في أخباره التفـــصيلية عـــن الحملـــة الصليـــبـــية الثالثة ، ومواجهات صلاح الدين مع رتـــشارد قلـــب الأســـد وجيشه ، ويلاحظ التركيز الشديد للعماد الأصفهانــــي على مسألة الـــصياغة اللفظية.
- «**التاريخ المظفري**» لابن أبــــي الدم الحموي (ت ٦٤٢ / ١٢٤٤م).
- «**التاريخ المنصوري** » لابن نظيف الحموي (ت ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦م).
- «**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**» لابن خلّكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م).
- «**العبر في خبر من غبر**» للذهبـــي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م).
- «**تاريخ ابن الوردي**» لابن الوردي (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م) ، ويُعرَف بتتمة المختصر ، واتّبـــع فيـــه طريقة الحوليات ، وكانـــت معلوماتـــه مـــوجزة ومكثّفة ، وأفدتُ منـــه إلى حدّ ما طيلة مراحل البحث.
- «**البداية والنـــهاية**» لابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣م) ، وســـار على طريقة الحوليات لتدوين كتابـــه ، غير أنـــه أوجز في ذكر الأخبـــار ، وأكثر من تراجم الوفيات في نـــهاية كل حولية ، وأفدتُ منـــه بشكل يسير طيلة مراحل البحث ، وفي الفصل السادس غدا المؤلّف معاصراً لحملة ملـــك قبرص على الإسكندرية ، فكان خبره ذا أهمية خاصة.
- «**تاريخ ابن الفرات**» لابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبـــد الـــرحيم (ت

٨٠٧هـ / ١٤٠٤م).

- «**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**» لابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م) ، وأفدتُ منــه بشكل مقبول في كل فصول البحث ، وقد خــطّ كتابــه على طريقة الحوليات ، ولكنــه كان يتمّ رواية الحدث في سنة وقوعه حتّى نــهايتــه ، ممّا قد يسبّب تداخلاً في الأزمنة والأخبار.
- «**شفاء القلوب في مناقب بنــي أيوب**» لأحمد بن إبــراهيم الحنبلــي (ت ٨٧٦ هـ / ١٤٧١م) ، وسار في تصنــيفه على طريقة التراجم ، وأفدتُ منــه بشكل كبــير فيما يخصّ أفراد الأسرة الأيوبــية.
- «**تاريخ الملك الأشرف قايتباي**» لمؤرّخ مجهول معاصر لقايتبــاي ، وأفــدتُ منــه حول خبر حملة بطرس الأول دي لوزغنان على الإسكندرية.
- «**تاريخ ابن سباط**» لابن سباط (ت ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠م).

كما عدتُ إلى عددٍ من كتب الرحلات والجغرافيا ، فالرحّالة وإن انتموا من حيــث المبدأ إلى الجغرافيين ، هم في الواقع ينتمون بــصورة أكثــر التــصاقاً إلى التــاريخ ، لأنّ مدوّناتــهم وثائقية لها قيمة سياسية واجتماعية واقتصادية كبــيرة. ونذكر بعضاً من هؤلاء الرحّالة :

- محمد بن أحمد بن جبــير الكنانــي الأندلسي ، البلنسي الأصــل ، الغرنــاطي الموطن ، ولد سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥م ، وتوفّي بالإســكندرية ســنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧م ، وقام بثلاث رحلات إلى المشرق ، كانــت أولاهــا ســنة ٥٧٧ هـ / ١١٨٢م ، وهي التي أودع مشاهداتــه خلالها في كتاب رحلتــه المتداول[١].
- موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي ، موصلي الأصل ، بغدادي المولد ، ولد سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢م ، وتوفّي في بغداد سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣٢م ،

---

١) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج١٤ – ص ٤.

ويكتسي تاريخه أهمية خاصة لأنــه كان شاهد عيان على أوضاع مصر الاقتصادية عندما تسلّم حكمها العادل[1].

المصادر غير العربــية :

بما أنّنا بدأنا بالحديث عن المصادر العربــية كجزء من المصادر الشرقية ، فــسنكمل التعريف بالمصادر السريانــية والأرمنــية ، التي تعاملنا معها من خلال البحث ، ثمّ ننتقــل إلى المصادر الأوروبــية بفرعيــها الإغريقية واللاتينــية.

يعدّ الأدب السريانــي من بــين أغنى الآداب العالمية ، وتتمتّع الكتابات التاريخية في هذا الأدب بمكانة علية خاصة ، لأنــها كُتِبت من قبل رجال كانوا ذوي إحساس رفيــع وأمانة وإخلاص. وكتب التاريخ السريانــية مسيحية في المحتوى والتعبــير ، تلوّنت بعمــق بالكتاب المقدّس وبسلوك وسير آباء الكنــيسة ، وقد تمّ تصنــيف أغلبــها في الجزيــرة ، والكثير منــها في مدينة الرها ، ذات القدسية الكنسية الخاصة ، على أســاس أنــــها أوّل مدينة في العالَم تبنّت المسيحية ديناً رسمياً[2].

والكتب السريانــية التي أرّخت للحروب الصليــبــية هي عبارة عن ثلاثة نصوص دوّنــها ثلاثة مؤرّخين ، النص الأول هو «**حولية لمؤرّخ رهاوي مجهول**» ، لعلّــه باســيل مطران الرها (السوري الأصل) ، الذي أمدّنا بأخبار مدينتــه ، وما كان يحيط بــها خلال النصف الأول من القرن ٦ هـ / ١٢م ، وهي رواية دقيقة ، عاصر فيــها المؤرّخ الأحداث ، وربّما كان شاهد عيان لبعضها ، وقد تحدّث عن مدينة الرها حتّى استرداد زنكي لها عــام ٥٣٩ هـ / ١١٤٤م[3]. وقد أفدتُ منــه في الفصل الأول حيث أخبار الحملة الصليــبــية

---

٢) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج١٤ – ص ٤-٦.

٣) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٥ – ص ٣. د. سهيل زكار ، د. وفاء جونــي ، د. اكتمال إسماعيل : حروب الفرنجة (الصليــبــية) – منشورات جامعة دمشق – ٢٠٠٤/٢٠٠٥م – ص ٢٢.

١) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٥ – ص ١٣.

الأولى ، وسقوط القدس ، والتوسّع الصليبي في ساحل بلاد الشام.

أمّا النص السرياني الثاني ، فهو عمل تاريخي للبطريك ميخائيل ، الذي يسمّى عادة ميخائيل السوري ، المتوفّى سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩م ، وأصبح رئيساً لكنيسة اليعاقبة عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٦م ، واحتفظ بهذا المنصب ثلاثين عاماً ، وكان «**تاريخ ميخائيل الكبير**» مثيراً للجدل المذهبي ، لذا فهو لا يُقدَّر بثمن[١]. وأفدتُ من أخباره في الفصل الأول حيث قدوم الحملة الصليبية الأولى وتأسيس إمارة أنطاكية وسقوط القدس ، ومحاولات الصليبيين الاستيلاء على طرابلس ، وأسر بلك لملك بيت المقدس بلدوين الثاني ، ثمّ سقوط عسقلان بيد الصليبيين.

والنص السرياني الثالث هو «**روايات ابن العبري بالسريانية**» ، الذي أكمل تاريخ المنطقة منذ وفاة ميخائيل السوري حتّى وفاته سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م ، وجاء تاريخه بالسريانية في جزأين تعامل الأول مع الأحداث العلمانية ، وتعامل الآخر (في قسمين) مع الأحداث اللاهوتية[٢]. وأفدتُ منه في الفصل الأول حيث أخبار الحملة الصليبية الأولى واستيلائها على القدس ، والتوسّع الصليبي في سواحل بلاد الشام الفاطمية وسقوط طرابلس ، ثمّ أسر ملك بيت المقدس بلدوين الثاني ، وسقوط عسقلان بيد الصليبيين ، كما أفدتُ منه في الفصل الثاني بخصوص سيطرة صلاح الدين على السلطة في مصر. أمّا في الفصل الثالث فكانت الإفادة حول خبر تجمّع الصليبيين في صور بعد خروجهم من القدس ، وخبر الحملة الصليبية الرابعة والاستيلاء على القسطنطينية.

وإذا انتقلنا إلى المصادر الأرمنية نجد التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني ، ويرجّح أنه كان أخاً للملك هيتوم الأول ، وقائداً من قادة جيوشه ، وقد خدم تحت لواء الملك ليون الثالث (١٢٧٠-١٢٨٩م) ، بعد وفاة هيتوم الأول ، ومن المعتقد أنه اعتمد في

---

٢) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٥ – ص ١٤.

٣) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٥ – ص ١٧.

تأريخه على متّى الرهاوي ، وعلى غريغوري الراهب ، وعلى وثائق أنطاكية وسجلاّتها ، بالإضافة إلى مذكّراته الشخصية. والمرجّح أنّ موت سمباط كان سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦م[١] ، وأفدتُ من تاريخه حول خبر قدوم فردريك بربروسا كمقدّمة للحملة الصليبية الثالثة ، ثمّ غرقه وتشتّت جيشه ، وحصار عكّا من قبل ملك فرنسا فيليب الثاني أغسطس ورتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا ؛ كما أفدتُ منه في أخبار الحملة الصليبية الخامسة وعودة جون دي برين صوب القدس بعدما علم بمشاكل أرمينيا.

وبالانتقال إلى المصادر الأوروبية نبدأ بالإغريقية منها ، حيث نجد كتاب «**الألكسياد**» للأميرة آنّا كومينا ، ابنة الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومينين (١٠٨١-١١١٨م) ، وكان على عرش القسطنطينية أثناء الحملة الصليبية الأولى ، وشغل في أحداثها دوراً كبيراً ، ويعدّ كتاب الألكسياد مصدراً متفرّداً بالنسبة للتاريخ البيزنطي ، كما أنه مصدر أساسي لتاريخ الحروب الصليبية يرقى إلى درجة الوثائقية ، فمنه نستقي معلومات عن محاولة بيزنطة إعادة أمجادها ، ووحدة الهدف بين المسيحية الشرقية والغربية. والملاحظ أنّ الأميرة آنّا استولت عليها عواطفها وميولها ، ولهذا بالغت في وصف بعض الأحداث ، وتعمّدت طمس بعض الأخطاء ، ومع هذا يبقى عملها نموذجاً رفيعاً للكتابات التاريخية البيزنطية[٢]. وأفدتُ من الألكسياد بشكل رئيس فيما يتعلّق بانطلاق الحملة الصليبية الأولى وعبورها منطقة آسيا الصغرى ، ووصولها إلى بلاد الشام واستيلائها على القدس.

ويكمل مواد كتاب الألكسياد لآنّا كومينا ، كتاب إغريقي آخر هو «**أعمال يوحنا ومانويل كيناموس**» ، الذي ألّفه يوحنّا كيناموس ، المرجّح وفاته سنة ١١٨٦م ، أو ما بعدها. وكان كيناموس متعلّماً بيزنطياً عادياً ، فهو قد قرأ بشكل مفيد الكلاسيكيات ، وكان متقبلاً – بلا جدال – للأشكال العامة للعقائد المسيحية ، وكانت عقيدته وديانته هي ديانة الإمبراطورية كمركبة لتوحيد البشر ، والإمبراطور كقائد مختار لأجل

---

١) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج ٣٦ – ص ٨.

٢) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٦ – ص ٣-٤.

شعبـــه. وجعلت هذه المفاهيم ، التي شاركه فيـــها غالبـــية الناس ، من عمله عرضاً رئيساً للبساطة والفهم المباشر لطبـــيعة التاريخ وأهدافه ، حسبما رعاهـــا وتـــصوّرها الكتّـــاب البـــيزنطينـــيون[1]. وأفدتُ منـــه بخصوص العلاقات المتوتّرة بـــين أبـــاطرة بـــيزنطة والنورمانديين ، وأخبار الحملة البـــيزنطية الصليـــبـــية المشتركة على دمياط.

وفي الحديث عن المصادر اللاتينـــية ، ننتقل إلى ثلاثة أفراد شاركوا بالحملـــة الأولى ، وكانوا ضمن العاملين فيـــها ، لكن كل واحد منـــهم ارتبط بأحد قادة الحملة ، فعبّر عن موقفه ، فضلاً عن أنّ كتابات كل فرد منـــهم تأثّرت بثقافتـــه واختصاصه وخلفياتـــه ، ومع ذلك تحظى هذه النصوص بأهمية خاصة ، لأنّ أصحابـــها كانوا شـــاهدي عيـــان ، وبالتالي تعدّ كتاباتـــهم وثائقية من الدرجة الأولى[2].

وأوّل تلك المصادر وأهمها كان لمؤرّخ مجهول كتب «**يوميات أعمال الفرنجة وحجّاج بـــيت المقدس**» خلال ســـنوات (٤٨٩-٤٩٣هـ / ١٠٩٥-١٠٩٩م) ، وقـــد اختلـــف المؤرخون حول شخصيتـــه ، كما اختلفوا حول مهنتـــه ومكانتـــه الاجتماعية ، والمرجّح أنـــه كان إنساناً عادياً من رجال الدين ، مشى في ركاب بوهيموند النورماندي ، وأُعْجِب بـــه ، ولمّا زحفت الحملة إلى القدس ، ذهب صاحب يوميات أعمال الفرنجة مـــع الأمـــير تانكرد ابن أخت بوهيموند إلى القدس ودوّن أخباره حتّى ســـنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩م ، ولا نعرف سبب توقفه عند هذا التاريخ ولا مصيره الشخصي[3].

وتـــهيّأ لريموند الصنجيلي مَنْ كَتَب أخباره ، وهو الكاهن الخاص بـــه ، واسمه ريمون دي جيل ، وعنوان كتابـــه هو «**تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بـــيت المقـــدس**». وكان ريموند رجل دين متعصب جداً ، ومتشرّب بعقيدة النصر النـــهائي للنصرانـــية ، ولا يعرف التسامح ، ولهذا سوّغ أبشع الأعمال التي اقترفها الـــصليـــبـــيون ، مثـــل الإبـــادة

---

١) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٢٩ – ص ١٠.

٢) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٦ – ص ٣.

٣) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٦ – ص ٥.

الجماعية للمسلمين ، وأكل لحوم الموتى منـــهم[1].

أمّا ثالث النصوص اللاتينيــة ، فهو كتاب «**تاريخ الحملة إلى القـــدس**» للمــؤرخ الفرنسي فولتشر أوف تشارترز ، الذي تمكّن من خلال ملازمة بلدوين الأول ، من الاطلاع عن كثب على دقائق الأمور وتفاصيلها ، فضلاً عن أنـــه غطى أخبـــار حكـــم بلـــدوين الثانـــي حتّى عام ٥٢٢ هـ / ١١٢٧م ، حيث من المرجّح وفاة تشارترز في هذا العـــام ، أو عجزه عن الكتابة[2].

وننتقل الآن إلى نوع آخر من المؤرخين اللاتين ، وأعنـــي بـــه أولئك الذين نـــشأوا في الشرق وبـــه كتبوا أعمالهم ، ويأتي في المقدّمة وولتر المستشار ، الذي وضـــع كتابـــه «**الحرب الأنطاكية**» بناءً على رغبة سيده أمير أنطاكية روجر ، وتعدّ مواد وولتـــر عاليـــة الأهمية تفوق ما ورد لدى وليم الصوري وتشارترز وفي المـــصادر اللاتينـــــية الأخـــرى ، فالتفاصيل التي قدّمها وولتر أوفى مما وصلنا في المصادر الاسلامية ، مثـــل العظيمـــي وابـــن العديم[3]. ولكن الكتابة التاريخية اللاتينـــية الشاملة كانت حكراً على وليم الصوري ، الذي ولد سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠م في القدس ، وتوفي فيـــها سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٥م ، إذ يعـــدّ كتابـــه «**تاريخ أعمال أنجزت فيما وراء البحار**» أفضل وأكمل مـــصدر لاتينـــــي أرّخ للحروب الصليـــبـــية ، حيث بدأ بذكر أوضاع القدس في العصر الراشـــدي ، وأحـــوال المسلمين فيـــها ، ثمّ انطلق إلى مجمع كليرمونت وخطاب البابا أوربان الثانـــي ، وصولاً إلى قيام الحملة الصليـــبـــية الأولى وتوجّهها إلى بلاد الشام ، وبذا تُقسَم مـــواد ولـــيم إلى قسمين ، الأول استقى فيـــه معلوماتـــه من مصادر مختلفة ، بعضها عربـــي ، وجُلّها لاتينـــي ، مثل المؤرخ المجهول، وريمون دي جيل ، وفولتـــشر أوف تـــشارترز ، وولتـــر المستشار ؛ وأما الثانـــي فقد عاصر وليم الأحداث ، وقام برواية أخبارها عن شهود عيـــان إن لم يكن هو قدشارك فيـــها ، وبذلك يرقى وليم بـــهذا القسم إلى درجة الوثائقية ، إنما

---

١) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٦ – ص ٦.

٢) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٦ – ص ٧–٨.

٣) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٥١ – ص

من وجهة نظر خاصة[1]. وكانت أخباره عن مصر غايةً في الأهمية ، لأنــه كان شاهد عيان عليـــها ، ومرافقاً لعموري الأول في حملاتـــه صوبـــها ، لذا قدّم لنا وليم وصـــفاً دقيقـــاً للصدامات بـــين عموري الأول ونور الدين ، وتنافسهما بشأن الاستيلاء على مصر ، كما بـــين لنا خيبة عموري الأول عندما أخفق في تملّك مصر ، فيما نجح نور الدين ووحّدها مع بلاد الشام.

ولّما كان وليم الصوري قد توفّي أيام مقدمة معركة حطين ، أي في وقت عصيب جداً بالنسبة لمستقبل المملكة اللاتينـــية في القدس ، فقد وُجِد مؤرّخ لاتينـــي ، ممّن نـــشأوا في الشرق ، قام بالتذييل على تاريخ وليم الصوري ، وغطّى أخبار معركة حطّـــين ، وتحريـــر القدس ، ثمّ حوادث ملحمـــة عكّا ، وما عُرِف باسم الحملة الصليـــبـــية الثالثة ، وهـــذا الذيل ، وإن اختلف حول تحديد هوية مصنفه ، على درجة عالية من الأهمية ، حيث تكتمل صورة الأحداث ، وتتّضح حقبة الحملة الصليـــبـــية الثالثة وما قبلها[2].

وممّن كتبوا عن أحداث الحملة الصليـــبـــية الأولى ، دون أن يشاركوا فيـــها أو يأتوا إلى الشرق ، المؤرّخ النورماندي «**أورديريك فيتاليس**» ، الذي وردت معلوماتـــــه عـــن حقبة الحملة الأولى ضمن محاولتـــه التأريخ للكنـــيسة المسيحية عامةً ، والغربـــية خاصةً ، واعتمد لأجل هذا الغرض على أكثر من خمسين مصدراً تاريخياً ، إلى جانب ما استقاه مـــن الوثائق والروايات الشفهية. وقد ولد فيتالس في إنكلترا سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥م ، مـــن أب نورماندي وأمّ إنكليزية ، وفي سنّ العاشرة أرسله أبوه إلى نورمانديا ليكون راهبـــاً في ديـــر القديس إفرول Saint-Évroul ، وقد ظهر واضحاً في كتاباتـــه تأثره بإنكلترا وعلاقاتـــها بنورماندي ، فضلاً عن تأثره بنشأتـــه الدينـــية ، وحاول في عمله تدوين الحقبة منذ ظهور المسيح حتّى سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١م[3] ، أي قبل موتـــه بعامين ، وعلى الرغم من عـــدم

١) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٧ – ص ٣-٥.

٢) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٨ – ص ٣.

3) Orderic Vitalis: Historia accclesiastica, ed. and trans. by: M.Chibnall, 6 vols, Oxford, 1972, volume.1 , pp.2-45.
Antonia Gransden: Historial Writing in England, 2 vols, London , 1974, vol.1, pp. 151-165.

التزام فيتاليس بالترتيب الزمني للأحداث ، واستطراده بالغيبيات والتفسير الديني لبعض الروايات ، فإن مصدره يعدّ ذا أهمية فائقة بالنسبة لتاريخ الحملة الصليبية الأولى ، وعلاقة بيزنطة بالصليبيين ، فضلاً عن أنه يصوّر أوضاع أوروبا الغربية خلال تلك الحقبة ، ومدى تفاعلها مع نجاحات الحملة الأولى والتوسّع الصليبي في بلاد الشام والاستيلاء على القدس. وأعتقد أنه من المفيد مقارنة مواده مع ما ورد لدى صاحب يوميات أعمال الفرنجة ، وريمون دي جيل ، وتشارترز ، ووليم الصوري.

وأفدتُ كثيراً من كتاب «**صليبية رتشارد قلب الأسد**» وهو عبارة عن مجموعة أشعار نظمها بالفرنسية أمبرويز[1] ، الشاعر النورماندي الجوّال ، الذي رافق الملك رتشارد قلب الأسد وذهب معه إلى الحملة الثالثة ، وعُرِف العمل الأصلي باسم **Carmen Ambroisii** ، والترجمة الشعرية باسم «**رحلة حج وأعمال الملك رتشارد**»[2] ، وقد أفدتُ من هذه الأشعار إلى حدّ كبير في أخبار الحملة الصليبية الثالثة بكلّ تفاصيلها الدقيقة.

كما أفدتُ – أيضاً – من كتاب «**صورة التاريخ**» لمؤلفه رالف أوف ديسيتو ، وهو كاهن وموثّق ، وفيما بعد عميد كاتدرائية القدّيس بولص في لندن ، وقد ظلّ يكتب حتّى سنة ١٢٠١م ، وهي – كما نظن – سنة وفاته[3]. وأفدتُ من أخباره عن الحملة الصليبية الثالثة بدءاً من إقلاعها من أوروبا ، والتقاء رتشارد قلب الأسد مع فيليب الثاني – ملك فرنسا – في صقلية ، حتّى وصولها إلى عكّا ، وسقوط المدينة ، ورواية شاهد عيان عن موقعة أرسوف وصلح الرملة ، واضطرار رتشارد إلى العودة بسبب ظروف إنكلترا الداخلية ووقوعه في أسر دوق النمسا.

كما عُدْتُ إلى كتاب «**تاريخ القدس**» تصنيف جاك دي فيتري[4] ، وأفدتُ منه

---

٢) الموسوعة الشامية – ج٣٢.

٣) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج ٣١ – ص ١٥.

٤) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٣٠ – ص ١٢.

١) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٣٤.

في تبيان أسباب عودة رتشارد قلب الأسد بسرعة إلى بلاده ، وفي ذكر بنود صلح الرملة مع صلاح الدين.

وتعاملتُ مع كتاب المؤرّخ رتشارد دي تمبلو ، توفي سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠م[١]. ، وكتابه «**حملة الملك رتشارد إلى أراضي القدس المقدّسة**» الذي يُعدّ مُهمّاً في تخصّصه بأخبار وأحداث الحملة ، وتحديداً حينما سوّغ عدم زحف رتشارد وجيشه إلى القدس ، بعدما استولى على عكّا ، وكانت رواياته دقيقة جداً عن القافلة الإسلامية المصرية التي استولى عليها رتشارد ، وذكر بنود صلح الرملة.

وعندما تطرّقنا في البحث إلى أخبار الحملة الصليبية الرابعة ، عُدنا إلى كتاب «**الاستيلاء على القسطنطينية**» لجودفري دي فيلهاردين ، وكتاب «**سقوط القسطنطينية للصليبيين**» لروبرت دي كلاري[٢]. وترجع أهمية هذين الكتابين إلى أنّ المؤرّخين كانا شاهدي عيان لأحداث الحملة ، وإن كانت رواية فيلهاردين أدقّ لقربه من قادة الحملة ، ومشاركته في اتّخاذ القرارات التي أثّرت في مصيرها ، وقد أفدتُ من كلا الكتابين في تبيان الهدف الأصلي للحملة ، وهو مصر ، والأسباب والعوامل المؤثرة التي حوّلت الحملة إلى القسطنطينية.

ويعدّ كتاب «**الاستيلاء على دمياط**» مهماً جداً لما يخص حقبة الحملة الصليبية الخامسة ، لأنّ مؤلّفه – أولفر أوف بادربورن – كان شاهد عيان منذ اللحظة الأولى لإعداد الحملة ، إذ حضر مجمع اللاتيران ، سنة ١٢١٥م ، بمثابة ممثل لأسقفية كولون الألمانية ، ودوّن الجزء الأكبر من كتابه أثناء الحملة ، وبعدها مباشرة. ومعلوماتنا عن ميلاد أولفر وطفولته وتعليمه المبكر ضئيلة جداً ، ولكن نشأته كانت لاهوتية ألمانية ، ثمّ انتقل إلى باريس ليدرس في جامعتها ، وعاد إلى ألمانيا ليقوم بعمله كداعية ومبشّر ، وعُيّن أسقفاً لبادربورن ، ومات سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٧م ، ودُفِن في إيطاليا[٣] ، وتميّز أولفر في كتابه

---

٢) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٣١ – ص ١٦.

٣) الموسوعة الشامية – ج١٠.

١) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٣٤ – ص ١٤-١٦.

بأنـه ابتعد عن توجيـه النقد إلى الكاردينال بـيلاغيوس ، ولم يحمّله مـسؤولية إخفـاق الحملة ، كما لم يحصر انتقاداتـه بالأفراد ، بل بـدت الآثـام المؤسـفة الـتي اقترفهـا الصليـبـيون – برأي أولفر – السبب في الخسائر المتنوعة للجيش ، ولم يكن مردُّ ذلـك تفوق المسلمين أو براعتـهم ، مع أنـه اعترف أكثر من مرّة بأنّ المسلمين كانوا مقـاتلين بارعين وأصحاب خبرة في الحرب[1].

وبدهي أنّ إفادتي من هذا الكتاب قد اقتصرت على ما يتعلّق بحقبة الحملة الخامـسة ، حيث قدّم أولفر معلومات ممتازة عن أوضاع المعسكر الصليـبـي عند حصار دميـاط ، وعن الخلاف بـين القادة العسكريين وبـيلاغيوس النائب البابوي ، وأفدتُ منـه في خبر المساعدات المزدوجة من قبل البندقية لكلا الطرفين ، المسلمين والصليـبـيين ، وذكر أولفر شروط الصلح كاملةً ووَصَفَ الصفقة مع المسلمين بأنـها رائعة[2].

ومن المؤرّخين اللاتين الذين كتبوا حول حقبة الحملة الصليـبـية الخامسة ، روجـر أوف ويندوفر ، توفي في إنكلترا سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧م[3] ، وكتابـه «**ورود التـاريخ**» بالغ الأهمية ، فيـه مادّة وفيرة جداً ، استقاها مصنّفه من مؤرّخين أوروبـيين غربـيين ، وشرقيين بـيزنطيين ، وأفدتُ منـه في الباب الأول حول أخبار الحملة الصليـبـية الأولى واستيلائها على أنطاكية والقدس ، والمواجهة مع الجيش الفاطمي عند عـسقلان. أمّـا في الباب الثانـي فقد أفدتُ كثيراً من معلوماتـه عن نظام تعبئة الجيش الـصليـبـي عنـد حصار عكّا ، وعن مضمون القافلة الإسلامية التجارية التي استولى عليـها رتشارد قلـب الأسد ، أمّا أخباره عن حقبة الحملة الصليـبـية الخامسة فتكتسب أهمية خاصة لكونـه غدا معاصراً لأحداثها وأحداث الحملة التي تليـها ، فقد زوّدنا بأخبار زحف حشود الحملة الخامسة من عكّا صوب دمياط ، ووصول النائب البابوي بـيلاغيوس للمشاركة في حصار دمياط ، وذكر أوضاع الصليـبـيين أثناء الحصار ، وهجمـات المـسلمين ، واسـتيلاء

---

٢) المصدر نفسه – الموسوعة الشامية – ج٣٤ – ص ١٠٣.

٣) المصدر نفسه – الموسوعة الشامية – ج٣٤ – ص ١١١.

٤) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٤٤ – ص ٧.

الصليبيين على دمياط ، وانكسارهم عند المنصورة ورحيلهم. وكانت أخباره مهمّة جداً عن مواقف القادة الصليبيين من عروض السلطان الكامل محمد للصلح ، وعن تحديده أسباب إخفاق الحملة وأورد شروط الصلح النهائي ، فضلاً عن تضمينه لكتابه رسائل في غاية الأهمية تصف أوضاع الحملة ومعاناتها ، وقد كُتبت الرسائل من قبل جنود أو أفراد شاركوا في الحملة الصليبية الخامسة. كما أفدتُ كثيراً من روايات روجر عن الحملة الصليبية السادسة ، لا سيّما أنّ هذه الرواية عبارة عن رسالة من الإمبراطور الألماني فردريك الثاني – قائد الحملة نفسه – إلى هنري ملك إنكلترا ، وفيها مضمون اتفاقية يافا ، والمناطق التي استعادها الصليبيون سلماً من الكامل محمد ، ومدّة الاتفاقية ، ويؤكّد فردريك في رسالته على تتويجه ملكاً لبيت المقدس ، وعن تعهّد الكامل بإطلاق سراح جميع الأسرى.

وعند البحث في حقبة الحملة الصليبية السادسة ، رجعنا بشكل أساسي إلى مواد فيليب دي نوفار ، الذي ولد أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، في مدينة نوفار في لومباردي ، ومات سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥م[1] ، وأوقف كتابه «**حروب فردريك الثاني ضدّ الإيبلينيين في سورية وقبرص**» كما هو واضح على أعمال فردريك الثاني في قبرص ، وحملته الصليبية على بيت المقدس. وعلى الرغم من انحياز فيليب الواضح إلى فردريك الثاني ، فإنّ كتابه يبقى مصدراً مهماً بسبب دقّته وصحّته في عرضه للحقائق ، وقد أفدتُ منه في توضيح العلاقة الطيبة بين الإمبراطور فردريك الثاني والكامل محمد ، والعقلية المتسامحة والمتقاربة بين الاثنين ، ممّا أدّى إلى توقيع اتفاقية يافا ، كما أفدتُ منه بشكل كبير جداً حول معرفة بنود الاتفاقية ، وموقف رجال الدين منها ، ممّا يدفعني إلى القول : إنّ كتاب فيليب دي نوفار عن أخبار الحملة الصليبية السادسة يعدّ متميزاً ، بل رائداً تماماً.

أمّا بالنسبة إلى حقبة الحملة الصليبية السابعة ، فقد تميّز جين دي جوانفيل ، من

---

١) د. زكار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص ١٦–٢٠.

إحدى الأسر الفرنسية العريقة بمقاطعة شامبين ، والمحتمل أنه ولد في سنة ٦٢١ هـ / ١٣١٨م ، وكان بلغ الخامسة والعشرين من عمره حين رافق الملك الفرنسي لويس التاسع في حملته الصليبية على مصر ، وظلّ مقرباً من الملك الفرنسي حتّى بعد عودته إلى فرنسا ، إذ كلّفه لويس التاسع ببعض المهام الخاصة به ، وقد شرع جوانفيل بكتابة مذكراته عن الحملة الصليبية السابعة بناءً على طلب جين دي نافار زوجة الملك الفرنسي فيليب الرابع ، الذي يُعرَف بفيليب الجميل ، وذلك تخليداً لذكرى لويس التاسع ، وأهدى جوانفيل كتابه إلى ابنها لويس العاشر سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨م ، بعد موت أمّه في سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥م[1] ، وبذا فإن جونفيل أنهى تصنيف مذكراته وقد جاوز الخامسة والثمانين من عمره ، ممّا يدفعنا إلى الشكّ – ولو قليلاً – ببعض الأخبار ، على اعتبار أنّ الذاكرة قد لا تكفي لتدوين التأريخ ، خصوصاً بعد تقدّم السن ، وبُعْد زمن الحدث.

وطبيعي أنّ إفادتي من كتاب جوانفيل «**حياة القديس لويس**» كانت كبيرة جداً بخصوص أخبار الحملة الصليبية السابعة وتفاصيلها الدقيقة ، وقد انفرد جوانفيل بذكر تقسيمات الجيش الصليبي الذي خاض معارك المنصورة ، وذكر قتلى الصليبيين بدقّة ، وسمّى بعضهم ، وذكر بطولات بعض الجند الفردية ، وانفرد أيضاً بذكر أخبار الصليبيين داخل دمياط ، بعدما وصلهم نبأ أسر لويس التاسع وهزيمة جيشهم. والمذهل في كتاب جوانفيل كونه شاهد عيان على مقتل توران شاه ، فصوّر لنا بدقّة كيف حدث هذا الأمر ، إلى جانب أنّ جوانفيل زوّدنا بمعلومات رائعة عن براعة العرب الحربية ، وخصوصاً في استخدام النار الإغريقية ، التي أزعجت الفرنسيين كثيراً ، وأدهشت مؤرّخ الحملة جوانفيل. وعلى الرغم من إعجاب جوانفيل بمليكه لويس التاسع ، وتعظيمه له ، وعلى الرغم – أيضاً – من إغراقه في وصف بطولات أفراد الحملة ، وحديثه المطوّل عن

---

١) حياة القدّيس لويس – الموسوعة – ج٣٦ – ص ١٠. د. جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر – بيروت – ١٩٨١م – ص ٤.

H. G. B: Chronicles of the Crusades , London , 1903 , pp. 343-347.
Viola Bailey & Ella Wise: The Crusades , London , 1969, p. 44.

نفسه ، وعن قربـه من الملك الفرنسي ، فإن كتابـه يبقى مصدراً مهماً لا يمكن الاستغناء عنـه عند التأريخ للحملة الصليـبـية السابعة.

وسننتقل الآن إلى مؤرّخ لاتينـي آخر هو متّى باريس ، أحـد رهبـان الأديـرة في إنكلترا ، وشُهِرَ بلقب الباريسي ، إمّا لأنـه ولد في باريس ، وإمّا لأنـه تعلّم فيـها ، ولا ندري بالتأكيد السنة التي توفّي فيـها ، ولعلّها سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٧٣م ، التي توقف فيـها عن متابعة التأريخ. ويتميّز كتابـه «**التاريخ الكبـير**» باحتوائه على كميات كبـيرة من الوثائق البالغة الأهمية ، والتواصل برواية أخبار الأحداث بصدق ودونما تصنـيع ، مع شيء من العاطفة الإنكليزية. والكتاب يصوّر أوضاع إنكلترا وفرنسا بشكل رئيس منذ ما قبـل سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م ، حتّى سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٧٣م ، أي معظـم سـنوات قرنـي الحروب الصليـبـية[١]. وقد حصلتُ على فائدة كبـيرة من هذا الكتاب فيما يخصّ أخبار الحملة الصليـبـية السابعة ، بدءاً من وصول الجموع الإنكليزية بقيادة رتشارد كورنوول إلى عكّا ، وحتى عودتـها إلى بلادها بعد مدّة قصيرة ، ثمّ وصول استغاثة صليبـيي بـلاد الشام إلى البابا بعد دخول الخوارزمية إلى القدس. وينفرد متّى بذكر تأثير خبر القدس علـى أوروبا ، وبانعقاد مجمع ليون ، وقيام الملك الفرنسي بأعباء الحملة الصليـبـية الـسابعة ، ويتابع متى — أيضاً — أخبار الحملة وأحداثها بشكل دقيق ، فمن مسعى الملـك الفرنـسي لويس التاسع لمصالحة البابا أنوسنت الرابع مع الإمبراطور فردريك الثانـي ، إلى انطـلاق الحملة صوب قبرص وتبديد المؤن ، ثمّ الإبحار صوب دمياط والاستيلاء عليـها ، والزحف إلى القاهرة ، والهزيمة المفجعة عند المنصورة ، وأسر لويس التاسع ، وتنازله عـن دميـاط ، ودفع الفدية لتحرير أسرى الصليـبـيين ، والإبحار إلى عكّا. وينفرد الكتاب بذكر أخبـار الخلافات والتنافس والغيرة بـين الإنكليز والفرنسيين داخل صفوف الحملة ، ويتابع متّـى رصد أخبار الملك الفرنسي بعد عودتـه من عكّا صوب بلاده ، ثمّ نـهوضه — مرّة أخرى — بحملة صليبـية جديدة ، إنّما باتّجاه تونس ، حيث لقي حتفه عند قرطاجنّة.

---

١) د. زكار : الموسوعة الشامية — ج٤٦ — ص ٥-٧.

ويعدّ «**كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدّسة**» لمارينو سانوتو[1] تعبيراً صارخاً عن مشاعر الصليبيين وعقليتهم تجاه مصر – موضوع بحثنا – بعد أن تبدّى لهم تماماً أنّ طريق القدس ومفتاحها في مصر. ولا نستغرب أبداً استغراق سانوتو سنواتٍ طوال لتحضير كتابه الضخم ، ذلك أنّ عمله يعدّ من أكثر ما كُتِب عن الحروب الصليبية موضوعيّة ودقّة ، ويزيد من أهميته غزارة المعلومات الجغرافية التي وردت فيه عن مصر وسواحلها وحدودها ، إذ حدّد طول المسافات وعمق البحيرات وغزارة الأنهار وأماكن السبخات والمستنقعات ، والأهم من ذلك أنه حدّد طرق إضعاف السلطان في مصر ، وأكّد على ضرورة محاربة المسلمين في مصر أولاً ، وذكر شروط الإبحار إليها ، وعدّد أصناف الأسلحة ، وسفن النقل وأنواعها ، وكميات الميرة ، بل حتّى طريقة توزيع الأغذية على الجند. وقد ولد سانوتو في مدينة ريفوالتي ، من أعمال جمهورية البندقية ، سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠م ، وتوفي في سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٣م[2]. وأفدتُ من كتابه في المعلومات الجغرافية حول نهر النيل ، وموقع دمياط والمسافة بينها وبين بيت المقدس.

وفي العرض لأهم المصادر العربية ، ذكرنا وجود مؤرّخ عربي معاصر لحقبة الحملة على الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥م ، كانت رواياته متفرّدة في شرحها وتفاصيلها ، والأمر نفسه نجده عند المؤرّخين اللاتين ، فهناك مؤرّخ وشاعر كان معاصراً لتلك الحملة ، ونعني به وليم دي ماشو ، الذي ولد في مقاطعة شامبين في فرنسا ، سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠م – على الأرجح – وعمل في خدمة جون أوف لوكسمبورغ ، ملك بوهيميا (١٣١٠ – ١٣٤٦م) ، بمثابة عضو من موظفي ديوانه ، وقد أمّن له مولاه عدداً من الموارد اللاهوتية ، بما في ذلك رئاسة أحد الأديرة ، وعندما أصيب جون أوف

---

١) الموسوعة الشامية – ج٣٨.

٢) الموسوعة الشامية – ج٣٨ – ص ٨. د. حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون – الإسكندرية – ١٩٨٩م – ص ٤٥.

Christopher Tyerman: Marino Sanudo Torsello the Lost Crusades , Lobbying in the Fourteenth century, in T. R. H. S. , vol. 32, 1982, pp. 57-73.

لوكسمبورغ بالعمى وتخلّى عن تقاليد الحكم إلى ابنه ، انصرف وليم دي ماشو إلى التفرّغ لكتابة موسيقاه ، وكذلك أشعاره ، التي ضمّت عشر قصائد طوال ، كان آخرها قصيدة «**الاستيلاء على الإسكندرية**» حيث أرّخ بها لحملة الملك القبرصي بطرس الأول دي لوزغنان على الإسكندرية ، بدافع من الإعجاب الشديد بالملك نفسه ، فضلاً عن الصدمة العنيفة التي أحدثها اغتياله ، سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩م ، إلى جانب أنّ القصيدة كانت احتفاءً بأعمال النبلاء الفرنسيين الذين التحقوا بصليبية الإسكندرية ، أو الذين قاتلوا إلى جانب بطرس الأول في السنوات التي تلت ، ومّما لا شكّ فيه أنّ هؤلاء الرجال ، وأسرهم ورفاقهم من المجتمع ، قد مثّلوا الشطر الأكبر ممّن استمعوا لهذا الشعر وتعهّدوه بالعناية والإطراء[1]. ويمكن لنا أن نعدّ قصيدة وليم ، المؤلّفة من ٨٩٠٠ بيت شعر ، تعبيراً قوياً عن عقلية أوروبا الغربية المتطلّعة إلى أي بطل يعيد بعث مملكة بيت المقدس الصليبية. لذا ، وعلى الرغم من أن وليم دي ماشو لم يشارك في الحملة أبداً ، واكتفى بروايات الرجال العائدين من الحملة ، فإنّ لعمله قيمة خاصة ، ومهمّة جداً ، لتوضيح أوضاع أوروبا الغربية خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وتزداد قيمة هذا العمل ، إذا ما جمع مع ما كتبه النويري الإسكندراني ، فتكتمل الصورة لدينا تماماً ، وقد بدأ وليم بتدوين شعره سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩م ، وانتهى منه سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢م ، أي قبل وفاته بخمس سنوات ، واستهلّه بتاريخ ولادة بطرس الأول دي لوزغنان ، ٩ تشرين الأول سنة ١٣٢٩م[2] ، وأنهاه بتاريخ مقتله ، ١٧ كانون الثاني سنة ١٣٦٩م[3].

كما عُدتُ إلى عدد من كتب الرحلات ، التي خطّها حجّاج صليبيون ، بدا واضحاً اهتمامهم بتصوير معالم القدس وخططها ، وأشكال كنائسها ، واهتمّوا – أيضاً –

1) Guillaume de Machaut: The Capture of Alexandria, translated by: Janet Shirley, England, 2001, pp. 1-6.

د. سهير محمد نعينع : حملة بطرس الأول لوسنيان على الإسكندرية – القاهرة – ٢٠٠٢م – ص ١٦–٢٠.

2) Machaut: Ibid, p. 21.

3) Machaut: Ibid, p. 187.

بالأماكن الأخرى في فلسطين ، مثل بيت لحم ، والخليل ، ونهر الأردن ، ونابلس ، ويافا.

وحريٌّ بنا ذكر ملاحظة مهمّة أوردها الأستاذ الدكتور سهيل زكار ، تفيد أنّ الرحّالة الصليبيين – على كثرتهم – لم يشيروا إلى وجود أحد من اليهود في فلسطين ، في القرون الميلادية : الثاني عشر ، والثالث عشر ، والرابع عشر ، فضلاً عن أنهم شعروا بأنفسهم غرباء عن سكّان فلسطين والقسم الجنوبي من بلاد الشام ، من عرب مسلمين ومسيحيين ، إذ نظروا اليهم نظرة واحدة ، وحملوا نحوهم مشاعر واحدة ، فالمسيحيون العرب كانوا في أبسط الحالات بالنسبة إليهم هراطقة ، أمّا المسلمون العرب فكانوا بالنسبة إليهم غير مؤمنين ، وطبعاً الفوارق بين الهرطقة وانعدام الإيمان ليست كبيرة[1].

ولعلّ أهمّ ما دوّنه أولئك الحجّاج الصليبيون ، كان كتابات لودولف فون سوخم ، في «**وصف الأرض المقدّسة**»[2] ، ورسالة فيتيلوس في «**وصف الأرض المقدسة**»[3] ، و«**رحلة حج الراهب الروسي دانيال**»[4].

هذا ، ونظراً لطبيعة موضوعي ، وارتباطه المباشر بالحروب الصليبية ، فقد غدت بالنسبة لي «**الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية**» من تأليف وتحقيق وترجمة الأستاذ الدكتور سهيل زكّار أحد المصادر المهمّة التي عُدْتُ إليها ، لا بل هي أهم المصادر ، سواء العربية أو غير العربية ، إذ حوت معظم المصادر العربية التي ألّمت – سواء من قريب أو بعيد – بأخبار الحروب الصليبية ، ولم يكتفِ مؤلّف الموسوعة بجمع المصادر العربية ، وإنّما قام بضبطها وتحقيقها في حواشٍ موثّقة وملحقة بكل مصدر ،

---

١) الموسوعة الشامية – ج ٣٩ – ص ٨.

٢) الموسوعة الشامية – ج ٣٩.

٣) الموسوعة الشامية – ج ٣١.

٤) الموسوعة الشامية – ج ٣١.

فضلاً عن ذلك عمد المؤلّف إلى توطئة تتقدّم كل مصدر ، أوجز فيــها نبذة عن المــؤرّخ ، وعن أهمية المصدر الذي جمعه ، وعمد المؤلّف إلى تصويب بعــض الأخطــاء التأريخيــة في الحواشي وناقشها وعلّق عليــها ، هذا عن المصادر العربــية ، أمّا غير العربــــية ، فقــد تعدّدت مشاربــها ، فمن سريانــية إلى أرمنــية إلى إغريقية إلى لاتينــية ، مع عــودة إلى الأصول الأولى لمخطوطاتــها والترجمة المباشرة عنــها ، مع إضافة حواشٍ مهمّــة أيــضاً تضمّنت تصويب بعض الروايات ومناقشتــها والتعليق عليــها ، وإحالة القارئ أو الباحث إلى عدد من المصادر أو المراجع الأخرى للتوسّع أكثر والاطلاع.

وأُقِرُّ أنّنــي كثيراً ما كنتُ أداعب نفسي - أثناء وجودي في إنكلترا — أو أتحــدّى ذاتي بأنــه يجب عليّ أن أظفر ولو بمصدر واحد مهمّ يتعلّق بحقبة الحروب الــصليــبــية ، وعندما أحسَبُ أنّنــي قد فعلتــها تكون النتيجة أنّ ذلك المصدر إمّا مطبوع وأنــه بــات ضمن حلقات الموسوعة ، ولمّا أتعرّف إليــه ، أو أنــه مُعدٌّ للطباعة وسيظهر للنور بعد مدّة يسيرة ، فأركن إلى قاعدة ، ما حيلتي ودَرْفتا الموسوعة ضمّتا معظــم مــصادر الحــروب الصليــبــية ؟!

وقد آثرتُ الاعتماد على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه ، لكونــها دراساتٍ أكاديمية موثّقة ، تحمل طابع البحث العلمي والموضوعي القــائم علــى التحليــل والنقــد والاستنتاج. ومن أهمّ هذه الرسائل «**إمارة الكرك الأيوبــية**» ليوسف غوانمة ، و«**إمــارة أنطاكية الصليــبــية والمسلمون**» لحسين عطية ، و«**إمارة حلب في العصر السلجوقي**» لمحمد رضا ، و«**سياسة صلاح الدين الأيوبــي في بلاد مصر والشام والجزيرة**» لدريــد عبد القادر نوري. كمــا عُدْتُ إلى العديد من المراجع التاريخية العربــية ، والأجنبــية المعرّبة ، للبحث في طياتــها عمّا يتعلّق بموضوع الرسالة ، منــها — مــثلاً - «**الحركــة الصليــبــية**» لسعيد عبد الفتاح عاشور ، و«**العدوان الصليــبــي على مصر**» لجوزيف نسيم يوسف ، و«**طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي**» للــسيد عبــد العزيــز ســالم ، و«**سياسة الفاطميين الخارجية**» لمحمد جمال الدين سرور ، و«**الدولة الخوارزميــة**» لنــافع عبّود ، و«**الحروب الصليــبــية**» لرينــيــه غروسّيــه ، و«**الصليــبــيون في الشرق**»

- أوضاع الفاطميين في مصر قبـــيل مجيء الحملة الأولى :

بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، في شهر ذي الحجة سنة ٤٨٧ هـ / كـــانون الأول سنة ١٠٩٤م[١] ، وقعت الدولة الفاطمية تحت نفوذ الوزراء ، كما عانت من انتشار الاضطرابات والفوضى السياسية الداخلية ، إلى جانب عجزها عـــن التـــصدي للأخطـــار الخارجية التي عصفت بكيانـــها ، وقضت عليـــها ، أو كانت سبباً في القضاء عليـــــها ، ونعنـــي بذلك الحروب الصليبـــية ؛ وازداد عقم الأوضاع الداخلية بعـــدما قـــام الـــوزير الأفضل بن بدر الجمالي بتولية أبـــي القاسم أحمد ، المستعلي بالله ، بدلاً من أخيـــه الأكبر نـــزار بن المستنصر ، على الرغم من أحقيتـــه بها ، فخرج أهل الإسكندرية عـــن طاعـــة المستعلي بالله ، وانحازوا إلى نـــزار بعد أن قَدِمَ إليـــهم وبايعوه بالخلافة. لكنّ الأفضل بـــن بدر الجمالي ما لبث أن تمكّن من القضاء على نـــزار ومؤيّديـــه في أواخر ســـنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م ، وأصبح الحاكم الفعلي لمصر ، وصاحب الحلّ والعقد ، وبلغ نفوذه حدّاً أنـــه لّما توفّي المستعلي بالله ، في سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١م ، عيّن ابنـــه أبا علي المنصور ، ولقّبه الآمر بأحكام الله (٤٩٥ – ٥٢٤ هـ / ١١٠١ – ١١٣٠م) وكان عمره خمسة أعوام وشهر[٢] !!

في تلك الأثناء كانت الأخبـــار تتوارد «بظهـــور عـــساكر الإفـــرنج مـــن بحـــر القسطنطينـــية ، في عالم لا يُحصى عدده كثرة»[٣] ، إذ تدفّقت حشود الحملة الـــصليبـــية الأولى في سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م ، ووصلت حتّى مشارف أنطاكية ، وضربت عليـــــها

---

١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق – تحقيق : د. سهيل زكار – دمشق – ١٩٨٣م – ص ٢١٠. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – (١٣) جزءاً – بـــيروت – ١٩٩٥م – ج١ – ص ٢٣٧. المقريزي : اتعاظ الحنفـــا – الموســـوعة الشامية – ج٢٥ – ص ٧٨. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – (١٦) جزءاً – مصر – ١٩٦٣م – ج٥ – ص ١٣٩.

٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه – ص ٢٢٨ – ٢٢٩. ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٠ – ص ٣٢٨. المقريزي : اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٩١-٩٢.

٣) ابن القلانسي : الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ٣.

حصاراً شديداً ، وبادر الأفضل إلى إرسال سفارة فاطمية اجتمعت مع القادة الصليبيين عند أسوار أنطاكية ، وعرضت عليهم اتفاقاً يتضمّن البنود الآتية :

١- ينفرد الصليبيون بحكم أنطاكية.

٢- تحتفظ مصر ببيت المقدس.

٣- يُسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدّسة في القدس وأعمالها ، وتكون لهم الحرية الدينية في أداء شعائرهم ، على ألاّ تزيد مدّة إقامتهم بها عن شهر واحد ، وألاّ يدخلوها بسيوفهم[١].

ويذكر مصنّف يوميات صاحب أعمال الفرنجة أن الصليبيين – خلال حصارهم لمدينة أنطاكية – حملوا مائة رأس من رؤوس قتلى المسلمين «إلى أمام باب المدينة حيث نصبت خيام رسل صاحب مصر»[٢] الوافدين على قادة الجيش الصليبي.

وفي اعتقادنا ، أنّ الصليبيين أرادوا من هذا العمل بعث رسالة واضحة إلى قادة مصر تعبّر عن قوّتهم وقدرتهم العسكرية ، وتوحي إليهم بأنهم سيخلّصونهم من أعدائهم السلاجقة.

أما أوتو ، أسقف فريزنغ ، فيذكر أنّ سفارة الفاطميين عادت إلى القاهرة وبرفقتها

---

١) يوميات صاحب أعمال الفرنجة : الموسوعة – ج٦ – ص ١١٨-١٢٣. أوتو أسقف فريزنغ : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية – ج٢٩ – ص ٣٢٩-٣٣٠. وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية – ج١ – ص ٣٩٣. د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية – جزآن – القاهرة – ١٩٩٣م – ج١ – ص ١٥٥-١٥٦. د. سهيل زكار ، د. وفاء جوني ، د. اكتمال إسماعيل : حروب الفرنجة (الصليبية) – منشورات جامعة دمشق – ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤م – ص ١١٣-١١٤.

Bernard Hamilton: The Crusades , England , 1998 pp. 10,11.
R. C. Smail: Crusading Warfare (1097,1193) , Cambridge , 1956, p. 84.
Lois J. Paetow: The Crusades and other historical Essays , U.S.A , 1968 , PP. 44,56.
Ernest Barker: The Crusades , Oxford University Press , England , 1925 , p. 20.

٢) يوميات صاحب أعمال الفرنجة : الموسوعة الشامية – ج٦ – ص ١١٨.

بعض نبلاء الصليبـيين الذين شهدوا انتزاع الفاطميين للقدس من أيدي الأراتقـة[1] ، ولا ريب أنّ هذه السفارة كان لها فوائد عديدة ، إذ عاينت وتمحّصت الطريـق إلى القـدس ، وخبرت ضعْف المدينة وهشاشة دفاعاتـها العسكرية ، بل لا نستغرب أنّ هذه السفارة – نفسها – قد رسمت الطريق إلى مصر ، بدليل أنّ عودتـها إلى المعسكر الصليبـي كانـت قُبـيل تحرّك الحملة صوب القدس[2] ، ومن ثمّ تفكير القادة الصليبـيين – عند الرملـة – بالتوجّه إلى مصر قبل القدس ، ممّا يعنـي وجود تأثير قوي لآراء السفارة.

وهنا لعلّنا نقف قليلاً لنتساءل سويةً : ما الذي حدا بالفاطميين إلى عقد تحالف مـع الصليبـيين ؟ بدهي القول إنّ الفاطميين كانوا يجهلون تماماً طبـيعة الحركـة الـصليبـية ودوافعها وأهدافها ، واعتقدوا أنـها مجرّد حملة غازية لن تلبث أن تعود أدراجها ، ورأوا في قدومها فرصةً ذهبـية لطرد السلاجقة من بلاد الشام ، واستيلائهم – أي الفـاطميين – على بـيت المقدس وجنوب بلاد الشام وسواحلها ، ويؤكّد ذلك قيام الأفضل بالتحرّك من مصر صوب بـيت المقدس ، في شهر شعبان سنة ٤٩١ هـ / تموز ١٠٩٨م ، وكان فيـه الأميران سكمان بن أرتق ، وأخوه إيلغازي ، وراسلهما الأفضل يلتمس منـهما تـسليم المدينة دون قتال ، فرفضا النـزول عند طلبه ، آملين أن تصمد أسوار بـيت المقـدس في وجه الحصار ، غير أنّ مجانـيق الجيش الفاطمي أرغمت أهل المدينة على الاستسلام بعـد أربعين يوماً ، وخرج الأخوان بالأمان ، وسارا نحو دمشق ، فيما عاد الأفضل إلى القـاهرة بعد أن استناب الأمير افتخار الدولة في حكم بـيت المقدس[3]. وإذا كنّا نرفض تأييد ابـن الأثير في اتـهامه الفاطميين بأنـهم هم الذين دعوا الصليبـيين للقدوم إلى بلاد الشام[4] ،

---

١) أوتو أسقف فريزنغ : الموسوعة الشامية – ج٦ – ص ٣٢٩-٣٣١.

٢) وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبـية – ج١ – ص ٣٩٣.

٣) ابن القلانسي : المصدر المتقدم – ص ٢٢١. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٠ – ص ٢٨٣. المقريـزي : اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٨٧.

٤) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٠ – ص ٢٧٣.

فإننا نرفض – أيضاً – تسويغ ما قام به الفاطميون ، ذلك أنّ الاختلاف المذهبي في الدين ليس مدعاةً للتحالف مع أعداء الأمّة والعقيدة ، هذا إلى جانب أنّ السفارة الصليبية الفاطمية أكسبت الصليبيين اعترافاً سياسياً بوجودهم في منطقة بلاد الشام ، وهم لمّا يحققوا بَعْدُ أي إنجاز فيها ، كما عرَّفتهم بعمق الخلافات بين السلاجقة والفاطميين ، وقدّمت لهم ، بتهافتها على محالفتهم ، تأكيداً بعدم رغبتها بتقديم أية مساعدة لأنطاكية المحاصرة ، والتي ما لبثت أن سقطت في أيدي الصليبيين في الأول من شهر رجب سنة ٤٩١ هـ / ٣ حزيران ١٠٩٨م[١] ، فضلاً عن أنّ الصليبيين – ربّما – رأوا في هذا التحالف فرصة لإذكاء العداء والنزاع بين الفاطميين والسلاجقة حول السيطرة على بيت المقدس ، فيضعف أحدهما الآخر ، وربّما شاهدوا سهولة الاستيلاء الفاطمي على المدينة فأدركوا ضعفها وعجزها عن المقاومة ، وأنهم لا بدّ مالكوها بأيسر الطرق وأسرع وقت.

وإذا كان لنا ألاّ نعزو مواقف بغداد إلى الخلفاء العباسيين بعد وقوعهم تحت سيطرة السلاطين السلاجقة فإننا هنا – أيضاً – نميل إلى عدم تحميل الخليفة الفاطمي تبعة الاتصالات مع الصليبيين ، إذ أن ذلك العمل إنما يعبر عن نوايا الأفضل وإرادته السياسية ، ورغبته في المحافظة على سلطته وثروته ونفوذه ، وتحكّمه بمقدرات الخلافة والدولة ، في وقتٍ غدت فيه بلاد الشام ساحةً للصراع بين السلاجقة ؛ المتسلطين على الخلافة العباسية ، ووزراء مصر ، المتسلطين على الخلافة الفاطمية ، ولعلنا ندرك مدى حرص الأفضل على ثروته وجاهه عندما نعلم أن الخليفة الفاطمي الآمر استمر مدة

---

١) تشارترز : تاريخ الحملة على القدس – الموسوعة – ج٦ – ص ٣٤٢. ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٥. العظيمي : الموسوعة – ج١١ – ص ١٤٩. ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٠ – ص ٢٧٥. ابن العديم : زبدة الحلب – ج١ – ص ٣٤٩. العيني : عقد الجمان – الموسوعة – ج٢٤ – ص ٧.

شهرين وأيام — بعد مقتل الأفضل — ينقل ما ببيوته إلى القصر[1]. ولنتأمّل سويةً بعضاً ممّا أخرج «فمما وجد له ستة آلاف ألف دينار عيناً ، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار ، وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتا ألف وخمسون ألف دينار ، ومائتين وخمسين إردباً دراهم ورِقاً ، وثلاثين راحلة من الذهب العراقي المغزول برسم الرقم ، وعشرة بيوت في كل بيت عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال عليها العمائم المختلفة الألوان ، وتسعمائة ثوب ديباج ملونة ، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة بدنه ، ولعبة من عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه لتكتسب الرائحة ، ومن الطيب والآلات ما لا يُحصى عدده ، ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه ونتاجه في سنة نحو أربعين ألف دينار ، ودواية يكتب منها مرصعة بالجواهر ، قُوِّم جوهرها باثني عشر ألف دينار ، وخمسمائة ألف مجلدة من الكتب العلمية»[2].

– **سقوط بيت المقدس :**

وصدق حدس الصليبيين ، إذ كانت بلاد الشام ، بالنسبة لهم ، مثل كعكة الميلاد ، وما عليهم سوى تقطيعها وتناولها ، ولكنهم آثروا البدء بالقطعة الأغلى ، وهي بيت المقدس ، فتحرّكوا من أنطاكية صوب بيت المقدس ، ملتزمين الطريق المحاذي للساحل ، حتّى لا يفقدوا دعم سفنهم وتزويدهم بالمؤن ، وربّما ليأمنوا عدم وقوعهم في مواجهات مع القوى والإمارات الإسلامية المحلية. وعلى الرغم من ذلك فقد وصلهم العديد من المؤن والمساعدات من القوى العربية الصغيرة ، تحاشياً لأذاهم ووحشيتهم ، بعد ما ذاع ما

---

١) المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٩. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٢٥.
٢) المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٢٥.

فعلوه في معرة النعمان[١] بعد استيلائهم على أنطاكية ، وعندما حلّوا في الرملة[٢] ، عقدوا مجلساً تشاورياً لبحث مسألة السير صوب مصر ، لأنّ ذلك سيضمن لهم الاستيلاء على بيت المقدس ، والبقاء فيها دون منغصات ، ولكن ذلك الاقتراح لقي الرفض من معظم القادة[٣] ، وواصلوا زحفهم مباشرة صوب بيت المقدس ، حيث حطّوا رحلهم عند أسوارها في ١٣ رجب سنة ٤٩٢ هـ / ٦ حزيران ١٠٩٩م ، وشرعوا في حصارها[٤].

وقبل المضي مع الحصار ، نودُّ الانتباه إلى ما دار في الرملة من اقتراح الزحف صوب مصر أولاً ، مما يعني أن تفكير الصليبيين وتطلّعهم إلى الاستيلاء على مصر كان راسخاً في ذهنهم منذ مهد الحركة الصليبية ، بل حتّى قبل سيطرتهم على بيت المقدس نفسها ، تلك التي خرجوا – كما يزعمون – لأجلها.

كان افتخار الدولة ، الحاكم الفاطمي لبيت المقدس ، قد علم بالتحرك الصليبي تجاه مدينته ، لذا اتّخذ عدّة إجراءات احترازية ، فسمّم الآبار وقطع موارد الماء خارج بيت المقدس ، وساق المواشي إلى مواضع آمنة ، وشحن الأبراج والأسوار بالسلاح والمقاتلة من الجند المصريين والسودان ، بينما عجز الصليبيون عن اقتحام المدينة لعدم كفاية آلات الحصار ، خصوصاً الأبراج الخشبية ، كما عانوا من العطش الشديد ، وقسوة الحرارة ، والرياح المحملة بالغبار الخانق ، واستولى عليهم الوهن والخوف ،

---

١) يوميات صاحب أعمال الفرنجة : الموسوعة – ج٦ – ص ١٦٠. ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٧. العظيمي : الموسوعة – ج١١ – ص ١٥٠.

٢) يوميات صاحب أعمال الفرنجة : الموسوعة – ج٦ – ص ١٦٦. تشارتز : الموسوعة – ج٦ – ص ٣٥٨. ولـيم الصوري : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٤٠٠.

٣) ريمون دي جيل : الموسوعة الشامية – ج ٦ – ص ٢٨١.

Ferdinand Chalandon: Histoire de la Première Croisade, p.267.

٤) ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٧. العظيمي : الموسوعة – ج١١ – ص ١٥٠. ابن الأثير : المصدر المتقدم – ج١٠ – ص ٢٨٣.

وشاعت بين قادتهم الخلافات حول إرث بيت المقدس ، وملكية بعض المواقع المهمة الأخرى مثل بيت لحم ، وساد بين الصليبيين – أيضاً – حالة من الارتباك واليأس نجمت عن المقاومة العنيدة لكثير ممّن تبقّى من المدافعين ، ولوجود الأسوار العالية التي لا يكاد يمكن اختراقها ، وللمهارة الدفاعية الهائلة للمسلمين[١] ، وتناهى إليهم نبأ خروج الأفضل على رأس جيش كبير – من مصر – لمساعدة المدينة ورفع الحصار عنها[٢] ، ولكن هذا الوضع ما لبث أن تبدّل مع وصول ست سفن من مدينة جنوى الإيطالية ، وهي تحمل المواد اللازمة للحصار والذخائر والمؤن[٣] ، فارتفعت معنويات الصليبيين ، وقاموا بشنّ هجوم شامل تمكّنوا به من إلصاق أحد أبراجهم الخشبية بالسور الشمالي للمدينة ، وأجبروا المدافعين على التراجع ، ثمّ فتحوا أحد الأبواب ودخلوا المدينة ، في يوم الجمعة ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ هـ / ١٥ تموز سنة ١٠٩٩م[٤] ، وقاموا بارتكاب مذابح فظيعة ، يندى لها الجبين ، وتقشعرّ لها الأبدان ، إذ قُطِعت رؤوس المسلمين من الشيوخ والنساء والأطفال

---

١) يوميات صاحب أعمال الفرنجة : الموسوعة – ج٦ – ص ١٦٧. ريمون دي جيل : الموسوعة – ج٦ – ص ٢٨٤–٢٨٧. تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٣٦٢.

٢) ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٨. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ١١. العيني : عقد الجمان – الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٠.

٣) يوميات صاحب أعمال الفرنجة : الموسوعة – ج٦ – ص ١٦٧. ريمون دي جيل : الموسوعة – ج٦ – ص٢٨٥. وليم الصوري : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٤٢١.

٤) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٣٦٣–٣٦٧. ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٧–٨. العظيمي : الموسوعة – ج١١ – ص ١٥٠. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢٣ – ص ٤٥٠. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ٨٨. العيني : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٠–١١.

Matthew of Edessa: Armenia and the Crusades , translated from Armenian by : Ara E. Dostourian , U.S.A , 1993 , p. 172.
Alan Murray: the Crusader Kingdom of Jerusalem , Great Britain , 2000 , p. 65.
Dan Theis: the Crescent and the Cross , U.S.A , 1978 , pp. 70,71.
Randall Rogers: Latin siege War fare in the twelfth century , Oxford University Press , 1992 , pp. 47,49.
August C. Krey: The First Crusade , Princeton University Press , 1958 , p. 256.
Robert L. Nicholson: Tancred , U.S.A , 1940 , p. 91.

بلا رحمة ، وقاموا بتعذيب البعض بقسوة رهيبة ، فيما ألقوا البعض الآخر وهم أحياء في نار متأججة ، وفاضت شوارع بـيت المقدس بدماء المسلمين ، واقتحم الصليبـيون المسجد الأقصى وذبحوا من احتمى به من أهل المدينة أو رجال الحامية الفاطمية[1]. أما افتخار الدولة فقد اعتصم وعدد من جنده بمحراب داود ، وقاتلوا فيـه ثلاثة أيام ، ثمّ ألقوا سلاحهم بعد أن «بذل لهم الفرنج الأمان»[2] وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان[3]. وأعتقد أن ما قام بـه الصليبـيون من عدم قتل افتخار الدولة ، والسماح له بالتوجه إلى عسقلان مردّه رغبتـهم بتسكين ثائرة الأفضل من أنـهم لم يقتلوا حاكمه ، وبثّ الرعب بـين المسلمين عن مدى قسوتـهم ووحشيتـهم ، فضلاً عن رغبتـهم في إنـهاء المقاومة الباسلة الـتي أبـداها افتخار الدولة لخشيتـهم من تزامن ذلك مع وصول الأفضل بن بدر الجمـالي علـى رأس جيشه.

وبلغ عدد قتلى المسلمين في هذه المجزرة ما يزيد على سبعين ألف قتيـل[4] ، وقـام الصليبـيون بجمع وحرق جثث المسلمين المتكدّسة في شوارع بـيت المقدس ، وفي المساجد

---

١) ريمون دي جيل : الموسوعة – ج٦ – ص ٢٩٥. تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٣٦٤. ولـيم الـصوري : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٤٣٦.

Gesta Francorum: et a liorum Hierosolimitanorum , translated by : Rosalind Hill , London , 1962 , p. 91.
Orderic Vitalis: The Ecclesiastical History , translated from Latin by: M. Chibnall , 6 Vols , Oxford University Press , 1975 , volume 5 , pp. 165,174.
Rainer C. Schyinges: Kreuzzugsideologie und Toleranz , Stuttgart , 1977 , p.121.
Jacobi De Vitriaco: Libri Dvo , England , 1971 , pp. 52,53.
B. Z. Kedar: The Horns of Hattin , Jerusalem , 1992 , pp. 41,48.
Norman Housley: The Crusaders , Great Britain , 2002 , pp. 41,42.
Zoé Oldenbourg: The Crusades , Great Britain , 1999 , pp. 134,136.

٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٠ – ص ٢٨٣.

٣) يوميات صاحب أعمـال الفرنجة : الموسوعة – ج٦ – ص ١٧١. تـشارترز : الموسـوعة – ج٦ – ص ٣٦٧. وليم الصوري : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٤٤٢.

٤) ابن أبـي الدم : الموسوعة – ج٢١ – ص ٢١٤. ابن واصل : الموسـوعة – ج٢١ – ص ٤٥٠. المقريـزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ٨٨.

والمنازل ، ثمّ اختاروا غودفري ، دوق اللورين ، ملكاً عليـــهم ، وأعطوه لقب حامي القبر المقدس ، واختاروا – أيضاً – أرنولف ، كاهن كونت نورماندي ، بطريركاً لمدينة بـــيت المقدس[1].

– معركة عسقلان :

أحدث سقوط بـــيت المقدس موجة من الذعر والهلع في نفوس أهالي المدن والقـــرى المجاورة ، فأسرع سكّان نابلس إلى الاستسلام ، وأرسلوا وفداً إلى الصليبـــيين يدعونــــهم لتسلّم المدينة ، وتوجّه تانكرد – الأمير النورماندي – إلى نابلس واستولى عليـــها في أوائل رمضان سنة ٤٩٢ هـ / أواخر تموز ١٠٩٩م[2].

في مقابل ذلك كان الأفضل بن بدر الجمالي قد جهّز جيشاً ضخماً وخرج بـــه مـــن مصر ، لعلّه ينقذ بـــيت المقدس ، ولكنـــه وصل عسقلان في ١٤ رمضان / ٤ آب ، مـــن السنة نفسها ، «وقد فات الأمر»[3] فأرسل إلى الصليبـــيين «ينكر عليـــهم مـــا فعلـــوا ، ويتـــهددهم»[4] وأخذ ينتظر قدوم النجدات ، ووصول الأسطول الفاطمي ، فيمـــا كـــان الصليبـــيون قد احتشدوا عند الرملة ، بقيادة غودفري والأمير تانكرد وأرنولف – بطريرك بـــيت المقدس – وساروا جميعاً صوب عسقلان ، حيث باغتوا المعسكر الفاطمي صبـــيحة ٢٢ رمضان / ١٢ آب ، وفتكوا به قتلاً وذبحاً ، «وتمكّنت سيوف الأفرنج من المـــسلمين ،

---

١) ريمـــون دي جيل : الموسوعة – ج٦ – ص ٢٩٨-٢٩٩. تـــشارترز : الموســـوعة – ج٦ – ص ٣٦٧. ولـــيم الصوري : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٤٤٤-٤٤٧.

٢) يوميات صاحب أعمـــــال الفرنجة : الموسوعة – ج٦ – ص ١٧١. عاشور : الحركة الـــصليبـــية – ج١ – ص ٢٠١.

٣) ابن القلانسي : تاريخ دمشق – ص ٢٢٣.

٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٠ – ص ٢٨٦.

فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ، ونهب العسكر ، وتوجّه الأفضل في خواصه إلى مصر»[1].

وبذا فإن الصليبيين وجّهوا للفاطميين صفعةً قويةً ، ليس لانتصارهم عليهم فقط ، بل لأنهم أرسلوا إليهم تحذيراً قاسياً ، بأنّ سواحل بلاد الشام وبيت المقدس قد خرجت عن عهدتهم تماماً ، وهذا ما حدث فعلاً ، إذ سار الصليبيون مباشرة نحو عسقلان ، وضربوا عليها الحصار ، ولم ينقذ المدينة سوى التنافس الذي حصل بين غودفري وريموند – كونت صنجيل – والأمر نفسه حدث مع أرسوف ، إلاّ أنّ تانكرد نجح في التوسّع في إقليم الجليل ، واستولى على طبرية وبيسان[2] ، فيما حصّن غودفري يافا[3] ، وحاول الاستيلاء على أرسوف[4] ، ونجح تانكرد – أيضاً – إنما هذه المرّة بمساعدة سفن من جمهورية البندقية ، بالاستيلاء على حيفا[5] ، في الوقت الذي ورد فيه نبأ موت غودفري ، في شهر رمضان سنة ٤٩٣ هـ / ١٨ تموز سنة ١١٠٠م[6] ، وتمّ استدعاء بلدوين الأول ، كونت الرها ، وأخي غودفري ، الذي وصل إلى بيت المقدس بعد رحلةٍ محفوفةٍ بالمخاطر وتوِّج ملكاً على بيت المقدس ، في شهر ربيع الأول سنة ٤٩٤ هـ / كانون الثاني سنة ١١٠١ م[7].

---

١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق – ص ٢٢٣. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٢. المقريزي : اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٨٩.
٢) وليم الصوري : المصدر المتقدّم – ج١ – ص ٤٦٣. روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ – الموسوعة – ج٤٤ – ص ٩٠.
٣) ابن القلانسي : المصدر المتقدم – ص ٢٢٤. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٠ – ص ٣٢٤.
٤) وليم الصوري : المصدر المتقدّم – ج١ – ص ٤٧١. عاشور : المرجع المتقدم – ج١ – ص ٢٠٧.
٥) ابن القلانسي : المصدر المتقدم – ص ٢٢٥. ابن الأثير : المصدر المتقدم – ج١٠ – ص ٣٢٥. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٤٥٢.
٦) تشارترز : الموسوعة الشامية – ج٦ – ص ٣٧٨. ابن القلانسي : المصدر نفسه – ص ٢٢٤. ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٠ – ص ٣٢٤.
٧) تشارترز : الموسوعة الشامية – ج٦ – ص ٣٩١. وليم الصوري : المصدر المتقدّم – ج١ – ص ٤٨٨. ويندوفر : الموسوعة – ج٤٤ – ص ١٠٤.

– استيلاء الصليبيين على أرسوف وقيسارية :

يبدو أن بلدوين الأول ، ملك القدس الجديد ، لم يشأ أن يضع وقته سدىً ، فانتهز فرصة قدوم سفن إيطالية جنوية إلى ميناء يافا ، واتّفق معها على إعطائها ثلث الغنائم ، وأن يكون لأهل جنوى حيٌّ دائم في أي مدينة يتمّ الاستيلاء عليها ، ثمّ سار الجميع لضرب الحصار على أرسوف ، بحراً وبراً ، وأمام إدراك السكّان عجزهم عن المقاومة ، وعدم أملهم في وصول نجدة فاطمية ، استسلموا بعد ثلاثة أيام من الحصار ، وغادروا المدينة مع حاجياتهم وأموالهم ، في شهر جمادى الآخرة سنة ٤٩٤ هـ / نيسان سنة ١١٠١م[١] ، وتابعت سفن جنوى وبلدوين الأول سيرهم صوب قيسارية ، التي رفضت الاستسلام ، وعجزوا عن الاستيلاء عليها بشكل سريع لمناعة أسوارها ، ولكنهم شدّدوا حصارهم وهجومهم لمدّة خمسة عشر يوماً ، حيث تمكّنوا من نصب السلالم وتسلّق الأسوار واقتحام المدينة ، وأفنوها عن بكرة أبيها ، وذلك في شهر رجب / أيار ، من السنة نفسها[٢].

– التحرك الفاطمي : موقعة الرملة الأولى :

لم يكد بلدوين الأول ينتهي من تقسيم الأسلاب وفقاً للاتفاق الذي أبرمه مع الجنوية ، حتّى وصله نبأ خروج جيش فاطمي من مصر ، إذ أخرج الأفضل جيشاً ضخماً ، بقيادة المملوك سعد الدولة القواسي ، وذلك في شهر رمضان سنة ٤٩٤ هـ / تموز ١١٠١م[٣] ، ولكن هذا الجيش أهدر ثلاثة أشهر في عسقلان ، مكّن بها بلدوين الأول من

---

١) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٣٩٤–٣٩٥. ابن القلانسي : المصدر المتقدم – ص ٢٢٥. وليم الصوري : المصدر نفسه – ج١ – ص ٤٩٣–٤٩٤.

٢) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٣٩٦. وليم الصوري : المصدر نفسه – ج١ – ص ٤٩٥. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٠ – ص ٣٢٥.

٣) ابن القلانسي : المصدر المتقدم – ص ٢٢٧. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٣. المقريزي : اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص٩٠.

تـــهيئة جيشه وتنظيمه ، كما أتاح له فرصة التقدّم حيث التقى الطرفان ، في ١١ شهر ذي القعدة سنة ٤٩٤ هـ / ٧ أيلول سنة ١١٠١م ، في السهل الواقع إلى الجنوب الغربـــي مـــن مدينة الرملة ، وانتصر الصليبيــون ، وقُتِل عدد كبـــير من المسلمين ، من بـــينـــهم سعد الدولة قائد الجيش الفاطمي[١] ، ولكن بقية أفراد الحملة – من المسلمين – مـــا لبثـــوا أن امتلكوا زمام المبادرة وتبعوا الـــصليبـــيين حتّـــى يافـــا «وقتلـــوا منـــــهم ، وأســـروا ، وغنـــموا»[٢]. وهكذا فإنـــه يمكن القول إن هذه المواجهة كانت نـــصراً وهزيمـــة لكـــلا الطرفين[٣].

– موقعة الرملة الثانـــية :

وعاد الأفضل ليجهّز حملة أخرى كبـــيرة ، بلغت عشرين ألف رجل ، تحت إمـــرة ابنـــه شرف المعالي ، الذي وصل إلى عسقلان ، وانطلق منـــها صوب الرملة ، لتـــــهديد يافا وبـــيت المقدس ، ولكن بلدوين الأول – ربما لغروره أو اعتقاده بصغر عـــدد أفـــراد الحملة الفاطمية – خرج على رأس مائتين من فرسانـــه ، قاصداً الرملة ، فباغتـــه المسلمون وقضوا على جميع من معه ، فيما فرَّ هو إلى الرملة ، وذلك في ٢٧ رجب ســـنة ٤٩٥ هـ / ١٧ أيار سنة ١١٠٢م[٤] ، وتبعه المسلمون ولكنـــه تمكّن من الفرار – مرّة أخـــرى – إلى يافا ، بـــينـــما دخل الفاطميون إلى الرملة ، في ٢٩ رجب / ١٩ أيار ، وقتلوا حاميتـــــها الصليبـــية ، وأخذوا بعض الأسرى إلى مصر ، وسارت الحملة باتجاه يافا ، وألقت عليـــها

---

١) ابن القلانسي : المصدر نفسه – ص ٢٢٧. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٣. اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٩٠.

٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه – ص ٢٢٧.

٣) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٤٠٢. وليم الصوري : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٤٩٩.

٤) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٤٠٥–٤٠٦. ابن القلانسي : المصدر المتقدم – ص ٢٢٩. وليم الـــصوري : المصدر المتقدم – ج١ – ص٥٠٣.

الحصار ، واستطاع بلدوين الأول – على الرغم من ذلك – دخول المدينة ، التي استقبلت في الوقت نفسه عدداً كبيراً من النجدات الصليبية ، وتشجّع بلدوين على الخروج من يافا ومواجهة القوّات الفاطمية المحاصرة للمدينة ، التي ما لبثت أن انهزمت بعد ساعات قليلة ، وتراجعت نحو عسقلان ، وذلك في ٧ شعبان / ٢٧ أيار ، من السنة نفسها[1] ، وعندما وصلت أنباء هزيمة الجيش الفاطمي إلى مصر ، سيَّر الأفضل حملتين ، إحداهما بقيادة المملوك تاج العجم ، وتألفت من أربعة آلاف فارس ، والأخرى بحرية برئاسة القاضي ابن قادوس ، ولكن التنسيق بين البر والبحر كان مفقوداً ، فرفض تاج العجم إعانة ابن قادوس ، وقال له : «ما يمكنني أن أنزل إليك إلاّ بأمر الأفضل ، ولم يحضر عنده ، ولا أعانه ، فأرسل القادوسي إلى قاضي عسقلان ، وشهودها ، وأعيانها ، وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوماً ، واستدعى تاج العجم ، فلم يأته ، ولا أرسل رجلاً»[2] ، وفي حين استجاب تانكرد ، الوصي على إمارة أنطاكية ، وبلدوين أوف بورغ ، كونت الرها ، لنداء الاستغاثة الذي أطلقه بلدوين الأول ، ملك بيت المقدس ، وحضرا على رأس عدد من فرسانهم وجندهم ، فقد اعتذر شمس الملوك دقاق ، صاحب دمشق ، عن إجابة طلب الأفضل ، ولم يرسل أي مساندة عسكرية لدعم الجيش الفاطمي بمواجهة الصليبيين[3].

هنا يحق لنا أن نسأل : هل كان الأفضل بن بدر الجمالي بحاجة لمساعدة دقاق ؟ وهل إمكانات مصر ومواردها البشرية والمادية لم تعد تكفي ممّا اضطره إلى طلب تلك المساعدة ؟ طبعاً أنا لا أعتقد ذلك ، ولكنّ ما كان ينقص الأفضل وجيشه هو حُسن القيادة العسكرية

---

١) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص٤١٤. وليم الصوري : المصدر المتقدم – ج١ –٥٠٥-٥٠٦. ويندوفر : الموسوعة – ج٤٤ – ص ١١٢-١١٣.

٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٠ – ص ٣٦٥.

٣) المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٤. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٩٣.

والتنظيم ، والبراعة في التخطيط ومواجهة الأعداء ، إلى جانب الحماسة والثقة بالنفس ، إذ لا يُعقَل أن ينـــهزم جيش نظامي ، كان تعداده – على أقل تقدير – عشرة آلاف مقاتل ، أمام شرذمة صليبيـــية ، لم تتجاوز في أحسن حالاتـــها خمسة آلاف مقاتل !!

- سقوط عكّـــا :

كان بلدوين الأول يدرك تماماً حاجة مملكة بـــيت المقدس الصليبيـــية إلى ميناء يربطها بالبحر ، ويؤمّن اتصالها بأوروبا ، حيث تفد منـــها ، وبشكل مستمر ، الإمدادات البشرية والمادية ، لذا تطلّع إلى مدينة عكّا التي تستحوز على ميناء واسع جداً «يمكن أن ترسو بـــين أبراجه الآمنة أعداد كبـــيرة من السفن»[1] ، وشرع فعلاً في حصارها ، في شهر رجب سنة ٤٩٦ هـ / نـــيسان ١١٠٣م ، ولكنــــه لم يتمكّن من الاستيلاء عليـــها ، لمناعة أسوارها ، وبسالة سكّانـــها من المسلمين ، وحاجتـــه إلى أسطول يسانده ويحاصرها مـــن البحـــر ، فرجع إلى يافا يندب حظّه[2] ، غير أنّ وصول سبعين سفينة ضخمة مـــن مدينـــة جنـــوى الإيطالية أنعش آماله ، فسارع إلى الاتفاق معهم ، على أن يكون لهم ثلث عائدات مينـــاء عكا ، وحيٌّ دائم في المدينة ، وكنـــيسة خاصة بهم. وسار وإياهم إلى محاصرة عكّا – مـــرة أخرى – في شهر شعبان من سنة ٤٩٧ هـ / أيار ١١٠٤ م ، وبعد مضي عشرين يومـــاً ، أذعن زهر الدولة الجيوشي ، حاكم عكّا الفاطمي ، إلى طلب الأمان لنفسه ولأهـــل عكّـــا «ليأسه من وصول نجدة معونة»[3] ولعجزه عن مقاومة الصليبـــيين بعد أن أحكموا الحصار

١) تشارترز : الموسوعة الشامية – ج٦ – ص ٤١٧.
٢) تشارترز : الموسوعة الشامية – ج٦ – ص ٤١٦. وليم الصوري : المصدر المتقـــدّم – ج١ – ص ٥١٠-٥١١.
ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٠ – ص ٣٤٥. ويورد الخبر سنة ٤٩٥ هـ.
٣) ابن القلانسي : الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ١٧.

براً وبحراً ، ولم يلتزم الصليبيون بعهدهم ، فقتلوا بعض سكّان المدينة ، ونهبوا ممتلكات البعض الآخر ، فيما سار زهر الدولة إلى دمشق ، ثمّ عاد إلى مصر[1].

– موقعة الرملة الثالثة :

وظلّ الأفضل مثابراً على مناجزة الصليبيين ، فأنفذ إليهم جيشاً كبيراً قوامه خمسة آلاف مقاتل ، وضع على قيادته ابنه سناء الملك ، وكَاتَبَ ظهير الدين طغتكين ، أتابك دمشق ، لإنجاده ضدّ الصليبيين ، فأرسل إليه ألف وثلاثمائة فارس ، اجتمعوا مع الجيش الفاطمي بالقرب من عسقلان[2] ، ولكن بلدوين الأول تحرك فوراً صوب الرملة حيث يمكنه حماية يافا والقدس معاً. وفيما كان الأسطول الفاطمي قد توجّه إلى قبالة يافا ، التقى الجيش الفاطمي بلدوين الأول وجيشه عند سهل الرملة ، في ١٤ شهر ذي الحجّة سنة ٤٩٨ هـ / ٢٧ آب سنة ١١٠٥م ، ودارت الدوائر على الجيش الفاطمي وعساكر دمشق ، وقُتِلَ عدد كبير من الأمراء والجند ، من جُملتهم جمال الملك ، حاكم عسقلان[3] ، وقَفَلَ الأسطول الفاطمي راجعاً إلى مصر ، ولكن عاصفة قوية قذفت بعدد من سفنه إلى الموانئ الصليبية فأُسِرتْ[4] ، ليتم بذلك إخفاق هذه الحملة

---

١) تشارترز : الموسوعة الشامية – ج٦ – ص ٤١٧. ابن القلانسي : الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ١٧. وليم الصوري : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٥١٢–٥١٣. ابن الأثير : المصدر المتقدم – ج١٠ – ص ٣٧٣. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٩٤. العيني : عقد الجمان – الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٦.

٢) تشارترز : الموسوعة– ج٦ – ص ٤٢٣–٤٢٦. ويذكر أن عدد الجيش المصري بلغ خمسة عشر ألفاً ما بين فارس وراجل. ابن القلانسي : الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ١٩. ويورد عدد الجيش المصري عشرة آلاف. وليم الصوري : المصدر نفسه – ج١ – ص ٥٢٠–٥٢١. وهو يؤيد تشارترز حول عدد الجيش المصري. ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٠ – ص ٣٩٤. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٥. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٩٤–٩٥. العيني : عقد الجمان – الموسوعة – ج٢٤ – ص ٢١–٢٢.

٣) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٤٢٦–٤٢٧. ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ١٩. وليم الصوري : المصدر نفسه – ج١ – ص ٥٢٢. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٥. المقريزي : اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٩٥. العيني : عقد الجمان – الموسوعة – ج٢٤ – ص ٢٢.

٤) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٤٢٨. وليم الصوري : المصدر نفسه – ج١ – ص ٥٢٢. عاشور : الحركة الصليبية – ج١ – ص ٢٤٠.

ومثيلاتـــها في ردع الصليبـــيين وكبح أطماعهم ، أو استرداد بعض ما سلبوه.

– سقوط طرابلس :

لم يتحقق حلم ريموند الصنجيلي بتأسيس إمارة خاصة به ، وتحديداً شغفه بطـــرابلس التي امتنعت عليـــه طيلة سنوات أربع (٤٩٥ – ٤٩٨ هـ) ، ومات في جمادى الآخرة ســـنة ٤٩٨ هـ / ٢٨ شباط ١١٠٥ م[١] ، وذلك بفضل صمود وشجاعة القاضي فخـــر الملـــك أبـــي علي ابن عمّار ، صاحب طرابلس ، ولكن الأوضاع ما لبثت أن تبدّلت نحو الأســـوأ عندما خَلَفَ ريموند ابن أخيـــه وليم جوردان ، الذي شدّد هجماتـــه علـــى طـــرابلس ، فقلّت المؤن ، وانتشرت الأمراض ، ممّا اضطرّ فخر الملك ابن عمار إلى السفر صوب بغداد ، في رمضان سنة ٥٠١ هـ / أيار سنة ١١٠٨ م ، لطلب النجدة من الخليفة العباسي المستظهر (٤٨٧ – ٥١٢ هـ / ١٠٩٤ – ١١١٨م) والسلطـــان السلجـــوقي محمد بـــن ملكـــشاه (٤٩٧ – ٥١١ هـ / ١١٠٤ – ١١١٧م) ، وإذ لم يجدْ في بغداد سوى الخطب الجوفـــاء ، قفل راجعاً صوب بلاد الشام[٢] ، التي ما أن وصلها حتّى بلغه خبر فقدانـــه طرابلس ، ذلك أنّ أهلها ظنّوا أنّ ضالّتـــهم هي عند الوزير الأفضـــل ، فأرسلوا ينشدون حماية الفاطميين لهم ، ويعرضون تسليم المدينة لولاتـــه ، فقدم «شرف الدولة بن أبـــي الطيب والياً من قبل الأفضل ، ومعه الغلة ، فلما وصل إليـــها ، وحصل فيـــها ، قبض على جماعة أهل فخـــر الملك بن عمار وأصحابه ، وذخائره وآلاتـــه وأثاثه ، وحمل الجميع إلى مصر في البحـــر»[٣]

---

١) ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ١٨. وليم الصوري : المصدر نفسه – ج١ – ص ٥١٩. العينـــي : الموسوعة – ج٢٤ – ص ٢٠.

٢) ابـــن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٢٧-٢٨. ابـــن الأثـــير : الكامـــل – ج١٠ – ص ٤٥٢-٤٥٣. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٧.

٣) ابن القلانسي : الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ٢٨. ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٠ – ص ٤٥٤.

وذلك في آخر شهر ذي الحجة سنة ٥٠١ هـ / آب سنة ١١٠٨م. ومجدداً سارت الأمور نحو الأسوأ ، إذ وصل برترام بن ريموند الصنجيلي ، كونت طولوز ، بصحبة أسطول ضخم من جنوى ، ورسا بالقرب من طرابلس ، ولكونــه صاحب الحق الشرعي في إرث أبــيــه ، نـــهض بأعباء الهجوم والضغط على طرابلس ، وفيما أخفقت النجدات الفاطمية في إنقـــاذ المدينة ، نجح الصليبـــيون في حجب أي معونة تصل إليـــها ، وهاجموها وبشدّة من كـــلّ الجهات ، حتّى اضطرّ أهلها إلى الاستسلام ، شريطة بذل الأمـــان لهـــم وعـــدم نـــــهب ممتلكاتـــهم ، ودخل الصليبـــيون طرابلس في ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ / ٢٦ حزيـــران سنة ١١٠٩م ، وإذ التزم بلدوين الأول وبرترام بشروط الاستسلام ، فإن الجنوية ما لبثوا أن أحدثوا شغباً وفتنة ليقتلوا بعض سكان المدينة ، وينتزعوا ممتلكاتـــهم وأموالهم[١].

ولعلّ ابن تغري بردي أصاب تماماً جوهر الحقيقة ، حين حمّل الفـــاطميين مـــسؤولية سقوط طرابلس ، وأبرز لا مبالاتـــهم وتقصيرهم من خلال ثلاثة أمور :

١- تقاعسهم عن إمداد طرابلس بما يلزم من مقاتلة وذخائر ، على الرغم من تملّكهم لها.

٢- ضعف العسكر الذي أُرسِل مع أسطول مصر ، بدليل عجزه وفتور همّتـــه.

٣- عدم خروج الأفضل بنفسه على رأس جيشه وأسطوله[٢].

وانتـــهز بلدوين ، ملك بـــيت المقدس ، نشوة نصره ، وسار نحو جبـــيل ، جنوب طرابلس ، وتسلّم الحصن بالأمان ، في ٢٢ ذي الحجة / ٧ تموز ، من السنة نفسها[٣].

---

١) تشارتـــرز : الموسوعة – ج٦ – ص ٤٣٤ – ٣٤٦. ابن القلانـــسي : الموســـوعة – ج١١ – ص ٣١. ولـــيم الصوري : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٥٣٠-٥٣٣.

٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة – ج٥ – ص ١٧٩.

٣) ابن القلانســـي : الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ٣١. ابن الأثـــير : المـــصدر نفـــسه : ج١٠ – ص ٤٧٦. الحريري : الموسوعة – ج٢٣ – ص ٣٢٤. ويورد الخبر سنة ٥٠٣ هـ.

- سقوط بـــيروت :

كان لانفراط عِقْد المدن الفاطمية على ساحل بلاد الشام ، فعل السحر بعقل بلدوين الأول ، فأرادها ضربةً كاملةً يسيطر بها على جميع تلك المدن والموانئ ، فحشد صليبيـــيي طرابلس وأنطاكية وتل باشر ، وهاجم بـــيروت وحاصرها ، ولكن مقاومة أهلها ، وقدوم تسع عشرة سفينة فاطمية ، وكسرها الحصار ودخول الميناء ، ومعها الغلال والميرة ، رفـــع من معنويات سكّان بـــيروت ، وأخّر سقوطها ، غير أنّ بلدوين الأول استنجد بالجنويـــة ، فأمدّوه بأربعين سفينة مشحونة بالمقاتلين ، فتقوّى بهم ، وضيّق الحصار علـــى بـــــيروت ، واشتدّ القتال ، وقُتِلَ عدد كبـــير من المسلمين[1] الذين استبسلوا في الـــدفاع والمواجهـــة ، «ولم ير للفرنج فيما تقدّم أشدّ من حرب هذا اليوم»[2] الجمعة ٢١ شوال ســـنة ٥٠٣ هـ / ٢٧ نـــيسان سنة ١١١٠م ، وتراجع المسلمون ، ودخل الصليبـــيون مدينة بـــــيروت ، ونـــهبوها ، وأسروا أهلها ، وصادروا واستولوا على ثرواتـــها ، وحاول عـــضد الدولـــة التنوخي ، الحاكم الفاطمي للمدينة ، الهروب مع بعض أعوانـــه ، لكنـــه وقع في الأســـر ، وقتله الصليبـــيون[3] ، فيما تصدّت فرقةٌ منـــهم لنجدة فاطمية خرجت من مصر ، قوامها ثلاثمائة فارس ، وصلت – كالعادة – متأخرة ، وقُتِل بعض أفرادها ، وهرب الباقون[4].

---

١) ابن القلانسي : الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ٣٥. وليم الصوري : المـــصدر المتقـــدم – ج١ – ص ٥٣٨-٥٣٩. المقريزي : اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٠٢.

٢) المقريزي : المصدر نفسه – الموسوعة الشامية – ج٢٥ – ص ١٠٢.

٣) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٤٣٦. ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٣٥. العظيمي : الموسوعة – ج١١ – ص ١٥٦. وليم الصوري : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٥٤٠. ويورد الخبر ســـنة ١١١١م ، وهـــذا وهم. سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان – الموسوعة – ج١٥ – ص ٢٨٩. ابن واصـــل : التـــاريخ الـــصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٤٥٦. المقريزي : المـــصدر نفـــسه – الموســـوعة – ج٢٥ – ص ١٠٢. العينـــي : الموسوعة – ج٢٤ – ص ٣٢.

٤) ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٣٥. المقريزي : المصدر نفسه – الموســـوعة الـــشامية – ج٢٥ – ص ١٠٣.

– سقوط صيدا :

إذا كانت محاولتا بلدوين الأول ، ملك بيت المقدس ، سنوات ٤٩٩ هـ ، ٥٠١ هـ ، قد أخفقتا في سيطرته على ميناء صيدا ، فإن سقوط بيروت وقدوم أسطول ضخم من الحجاج النروجيين ، تحت زعامة الملك النروجي سيغورد (١١٠٣ – ١١٣٠) ، جدّدا عزيمته للاستيلاء عليها ، وما لبث أن قَبِل النروجيون تقديم المساعدة للملك بلدوين الأول مقابل إطعامهم فقط ، وسار بلدوين من عكّا ، وأبحر الأسطول النروجي من يافا ، حيث شرعوا بضرب حصار محكم على صيدا ، في ٣ شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٤ هـ / ٣ تشرين الأول ١١١٠ م[1] ، «فعملوا البرج وزحفوا به إليها ، وهو ملبس بحطب الكرم والبسط وجلود البقر الطرية ، ليمنع من الحجارة والنفط ، وكانوا إذا أحكموه على هذه الصورة نقلوه على بكر تركب تحته في عدّة أيام متفرقة ، فإذا كان يوم الحرب وقرب من السور ، زحفوا به ، وفيه الماء والخل لطفي النار ، وآلة الحرب ، فلما عاين مَنْ بصيدا هذا الأمر ، ضعفت نفوسهم ، وأشفقوا من مثل نوبة بيروت ، فأخرج إليهما – أي إلى بلدوين الأول وملك النروج – قاضيها وجماعة من شيوخها ، وطلبوا من بلدوين الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، وأمّنهم والعسكرية معهم على النفوس والأموال»[2] ، وخرج معظم أهل صيدا وتوجّهوا إلى دمشق ، فيما دخل الصليبيون واستولوا على المدينة ، في ٢٠ شهر جمادى الأولى سنة ٥٠٤ هـ / ٢٠ تشرين الثاني ١١١٠م. أمّا الأسطول الفاطمي فلم يتمكّن من تقديم أية نجدة ، وبدا عاجزاً وضعيفاً تماماً[3].

---

١) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٤٣٩. ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٣٩. وليم الصوري : المصدر المتقدّم – ج١ – ص ٥٤٠–٥٤١.

٢) ابن القلانسي : تاريخ دمشق – الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ٣٩.

٣) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٤٤٠. ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٣٩. العظيمي : الموسوعة – ج١١ – ص ١٥٦. وليم الصوري : المصدر المتقدّم – ج١ – ص ٥٤٢. ابن الأثير : الكامل – ج١٠ – ص ٤٧٩–٤٨٠. سبط ابن الجوزي : الموسوعة – ج١٥ – ص ٢٩٠. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٤٥٦. ويذكر الخبر ضمن أحداث سنة ٥٠٧ هـ ، وهذا مجانب للصواب. ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر – ج٦ – ص ٤٧٤. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة الشامية – ج٢٥ – ص ١٠٣. العيني : الموسوعة – ج٢٤ – ص ٣٤.

– محاولة بلدوين الأول الاستيلاء على عسقلان وصور :

كانت عسقلان فاتحة المدن الفاطمية على ساحل بلاد الشام ، وقاعدة مهمّة لتجمّع الجيوش البرية والأساطيل البحرية الفاطمية المنطلقة صوب إمارات الصليبيين وممتلكاتهم ، فضلاً عن أنها تُعدُّ مركزاً متقدّماً للفاطميين بجوار الصليبيين ، فهي – أي عسقلان – تستطلع أحوالهم ، وتتحسّس خطرهم ، وترصد حركتهم ، وبذا فإنها تردّ عن مصر خطر الصليبيين ، وتدفعهم عنها ، وتحول دون تقدّمهم إليها ، هذا إلى جانب أنها تشكّل مكافئاً بحرياً لمدينة يافا – التي استولى عليها الصليبيون – وكلتا المدينتين تبعدان عن القدس المسافة نفسها ، ممّا يعني أنّ عسقلان تمثّل خطراً فاطمياً على مملكة بيت المقدس الصليبية ، هذا إلى جانب أن عسقلان – فيما لو سقطت بيد بلدوين الأول – هي أوّل الطريق إلى مصر.

وما لبث بلدوين الأول – بعد فراغه من صيدا – أن قصد عسقلان ، ولكن حاكمها الفاطمي شمس الخلافة «مال إلى الموادعة والمسالمة وإيمان السابلة»[1] فراسل بلدوين الأول «واستقرّت الحال بينهما على مال يحمله إليه ، ويرحل عنه ويكفّ الأذيّة عن عسقلان»[2] ، واستاء الأفضل من عمل شمس الخلافة ، فأرسل حملة عسكرية ظاهرها محاربة الصليبيين ، وباطنها إزاحة شمس الخلافة عن حكم عسقلان ، ولكن هذا الأخير أدرك كنه هذه الحملة فرفض إدخالها إلى عسقلان ، أو الخروج إليها[3] ، كما ساوره الشكّ والخوف من أهل عسقلان «فأحضر جماعة من الأرمن واتّخذهم جنداً»[4] ، ممّا

---

١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق – الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ٤١.

٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه – الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ٤١. المقريزي : اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٠٣. ويورد الخبر نفسه.

٣) ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٤١. ابن الأثير : الكامل – ج١٠ – ص ٤٨٠. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٠٤.

٤) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٠ – ص ٤٨١. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٠٤. ويورد الخبر نفسه.

أغضب أهل المدينة ، فثاروا عليه وقتلوه ونهبوا داره ، وأرسلوا رأسه إلى الأفضل ، الذي دخلت حاميته عسقلان ، وأعادت تبعيتها للفاطميين ، وذلك في أواخر سنة ٥٠٤ هـ / منتصف ١١١١م[١].

وفي صور أدرك حاكمها الفاطمي ، عزّ الملك أنوشتكين الأفضلي ، أنّ حظّ مدينته من أطماع الصليبيين وغاراتهم آتٍ لا محالة ، لذا كتب وأهل صور يستنجدون ظهير الدين طغتكين ، ويعدونه بتسليم البلد إليه ، ويرجونه الإسراع بمعونتهم ، وإلاّ سلّموا صور إلى الصليبيين ، «ليأسهم من نصرة الأفضل صاحب أمر مصر»[٢] ، وسارع طغتكين – أتابك دمشق – إلى إرسال مائتين من خيرة فرسانه ، وأتبعهم بعدد آخر من النجدات ، وحينما وصلت هذه الأخبار إلى بلدوين الأول – ملك بيت المقدس – سار وجيشه وفرض الحصار على صور ، في ٢٥ جمادى الأولى سنة ٥٠٥ هـ / ١٤ تشرين الثاني ١١١١م[٣] ، وأمر بلدوين الأول «ببناء برجين خشبيين يكونان أعلى السور ، ودفعهما إلى جوار الأسوار ، آملاً بذلك في أن يستولي على المدينة ، ولكن المسلمين ، وقد أدركوا أنّ في ذلك حتفهم ، هزموا البراعة بالبراعة ، وعارضوا الدهاء بالدهاء ، وتصدّوا للشجاعة بالشجاعة ، وكانوا عندما رأوا أنّ ارتفاع البرجين أعلى من فوق الأسوار بكثير ، ابتكروا العلاج على عجل ، فشيّدوا برجين فوق أسوارهم أثناء الليل ، وقد مكّن ارتفاع هذين البرجين الشاهقين المسلمين من الدفاع عن أنفسهم بنجاح ، حيث أشعلوا النيران

-

١) ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٤٢. ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٠ – ص ٤٨١. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٠٦. ويورد الخبر سنة ٥٠٦ هـ.

٢) ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٤٨. ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٠ – ص ٤٨٩. ويورد الخبر نفسه تقريباً.

٣) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٤٤٢. ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٤٨. وليم الصوري : المصدر المتقدّم – ج١ – ص ٥٤٥.

من الأعلى وقذفوها»[1] على البرجين القصيرين ، وحيال ضغط طغتكين وشدّة هجماته على المناطق الصليبية ، وصمود أهل صور ، واستبسالهم في الدفاع عن مدينتهم ، أُسقِط في يدْ بلدوين الأول ، ورجع خائباً إلى عكّا ، في ١٠ شوال سنة ٥٠٥ هـ / ٢٧ آذار سنة ١١١٢م ، بعد حصار دام أربعة أشهر ونصف شهر[2].

ولكن أهل صور حزموا أمرهم ، وأرسلوا إلى طغتكين يعلمونه رغبتهم بتسليمه مدينتهم ، فتوجّه إليهم الأمير سيف الدولة مسعود ، نائباً عن أتابك دمشق ، الذي سَمَح ببقاء الخطبة للخليفة الفاطمي ، وسكّ النقود باسمه ، وذلك في سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٣ م[3] ، وكتب إلى مصر ، يطلع الوزير الأفضل على ما حدث ، وأنّ نوّابه في صور سيخرجون منها حالما يصل إليها من مصر «مَنْ يتولّى أمرها ، ويذبّ عنها ويحميها»[4]. وردّ الأفضل بالقول : «هذا أمر وقع منّا أجمل موقع ، وأحسن موضع»[5] ، وأرسل أسطولاً محمّلاً بالمؤن والذخائر ، كما أرسل خلعاً فاخرة إلى طغتكين وولده بوري ومسعود[6].

---

١) تشارترز : تاريخ الحملة إلى القدس - الموسوعة الشامية - ج٦ - ص ٤٤٢.

٢) تشارترز : الموسوعة - ج٦ - ص ٤٤٢. ابن القلانسي : الموسوعة - ج١١ - ص ٥١. وليم الصوري : المصدر المتقدّم - ج١ - ص ٥٤٦.

٣) ابن القلانسي : الموسوعة - ج١١ - ص ٥٤. المقريزي : الموسوعة - ج٢٥ - ص ١٠٧. العيني : الموسوعة - ج٢٤ - ص ٤٣. ويورده سنة ٥٠٥هـ.

٤) ابن القلانسي : الموسوعة الشامية - ج١١ - ص ٥٥. المقريزي : الموسوعة - ج٢٥ - ص ١٠٧. ويورد الخبر نفسه. العيني : الموسوعة - ج٢٤ - ص ٤٤.

٥) ابن القلانسي : الموسوعة الشامية - ج١١ - ص ٦١.

٦) ابن القلانسي : الموسوعة - ج١١ - ص ٦١. المقريزي : الموسوعة - ج٢٥ - ص ١٠٧. العيني : الموسوعة - ج٢٤ - ص ٤٥.

- بلدوين الأول وغزو مصر :

لم يكن إخفاق بلدوين الأول في الاستيلاء على عسقلان ، كخطوة أساسية نحو تحقيق حلمه في السيطرة على مصر ، ليثبّط من عزيمته للقيام بغزو مصر ، خصوصاً بعدما انتهز الفاطميون انشغال بلدوين الأول بالتصدّي للحملة السلجوقية بقيادة مودود ، سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣م ، وأقدموا على مهاجمة مملكة بيت المقدس ، وأخفقوا في اقتحامها لمناعة أسوارها ، فرجعوا إلى عسقلان[١] ، ولكنهم انتهزوا انشغال بلدوين الأول - مرةً أخرى - بأمر الحملة السلجوقية بقيادة برسق بن برسق صاحب همذان ، سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥م ، فقاموا بمهاجمة يافا براً وبحراً ، إلاّ أنّ صمود حاميتها الصليبية ، والخوف من وصول النجدات من بيت المقدس ، حالت دون دخول الفاطميين إلى المدينة «ورجع الذين قدموا براً إلى عسقلان ، أمّا الذين قدموا بحراً فقد عادوا إلى مدينة صور»[٢].

إذاً ، استيلاء بلدوين الأول على مصر لن يحقق أحلامه وأطماعه فقط ، بل سيقطع عنه دابر التهديد والخطر من قِبَل أهلها وحكّامها ، ويؤمّن حكم الصليبيين في القدس ، ويجعل مملكتهم فيها راسخة إلى الأبد ، حسب اعتقاده.

وشرع بلدوين الأول في التمهيد لعمله الضخم ، فقام سنة ٥١٠ هـ / ١١١٥ م ، بالتوغّل في منطقة وادي عربة ، وشيّد قلعة مونتريال[٣] (الشوبك) ، جنوب البحر الميت ، وذلك بهدف عزل مصر ، وقطع الطريق البري الذي يربطها مع بلاد الشام والحجاز ، ثمّ أكّد هدفه بوصوله حتّى مدينة أيلة ، على البحر الأحمر[٤] ، وسار في شهر ذي الحجة سنة

---

١) تشارترز : الموسوعة - ج٦ - ص ٤٤٦. وليم الصوري : المصدر المتقدّم - ج١ - ص ٥٤٩.
Oldenbourg: Op. cit , pp. 233,234.

٢) تشارترز : الموسوعة - ج٦ - ص ٤٥٠-٤٥١. وليم الصوري : المصدر نفسه - ج١ - ص ٥٥٥-٥٥٧.
Oldenbourg: Ibid , p. 234.

٣) تشارترز : الموسوعة - ج٦ - ص ٤٥٣. وليم الصوري : المصدر نفسه - ج١ - ص ٥٥٩-٥٦٠.
Oldenbourg: Ibid , p. 243.

٤) تشارترز : الموسوعة - ج٦ - ص ٤٥٣. وليم الصوري : المصدر نفسه - ج١ - ص ٥٦٥.
Oldenbourg: Ibid , p. 243.

٥١١ هـ / أواخر آذار سنة ١١١٨م ، إلى مدينة الفرما ، الواقعة على الساحل والقريبة من أحد مصبي النيل المسمّى بمصبّ بحيرة المنزلة ، وهاجم بلدوين المدينة وتمكّن من اقتحامها ونهبها وحرق جامعها[١] ، ولكن هذا التحرك من بلدوين الأول ، وإن يكن وصل به إلى نهر النيل داخل الأراضي المصرية ، فهو لا يعني الحملة الكبرى المأمولة ، بدليل قلّة قوّاته التي صحبته ، وعدم وصول أي أساطيل من الغرب للدعم والمساندة ، وما لبث أن أصيب الملك بلدوين بالمرض ، وحُمِل في محفّة ، للعودة به إلى مملكته ، ولكنه مات عند بلدة العريش ، ونُقِل إلى بيت المقدس ، ودُفِن فيها ، في ١٩ ذي الحجّة سنة ٥١١ هـ / ٧ نيسان سنة ١١١٨م[٢].

- **التعاون بين القاهرة ودمشق :**

أثار اختراق بلدوين الأول للتخوم المصرية حفيظة الأفضل ، فكتب إلى طغتكين ، أتابك دمشق ، معاتباً بالقول : «لا في حق الإسلام ، ولا في حق الدولة التي ترغب في خدمتها والانحياز إليها تتوجّه الفرنج بجملتها إلى الديار المصرية ولا يتبين لك فيها أثر ولا تتبعهم ، ولو كان وراءهم مثل ما كان أمامهم ما عاد منهم أحد»[٣].

---

١) تشارترز : الموسوعة - ج٦ - ص ٤٥٩. وليم الصوري : المصدر نفسه - ج١ - ص ٥٦٧. ابن الأثير : الكامل - ج١٠ - ص ٥٤٣. ابن أيبك : المصدر المتقدّم - ج٦ - ص ٤٨٠. المقريزي : اتّعاظ الحنفا - الموسوعة - ج٢٥ - ص ١١٠.
Oldenbourg: Ibid , p. 244.

٢) تشارترز : الموسوعة - ج٦ - ص ٤٦٠. العظيمي : الموسوعة - ج١١ - ص ١٥٩. وليم الصوري : المصدر نفسه - ج١ - ص ٥٦٨. ابن الأثير : المصدر نفسه - ج١٠ - ص ٥٤٣. ويندوفر : الموسوعة - ج٤٤ - ص ١٢٨. ابن أيبك : المصدر نفسه - ج٦ - ص ٤٨٠. المقريزي : الموسوعة - ج٢٥ - ص ١١٠. ابن تغري بردي : المصدر المتقدّم - ج٥ - ص ١٧١. عاشور : المرجع المتقدّم - ج١ - ص ٢٥٩.
Oldenbourg: Ibid , p. 244.

٣) المقريزي : اتّعاظ الحنفا - الموسوعة الشامية - ج٢٥ - ص ١٠٨.

ويمكننا أن نلحظ من قول الأفضل إقراره بحاجة مصر إلى المساندة والدعم وتحديداً من دمشق لمواجهة الصليبيين ، وأنّ الأفضل تجاوز الاختلاف المذهبي والسياسي وناشد طغتكين مؤازرة مصر ، هذا إلى أنّ الأفضل يصرّح بوجود مقاومة لمنع تقدّم بلدوين الأول صوب مصر ، مع أننا لم نلمح ذلك ، فقد أوضحنا أنّ رجوع بلدوين عن مصر كان لقلّة قوّاته ، ووقوعه في المرض.

المهم حينذاك ، أنّ تعاوناً وتنسيقاً عربياً ، محوره القاهرة ودمشق ، قد لاح في أفق المواجهة مع الصليبيين ، وتحرك طغتكين صوب عسقلان ، وأصبح الجيش الفاطمي تحت إمرته ، فيما رَسَتْ بعض قطع الأسطول الفاطمي في عسقلان ، وأخرى رست في صور ، وبموازاة ذلك كان بلدوين الثاني (٥١٢ - ٥٢٦ هـ / ١١١٨ - ١١٣١م) ، ملك بيت المقدس الجديد ، قد استدعى قوّات مساندة من أراضي أنطاكية وطرابلس ، وعسكر وجيشه شمال عسقلان ، وكان الجيشان - الإسلامي والصليبي - قريبين من بعضهما بعضاً إلى حدّ أنه استطاع كل منهما مراقبة معسكر عدوّه من حين لآخر ولكن حالة الترقب والحذر امتدّت نحو ثلاثة أشهر ، عاد بعدها كل جيش من حيث أتى ، في جمادى الآخرة ٥١٢ هـ / تشرين الأول ١١١٨م[١].

وقُتِل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي في الأول من شوّال سنة ٥١٥ هـ / ٢٣ كانون الأول سنة ١١٢١م ، وتولّى منصب الوزارة محمد بن فاتك البطائحي ، الذي أعطاه الخليفة الفاطمي الآمر لقب المأمون[٢] ، وقَدِمَتْ إلى مصر رسل طغتكين ، أتابك دمشق ، وآق

---

١) تشارترز : الموسوعة - ج٦ - ص ٤٦٢. وليم الصوري : المصدر نفسه - ج١ - ص ٥٧٥. ابن الأثير : المصدر نفسه - ج١٠ - ص ٥٤٣.

٢) ابن القلانسي : تاريخ دمشق - ص ٣٢٣. العظيمي : الموسوعة - ج١١ - ص ١٦٢. ابن الأزرق الفارقي : الموسوعة - ج١١ - ص ٢١٤. الأصفهاني : البستان الجامع - الموسوعة - ج١١ - ص ٣٤١. ابن الأثير : المصدر نفسه - ج١٠ - ص ٥٨٩. ابن أبي الدم : التاريخ المظفري - الموسوعة - ج٢١ - ص ٢٢١. ابن نظيف : التاريخ المنصوري - الموسوعة - ج٢١ - ص ٣٠٢. ابن واصل : التاريخ الصالحي - الموسوعة - ج٢١ - ص ٤٦١. ابن أيبك : المصدر المتقدّم - ج٦ - ص ٤٨٥. المقريزي : الموسوعة - ج٢٥ - ص ١١٢. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم - ج٥ - ص ٢٢٢.

سنقر البرسقي ، صاحب الموصل ، تحضّ الآمر على مهاجمة الممتلكـــات الـــصليبيـــة[١] ، ويبدو أنّ الظروف كانت مواتية بسبب وقوع بلدوين الثانـــي في الأسر على يد بلك بـــن بهرام الأرتقيّ في شهر صفر سنة ٥١٧ هـ / نـــيسان ١١٢٣م[٢] ، فجهّز المأمون البطـــائحي أسطولاً ضخماً ، مؤلفاً من أربعين شينـــياً ، وأنفذه إلى عـــسقلان ، وتحركـــت الجيـــوش الفاطمية منـــها إلى يافا ، وهاجمتـــها براً وبحراً ، ولكن خبر قدوم نجدة صليبـــية لمـــساندة يافا ، جعل الفاطميين يعودون أدراجهم ، واصطدمت قواتـــهم البرية عنـــد يبنـــا ، علـــى الطريق بـــين يافا وعسقلان ، مع النجـــدة الصليبـــية ، وهُزِم الجيش الفاطمي ، ولحقـــه الصليبـــيون قتلاً وأسراً ، وذلك في شهر ربـــيع الأول سنة ٥١٧ هـ / أيار سنة ١١٢٣م[٣] ، أما الأسطول الفاطمي فقد لقي ضربة قاسية من أسطول البندقية الذي وصل إلى عكّـــا في السنة نفسها من مهاجمة يافا ، وتوجّه من فوره إلى عسقلان ودمّر عدداً كبـــيراً من السفن الفاطمية ، وأَسَرَ في طريق عودتـــه إلى عكّا أسطولاً تجارياً إسلامياً مكوّناً من عشر ســـفن محمّلة بالمؤن والذهب والنقود الفضية والتوابل[٤].

ولم يشأ أسطول البندقية أن يضيّعَ وقتـــه سدىً ، إذ ما أن تمّ الاتفاق مـــع بطريـــرك

---

١) ابن القلانسي : المصدر نفسه – ص ٣٣٥. ويذكر أن رسول طغتكين هو الحاجب علي بن حامد. المقريـــزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ٢٧. اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٥٣. عاشور : المرجع المتقـــدم – ج١ – ص ٤٠٤.

٢) ابن القلانسي : الموسوعـــة – ج١١ – ص ٧٢. العظيمي : الموسوعة – ج١١ – ص ١٦٤. المؤرخ الرهـــاوي المجهول : الموسوعة – ج٥ – ص ٤٣-٤٤. وليم الصوري : المـــصدر المتقـــدم – ج١ – ص ٥٩٠. ميخائيـــل السوري : الموسوعة – ج٥ – ص ١٢٠. ابن الأثير : الكامل – ج١٠ – ص ٥٩٣. ابن العديم : زبدة الحلب – الموسوعة – ج١٦ – ص ٨١. ابن العبري : الموسوعة – ج٥ – ص ٣٣٨.

٣) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٤٧٦-٤٧٧. وليم الصوري : المصدر نفسه – ج١ – ص ٥٩٥. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ٢٧. اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٥٣. عاشور : المرجع المتقـــدم – ج١ – ص ٤٠٤.

٤) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٤٨١. ابن القلانسي : تاريخ دمشق – ص ٣٣٣. وليم الصوري : المـــصدر نفسه – ج١ – ص ٥٩٨-٥٩٩. ابن الأثير : الكامل – ج١٠ – ص ٦١٧. المقريزي : الموســـوعة – ج٢٥ – ص ٢٧.

بـيت المقدس وباروناتـها حتّى شرع في حصار صور في شهر ذي الحجة سنة ٥١٧ هـ / شباط سنة ١١٢٤م[١] ، ولم تفلح هجمات الفاطميين ، انطلاقاً من عسقلان ، صوب بـيت المقدس ، في تخفيف الضغط عن صور ، كما أخفق طغتكين في إنقاذ المدينة[٢] ، وما لبث اليأس أن تسرّب إلى أهل صور وحاميتـها بسبب نقـص المؤن وشدّة الحصار الصليبـي للمدينة من البر والبحر ، واضطرّ طغـتكين – حيـال ذلـك – إلى مراسلة الصليبـيين ، وإعلامهم عن رغبتـه في تسليم صور إليـهم ، مقابل سماحهم بخروج حامية المدينة وأهلها سالمين مع أمتعتـهم ، وضمان حياة مـن أراد البقـاء فيـها ، ووافـق الصليبـيون على هذه الشروط ، وتمّ فعلاً خروج العساكر ومن رغب من أهـل صـور ، ودخلها الصليبـيون في ٢٣ جمادى الأولى سنة ٥١٨ هـ / ١٧ تموز سنة ١١٢٤ م[٣].

– **سقوط عسقلان :**

إذا كانت عسقلان – زمنـياً – تخرج من نطاق حقبة الحملـة الـصليبـية الأولى ، فإنـها لم تخرج مطلقاً من دائرة اهتمام وطموحات الـصليبـيين. وإذا كانـت الدولـة الفاطمية في مصر ، في منتصف القرن السادس الهجري / الثانـي عـشر المـيلادي ، قـد أنـهكتـها المؤامرات والاغتيالات السياسية الداخلية ، فإن ذلك أعطى دافعاً قوياً لبلدوين

---

١) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٤٩٢. وليم الصوري : المصدر نفسه – ج١ – ص ٦٠٠–٦٠١. عاشـور : المرجع المتقدم – ج١ – ص ٤٠٧.

٢) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٥٠١. وليم الصوري : المصدر نفسه – ج١ –٦٢٠. ابن الأثير : الكامـل – ج١٠ – ص ٦٢١.

٣) تشارترز : الموسوعة – ج٦ – ص ٥٠٣. ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ٧٥. العظيمي : الموسوعة – ج١١ – ص ١٦٦. وليم الصوري : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٦٢٥–٦٢٧. الأصفهانـي : الموسـوعة – ج١١ – ص ٣٤٢. ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٠ – ص ٦٢١–٦٢٢. ابن نظيف : الموسـوعة – ج٢١ – ص ٣٠٢. سبط ابن الجوزي : الموسوعة – ج١٥ – ص ٣٠٣. ابن واصل : الموسـوعة – ج٢١ – ص ٤٦٢. ابن أيبك : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٤٩٤. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ٢٨–٢٩. اتعاظ الحنفـا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ١٦٠. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم – ج٥ – ص ٢٢٨.
Oldenbourg: Op. cit , p. 257.

الثالث ، ملك بيت المقدس (٥٣٨ – ٥٥٨هـ / ١١٤٣-١١٦٢م) لتوجيه أطماعه صوب مصر ، بعدما أدرك عقم محاولاته في بلاد الشام ، في ظلّ الوجود القوي لنور الدين زنكي ، صاحب حلب. وإذا كانت مصر هدفاً مهماً ، وعنصراً أساسياً في حسابات الصليبيين ومخططاتهم ، فإن عسقلان لم تكن بأقلّ من ذلك الهدف ، إذ هي جزء منه ، ومدخل إليه ، فلا بدّ للصليبيين من الاستيلاء عليها لمتاخمة مصر ، والولوج في أراضيها ، هذا إلى جانب أنّ الاستيلاء على عسقلان كان يعني سيطرة الصليبيين على ساحل بلاد الشام بأكمله من الإسكندرون شمالاً حتّى غزّة جنوباً ، فضلاً عن أنّ الإجهاز على عسقلان هو إنهاء لآخر معقل فاطمي في بلاد الشام ، وجوده يعدّ تهديداً ما على بيت المقدس ويافا.

وشرع بلدوين الثالث بالتمهيد لتلك الخطوة ، فقام بإعادة بناء مدينة غزة ، على بعد عشرة أميال جنوب عسقلان ، وذلك لعزلها وقطع إمدادات الفاطميين البرية عنها ، كما عمل على بناء قلعة صغيرة ، محكمة البناء ، عهد بها إلى فرسان الداوية ، وجعل لهم الإشراف على غزّة وما حولها ، ٥٤٤ هـ / ١١٥٠م[1]. وعمد بلدوين الثالث إلى ضمان ولاء دمشق وحيادها ، بعدما ساندها ضدّ نور الدين ، ٥٤٦ هـ / ١١٥١م[2]. وحشد بلدوين عدداً ضخماً من القادة الصليبيين ورجال الدين والجند ، وسار صوب عسقلان ، وبدأ بفرض الحصار عليها. وعلى الرغم من نجاح الأسطول الفاطمي في خرق الحصار ودخول المدينة بالمؤن والذخائر ، فإن أهل عسقلان وحاميتها الفاطمية أذعنوا إلى الاستسلام ، وطلبوا من الصليبيين الأمان ، بسبب شدّة الحصار وطول أمده ، ويأسهم من نجدة مجدية تنقذهم من وحشية الصليبيين وسفكهم ، في وقت كانت مصر تعجّ بالفوضى

---

١) ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ١١٩. وليم الصوري : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٧٩٤-٧٩٥. أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية – الموسوعة – ج١٧ – ص ١٩٣. عاشور : المرجع المتقدم – ج١ – ص ٥٠٨.

٢) ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ١٢٢. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٧ – ص ٢٢٣.

السياسية ، والاقتتال على السلطة. واستولى الصليبيون على عسقلان في شهر جمادى الأولى سنة ٥٤٨ هـ / آب ١١٥٣م[١] ، «وخرج منها من أمكنه الخروج في البر والبحر إلى ناحية مضر وغيرها ، وقيل إنّ في هذا الثغر المفتتح من العدد الحربية والأموال ، والميرة والغلال ما لا يُحصى فيذكر ، ولمّا شاع هذا الخبر في الأقطار ساء سماعه ، وضاقت الصدور ، وتضاعفت الأفكار بحدوث مثله»[٢].

وإذا لم يكن سقوط عسقلان بأيدي الصليبيين أمراً كثير الأهمية ، بسبب تضاؤل دوره مع انشغال الفاطميين في صراعاتهم الداخلية ، فإنه كان بلا شكّ خطوة متميزة إلى الأمام أوصلت الصليبيين إلى أبواب مصر ، التي لم تكن موصدة بإحكام ، بل هي مفتوحة على مصراعيها.

---

١) ابن القلانسي : الموسوعة – ج١١ – ص ١٢٧. ابن الأزرق الفارقي : الموسوعة – ج١١ – ص ٢٦٣. وليم الصوري : الموسوعة – ج٧ – ص ١٧٧. ميخائيل السوري : الموسوعة – ج٥ – ص ٢٢٣. ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ١٨٨. ابن أبي الدم : الموسوعة – ج٢١ – ص ٢٣٥. ابن نظيف : الموسوعة – ج٢١ – ص ٣٠٨. ابن العديم : زبدة الحلب – الموسوعة – ج١٦ – ص ١٣٠. أبو شامة : الموسوعة – ج١٧ – ص ٢٤٩. ابن أيبك الدواداري : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٥٦٢. الذهبي : العبر في خبر من غبر – (٥) أجزاء – الكويت – ١٩٨٤م – ج٤ – ص ١٢٩. المقريزي : اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٢٣٦. ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية في السيرة النورية – الموسوعة – ج٢٣ – ص ٢٤١. الحريري : الموسوعة – ج٢٣ – ص ٣٢٩. عاشور : المرجع المتقدم – ج١ – ص ٥١٠.

٢) ابن القلانسي : تاريخ دمشق – الموسوعة الشامية – ج١١ – ص ١٢٧.

الفصل الثاني

الصراعات على السلطة في مصر ونهاية الخلافة الفاطمية

- طموحات الصليبيين والمسلمين تجاه مصر
- صراع الوزراء الفاطميين والتدخّل الخارجي في مصر
- معركة البابين
- تولّي صلاح الدين وزارة الفاطميين في مصر
- الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط :

  أوضاع مصر الداخلية

  نداءات الاستغاثة الصليبية

  انطلاق الحملة صوب دمياط

  حصار دمياط ، والخطط الإسلامية للقتال والدفاع

  أسباب إخفاق الحملة البيزنطية الصليبية

  نتائج إخفاق الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط
- المحاولات الأخيرة لإحياء الخلافة الفاطمية في مصر

– طموحات الصليبيين والمسلمين تجاه مصر :

كانت مصر في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي تشهد أواخر الدولة الفاطمية ، التي كانت تعاني من الفساد و الفوضى ، فضلاً عن كثرة الاغتيالات السياسية نتيجة الصراعات الداخلية حول السلطة و الحكم ، وخصوصاً الصراع على منصب الوزارة ، إلاّ أنّ الصراعات الداخلية كانت قد أخذت بعداً إقليمياً خارجياً ، حينما بدأت القوى المتصارعة تستعين ضد بعضها بعضاً ، إما بنور الدين أو الصليبيين ، مما عجل في نهاية الدولة الفاطمية وزوالها عن مسرح الأحداث.

كان عموري الأول[١] ملك القدس مطّلعاً على أوضاع مصر الداخلية المضطربة – بحكم قربه منها – ومدركاً مدى ضعف الخلافة الفاطمية وعجزها عن الاحتفاظ بكيانها ، فاعتقد أنّ من السهل دخول مصر وجعلها إمارة صليبية جديدة ، وازداد تعلّقه بهذا الاعتقاد وهو يرى نجاح نور الدين في توحيد بلاد الشام ، ممّا حطّم طموحات الصليبيين في أي توسّع تجاه الشمال والشرق ، ولم يكن قد بقي أمامهم سوى مصر ، فضلاً عن ذلك ، فمن المؤكّد أن عموري الأول قد طمع في تجارة مصر الضخمة ، وحركة التجارة العالمية التي تمرّ عبر هذا البلد الذي كان يتحكّم في أقصر وأفضل الطرق التجارية الشرقية[٢].

أمّا بالنسبة إلى نور الدين ، فقد كانت مصر تمثّل العمق الاستراتيجي لبلاد الشام ، هذه الحقيقة التي كان نور الدين قد أدركها مبكراً جعلت مصر شامية في سياسته

---

١) كان حاكم يافا وعسقلان ، وقد توّج ملكاً على القدس في كنيسة القيامة باسم عموري الأول بعد وفاة أخيه بلدوين الثالث ، وذلك في ٢٠ صفر سنة ٥٥٧ هـ/١٠ شباط سنة ١١٦٢م. انظر : وليم الصوري – الموسوعة – ج٧ – ص ٢٤٨-٢٥١. عاشور : الحركة الصليبية – ج١ – ص ٥٢٧.

٢) مارينو سانوتو : الأسرار – الموسوعة – ج ٣٨ – ص ٦٥-٦٩. لودولف دي سوخم : وصف الأرض المقدسة – الموسوعة – ج٣٩ – ص ٣١٩-٣٣٠. أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي – الإسكندرية – ١٩٩٣م – ص ٣٥٩-٣٦٠.

Ehrenkreutz, Saladin, pp. 17-18.

العسكرية والوحدوية ، بالإضافة إلى أن نور الدين كـــان يدرك خطورة وقـــوع مـــصر في أيدي الصليبـــيين ، في مقابل أهمية ضم مصر إلى بلاد الشام ، إذ إنّ ذلك كان سيضع مملكة بـــيت المقدس بـــين فكّي كمّاشة إسلامية ، ويشتّت قواها بـــين القتال على جبـــهتين : واحدة في الشمال ، وأخرى في الجنوب ؛ كما لم يكن ليغيب عن فكر نور الدين ما سوف يتيحه ضمّ مصر من موارد اقتصادية وبشرية تقوّي جبهتـــه في مواجهة الصليبـــيين.

- صراع الوزراء الفاطميين والتدخّل الخارجي في مصر :

كانت سلطة الوزراء في مصر في العصر الفاطمي الأخير قد ازدادت إلى حدّ أنـــــهم أصبحوا يتدخّلون في تولية الخلفاء الفاطميين ، وبالتالي غدا منصب الوزارة محـــطّ أنظـــار الطامعين والطامحين إلى السلطة ، وازداد - أيضاً - الصراع لأجل الحـــصول علـــى هـــذا المنصب ، وكان من بـــين الذين دخلوا خضمّ هذا الصراع واستطاع الوصول إلى كرســـي الوزارة شاور السعدي ، الذي كان والياً على الصعيد ، إلاّ أنّ شاور اصطدم بأحـــد قـــادة الجند واسمه ضرغام بن عامر بن سوار ، وهُزِم شاور ، فاضطرّ إلى مغادرة القاهرة ، والتوجّه إلى دمشق ، حيث التجأ إلى نور الدين ، وطلب مساعدتـــه ، وذلك في شهر ربـــيع الأول سنة ٥٥٩هـ/شباط سنة ١١٦٤م[١]. وكان من الطبـــيعي أن يرحّب نور الدين بتلك الفرصة التي تسمح له بالتدخل في شؤون مصر ، بعد أن كانت قد توضّحت نـــية عمـــوري الأول في امتلاكها ، غير أنـــه تردّد في بادئ الأمر بقبول العرض ، وأقبل على دراســـة الموقـــف بجميع أبعاده ، إذ كان يخشى أن يغامر بجيشه على امتداد طريق محفوف بالخطر الصليبـــي ، كما كان يخشى غدر شاور بعد أن يعود إلى منصبه. ولكنـــه ما لبـــث أن وضـــع خطّـــة

---

١) ابن الأثير : الكامل - ج١١ - ص ٢٩٨. أبو شامة : الموسوعة - ج١٧ - ص ٣٦٢ - ٣٦٣. أبـــو الفـــداء : المختصر في أخبار البشر - الموسوعة - ج٢٢ - ص ٨-٩. د. حمدي حسين : دراسات في تـــاريخ الأيوبـــيين والمماليك - الإسكندرية - ١٩٩٦م - ص ١٠. د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية - القـــاهرة - ١٩٦٤م - ص ١٨٩. د. محمد جمال الدين سرور : تاريخ الدولة الفاطمية - القـــاهرة - ١٩٩٤م - ص ١٢٧. د. أيمن فؤاد السيد : الدولة الفاطمية في مصر - القاهرة - ١٩٩٢م - ص ٢٢٢.

عسكرية تقضي بإرسال فرقة من قوّاتـــه بقيادة شيركوه ، وفي الوقت نفسه إشغال الفرنجة في بلاد الشام عسكرياً حتى لا تُتاح لهم الفرصة للتدخّل وقطع الطريق على شيركوه. وفيما كان ضرغام على علم بالاستعدادات التي تجري في دمشق ، استنجد بعموري الأول ، وعقد معه اتفاقاً لمساعدتـــه ضدّ نور الدين ، وتعهّد له بدفع جزية سنوية ، كما وافـــق علـــى أن تدخل مصر في تبعية الصليبـــيين ، وأجبر الخليفةَ الفاطمي العاضد على توقيع الاتفاق[١].

وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملتـــه إلى مصر في شهر جمادى الأولى ســـنة ٥٥٩ هـ/نـــيسان سنة ١١٦٤م ، وسار على الطريق المحدد للحملة ، والذي كان يمرّ عـــبر أراضٍ يسيطر عليـــها الصليبـــيون ، وكان نور الدين قد رافق الحملة بجيشه إلى مـــا يلـــي دمشق للحيلولة دون التعرّض لأفرادها ، كما هاجم الأطراف الشمالية لمملكـــة بـــيت المقدس المجاورة لدمشق ، لتحويل أنظار الصليبـــيين عن مصر. ووصل شيركوه إلى مصر ، والتقى ضرغامَ وقوّاتـــه عند أسوار القاهرة ، وحدثت معركة عنـــيفة ، انتـــهت بانتـــصار شيركوه ، وقتل ضرغام أثناء محاولتـــه الفرار ، قرب مشهد السيدة نفيسة ، في رجب سنة ٥٥٩هـ/حزيران سنة ١١٦٤م ، ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً ، وأعاد شـــاور إلى منصبه في الوزارة[٢].

لكن شاور ما لبث أن نقض اتّفاقيتـــه مع نور الدين ، وطلب من شيركوه الخـــروج من مصر ، إلاّ أنّ شيركوه رفض الاستجابة لطلبه ، وردّ على موقفه المتقلّب بأن سارع إلى الاستيلاء على بلبـــيس وحـــكم المناطق الشرقية. واستنجد شاور بعمـــوري الأول ملـــك القدس ، وعرض عليـــه مبلغاً كبـــيراً من المال للقدوم إلى مصر ومـــساعدتـــه ، وخـــفّ عموري على رأس قوّاتـــه ، ووصل إلى مصر في شهر رمـــضان ســـنة ٥٥٩هـ/آب ســـنة

---

١) وليم الصوري : الموسوعة الشامية – ج٧– ص ٢٦١. عاشور : المرجع المتقـــدم – ج١ – ص ٥٣٢. طقـــوش : تاريخ الأيوبـــيين – دار النفائس – بـــيروت – ١٩٩٩م – ص ٣٢٨.

٢) ابن الأثير : الكامـــل – ج١١ – ص ٢٩٩. ابن العديم : زبدة الحلب – الموسوعة – ج١٦ – ص١٣٨. أبـــو شامة : الموسوعة – ج١٧ – ص ٣٦٣. ابن واصل : مفرج الكروب – ج١ – ص ١٣٧. النويري : الموسوعة – ج٢٢ – ص ٤٢٩. أبو الفداء : الموسوعة – ج٢٢ – ص ٩.

١١٦٤م ، واتّفق وشاور على حصار أسد الدين شيركوه في بلبيس ، واستمرّ الحصار لمدّة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين شيركوه خلالها عن مواقعه ، وفي تلك الثناء كان نور الدين – وقد أخفق في إرسال النجدات إلى شيركوه – يقوم بضغط عسكري شديد على ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام ، فاضطرّ عموري الأول إلى التفاوض مع شيركوه ، واتّفقا على الانسحاب جميعاً من مصر ، وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ/تشرين الأول سنة ١١٦٤م[١].

- معركة البابين :

إلاّ أنّ كلا الاثنين – نور الدين وعموري الأول – لم يكونا لينسيا شأن مصر ، خصوصاً أنّ أيّاً منهما لم يحقق أهدافه ، فضلاً عن أنّ كلاً منهما كان يخشى أن تقع مصر بيد الآخر ؛ لذا بادر نور الدين في ربيع الأول سنة ٥٦٢هـ/كانون الثاني ١١٦٧م إلى إرسال جيش جديد ، بقيادة أسد الدين شيركوه وصحبه ابن أخيه صلاح الدين – الذي كان قد رافقه في الحملة الأولى أيضاً – وقد بلغ تعداد أفراد هذا الجيش ألفي فارس. وعلى الرغم من خطورة الطريق ، وقسوة الظروف ، فقد وصل جيش نور الدين بقيادة شيركوه إلى مصر ، وبلغ نهر النيل عند إطفيح ، على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة ، ثم عبر إلى الجيزة ، وعسكر بمواجهة الفسطاط[٢] ، ووصل في الوقت نفسه جيش مملكة القدس الصليبية يقوده الملك عموري الأول ، وعسكر على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة ، وتمّ الاتفاق بين شاور

---

١) وليم الصوري : الموسوعة – ج٧ – ص ٢٦٣. ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٠٠. ابن الأثير : الباهر – الموسوعة – ج١٤ – ص ٢٥٨-٢٥٩. ابن العديم : الزبدة – الموسوعة – ج١٦ – ص ١٤١. أبو شامة : الموسوعة – ج١٧ – ص ٣٦٧. النويري : الموسوعة – ج٢٢ – ص ٤٣١.

٢) ابن الأثير : الباهر – الموسوعة – ج١٤ – ص ٢٧٠-٢٧١. سبط ابن الجوزي : الموسوعة – ج١٥ – ص ٣٣٦. ابن العديم : الموسوعة – ج١٦ – ص ١٤٢. أبو شامة : الموسوعة – ج١٧ – ص ٣٩٧. النويري : الموسوعة – ج٢٢ – ص ٤٣٢. المقريزي : اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٢٩٢.

وعموري الأول على أن يدفع شاور أربعمائة ألف قطعة ذهبية مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر ، ويجري دفع نصف هذا المبلغ على الفور ، ثمّ يبذل النصف الآخر فيما بعد[1].

وظلّ الجيشان قرابة شهرين يراقب كل منهما الآخر ، ثمّ عبر الجيش الصليبي نهر النيل ، فتراجع أمامه شيركوه إلى منطقة الأشمونين ، وفي بقعة عرفت باسم (البابين) ، التحم الجيشان في معركة رهيبة ، وذلك في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٢هـ/١٨ نيسان سنة ١١٦٧م. وكرّ الصليبيون على قلب الجيش الإسلامي في محاولة لضربه وزعزعة الجناحين ، فتقهقر صلاح الدين متظاهراً بالهزيمة – وفق الخطّة الموضوعة – وتخلّى عن مواقعه ، فتبعه الملك الصليبي وفرسانه في عملية مطاردة ، عندئذٍ قذف أسد الدين شيركوه بجناح جيشه الأيمن في المعركة لقتال الجناح الأيسر للجيش الصليبي الذي تبدّد وتحطّم ، وألفى عموري الأول نفسه محاصراً من جميع الجهات ، ولقي عدد كبير من فرسانه مصرعهم ، بينما وقع آخرون في الأسر[2]. واضطُرَّ الملك الصليبي وشاور إلى التراجع إلى القاهرة ، فيما كان شيركوه قد توجّه صوب الإسكندرية لامتلاكها والتحصّن فيها ؛ خصوصاً أنّ سكانها كانوا قد كرهوا شاور ، وأنِفوا من استعانته بالصليبيين أعداء دينهم ووطنهم ، فضلاً عن أنّ بُعدهم عن العاصمة القاهرة وملامستهم الخطر

---

١) وليم الصوري : الموسوعة – ج٧ – ص ٢٧٨. عاشور : المرجع المتقدّم – ج١ – ص ٥٣٧. طقّوش : المرجع المتقدّم – ص ٣٤٤.

٢) وليم الصوري : الموسوعة – ج٧ – ص ٢٩٣-٢٩٧. الأصفهاني : الموسوعة – ج١١ – ص ٣٦٥. ابن الأثير : الباهر – الموسوعة – ج١٤ – ص ٢٧٢. ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٢٤-٣٢٥. ابن أبي الدم : الموسوعة – ج٢١ – ص ٢٤٤. سبط ابن الجوزي : الموسوعة – ج١٥ – ص ٣٣٧. ابن العديم : الزبدة – الموسوعة – ج١٦ – ص ١٤٢. أبو شامة : الموسوعة – ج١٧ – ص ٣٩٩. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٤٩٦. ابن واصل : مفرج الكروب – ج١ – ص ١٥٠. النويري : الموسوعة – ج٢٢ – ص ٤٣٢. أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٠. الذهبي : العبر – ج٤ – ص ١٧٦. ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي – ج٢ – ص ١٠٢. ابن فضل الله العمري : الموسوعة – ج٢٣ – ص ٣٥. المقريزي – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٢٩٣-٢٩٤. ابن قاضي شهبة : الموسوعة – ج٢٣ – ص ٢٦١-٢٦٣. ابن سباط : تاريخ ابن سباط – ج١ – ص ١١٧.

الصليبـي عن طريق البحر ، جعلهم أكثر إحساساً بالخطر ، وأكثر حرية في التعبـير عـن شعورهم ، فكتبوا إلى شيركوه ، وأبدوا استعدادهم لمساندتـه ، ودخل شيركوه المدينة بغير قتال ، ولكن يبدو أن شيركوه كان قد خشي أن يحصره الصليبـيون مع جميـع قواتـه داخل الإسكندرية ، فترك ابن أخيـه صلاح الدين نائباً عنـه فيـها ، ثمّ أخذ ألف جندي وسار نحو الصعيد ، فيما كان عموري الأول ملك القدس قد أعاد تشكيل قوّاتـه مع قوّات شاور ، وزحفا نحو الإسكندرية ، وألقيا الحصار لمدّة أربعة أشهر ، صمد خلالهـا صـلاح الدين صموداً مشهوداً له بالكفاءة العسكرية ، وأظهر براعة قتالية كبـيرة ، ولكنّ قـسوة الحصار اضطرّت شيركوه إلى القدوم من الـصعيد ، والـدخول مـع عمـوري الأول في مفاوضات كان من أهمّ بنودها انسحاب الجميع من مصر. وغادر صلاح الدين وقوّاتـه الإسكندرية في شوّال سنة ٥٦٢هـ/ آب سنة ١١٦٧م(١) ، ولئن كنّا نعلم الدافع الذي اضطرّ شيركوه إلى عقد الاتفاق ، فما هو دافع عموري الأول ؟

كان عموري الأول يخشى أن يزداد وضعه العسكري سوءاً في بلاد الشام ، إذ كانت الأخبار تتوالى عن تحرّكات نور الدين العسكرية ، وضغطه الشديد على إمارة طـرابلس ، ومملكة القدس ، وكان نور الدين قد كثّف نشاطه في بلاد الشام ، فهاجم إمارة طـرابلس التي كان صاحبها ريموند الثالث لا يزال في الأسر ، كما فتح قلعتي العريمة وصافيتا ، ثمّ قام بمهاجمة أراضي مملكة بـيت المقدس الصليبـية(٢).

---

١) وليم الصوري : الموسوعة – ج٧ – ص ٣٠٦. ابن الأثير : الباهر – الموسوعة – ج١٤ – ص ٢٧٣. سبط ابـن الجوزي : الموسوعة – ج١٥ – ص ٣٣٨. ابن العديم : الزبدة – الموسـوعة – ج١٦ – ص ١٤٢-١٤٣. أبـو شامة : الموسوعة – ج١٧ – ص ٤٠٠-٤٠١. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٤٩٧. النويري : الموسوعة – ج٢٢ – ص ٤٣٣-٤٣٤. المقريزي : اتعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٢٩٤. ابن قاضي شهبة : الموسوعة – ج٢٣ – ص ٢٦٣.

٢) ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٢٧. ابن العديم : الزبدة – الموسوعة – ج١٦ – ص ١٤٣. أبـو شـامة : الموسوعة – ج١٧ – ص ٤٠٩. ابن واصل : مفرج الكروب – ج١ – ص ١٥٢-١٥٣. النويري : الموسوعة – ج٢٢ – ص ٣٤٢. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج٢٢ – ص ١٠.

- تولّي صلاح الدين وزارة الفاطميين في مصر :

وفي دمشق ساء نور الدين انسحاب قوّاتــه من مصر ، لكنــه لم يقم بنقد شــيركوه أو لومه ، بل قدّر له نصره في معركة البابــين ، وأخذ من جديد يعدّ العدّة لحملة ثالثة على مصر تكون حاسمة ؛ فيما كان عموري الأول قد أغرتــه حاميتــه العسكرية – الموجــودة في القاهرة سرّاً – بالقدوم إلى مصر ، والاستيلاء عليــها ، وقد تردّد عموري الأول – في بادئ الأمر – في الزحف على مصر ، إلاّ أنــه ما لبث أن قاد جيشه باتّجاهها ، وذلك في شهر المحرّم سنة ٥٦٤هـ / تشرين الأول ١١٦٨م ، وفي الطريق احتــلّ بلبــيس بعــد أن حاصرها ثلاثة أيام ، وأحدث فيــها مذبحة مروّعة[١] وصلت أخبارها إلى شاور ، وكذلك إلى سكّان القاهرة الذين أصابهم الذعر الشديد ، وأخذ الخليفة الفاطمي العاضــد يرســل نداءات الاستغاثة إلى نور الدين ، وسانده بعض رجالات السلطة في القاهرة ، وعلى الفــور كان نور الدين قد أمر شيركوه بالاستعداد لإنقاذ مصر ، وأرسل معه جيشاً ضــخماً بلــغ تعداد أفراده سبعة آلاف جندي ، واستطاع شيركوه الوصول إلى القاهرة ، ودخلها في شهر ربــيع الآخر سنة ٥٦٤هـ / كانون الثانــي سنة ١١٦٩م[٢] ، وسط ترحيب سكّانــها وفرحهم بقدومه ، وما لبث أن قام صلاح الدين وبعض الأمراء بأسر شاور ، وجرّدوه مــن سلاحه ، وأقدموا على قتله بأمر من الخليفة الفاطمي العاضد ، وذلك بعد أيام قليلــة مــن دخولهم القاهرة ، ليصبح شيركوه سيّد مصر الفعلي ، فيما كان عموري الأول ملك القدس يجرّ أذيال الخيبة عائداً إلى مملكتــه.

توفّي أسد الدين شيركوه بعد شهرين وعدّة أيام من تولّيــه الوزارة في مصر ، في ٢٢

---

١) وليم الصوري : الموسوعة – ج٧ – ص ٣١٨-٣١٩. ابن الأثير : الباهر – الموسوعة – ج١٤ – ص ٢٧٨. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٧ – ص ٤٢٩.

٢) الأصفهانــي : الموسوعة – ج١١ – ص ٣٦٧. ابن الأزرق الفارقي : الموســوعة – ج١١ – ص ٢٩٩. ولــيم الصوري : الموسوعة – ج٧ – ص ٣٣٥. ابــن الأثيــر : الباهــر – الموســوعة – ج١٤ – ص ٢٧٩-٢٨١. ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٢٤-٣٢٥. ابن أبــي الدم : الموسوعة – ج٢١ – ص ٢٤٥، سبط ابــن الجوزي : الموسوعة – ج١٥ – ص ٣٣٩. ابن العديم : الزبدة – الموسوعة – ج١٦ – ص ١٤٣-١٤٤. فايــد عاشور : جهاد المسلمين – ص ٢٤٠-٢٤٢.

جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ / ٢٣ آذار سنة ١١٦٩م ، وبعد وفاته بثلاثة أيام استدعى الخليفة الفاطمي صلاحَ الدّين ، وعيّنه وزيراً له مكان عمّه شيركوه ، ومنحه لقب الملك الناصر[١].

- الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط :

- أوضاع مصر الداخلية :

يبدو أنّ الخليفة الفاطمي العاضد ، وبتوجيه من خواصّه ورجال القصر ، كان قد اختار صلاح الدين لاعتلاء منصب الوزارة خلفاً لعمّه أسد الدين شيركوه لاعتقاده أنّ صغر سنه ، وافتقاره للتجربة السياسية سيجعلانه أداة طيّعة في يد الخليفة الفاطمي يستغلّها في القضاء على بقيّة أعوان شيركوه ، وبالتالي يرزح صلاح الدين تحت سيطرته[٢]. إلاّ أنّ الخليفة العاضد ورجال قصره خاب ظنهم حين شرع صلاح الدين في استمالة قلوب الناس إليه عن طريق بذل الأموال ، وأحسن إلى مماليك شيركوه ، وسيطر سيطرة تامّة على الجند ، فيما أمدّه نور الدين بقوّة جديدة من العسكر ، ووصل معها أخوه توران شاه[٣] ، لكنّ مؤتمن الخلافة جوهر - رئيس بلاط قصر الخليفة الفاطمي - كان يزداد غيظاً لتزايد نفوذ صلاح الدين ، ونجاحه في ضبط الأمور ، لذا حاول أن يتّصل بعموري الأول - ملك بيت المقدس - لتحريضه على مهاجمة مصر ، على أمل أن يخرج صلاح الدين

---

١) الأصفهاني : الموسوعة - ج١١ - ص ٣٦٧-٣٦٨. ابن الأزرق الفارقي : الموسوعة - ج١١ - ص ٢٩٩. وليم الصوري : الموسوعة - ج٧ - ص ٣٢٧-٣٢٨. ابن الأثير : الباهر - الموسوعة - ج١٤ - ص ٢٨٢-٢٨٤. سبط ابن الجوزي : الموسوعة - ج١٥ - ص ٣٤١-٣٤٢. أبو شامة : الموسوعة - ج١٨ - ص ٣.

٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - الموسوعة - ج١٤ - ص ٢٨٣. النويري : نهاية الأرب - الموسوعة - ج٢٢ - ص ٤٥٢. ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات - المجلد الرابع - تحقيق د. حسن الشمّاع - الجزء الأول - ص ٥٦.

١) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - الموسوعة - ج١٨ - ص٥١. ابن واصل : مفرّج الكروب - ج١ - ص ١٧٤.

للتصدّي له ، فيقبض مؤتمن الخلافة جوهر على من بقي من أصحابه في القاهرة ، ويستولي على منصب الوزارة ، إلاّ أنّ رسالة جوهر وصلت إلى صلاح الدين ، لذا أمر بقتله[1] ، لكنّ الجند السودانيين أخذتهم الحميّة ، وعَظُمَ عليهم قتل رئيسهم ، فحشدوا واجتمعوا ، ووصل عددهم إلى خمسين ألف عبد ، فتصدّى لهم جيش صلاح الدين ، بقيادة أخيه توران شاه ، وأظهر السودانيون قوّتهم وشدّة بأسهم ، ودام القتال بين الطرفين ثلاثة أيّام ، إلى يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م[2] ، لكنّ صلاح الدين كان قد أرسل من أحرق منازلهم ، فضعفت نفوسهم ، ووهنت قواهم ، وتفرّق شملهم بين إطفاء النيران أو قتال جيش صلاح الدين ، ولم يَنْجُ منهم إلاّ اليسير ، وكتب صلاح الدين إلى ولاته في أنحاء مصر بقتل من يجدونه منهم ، فقضى عليهم جميعاً ، كما فعل ذلك – أيضاً – مع حرس الخليفة العاضد من الأرمن[3] ، فيما كان موقف الخليفة العاضد نفسه متبايناً تجاه هذه الأحداث ، إذ ظنّ في بادئ الأمر أنّ الجند السودانيين سوف ينتصرون ، وينقذونه ورجال قصره من قبضة صلاح الدين ، فأمر حرس القصر من الأرمن أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشّاب والحجارة ، فما كان من توران شاه إلاّ أن أمر بإحراق القصر[4] ، فخرج على الفور أحد

---

٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١١ – ص ٣٤٦. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٣١٨. ابن قاضي شهبة : الكواكب الدريّة في السيرة النورية – الموسوعة – ج٢٣ – ص ٢٧٤. د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الأيوبيين والمماليك – الإسكندرية – ١٩٩٩ – ص ٤٦.

٣) أبو شامة : الروضتين – الموسوعة الشامية – ج١٨ – ص ٥١. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج١ – ص ١٧٦. النويري : نهاية الأرب – الموسوعة – ج٢٢ – ص ٤٥٤. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج٢٢ – ص ١٦. ابن الفرات : المصدر المتقدّم – مج ٤ – ج١ – ص ٧١. البدر العيني : عقد الجمان – الموسوعة – ج٢٤ – ص ٨٧.

٤) العماد الأصفهاني : البستان الجامع – الموسوعة – ج١١ – ص ٣٦٨. وهو يورد الخبر ضمن سنة ٥٦٦هـ. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٥٠٠. أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر – الموسوعة – ج٢٢ – ص ١٦. النويري : نهاية الأرب – الموسوعة – ج٢٢ – ص ٤٥٤.

١) ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٤٧. ابن الفرات : المصدر المتقدّم – مج٤ – ج١ – ص ٧١. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٣١٩.

خواصّ العاضد قائلاً : «أمير المؤمنين يسلّم على شمس الدولة توران شاه ويقول : دونكم العبيد الكلاب أخرِجوهم من بلادكم»[1]. ولا شكّ أنّ موقف العاضد لم يكن نابعاً من إرادته ، بل بضغط من رجال قصره الذين اعتقدوا أنّ الفرصة كانت مواتية للتخلّص من صلاح الدين ، أو على الأقلّ إخراجه إلى بلاد الشام.

- نداءات الاستغاثة الصليبية :

كان الصليبيون قد أحسّوا بأنهم وقعوا بين شقّي الرحى بعد أن أحاطت القوّات الإسلامية بمملكة بيت المقدس من الشمال الشرقي والجنوب الغربي ، كما أنّ سيطرة صلاح الدين على الثغور البحرية في شمالي مصر من شأنها أن تهدّد سيادة الصليبيين البحرية في الجزء الشرقي من حوض المتوسّط. لذا قام عموري الأول بإرسال سفارة في أوائل عام ٥٦٤هـ / ١١٦٩م إلى فريديريك بربروسا إمبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنري الثاني ملك إنكلترا ، ووليم الثاني ملك صقلية ، وغيرهم من أمراء وملوك أوروبة الغربية يطلب منهم الإسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة لإنقاذ إخوانهم الصليبيين في الشرق[2]. غير أنّ الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في غربي أوروبة – حينذاك – لم تكن لتسمح بتلبية طلب عموري الأول ، لا سيّما فيما يتعلّق منها بالنزاع بين البابوية والإمبراطورية.

---

١) أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٥١–٥٢. البدر العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – الموسوعة – ج٢٤ – ص ٨٨. ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية – الموسوعة – ج٢٣ – ص ٢٧٥. د. محمد سهيل طقوش : المرجع المتقدم – ص ٢٥.

٢) وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية – الموسوعة – ج٢ – ص ٩٣٨. ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٥١. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٥٧. ابن واصل : مفرج الكروب – ج١ – ص ١٨٠. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٣٢٠. ابن قاضي شهبة : الموسوعة – ج٢٣ – ص ٢٧٥.

إذ كان الإمبراطور فردريك بربروسا يؤمن إيماناً عميقاً بعظمة الإمبراطورية ، وبحق الإمبراطور في استلام السلطتين الدينية والدنيوية ، فضلاً عن أنّ فردريك كان يطمح إلى مدّ سيطرة الإمبراطورية على المدن اللومباردية في شمال إيطاليا ، بل فرض سيطرة الإمبراطورية على الأراضي البابوية نفسها ، ممّا يعني وقوع البابا تحت رحمة الإمبراطور ، بيدَ أنّ البابا الإسكندر الثالث (١١٥٩ – ١١٨١م) لم يكن ليقف ساكناً أمام أطماع الإمبراطور فردريك بربروسا ، فقام بتحريض المدن اللومباردية – وعلى رأسها ميلان – ضدّ الحكم الإمبراطوري ؛ وردّ بربروسا بحزمٍ وشدّة ، فأخذ يحاصر المدن الثائرة ويدمّرها ، أمّا ميلان فكانت قد صمدت وقاومت حصار الإمبراطور ثلاث سنوات ، حتّى أرغمتها المجاعة على الاستسلام ، وذلك سنة ١١٦٢م ، وعندئذٍ دمّرها فردريك بربروسا تدميراً تامّاً ، وأخذ زعماءها رهائن عنده ، كما قام فردريك بتعيين فيكتور الرابع بابا إمبراطورياً منافساً للبابا الإسكندر الثالث ، الذي اضطرّ إلى ترك روما ، والفرار إلى فرنسا ، حيث كان لويس السابع مؤيّداً له ، ومعترفاً بابويّته[1].

كان فردريك بربروسا متمسكاً بموقفه المعادي للبابا الإسكندر الثالث ، فعندما توفي البابا الإمبراطوري فيكتور الرابع عيّن مكانه باسكال الثالث ، بينما كان الحكم الإمبراطوري في شمال إيطاليا يزداد قسوةً وشدّةً ، حتّى تألّف حلف فيرونا سنة ١١٦٤م لمقاومة هذا الحكم. وكان البابا الإسكندر الثالث ينتظر هذه الفرصة ، فعاد إلى إيطاليا سنة ١١٦٥م ، ودخل روما ، وأصدر قرار الحرمان الكنسي ضدّ الإمبراطور فردريك بربروسا ، الذي زحف مباشرة صوب روما ، وضرب عليها حصاراً شديداً حتّى سقطت في يده

---

١) يوحنّا كيناموس : أعمال يوحنّا ومانويل كومينوس – الموسوعة – ج٢٩ – ص ٢٢٠-٢٢١. د. سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى – بيروت – ١٩٧٢م – ص ٣٣٥-٣٣٧. د. عادل زيتون : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية – دمشق – ١٩٨١م – ص ٢٢٤. فشر.هـ.ا.ل : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى – ترجمة: د. محمد مصطفى زيادة – القاهرة – ١٩٦٦م – ج١ – ص ٢٠٢.
David C.Douglas: The Norman Achievement, London, 1969, pp. 158-159.

سنة ١١٦٧م. لكنّ البابا الإسكندر الثالث كان قد تمكّن – مرّة أخرى – من الفرار ، إنّما صوب صقلية – في الجنوب – حيث حلفاء البابا النورمانديين[١].

كان النورمانديون قد سيطروا تماماً على جنوب شبه الجزيرة الإيطاليـــة ، وانتزعـــوا السيادة البـــيزنطية على إقليمي أبوليا وكالبريا ، وذلك في النصف الثانـــــي مـــن القـــرن الحادي عشر الميلادي ، ولم ينقضِ ذلك القرن حتّى استطاع النورمانديون انتزاع صقلية – أيضاً – من أيدي العرب المسلمين ، سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م[٢].

وفي ٢٥ كانون الأول سنة ١١٣٠م ، قامت مملكة الصقليتين التي ضـــمّت جنـــوب إيطاليا وصقلية ، وتوّج روجر الثانـــي ملكاً على يد المندوب البابوي[٣] ، ممّا كان يعنــــي أنّ البابوية قد أوجدت لنفسها حليفاً قوياً ضدّ أعدائها ، وخصوصاً الإمبراطورية الألمانـــية ، والإمبراطورية البـــيزنطية ، التي عدّت ذلك الأمر انتـــهاكاً لسيادتـــها وحقوقها في جنوب إيطاليا. إلاّ أنّ التحرك البـــيزنطي الفاعل كان قد حدث فعلاً سنة ١١٥٥م ، عندما أعـــدّ الإمبراطور البـــيزنطي مانويل كومنـــين (١١٤٣-١١٨٠) حملة عـــسكرية كبـــيرة ، تمكّنت من إعادة إقليم أبوليا إلى السيادة البـــيزنطية ، ودخول مدينة برنـــديزي في الـــسنة التالية – ١١٥٦م – ولكن الملك النورماندي وليم الأول (١١٥٤ – ١١٦٦م) – الـــذي كان مريضاً – جمع قوّاتـــه من صقلية وكالبريا (فلورية) ، وسار لمواجهـــة البـــــيزنطيين بالقرب من برنديزي ، حيث جرت معركة كبـــيرة سنة ١١٥٦م هُـــزِمَ فيــــها الجـــيش البـــيزنطي شرّ هزيمة ، وأُسِرَ معظم أفراده ، أو قُتِلوا ، وتمكّن وليم الأول من استعادة كـــل

---

١) عاشور : المرجع نفسه – ص ٣٣٨. زيتون : المرجع نفسه – ص ٢٢٥.

G. Barraclough: The Medieval Papacy, London, 1975, p. 182.

٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٠ – ص ١٩٣. د. شاكر مصطفى : في التاريخ الإســـلامي – دمـــشق – ١٩٩٨م – ص ١٦٠.

Anna Commnen: The Alexiad, (Eng. Trans.) London, 1967, p. 35.
C.H. Haskins: The Normans in European History, London, 1935. pp. 209-210.
Richard F. Cassady: The Norman Achievement, London, 1986, pp. 169-170.

٣) زيتون : المرجع المتقدّم – ص ١٧٢.

Charles M. Brand: Byzantium confronts the West (1180-1204), Cambridge, 1968, p. 160.

الأراضي النورماندية في جنوب إيطاليا[1].

إذاً ، وبناءً على ما تقدّم ، فإن دعوة عموري الأول لم تلقَ أي استجابة لدى زعماء أوروبا الغربية ، لذا كان لا بدّ أن يتطلّع صوب بيزنطة ، التي لم يتوانَ إمبراطورها مانويل كومنين عن اغتنام هذه الفرصة للمشاركة في غزو مصر ، ولكن ما هي دوافع بيزنطة للإسهام في هذه الحملة ؟

كانت بيزنطة قد فقدت كل أملٍ لها في استعادة سيادتها على جنوب إيطاليا ، كما أنّ هيبتها العسكرية فقدت بريقها بعد الهزائم المتتالية ، والقاسية ، على يد النورمانديين ، وخاصةً هزيمتها في معركة برنديزي – جنوب إيطاليا – سنة ١١٥٦م.

ولم تكن علاقة بيزنطة مع الغرب الأوروبي – وتحديداً ألمانيا – أفضل حالاً ، إذ كان بربروسا متشبّعاً بفكرة أنه الإمبراطور المطلق الذي يستمدّ سلطته من الله ، ولهذا لم يكن مستعداً لأن يعترف بأية حقوق أو سلطة للإمبراطور البيزنطي في إيطاليا[2].

وكان العداء مستحكماً بين بيزنطة والبابوية بسبب الاختلاف في المذاهب ، إذ كانت الأولى أرثوذكسية ، بينما الثانية كاثوليكية ، فضلاً عن أنّ البابوية كانت قد باركت استيلاء النورمانديين على جنوب إيطاليا ، بل عدّتهم حلفاء لها ضدّ الإمبراطوريتين البيزنطية والألمانية.

ويبدو أنّ بيزنطة كانت لا تزال ترى أحقيّتها في السيادة على الإمارات الصليبية في بلاد الشام ، لذا فإنّ دعوة عموري الأول كانت تعدّ ، من وجهة نظر بيزنطة ، اعترافاً مبدئياً بهذه السيادة ، التي كانت ستعزّز – فعلاً – بالاستيلاء على مصر.

بالإضافة إلى أنّ بيزنطة كانت تطمح – من خلال مصر – إلى تملّك زمام السيادة البحرية في شرقي البحر الأبيض المتوسط ، والتحكّم بمستقبل التجارة البحرية بين

---

١) وليم الصوري : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٨٣٨. يوحنّا كيناموس : الموسوعة – ج٢٩ – ص ١٦٨-١٦٩.
G. Ostrogorsk : History of Byzantine State, Oxford, 1956. p. 342.

٢) د.عادل زيتون : العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى – دمشق – ١٩٨٠م – ص ٢٣٨.

الشرق والغرب.

إذاً ، كانت مصر - بالنسبة إلى بيزنطة - الحلّ الناجع والشافي لكلّ قضاياها المستعصية ، وطموحاتها البعيدة ؛ فكان لا بدّ من التحرّك السريع ، لذا جهّز الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين أسطولاً ضخماً ، ضمّ مئة وخمسين سفينة حربية ، كانت مصمّمة خصيصاً للاستخدام في الحرب ، وقد عُرِفت هذه السفن باسم شواني ، بالإضافة إلى ستّين مركباً ضخماً لنقل الخيول ، وكان فيها جسور بوساطتها يستطيع الرجال والخيول الصعود إلى السفن والنزول منها بسهولة ، كما ضمّ الأسطول عشرين سفينة ضخمة تمّ تحميلها بمؤن المواد الغذائية من كلّ نوع ، كما تمّ تحميلها - أيضاً - بالأسلحة من كلّ صنف ، وكذلك آلات الحرب ومعدّاته[1].

- انطلاق الحملة صوب دمياط :

غادر الأسطول البيزنطي مياه بحر الدردنيل في منتصف شوّال سنة ٥٦٤هـ/تموز سنة ١١٦٩م ، متوجّهاً إلى قبرص ، ومنها إلى صور وعكّا[2]. ويبدو أنّ هذا التحرّك البيزنطي صوب سواحل بلاد الشام كان يهدف إلى إثبات جدّية مشاركتهم ، ولوضع الخطّة النهائية مع الصليبيين لغزو مصر.

في مقابل ذلك ، كان عموري الأول - ملك بيت المقدس - قد تأخّر في تجهيز قوّاته ، ربّما كان هذا لعزوف بعض الأمراء الصليبيين - خاصة فرسان الداوية والإستبارية - عن المشاركة ، لما تكبّدوه من خسائر جسيمة مع عموري الأول في حملاته الأخيرة ضدّ مصر ، وربّما كان هذا التأخير من أنّ الملك عموري الأول قد دُهِشَ لضخامة

---

١) وليم الصوري : المصدر المتقدّم - ج٢ - ص ٩٣٨-٩٣٩. يوحنّا كيناموس : الموسوعة - ج٢٩ - ص ٢٦٤-٢٦٥. ابن واصل : مفرج الكروب - ج١ - ص ١٨٠. المقريزي : اتّعاظ الحنفا - الموسوعة - ج٢٥ - ص ٣٢٠.

٢) وليم الصوري : المصدر نفسه - ج٢ - ص ٩٣٩. يوحنّا كيناموس : الموسوعة - ج٢٩ - ص ٢٦٥. أمينة بيطار : تاريخ العصر الأيوبي - دمشق - ١٩٨١م - ص ٨٩.

الأسطول البيزنطي ، وحُسْن استعداده ، فأصابه الجزع من فكرة تملّك البيزنطيين لمصر[1].

ولكنْ ، على الرغم ممّا تقدّم ، فإنّ الجيش الصليبي كان قد تجمّع في عسقلان ، في شهر المحرّم سنة ٥٦٥هـ/منتصف شهر تشرين الأول ١١٦٩م ، ثمّ زحف ببطء شديد في سبيل عدم إنهاك قوّات المشاة أكثر من اللازم ، وتوقّف – أيضاً – في أماكن كثيرة كان الماء متوفّراً فيها ، حتّى وصل إلى مدينة الفرما ، التي كان الأسطول البيزنطي قد سبقه إليها ، ثمّ تقدّم الاثنان إلى مدينة دمياط حتّى وصلا إليها في الأول من شهر صفر سنة ٥٦٥هـ / ٢٧ تشرين الأول ١١٦٩م[2]. وعسكرت القوات الصليبية البرية في المنطقة الواقعة بين البحر والمدينة ، فيما لم يتمكّن الأسطول البيزنطي من التوغّل في النيل بسبب المآصر ، وهي السلاسل الحديدية الممتدّة بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء ، إذ كانت مدينة دمياط متوضّعة على الضفّة الشرقية لفرع نهر النيل الشرقي ، وعلى الضفّة الغربية المقابلة للمدينة كان يقوم برج مرتفع ، يحرسه عدد كاف من الرجال ، وكانت تمتدّ عدّة سلاسل حديدية غليظة من البرج إلى المدينة ، فتمنع تماماً عبور السفن إلى القسم العلوي من النهر ، فيما كان متاحاً لجميع السفن القادمة من الأعلى – خصوصاً من القاهرة – الوصول إلى دمياط بحرّية وبدون عائق[3].

لكن لماذا كانت دمياط هي المدينة المستهدفة لبدء عملية غزو مصر من قبل الجيش الصليبي والأسطول البيزنطي ؟

يعدّ موقع دمياط الاستراتيجي من أهمّ هذه العوامل ، إذ كانت متوضّعة على أحد

---

١) عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٥٦٠.

King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931, pp. 100-101.

٢) الأصفهاني : الموسوعة – ج١١ – ص ٣٦٨. ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٥١. سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان – الموسوعة – ج١٥ – ص ٣٤٢. أبو شامة : الموسوعة – ج١٨ – ص ٥٧. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٥٠٠. النويري : نهاية الأرب – الموسوعة – ج٢٢ – ص ٤٧٧.

١) وليم الصوري : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٩٤١. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٥٦٠. أمينة بيطار : المرجع المتقدّم – ص ٨٩.

فرعي نهر النيل ، والمسمّى باسمها – فرع دمياط – بالإضافة إلى قربها الشديد من الساحل ، ممّا يُمكّن المهاجمين من الضغط عليها من البرّ والبحر ، فضلاً عن أنّ اتّساع فرع دمياط النهري يتيح للسفن الضخمة الإبحار مباشرةً صوب القاهرة عبر نهر النيل ، زدْ على ذلك أنّ دمياط تقع على الفرع الأصغر لنهر النيل والذي يصبّ في البحر ، وهي أقرب موانئ مصر بالنسبة إلى مملكة بيت المقدس خاصّةً ، والإمارات الصليبية في بلاد الشام عامّةً ، بالإضافة إلى أنّ الشاطئ من عكّا حتّى دمياط لا يحوي أي جبل ، بل كلّه أرض منبسطة ، فيها صخور رملية بيضاء[1].

- إذاً ، نستطيع القول : إنّ من يسيطر على دمياط يمكنه امتلاك مفاتيح القاهرة إلى حدٍّ بعيد ، أو على الأقلّ يمكنه من خلالها – أي دمياط – أن يشكّل خطراً كبيراً على القاهرة عن طريق الهجوم عليها من البرّ والبحر.

لذا ، ليس مستغرباً أن كانت دمياط هي الهدف الأول لكل الحملات الصليبية المتّجهة إلى مصر ، فالطريق إلى القاهرة – قلب مصر – كان يبدأ من دمياط.

– حصار دمياط ، والخطط الإسلامية للقتال والدفاع :

كان صلاح الدين في موقف حرج عندما وصله خبر حصار دمياط من قبل الجيش الصليبي ، والأسطول البيزنطي ، إذ لم يكن باستطاعته ترك القاهرة والخروج إلى دمياط ، خوفاً من مؤامرة أو ثورة يحيكها أتباع الخلافة الفاطمية ، خصوصاً بعد قتله مؤتمن الخلافة جوهر ، وقضائه على تمرّد الجند السودان ، كما لم يكن معقولاً أن يدع دمياط تسقط بأيدي الصليبيين والبيزنطيين ، إذ كان ذلك يمثّل خطراً – آخر – أشدّ قسوة ،

---

١) ابن شدّاد : سيرة صلاح الدين – الموسوعة – ج١٥ – ص ٤٨. أبو شامة : الموسوعة – ج١٨ – ص ٥٨. مارينو سانوتو : كتاب الأسرار – الموسوعة – ج٣٨ – ص ٣٠٢. لودولف دي سوخم : وصف الأرض المقدّسة – الموسوعة – ج٣٩ – ص ٣٣٣. البدر العيني : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٠٥. د. جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر – الإسكندرية – ١٩٨١م – ص ٩٣.

سواء على صلاح الدين وجيشه ، أم على مصر كلها[1]. وكان أن بادر بإرسال الرجال والعتاد والمؤن بقيادة أخيه تقيّ الدين عمر ، وخاله شهاب الدين الحارمي[2] ، وأرسل في الوقت نفسه إلى نور الدين في دمشق ، يوضّح له جراحة موقفه ، ويلتمس منه النجدة العاجلة ، فسيّر إليه نور الدين العساكر تباعاً ، كما قام بالإغارة على معاقل الصليبيين في بلاد الشام لتخفيف الضغط على دمياط ، جرياً على عادته عندما كانت تتعرّض مصر للتهديد الصليبي[3].

كانت القوّات المتحالفة — البيزنطية والصليبية — قد أرجأت شنّ الهجوم ، مدّة ثلاثة أيّام ، فأعطت الفرصة الكافية لدمياط للتزوّد بالرجال والمؤن وآلات الحرب[4] ، فيما كان عموري الأول قد أيقن أنهم لن يتمكّنوا من الاستيلاء على دمياط دون مساعدة الآلات الحربية والمجانيق ، لذا أمر بتشييد برج خشبي ضخم ، مؤلّف من سبعة أدوار ، لمراقبة المدينة ، واستخدامه في تسلّق الأسوار ، كما شُيّدت آلات أخرى مختلفة ، بعضها لقذف الصخور الضخمة لتدمير الأسوار ، ودكّ تحصينات المدينة[5].

في مقابل ذلك قام المسلمون — داخل دمياط — بتشييد برج متحرك مماثل للبرج الصليبي ، وزوّد البرج بعساكر لمقاومة المهاجمين بالطريقة نفسها[6] ، كما ردّ المسلمون على اعتداءات المهاجمين بقوّة وشجاعة ، في الوقت الذي انهارت فيه الروح المعنوية

---

١) ابن الأثير : الباهر — الموسوعة — ج١٤ — ص ٢٨٥. أبو شامة : الموسوعة — ج١٨ — ص ٥٧. المقريزي : اتّعاظ الحنفا — الموسوعة — ج٢٥ — ص ٣٢٠.

٢) سبط ابن الجوزي : الموسوعة — ج١٥ — ص ٣٤٢. ابن واصل : مفرّج الكروب — ج١ — ص ١٨١. ابن قاضي شهبة : الموسوعة — ج٢٣ — ص ٢٧٦.

٣) ابن الأثير : الكامل — ج١١ — ص ٣٥٢. ابن شدّاد : الموسوعة — ج١٥ — ص ٤٨. النويري : نهاية الأرب — الموسوعة — ج٢٢ — ص ٤٧٧.

٤) وليم الصوري : المصدر المتقدّم — ج٢ — ص ٩٤١. ابن الفرات : المصدر المتقدّم — م٤ — ج١ — ص ٨٣. طقوش : تاريخ الأيوبيين — ص ٢٦.

٥) وليم الصوري : المصدر نفسه — ج٢ — ص ٩٤١. طقوش : المرجع نفسه — ص ٢٧.

٦) وليم الصوري : المصدر نفسه — ج٢ — ص ٩٤٢. طقوش : المرجع نفسه — ص ٢٧.

عند الصليبيين والبيزنطيين ، وأصابهم الإهمال والاستخفاف[1].

وازدادت أوضاع القوّات المتحالفة سوءاً ، بعد أن كانت مؤن البيزنطيين قد نفدت تماماً ، واضطرّت قوّاتهم إلى أكل ثمار النخيل وأوراق الشجر التي حصلوا عليها من البساتين المجاورة لدمياط ، ولكن هذه الثمار والأوراق كانت قد نفدت أيضاً بعد ثلاثة أيّام ، وكادت القوات البيزنطية تهلك جوعاً ، في الوقت الذي توافرت فيه المؤن لدى الصليبيين ، لكنهم امتنعوا عن تقديم بعضٍ منها للبيزنطيين ، لأنهم – أي الصليبيين – كانوا يخشون من طول مدّة القتال والحصار[2].

ويبدو أنّ النوايا لم تكن خالصة بين البيزنطيين والصليبيين ، فظلّ الصليبيون يتشكّكون دائماً في حلفائهم ، وانتشرت شائعة بين رجال عموري الأول بأن البيزنطيين كانوا ينوون أخذ دمياط لأنفسهم عند سقوطها ، الأمر الذي أضعف الثقة بين الطرفين ، وأحبط من معنوياتهم[3].

ربّما كانت هذه الشائعة من فعل صلاح الدين ، عن طريق بعض عيونه في المعسكر الصليبي ، أو عن طريق شراء بعض أمراء الصليبيين بغية استمالتهم وإقناعهم بهذه الفرضية.

بالإضافة إلى ما تقدّم ، فقد هبّت رياح شديدة مصحوبة بأمطار غزيرة ، أغرقت المعسكر الصليبي ، وحوّلته إلى مستنقع[4] ، كما انتهز المسلمون فرصة هبوب تلك الرياح من الجنوب إلى الشمال ، واندفاع موج النيل أمامها بعنف كبير ، فأخذوا قارباً صغيراً ، وملؤوه بكمية كبيرة من الخشب الجاف والقطران ، وبجميع المواد القابلة

---

١) وليم الصوري : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٩٤٢. ابن شداد : الموسوعة – ج١٥ – ص ٤٨. أبو شامة : الموسوعة – ج١٨ – ص ٥٩.

٢) وليم الصوري : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٩٤٣. طقوش : المرجع المتقدّم – ص ٢٨.

٣) وليم الصوري : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٩٤٢. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٥٦١. أمينة بيطار : المرجع المتقدّم – ص ٩٠.

٤) وليم الصوري : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٩٤٣. طقوش : المرجع نفسه – ص ٢٨.

للاشتعال ، ثمّ أشعلوا القارب وقذفوه ، فتناقلته أمواج النهر صوب الأسطول البيزنطي ، حيث توقّف القارب الملتهب بين السفن المتلاصقة ، وأتت النيران على ستٍّ منها – من نوع الشواني – فأحرقتها إحراقاً تامّاً ، ولولا يقظة الملك عموري الأول لكانت النيران قضت على جميع سفن الأسطول البيزنطي ، إذ أيقظ البحّارة ، فأخمدوا ألسنة النيران ، وفصلوا السفن عن بعضها بعضاً[١].

كان المسلمون – المحاصرون داخل دمياط – يراقبون انحدار أوضاع القوّات المتحالفة من درك إلى آخر ، فانطلقوا إلى شنّ هجمات مفاجئة ، وخصوصاً على القوّات البيزنطية التي أنهكها الجوع واليأس ، فيما كانت الإمدادات تتواصل إلى دمياط ، فارتفعت معنويّات المسلمين ، وازدادوا ثقة بنصرهم على الصليبيين والبيزنطيين ، الأمر الذي مكّنهم من الصمود طويلاً في وجه الحصار[٢].

كان قادة القوّات المتحالفة قد أيقنوا بإخفاق حملتهم ، فضلاً عن أنّ عموري الأول كان يزداد قلقاً مع ازدياد ضغط نور الدين[٣] ، وشدّة هجماته على مواقع الصليبيين في بلاد الشام ، لذا بدأ البحث عن الخلاص ، وعقد هدنة – ولو مؤقّتة – مع المسلمين ، ولا نعلم تماماً ما إذا كان عموري الأول ، أو أحد قادة الأسطول البيزنطي ، هو الذي بدأ المفاوضات مع المسلمين ، ولا نعلم أيضاً ما هي بنود الاتفاقية ، لأنها كانت سرّيّة ، ولو أنّ الاحتمال الأكبر أن عموري الأول هو من كان البادئ بالمفاوضات ، ليستطيع العودة إلى بلاد الشام سريعاً ، وليمنع إمكانية أي تقارب إسلامي – بيزنطي.

والأمر الطريف الذي يؤكّد لنا أنّ الاتّفاق كان قد تمّ فعلاً ، هو خروج سكّان المدينة

---

١) وليم الصوري : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٩٤٤. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٥٦١. أمينة بيطار : المرجع المتقدّم – ص ٩٠.

٢) وليم الصوري : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٩٤٤. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج١ – ص ١٨١-١٨٢. ابن الفرات : المصدر المتقدّم – مج٤ – ج١ – ص ٨٣.

٣) سبط ابن الجوزي : الموسوعة – ج١٥ – ص ٣٤٢. أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ١٧. البدر العيني : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٠٦.

لزيارة المعسكر الصليبـــي ، وكذلك زار بعض الجنود الصليبـــيين دمياط ، وسُمِحَ للجميع بالشراء والبـــيع والمقايضة ، ولمدّة ثلاثة أيّام[1] ، ثمّ خرّب الصليبـــيون آلاتـــهم الحربـــية وأحرقوها ، وعادوا إلى بلادهم عن طريق عسقلان في ٢٥ ربـــيع الأول ســـنة ٥٦٥هـ/١٩ كانون الأول سنة ١١٦٩م[2] ، وكذلك انسحبت السفن البـــيزنطية ، ولكنـــها كانت قد تعرّضت لعاصفة شديدة ، وقذفت الأمواج المضطربة ببعض سفن الأســـطول إلى الـــشاطئ وحطّمتـــها ، بـــينما لم يستطع البحّارة السيطرة على السفن الأخرى والتحكّم بها ، بسبب ما كانوا يعانونـــه من جوع وإرهاق ، فغرق كثير من السفن ، وظلّت الأمـــواج تقـــذف جثث بحّارتـــها على الشاطئ طوال عدّة أيّام[3].

وهكذا عادت القوّات المتحالفة إلى بلادها تجرّ أذيال الخيبة والإخفاق ، بعد حـــصارٍ لدمياط كان قد استمرّ لمدّة تزيد على الخمسين يوماً ، ولكن الملفت للنظر هو موقف الخليفة العاضد ، إذ كان صلاح الدين قد قال : «ما رأيتُ أكرم من العاضد ، أرسل إليّ مدّة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها»[4].

لا ريبَ في ما قاله صلاح الدين عن كـــرم العاضـــد أثنـــاء حـــصار البـــيزنطيين والصليبـــيين لدمياط ، لكنـــي أرى أنّ العاضد ، ومن بقي من خواصّه ورجال قـــصره ، كانوا على يقين من إخفاق القوّات المتحالفة ، بعدما عرفـــوا صـــلابة صـــلاح الـــدين وحنكتـــه ، وعدم تخلّي نور الدين عن مساندتـــه ، وكانوا على يقين أيضاً من أنّ أموالهم

---

١) وليم الصوري : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٩٤٥. وينفرد وليم تماماً بذكر هذا الخبر.

٢) ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٥٢. ابن أبـــي الـــدم : الموســـوعة – ج٢١ – ص ٢٤٨. أبـــو شـــامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٥٩. ابن الفرات : المصدر المتقدّم – مج٤ – ج١ – ص ٨٤. المقريـــزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٣٢١. البدر العينـــي : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٠٨.

٣) وليم الصوري : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٩٤٦. ابن الفرات : المصدر المتقـــدّم – مـــج٤ – ج١ – ص ٨٥. عاشور : الحركة الصليبيـــة – ج٢ – ص ٥٦١.

٤) ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٥٢. سبط ابن الجوزي : الموسوعة – ج١٥ – ص ٣٤٢. أبـــو شـــامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٥٧. ابن واصل : مفرّج الكـــروب – ج١ – ص ١٨٣. أبـــو الفـــداء : الموسوعة – ج٢٢ – ص ١٧. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص٣٢١.

ذاهبة إلى صلاح الدين ، سواء رضوا أم رفضوا. وربّما كان العاضد يرغب في محو وقفته مع الجند السودان أثناء ثورتهم لمقتل مؤتمن الخلافة جوهر ، وربّما كان يريد كسب ودّ صلاح الدين وثقته ، لعلّه يخفّف قليلاً عنه ، إذ كان صلاح الدين قد ضيّق على العاضد كثيراً «فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك ، حتّى إنّ العاضد كان في بعض الأيام بالبستان ، وإذا بقاصد صلاح الدين قد وافاه يطلب منه فرساً وهو راكب ، فقال : ما عندي إلاّ الفرس الذي أنا راكبه ، ونزل عنه ، وشقّ خفّيه ورمى بهما ، وسلّم إلى القاصد الفرس ، وعاد إلى قصره ماشياً ، فلزم مجلسه ولم يعد بعدها يركب حتّى مات»[١].

وربّما — أيضاً — كان العاضد يأمل أن يحقّق باللين والتفاهم ما عجز عنه جوهر والجند السودان ، بالخديعة والقوّة ، فيسحب نور الدين قوّاته من مصر ، بعد أن كان العاضد قد أظهر الولاء وحُسْنَ التصرّف ، ويؤكّد ما ذهبنا إليه إرسال العاضد كتاباً إلى نور الدين يطلب فيه سحب الجند الأتراك من مصر ، خوفاً منهم ، والاقتصار على صلاح الدين ، «فكتب إليه نور الدين يمدح الأتراك ويعلمه أنه ما أرسلهم ، واعتمد عليهم ، إلاّ لعلمه بأنّ قنطاريات الفرنج ليس لها إلاّ سهام الأتراك ، فإنّ الفرنج لا يرهبون إلاّ منهم ، ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية»[٢].

– أسباب إخفاق الحملة البيزنطية الصليبية :

لم تكن العوامل التي دفعت الحملة إلى الإخفاق تتعلّق بطرف دون آخر ، بل إنّ هذه العوامل كانت تتعلّق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين معاً.

فبالنسبة للمسلمين يمكننا أن نستنتج العوامل الآتية :

---

١) ابن واصل : مفرّج الكروب — ج١ — ص ١٧٩. المقريزي : اتّعاظ الحنفا — الموسوعة — ج٢٥ — ص ٣١٩. البدر العيني : الموسوعة — ج٢٤ — ص ٨٧.

٢) أبو شامة : الروضتين — الموسوعة — ج١٨ — ص٦٠. ابن واصل : مفرّج الكروب — ج١ — ص ١٨٣. ابن الفرات : المصدر المتقدّم - مج٤ — ج١ — ص ٨٧. المقريزي : اتّعاظ الحنفا — الموسوعة — ج٢٥ — ص ٣٢١. البدر العيني : الموسوعة — ج٢٤ — ص ١٠٩. عاشور : الحركة الصليبية — ج٢ — ص ٥٦١-٥٦٢.

١- حنكة صلاح الدين ، وبراعته القيادية ، والتي تجلّت بضبطه للوضع الداخلي ، خصوصاً في القاهرة ، فظلّ على راس الوزارة ، ليضمن عدم حدوث أي مؤامرة أو ثورة تضرب جبهته الداخلية.

٢- إرسال صلاح الدين اثنين من أفضل قادته ، ابن أخيه تقي الدين عمر ، وخاله شهاب الدين الحارمي ، مع إمدادات كثيرة ، ظلّت مستمرّة طيلة مدّة الحصار.

٣- الضغط العسكري الشديد من قبل نور الدين على ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام ، وإرساله سرايا عسكرية متتالية إلى مصر.

٤- يقظة المسلمين المحاصرين داخل دمياط ، وتصدّيهم لكل التحركات الصليبية المباشرة ، وانتهاز كلّ الفرص الممكنة لضرب المعسكر الصليبي والأسطول البيزنطي ، فحينما كان الصليبيون يشيّدون البرج الخشبي الضخم ، ردّ عليهم المسلمون داخل دمياط ببرج مماثل ، وعندما هبّت رياح جنوبية سيّر المسلمون مركباً حرّاقاً أتى على عددٍ من سفن الأسطول البيزنطي ، ولمّا كان المسلمون قد أيقنوا من أنّ الجوع واليأس قد أنهكا البيزنطيين ، خرجوا لشنّ هجمات مباغتة ضدّهم ، أسهمت في هزيمتهم وانسحابهم.

٥- ابتعاد صلاح الدين عن المواجهة المباشرة مع القوّات المتحالفة ، لأنه كان يعلم أنّ أي جولة خاسرة معهم ، ربّما كانت تطيح به ، وبمصر كلّها ، لذا اعتمد أسلوب الإنهاك ، وإطالة أمد الحصار ، وذلك عن طريق تواصل الإمدادات إلى دمياط لدعم صمودها ، واستغلال عامل الزمن الذي لم يكن في مصلحة القوّات المتحالفة ، وخصوصاً الصليبيين الذين كانت تصلهم أخبار مقلقة من بلاد الشام.

أمّا بالنسبة إلى الجانب الصليبي والبيزنطي ، فيمكن أن نخطّ العوامل الآتية :

١) افتقرت الحملة إلى قيادة موحّدة ، ولم يكن هناك أي تنسيق بين قادة الجيش

الصليبي والأسطول البيزنطي.

٢) سوء اختيار زمن خروج الحملة ، فتعرّضت إلى أمطار الشتاء الغزيرة ، وعواصفها العنيفة.

٣) سوء اختيار المكان الذي كانت القوّات المتحالفة قد عسكرت فيه ، والذي امتدّ ميلاً واحداً من دمياط حتّى الساحل ، ففقد أفراد الحملة حرية الحركة والانتشار، واصبحوا هدفاً سهلاً لهجمات خاطفة وسريعة من قبل المسلمين.

٤) كان عموري الأول قد أجّل الهجوم على المدينة ، لمدّة ثلاثة أيّام ، ريثما يصل الأسطول البيزنطي ، فأتاح الفرصة للمسلمين لتعزيز دفاعات المدينة ، وشحنها بالرجال والعتاد.

٥) كان موقف الصليبيين حيال البيزنطيين موقفاً غريباً وسيّئاً ، إذ امتنع الجيش الصليبي عن تقديم أي إعانة إلى الأسطول البيزنطي حينما نفدت مؤنه ، كما امتنع أيضاً عن مساندة الأسطول البيزنطي عندما كان يتعرّض لهجمات المسلمين.

٦) كان دور الأسطول البيزنطي ضعيفاً ومحدوداً بعد عجزه عن تجاوز المآصر ، فضلاً عن أن تعرّضه للمجاعة بعد نفاد مؤنه ، وضربات المسلمين الموجعة ، كانت قد أفقدته توازنه تماماً.

- **نتائج إخفاق الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط :**

١- كان أهم نتائج هذه الحملة أنها ثبّتت أقدام صلاح الدين في مصر ، كما عزّزت سلطته فيها.

٢- يبدو أنّ صلاح الدين بعد قضائه على ثورة الجند السودان ، وإخفاق الصليبيين والبيزنطيين في حملتهم ، كان قد أدرك حاجته إلى بطانة خاصّة به ،

ورجال يعتمد عليهم ، ويثق بهم ، وخصوصاً عند الملمّات الجِسام ، لذا أرسل في طلب أهله وأولاده من بلاد الشام ، فخرج والده نجم الدين أيوب من دمشق صوب مصر ، وكان بصحبته الأولاد والأهل وجمعٌ من التجّار ، بينما سار نور الدين محمود في عساكره لمهاجمة حصن الكرك ، وذلك حتّى يشغل الصليبيين عنهم ريثما يصلون بأمان ، ووصل نجم الدين أيوب ومن معه إلى القاهرة في ٢٧ من شهر رجب سنة ٥٦٥هـ/١٨ نيسان سنة ١١٧٠م[١] ، وتلقّاه الخليفة العاضد عند باب الفتوح ، وخَلَع عليه ، ولقّبه الملك الأفضل ، وأقطع صلاح الدين أباه نجم الدين الإسكندرية ودمياط والبحيرة ، كما أقطع أخاه شمس الدولة قوص[٢] وأسوان وعيذاب[٣] ، ممّا يؤكّد رغبة صلاح الدين في إحكام سيطرته على مصر ، لذا أقطع الشمال والجنوب إلى أفرادٍ من أسرته[٤].

٣- كان صلاح الدين قد انطلق إلى مرحلة الهجوم على ممتلكات الصليبيين ومراكزهم في بلاد الشام ، مستغلاً إخفاق حملتهم ، وما خلّفته من آثار سيّئة على أوضاعهم ومعنوياتهم. ومن المؤكّد أنه كان يريد إظهار قوّته ، وإبعاد خطرهم عن حدود مصر ، فبدأ بشنّ الغارات على عسقلان[٥]

---

١) ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٥٢-٣٥٣. ابن العديم : زبدة الحلب – ج٢ – ص ٥٠١. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٦٦. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج١ – ص ١٨٥. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٥٠١. ابن الفرات : المصدر نفسه - مج٤ – ج١ – ص ٨٧-٩٠.

٢) قوص : مدينة كبيرة ، وهي قصبة صعيد مصر ، ومحطّ التجّار القادمين من عدن. الحموي : معجم البلدان – ج٤ – ص ٤١٣.

٣) عيذاب : بُليدة على ضفّة بحر القلزم ، وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. الحموي : معجم البلدان – ج٤ – ص ١٧١.

٤) ابن شدّاد : الموسوعة – ج١٥ – ص ٥٠. ابن أبي الدم : الموسوعة – ج٢١ – ص ٢٤٨. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٦٧.

٥) عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر ، ويقال لها عروس الشام. الحموي : معجم البلدان – ج٤ – ص ١٢٢.

والرّملة[1]، ثمّ هاجم في أوائل شهر ربيع الأوّل من سنة ٥٦٦هـ/كانون الأول سنة ١١٧٠م قلعة الداروم (دير البلح) – من أعمال غزّة – وضرب عليها الحصار ، وكاد يستولي عليها ، لولا أنباء كانت وصلت إليه عن خروج عموري الأول ، ملك بيت المقدس ، على رأس قوّاته لمواجهته ، وفضّل صلاح الدين ترك الحصار والعودة إلى مصر[2] ، ولكنه ما لبث أن خرج في منتصف شهر ربيع الأول من السنة نفسها ومعه مراكب مفصّلة ومحمولة على الجِمال ، حتّى وصل إلى بحر القلزم ، فجمع قطع المراكب وشدّها ، وألقاها في الماء ، وسار إلى حصار أيلة[3] برّاً وبحراً ، وفتحها في العُشْر الأوّل من شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ/كانون الثاني سنة ١١٧١م ، وقتل من بها من الصليبيين ، وسلّمها لثقات من أصحابه ، أقامهم فيها وقوّاهم بالسلاح والمؤن ، ثمّ عاد إلى مصر[4].

٤– إقامة الخطبة للعبّاسيين ونهاية الخلافة الفاطمية :

من المؤكّد أن صلاح الدين لم يكن أقلّ تحمّساً من نور الدين في أمر توحيد الخلافة الإسلامية وإزالة الدولة الفاطمية ، ولكنه – وبفطرة من عاين الأحداث وخبرها عن قرب – لم يكن يستطيع اتّخاذ مثل هذه الخطوة قبل وضع كلّ الاحتياطات اللازمة ، وبشكل تدريجي لئلاّ يثير نقمة رجال القصر والمنتفعين من وجود الخلافة الفاطمية واستمرارها ، على الرغم من أنّ بقاء الخليفة العاضد لم يكن يثقل كاهل صلاح الدين ، أو يشكّل خطراً عليه ، إنّما كان الخطر يتأتّى من الطبقة الملتفّة حول العاضد والقريبة منه ، والتي كانت

---

١) الرملة : مدينة عظيمة من أعمال فلسطين. الحموي : معجم البلدان – ج٣ – ص ٦٩.

٢) وليم الصوري : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٩٤٨-٩٥٢. ابن الفرات : المصدر المتقدّم – م٤ – ج١ – ص ١٢٥-١٢٦. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٣٢٤.

٣) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم ، مما يلي الشام. انظر : الحموي : معجم البلدان – ج١ – ص ٢٩٢.

٤) ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٦٥. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٨٩. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج١ – ص ١٩٩. التاج السبكي : طبقات الشافعية – الموسوعة – ج٢٣ – ص ١٢٩. البدر العيني : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١١٨. ابن قاضي شهبة : الموسوعة – ج٢٣ – ص ٢٨٣.

ستظلّ تمنـي النفس برحيل صلاح الدين ، أو القـضاء عليـه ، لتعـود إلى نفوذهـا وسيطرتـها على مقدّرات البلاد وثرواتـها.

كان الخليفة العبّاسي المستنجد بالله قد توفّي في شهر ربـيع الآخر سـنة ٥٦٦ هـ / كانون الثانـي ١١٧١م ، وتولّى الخلافة ابنـه المستضيء بالله[١]. وربّما كـان الخليفـة الجديد يرغب في أن يبدأ خلافتـه بعملٍ يوسّع سلطتـه ، ويعيد للخلافة — ولو قلـيلاً — من هيبتـها ، ولذلك فقد شدّد في إلحاحه على نور الدين كي يـأمر بإسـقاط الخلافـة الفاطمية ، وإقامة الخطبة للخليفة العباسي مكانـها.

ولا يمكننا أن نقبل بما أورده ابن الأثير ، من أنّ صلاح الدين كان يكره قطع الخطبـة للفاطميين ، «ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين ، فإنـه كان يخافه أن يدخل إلى الـديار المصرية ويأخذها منـه ، فكان يريد أن يكون العاضد معه ، حتّى إذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليـه»[٢].

كان ابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ) قد انتقل مع والده وأسرتـه إلى الموصـل سـنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، وكان والده من أعيان العاملين في الدولة الأتابكية بالموصل ، وغالباً مـا أشار إليـه ابنـه في كتاباتـه. إذاً ، وبحكم الانتماء إلى الأتابكة ، أقبل على الثناء عليـهم جميعاً ، ولدى تأريخه للصراع بـين صلاح الدين وأتابكة الشام والموصل تحزّب للأتابكة ، وحرم صلاح الدين من الثناء ، إن لم نقل انتقد أفعاله[٣] ، وبشكل قاسٍ جداً ، إذ لم يكـن نور الدين فاقد البصيرة ، ليصل به الأمر إلى حدّ امتشاق السيف واستعمال القوّة ضد صلاح الدين ، وهو يدرك تماماً أنّ الأعداء — داخل مصر وخارجها — كانوا يتربّصون بهمـا ، في

---

١) ابن الأثير : الكامل — ج١١ — ص ٣٦٠. ابن أبـي الـدم : الموسـوعة — ج٢١ — ص ٢٤٩. أبـو شـامة : الروضتين — الموسوعة — ج١٨ — ص ٨٦. ابن واصل : مفرّج الكروب — ج١ — ص ١٩٥. ابـن الفـرات : المصدر المتقدّم — م٤ — ج١ — ص ١١٨. ابن قاضي شهبة : الموسوعة — ج٢٣ — ص ٢٨١:

٢) ابن الأثير : الكامل — ج١١ — ص ٣٦٨. ويؤيّده ابن العديم : زبـدة الحلـب — ح٢ — ص ٤-٥. وكـذلك المقريزي : اتّعاظ الحنفا — الموسوعة — ج٢٥ — ص ٣٢٨.

٣) د. سهيل زكّار : الموسوعة الشامية — ج١٤ — ص ٧-٩.

انتظار أي فرصة مواتية للانقضاض على كليهما ، أو أحدهما.

ولو أنّ نور الدين كان في نيته استعمال القوّة ، لما كان مضطرّاً إلى إرسال الكتب العديدة يحضّ فيها صلاح الدين على إزالة الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة للعبّاسيين[1] ، ولما كان مضطرّاً — أيضاً — إلى الاستجابة لطلب صلاح الدين فأرسل له أسرته جميعاً ، وكان يرجو أن يضغط نجم الدين أيّوب على ولده صلاح الدين فيحقّق هذا الأمر[2].

فضلاً عن ذلك ، فإنّ صلاح الدين لم يكن ليحتمي بالخلافة الفاطمية ، وهي عاجزة حتّى عن حماية ذاتها ، أو تثبيت وجودها ، عدا عن أنّ جُلَّ جند صلاح الدين كانوا لا يزالون وأمراءهم يدينون بالولاء والطاعة إلى سيّدهم نور الدين.

وشرع صلاح الدين في اتّخاذ إجراءات عدّة تُحكِمُ قبضته على البلاد ، وتمهّد السبيل لإسقاط الخلافة الفاطمية ، فرفع جميع المكوس الديوانية بديار مصر وأبطلها ، وبذا كسب محبّة المصريين وميلهم إليه ، وذلك سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[3] ، وأمر بهدم حبس دار المعونة ، وبنى مكانها مدرسة للشافعية ، كما جعل دار الغَزْل مدرسة للمالكية ، وجعل — أيضاً — دار سعيد السعداء ، وكان أحد خدّام القصر الفاطمي ، خانقاه للصوفية[4].

وفي السنة نفسها ، كان صلاح الدين قد عزل جميع القضاة الشيعة الإسماعيليين ، وولّى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي ، وجعل إليه

---

١) ابن الأثير : الكامل — ج١١ — ص ٣٦٩. أبو شامة : الروضتين — الموسوعة — ج١٨ — ص ٩٥. ابن واصل : مفرّج الكروب — ج١ — ص ٢٠٠.

٢) ابن الفرات : المصدر المتقدّم - مج٤ — ج١ — ص ٨٩. المقريزي : اتّعاظ الحنفا : الموسوعة — ج٢٥ — ص ٣٢٢. ابن قاضي شهبة : الموسوعة — ج٢٣ — ص ٢٧٨.

٣) ابن واصل : مفرّج الكروب — ج١ — ص ١٧٤. ابن الفرات : المصدر نفسه - مج٤ — ج١ — ص ١٢٤. المقريزي : اتّعاظ الحنفا — الموسوعة — ج٢٥ — ص ٣٢٣.

٤) ابن الأثير : الكامل — ج١١ — ص ٣٦٦. أبو شامة : الروضتين — الموسوعة — ج١٨ — ص ٨٩. ابن واصل : مفرّج الكروب — ج١ — ص١٩٧ - ١٩٨. أبو الفداء : الموسوعة — ج٢٢ — ص ١٨. النويري : الموسوعة — ج٢٢ — ص ٤٥٦. ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار — الموسوعة — ج٢٣ — ص ٤٤.

الحكم في جميع بلاد مصر ، فعزل من كان بها من القضاة ، واستناب عنه قضاة شافعية ، وذلك في ١٩ جمادى الآخرة سنة ٥٦٦هـ / آذار سنة ١١٧١م[١] ، كما أبطل صلاح الدين مجالس الدعوة الإسماعيلية من الجامع الأزهر[٢] ، ولمّا كان قد رأى أنّ أمره قوي ، «وأوتاد دولته قد تمكّنت من البلاد عزم على إظهار ما يخفيه ، فواعد أمراء الشاميين على أن يمضوا إلى بيوت الأمراء الفاطميين في الليل ، ويقف كلّ أمير منهم بجنده على باب أمير من أمراء الفاطميين ، فإذا خرج للخدمة قبض عليه ، واحتاط على داره وما فيها ، وأخذها لنفسه»[٣]. وما بزغ الضوء حتّى كان الأمراء الشاميون مكان الفاطميين ، وأصبح الأمراء الفاطميون أسرى معتقلين ، وأقطع صلاح الدين جنوده إقطاعات مصر كلها ، وشدّد قبضته في إدارة البلاد ، وكذلك فعل بهاء الدين قراقوش – وكان قد تولّى زمام القصور بعد قتل مؤتمن الخلافة – فلا يدخل شيء من الأشياء إلى مصر ولا يخرج منه إلاّ بمرأى منه ومسمع ، وصار العاضد كأنه معتقل في قصره[٤].

وفي السابع من شهر المحرّم سنة ٥٦٧هـ/العاشر من شهر أيلول سنة ١١٧١م ، قطع صلاح الدين الخطبة في مصر للخليفة الفاطمي العاضد ، وأقامها للخليفة المستضيء بأمر الله

---

١) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١١ – ص ٣٦٦. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٨٩. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج١ – ص١٩٨. أبو الفداء : الموسوعة – ج٢٢ – ص ١٨. النويري : الموسوعة – ج٢٢ – ص ٤٥٦. ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار – الموسوعة – ج٢٣ – ص ٤٤. ابن الفرات : المصدر المتقدّم – مج٤ – ج١ – ص ١٢٥. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٣٢٤. البدر العيني : عقد الجمان – الموسوعة الشامية – ج٢٤ – ص ١١٧.

٢) النويري : نهاية الأرب – الموسوعة – ج٢٢ – ص ٤٥٦. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٣٢٤.

٣) ابن الفرات : المصدر المتقدّم – مج٤ – ج١ – ص ١٣٠. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج٢٥ – ص ٣٢٥.

٤) ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٤٦. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٨٧. أبو الفداء : الموسوعة – ج٢٢ – ص ١٦.

العبّاسي ، وأعاد السواد شعار العبّاسيين[1] ، وتسلّم صلاح الدين القصر الفاطمي ، وقبض على أولاد العاضد ، وأقربائه ، وحدّد أماكن إقاماتهم ، ولم يلبث العاضد أن اشتدّ عليه مرضه ، وتوفّي بعد ثلاثة أيّام من قطع الخطبة له ، دون أن يعلم عن ذلك شيئاً ، إذ كان صلاح الدين قد أمر بعدم إزعاجه بذلك الخبر أثناء مرضه رأفةً به[2].

ولا نلمح في معظم المصادر المعاصرة للحدث أي خبر عن ردّة فعل للشعب المصري يعبّر عن استيائه أو عدم رضاه عن هذا التغيّر الحاصل على منابر السلطة ، وربّما نعزو ذلك إلى نجاح سياسة صلاح الدين ، الذي وطّد الأمن ، ونشّط التجارة ، وأزال المكوس المرتفعة عن الشعب ، فكسب محبّته وتأييده ؛ فيما كانت الخلافة الفاطمية قد عاشت في غربة عن الشعب المصري ، فالقاهرة كانت قلعة للدولة الفاطمية ، وكان جميع العاملين فيها من غير المصريين ، وبالتالي انقطع حبل التواصل بين الحاكم والمحكوم ، ويبدو أن صلاح الدين قد تنبّه لهذا الأمر ، فأقدم على جعل القاهرة «مبتذلة لسكن العامة والجمهور ، وحطّ من مقدار قصور الخلافة ، وأسكن في بعضها ، وتهدّم البعض ، وأزيلت معالمه وتغيّرت معاهده ، فصارت خططاً وحارات وشوارع ومسالك وأزقّة ، ونزل السلطان منها في دار الوزارة الكبرى»[3] ، وبذا وحّد صلاح الدين ما بين السلطة والشعب ، وخلق نسيجاً واحداً ألغى به الموانع بين ما يسمّى طبقة الخاصة ، وطبقة العامّة ، وحتّى يعزّز هذا

---

١) ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٦٨. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٩٦. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢٣ – ص ٥٠٣. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج١ – ص ٢٠١. أبو الفداء : الموسوعة – ج٢٢ – ص ١٨-١٩. ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية – الموسوعة – ج٢٣ – ص ٢٨٤-٢٨٥.

٢) ابن أبي الدم : الموسوعة – ج٢١ – ص ٢٤٩. ابن نظيف : الموسوعة – ج٢١ – ص ٣١٤. ابن العديم : زبدة الحلب – ج٢ – ص ٥٠٥. ابن فضل الله العمري : الموسوعة – ج٢٣ – ص ٤٥. ابن الفرات : المصدر المتقدّم – مج٤ – ج١ – ص ١٦١-١٦٣. البدر العيني : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٢٠-١٢١.

٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار – جزآن – دمشق – ١٩٨٧م – ج٢ – ص ٢٢٤.

العمل ؛ ويرسّخ ذلك التصوّر ، أمر ببناء سور واحد يضمّ سُكنى الشعب – الفسطاط – والقاهرة ، كما أمر ببناء قلعة في الوسط على جبل المقطّم ، وذلك سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٧م[١].

– المحاولات الأخيرة لإحياء الخلافة الفاطمية في مصر :

أ– مؤامرة عمارة اليمني : لم تكن بطانة الدولة الفاطمية ، وأتباعها ، الذين كانوا يعيشون على ضعف السلطة ، وينتعشون من الفوضى والاضطراب ، ليرضهم ما آلت إليه أوضاع مصر في ظلّ وجود رجل قويّ ، مثل صلاح الدين الأيّوبي ، لذا تجمّعت عصبة منهم تحيك مؤامرة للقضاء على صلاح الدين ، وإعادة الخلافة الفاطمية ، وكان على رأس هؤلاء الشاعر عمارة اليمني ، الذي كان يقيم على موائد الفاطميين ويتكسّب من مدحهم ، والقاضي الأعزّ سلامة المعروف بالعويرس ، وابن عبد القوي داعي الدّعاة ، وشبرما كاتب السرّ ، والقاضي ضياء الدين نصر بن عبد الله بن كامل ، ورجل منجّم نصراني أرمني كان قد قال لهم : إنّ أمرهم يتمّ بطريق علم النجوم ، وغيرهم من الجند السودان وحاشية القصر ، وعدد من أمراء صلاح الدين وجنده[٢].

بدأ عمارة اليمني بالتخطيط لما ينويه عندما شجّع توران شاه – أخو صلاح الدين – على المسير صوب اليمن ، لإضعاف جيش صلاح الدين ، ولئلاّ تجتمع الكلمة

---

١) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري – الموسوعة – ج٢١ – ص ٢٥٣. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٣٠٢. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٢ – ص ٥٢. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ٦٣. د. محمد رجب البيومي : صلاح الدين الأيوبي – دار القلم – دمشق – ١٩٩٨م – ص ١١٩. وهو يقول : «لصلاح الدين فضل حين جعل القاهرة مأوى للخاصة والعامة من أبناء البلاد».

٢) الأصفهاني : الموسوعة – ج١١ – ص ٣٦٩. ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٩٨-٣٩٩. سبط ابن الجوزي : الموسوعة – ج١٥ – ص ٣٥١. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ١٦٨. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج١ – ص ٢٤٣-٢٤٤. أبو الفداء : الموسوعة – ج٢٢ – ص ٢٢.

عليـــه بعد مقتل أخيـــه ، فيحلّ مكانـــه في الحكم وقيادة الجيش[1] .

وعمل المتآمرون على الاتصال بجماعة الإسماعيلية في بلاد الشام ، وطلبوا من مقدّمهم راشد الدين سنان أن يرسل من يقوم بقتل صلاح الدين غيلةً ، وكاتبوا عموري الأول ملك بـــيت المقدس ، كما اتّصلوا بوليم الثانــــي ملـــك الـــصقليتين ، ليــــهاجم أســـطوله الإسكندرية ، في الوقت الذي يغزو فيـــه صليبـــيو الشام مصر من ناحية الشرق ، بـــينما يشعل المتآمرون الثورة في الداخل[2].

وكان المتآمرون قد تقاسموا المناصب السياسية والإدارية ، وعيّنـــوا أعـــضاء الجهـــاز الحكومي ، واختاروا أحد أولاد العاضد خليفةً لهم[3] ، كما أرسل عمـــوري الأول وفـــداً صليبـــياً إلى القاهرة يحمل في ظاهر الأمر تحيّات الملك الـــصليبـــي إلى صـــلاح الـــدين ، ولكنـــه في حقيقة الأمر أتى للتنسيق ، ووضع الترتيبات النـــهائية لخيوط المؤامرة ، وأعـــدّ وليم الثانـــي ، في الوقت نفسه ، أسطولاً ضخماً يحمل ثلاثين ألف مقاتل تقريباً للمشاركة في غزو مصر ، إلاّ أنّ المؤامرة انكشفت ، إذ كان المتآمرون قد أشركوا معهم في خطّتـــهم الفقيـــه الواعظ زين الدين علي بن نجا الذي قام بإطلاع صلاح الدين على تفاصيل المؤامرة خطوة بخطوة ، فأمر بمراقبة أعضاء الوفد الصليبـــي عن طريق بعض أقباط مصر ، وقـــبض على زعماء المؤامرة ، وقتلهم ، وذلك في الثانـــي من شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ/٧ نـــيسان سنة ١١٧٤م ، وأُبْعِدَ الجند السودان إلى أقاصي الصعيد ، ووُضِعَ مَنْ في القصر من سُـــلالة العاضد وأهله تحت الحراسة والمراقبة الشديدتين[4]. أمّا عموري الأول فلم يكد يعلم بإخفاق

---

١) ابن واصل : مفرّج الكروب – ج١ – ص ٢٣٨. البدر العينـــي : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٥٠. ابن قاضـــي شهبة : الموسوعة – ج٢٣ – ص ٣٠٧.

٢) ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٣٩٩. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ١٧٢. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج١ – ص ٢٤٤.

٣) أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ١٧١. ابن واصل : مفـــرّج الكـــروب – ج١ – ص ٢٤٤. طقوش : المرجع المتقدّم – ص ٤٣.

٤) الأصفنيانـــي : الموسوعة – ج١١ – ص ٣٦٩. ويذكر الخبر ضمن أحداث سنة ٥٦٨هـ. ابن الأثير : الكامـــل في التاريخ – ج١١ – ص ٤٠٠. سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان – الموسوعة – ج١٥ – ص ٣٥١. أبو شـــامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ١٦٧-١٦٨. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج١ – ص ٢٤٥-٢٤٦. أبو الفداء : الموسوعـــة – ج٢٢ – ص ٢٢. البدر العينـــي : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٥٦-١٥٧. ابن قاضـــي شهبة : الموسوعة – ج٢٣ – ص ٣١٠-٣١١.

المؤامرة حتّى مات قهراً في شهر ذي الحجّة سنة ٥٦٩هـ/تمّوز سنة ١١٧٤م[١] ، فيما كان أسطول النورمانديين قد وصل إلى شواطئ الإسكندرية في ٢٦ من شهر ذي الحجّة سنة ٥٦٩هـ/٢٨ تموز سنة ١١٧٤م ، ولكنه على الرغم من علمه بافتضاح أمر خطّتهم ومؤامرتهم ، فإنّ قوّاته ، البالغ عددها أكثر من ثلاثين ألف مقاتل ، كانت قد نزلت إلى الشاطئ ، وشنّت هجمة عنيفة على المسلمين دفعتهم إلى سور الإسكندرية ، وأخذ النورمانديون يُحكِمون الحصار حول المدينة ، بينما بادر صلاح الدين – بعد أن كان الخبر قد وصله – إلى تسيير العساكر إلى الإسكندرية ، كما أمر بتسيير العساكر إلى دمياط[٢] ، إذ كان يخشى قدوم حملة أخرى ، أو ربّما توقّع أن يتحوّل الجيش الصقلي عن الإسكندرية – إذا عجز عن أخذها – إلى دمياط.

وكان أهل الإسكندرية قد اشتدّ أزرهم ، وتقوّت نفوسهم ، لتلاحق وصول الإمدادات ، وانتشار خبر مسير صلاح الدين صوب الإسكندرية قادماً من فاقوس[٣] ، فخرجوا في اليومين الثالث والرابع من الحصار ، وفتكوا بالنورمانديين ، وقتلوا منهم أعداداً هائلة ، واقتحموا البحر على مَنْ فرّ بالمراكب ، فخسفوها وأغرقوها ، وأقلع الأسطول الصقلي بالناجين من قوّاته في اليوم الخامس من بدء حصارهم للإسكندرية ، أي في غرّة شهر المحرّم سنة ٥٧٠هـ/الأول من شهر آب سنة ١١٧٤م[٤].

---

١) وليم الصوري : الموسوعة – ج٧ – ص ٣٧١-٣٧٣. أبو شامة : الموسوعة – ج١٨ – ص ٢٠٨. جميل جمول : حلب والحروب الصليبية – رسالة ماجستير غير منشورة – ص ١٣٣.

٢) ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٤١٣. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ص ٢١٠-٢١١. النويري : نهاية الأرب – الموسوعة – ج٢٢ – ص ٤٧٨-٤٧٩.

٣) فاقوس : مدينة في حوف مصر الشرقي ، وهي آخر ديار مصر من جهة الشام. الحموي : معجم البلدان – ج٤ – ص ٢٣٢.

٤) وليم الصوري : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٩٧٣. ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٤١٤. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٢١١-٢١٢. النويري : نهاية الأرب – الموسوعة – ج٢٢ – ص ٤٧٨-٤٧٩. البدر العيني : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٨٧-١٨٩. ابن قاضي شهبة : الموسوعة – ج٢٣ – ص ٣١٣.

ب- **ثورة كنـز الدولة** : كانت إمارة بني الكنـز بمثابة إقطاع أقطعه لهم الخلفاء الفاطميون ، وقد تمتّع بنو الكنـز في إقطاعهم بجنوب مصر بسلطة شبه تامّة ، فلم يكن يربطهم بالخلافة الفاطمية سوى التزامهم بالاشتراك بقوّة محدودة من رجالهم مع الجيش الفاطمي في حالة الحرب ، والتزامهم بدفع الضرائب عن إقطاعاتهم[1] ، لذا لم يتقبّل بنو الكنـز الوضع الجديد الذي كان قد فرضه صلاح الدين على البلاد ، حين قبض على كلّ الإقطاعات ، وقام بتوزيعها على أهل بيته وأقربائه ، وكبار قوّاد جيشه[2] ، وذلك ضمن خطّته لإحكام سيطرته على البلاد ومواردها ، فاستغلّ الأمير كنـز الدولة أن تجمّعت لديه في الصعيد كلّ العناصر الناقمة على صلاح الدين ، من الأمراء المصريين والجند السودان والعبيد، وأعلن ثورته في الأول من شهر صفر سنة ٥٧٠هـ/أيلول سنة ١١٧٤م[3] ، وحتّى يضمن ولاء كلّ المشاركين في ثورته جعل هدفها المعلن هو إحياء الخلافة الفاطمية ، وبذا فإن هذه الثورة لم تكن تهدف في جوهرها إلى إعادة أمجاد الفاطميين وإحياء خلافتهم ، بل كان ذلك هدفاً ثانوياً ، أو ستاراً لثورة قامت ضدّ إجراءات صلاح الدين الاقتصادية والإدارية.

وكانت قد اشتعلت ثورة أخرى في الصعيد – عند بلدة طود – قام بها رجل يدعى عبّاس بن شادي[4] ، وربّما كان هناك نوع من التنسيق بين الثورتين ، بدليل أنّ الكنـز كان قد توجّه بقوّاته مسرعاً من أسوان إلى بلدة طود بعد أن علم بثورة ابن شادي ، إلاّ أنّ القوّات الأيّوبية – بقيادة الملك العادل سيف الدين أبي بكر أخي صلاح الدين –

---

١) كان الفاطميون قد أفردوا للصعيد ديواناً خاصاً به. ابن الفرات : المصدر المتقدم - مج٤ – ج١ – ص ١٤٨. المقريزي : الموسوعة – ج٢٥ – ص ٣٤٤.

٢) ابن شدّاد : الموسوعة – ج١٥ – ص ٥٠. ابن أبي الدم : الموسوعة – ج٢١ – ص ٢٤٨. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٦٧.

٣) ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٤١٤. سبط ابن الجوزي : الموسوعة – ج١٥ – ص ٣٧٨. ويذكر الخبر ضمن أحداث سنة ٥٧٢هـ. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٢١٢-٢١٣. أبو الفداء : الموسوعة – ج٢٢ – ص ٢٤. البدر العيني : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٨٩-١٩٠.

٤) أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٢١٣. البدر العيني : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٩٠.

كانت قد وصلت إلى طود والتقت مع عبّاس بن شادي وأتباعه في معركة عنيفة انتهت بقتل ابن شادي ، وهزيمة قوّاته هزيمةً ساحقةً ، ودخلت القوّات الأيّوبية في معركة ثانية مريرة مع بني الكنز عند مشارف بلدة طود ، وكانت النتيجة أن قُتِلَ الكنز نفسه ، وعدد كبير من قوّاته ، وذلك في السابع من شهر صفر سنة ٥٧٠هـ/٦ أيلول سنة ١١٧٤م[١].

وبعدُ ، فقد آن لنا أن نتساءل : ما الذي أسقط الحكم الفاطمي في مصر ؟ هل هو قرار صلاح الدين ؟ أم أنّ ذلك كان من نتائج المواجهات بين الخلافة الفاطمية والصليبيين ؟

وهل أسهم التدخّل الصليبي في تسريع انضواء مصر تحت جناح الخلافة العبّاسية ؟ أم أنّ ضعف الفاطميين وتخبّط الدعوة الإسماعيلية هما اللذان دفعاها للعودة إلى السلطة العباسية ؟

كانت الإسماعيلية ، بعد استيلائها على مقاليد السلطة في ولاية أفريقية ، قد تحوّلت من دعوة عقائدية إلى حركة سياسية ، واقتصر أتباعها على رجال الحكم ، وعدد محدود من الطبقة الخاصّة المستفيدة مادّياً من قيام هذه الدولة. واستمرّ هذا الوضع مع انتقال الدعوة الإسماعيلية – ممثلة بالخلافة الفاطمية – إلى مصر ، حيث كانت غالبية الشعب المصري بعيدة عن اعتناق المذهب الإسماعيلي ، سوى بعض العناصر ، وجلّها من الأقليات الأجنبية وأبناء الديانتين اليهودية والمسيحية ، والتي اتّخذت من الإسماعيلية جسراً لتحقيق مطامحها في الحصول على أحد مناصب الدولة المختلفة. وعلى هذا ، فإنّ العقيدة الإسماعيلية لم تتعدّ سيطرتها على مصر أُطُر السياسة ، فضلاً عن أنّ الحركة الإسماعيلية قد التفتت بعد سيطرتها على مصر إلى النشاط الخارجي ، وأهملت الوضع الداخلي ، وكان هذا من

١) الأصفهاني : الموسوعة – ج١١ – ص ٣٧٠-٣٧١. ابن الأثير : الكامل – ج١١ – ص ٤١٤. ابن شدّاد : الموسوعة – ج١٥ – ص ٥٥. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج١٨ – ص ٢١٣. أبو الفداء: الموسوعة – ج٢٢ – ص ٢٤. ابن فضل الله العمري : الموسوعة – ج٢٣ – ص ٥١. البدر العيني : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٩٠. د. عطية القوصي : تاريخ دولة الكنوز الإسلامية – القاهرة – ١٩٧٦م – ص ٧١-٧٩.

أعظم الأخطاء التي وقعت فيها[1].

وكان الصليبيون قد شرعوا يستعدّون لغزو مصر واحتلالها ، بعد أن شجّعهم على ذلك سوء أوضاعها الداخلية ، واقتتال الطامحين إلى منصب الوزارة ، وضعف الخلافة الفاطمية وعجزها ، في الوقت الذي لم يعد لهم أي أمل بالتقدّم والتوغّل داخل بلاد الشام ، إذ كان نور الدين قد حقّق وحدتها ، وغدت مصر الهدف الأكبر لكلا الطرفين — الصليبيين ونور الدين — وعندما اشتدّ الصراع بينهما من أجل الاستيلاء على سيادتها ، كان ذلك يعني أنّ المنتصر منهما سيقضي على الخلافة الفاطمية ، لذا كان قرار صلاح الدين بإسقاط الخطبة للخليفة الفاطمي تسلسلاً منطقياً ، ونتيجة طبيعية لتخبّط الدعوة الإسماعيلية ، وعزلتها ، وضعف الخلافة الفاطمية وانحدارها ، وهو – في الوقت نفسه – خطوة مهمّة لتثبيت عُرى الوحدة بين مصر وبلاد الشام.

---

١) د. سهيل زكار : الجامع في أخبار القرامطة — جزآن — دمشق — ١٩٨٧م — ج١ — ص ١٠٧. د. محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية — القاهرة — ١٩٦٧م — ص ٢١٣.

الفصل الثالث

الأيوبـيون والحملة الصليبـية الثالثة

- تحرّك الغرب الأوروبـي إزاء سقوط بـيت المقدس
- حصار عكّا
- وصول ملكي فرنسا وإنكلترا
- سقوط عكّا
- موقعة أرسوف
- محاولة رتشارد الاستيلاء على بـيت المقدس
- صلح الرملة
- الحملة الصليبـية الرابعة

وأنه لن يمكّنهم من العبور ، لكنه لم يقدر على منعهم ، فيما حَجَبَ عنهم المؤن ، وامتنع عن تقديم أي حماية أو دعم خلال عبورهم أراضيه[1].

وواجه الجيش الألماني الأهوال في آسيا الصغرى ، إذ تعرّض لهجمات قبائل التركمان ، وعانى من وعورة الطريق وقلّة الزاد ، حتّى اضطرّ أفراده إلى أكل الدواب ، فضلاً عن قسوة الشتاء وتراكم الثلوج ، وعلى الرغم من ذلك وصل فردريك بربروسا وجيشه إلى قونية - عاصمة سلاجقة الروم — وسار منها صوب أرمينية الصغرى ، حيث رحّب به أميرها ليون الثاني (١١٨٥-١٢١٩) وقدّم له وجيشَه كلّ ما احتاجوا إليه من مساعدات[2].

أمّا بلاد الشام ، فكان جوّ من الرعب والفزع قد خيّم عليها ، فبادر صلاح الدين إلى استنفار الناس للجهاد ، وأرسل في طلب النجدة من أمراء سنجار والجزيرة والموصل وإربل ، كما أرسل القاضي بهاء الدين بن شدّاد إلى بغداد لطلب التأييد والمساندة من الخليفة العبّاسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م) ، ومع تواتر الأخبار باقتراب الألمان من تخوم بلاد الشام أمر صلاح الدين بهدم وإخلاء بعض المدن والقلاع ، التي خشي من وقوعها بيد الصليبيين ، واستخدامها في محاربة المسلمين ، فهدم سور طبرية ، كما هدم يافا وأرسوف وقيسارية ، وهدم سور صيدا وجبيل ونقل أهلهما إلى بيروت[3].

غير أنّ حدثاً مفاجئاً أنهى ذلك الكابوس المزعج ، إذ كان فردريك بربروسا قد

---

١) ابن واصل : مفرّج الكروب — ج٢ — ص ٣١٨. ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات — مج٤ — ج١ — ص ٢١٤. البدر العيني : الموسوعة - ج ٢٤ — ص ٣٤٠-٣٤١.

Ralph Johannes Lilie: Byzantium and the Crusader States (1096,1204) , Oxford University Press , 1993 , pp. 230-231.
Dictionary of World History , London , 1973 , p. 407.
Charles M. Brand: Op. cit, pp. 171-172.
George Ostrogorsky: History of the Byzantine States , U.S.A , 1957 , p. 360.

٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ — ج١٢ — ص ٤٩. ابن العبري : الموسوعة الشامية - ج — ج٥ — ص ٤٣١. ابن واصل : المصدر نفسه — ج٢ — ص ٣١٩.

٣) العماد الأصفهاني : الموسوعة - ج ١٣ — ص ٢٦٨-٢٦٩. ابن شدّاد : الموسوعة - ج ١٥ — ص ١٢٤. البدر العيني : الموسوعة - ج ٢٤ — ص ٣٤٧.

غرق أثناء عبوره نــهراً صغيراً في كيليكية ، وذلك في طريقه من طرسوس صــوب أذنــة وأنطاكية[1].

عمّت الفوضى صفوف الجيش الألمانــي ، فعاد قسم من القادة والجند إلى بلادهم ، إذ يبدو أنــهم كانوا قد فقدوا الحافز والرادع إلى هذه الحملة ، كما أنّ هــواهم كــان في صفّ هنري السادس (١١٩٠-١١٩٧م) الابن الأكبر للإمبراطور فردريــك بربروســا ، والذي ورث عرش أبيــه وقوّة شخصيّتــه ، بــينما تعرّض القسم الباقي مع فردريــك السوابــي – ابن الإمبراطور فردريك بربروسا – إلى هجمات المسلمين ، وخاصّــة أهــل حلب ، كما فتك المرض بكثير منــهم ، ولم يصل معه إلى عكّا سوى ما يزيد عن ألــف مقاتل ، وذلك في أوائل شهر رمضان سنة ٥٨٦هـ/أوائل شهر تشرين الأول سنة ١١٩٠م ، حيث شارك الألمان في الحصار الصليبــي لمدينة عكّا ، الــذي كــان مــضروباً عليــــها حينذاك[2]. وبذا نستطيــع القول إنّ الحملة الألمانــية قد أخفقت ، وإنّ خطرها الكبــــير قد زال ، منذ موت الإمبراطور فردريك بربروسا ، وتشتّت أفراد جيشه ، على الرغم من أنّ هذه الحملة كانت تعدّ البداية الأولى والقويّة للحملة الصليبــية الثالثة.

– حصار عكّا :

كان صلاح الدين قد أطلق سراح غي دي لوزغنان ، ملك القدس ، الذي أُسِــر في معركة حطّين ، بعد أن قطع على نفسه عهداً بأن لا يشهــر في وجه صلاح الدين «ســيفاً

---

١) ميخائيل السوري : الموسوعة - ج ٥ – ص ٣٠٥. ابن الأثير : المصدر المتقدم – ج١٢ – ص ٤٩. ابن أبــي الدم : الموسوعة الشامية - ج ١٢ – ص ٢٧١. ابن العديم : زبدة الحلب – ج٢ – ص ٥٩١. سمباط الأرمنــي : تاريخ سمباط – الموسوعة - ج ٣٦ – ص ٢٩٨. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٢ – ص ٣١٩. ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي – ج٢ – ص ١٤٦. وانظر : ابن الفرات : المصدر المتقدّم – مج ٤ – ج١ – ص ٢١٦. البدر العينــي : الموسوعة الشامية – ج٢٤ – ص ٣٤٤. ابن سباط : تاريخ ابن سباط – ج١ – ص ١٩٥.

٢) ميخائيل السوري : الموسوعة الشامية - ج ٥ – ص ٣٠٥. الأصفهانــي : البستان الجامع – الموسوعة - ج ١١ – ص ٣٨٢. سبط ابن الجوزي : الموسوعة - ج ١٥ – ص ٤١١. ابن العــديم : المــصدر نفــسه– ج٢ – ص ٥٩١-٥٩٢. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٢٢-٣٢٣. ابن الوردي : المصدر نفــسه – ج٢ – ص ١٤٦.

أبداً ، ويكون غلامه ومملوكه وطليقه أبداً»[1].

صلاح الدين كان فعل ذلك لقاءَ وعده غي دي لوزغنان بإطلاق سراحه إن هو أمـر أهل عسقلان بتسليمها ، والتزم صلاح الدين بوعده ، على عكس غي دي لوزغنان الـذي توّجّه إلى مدينة صور ليتّخذها مركزاً لعملياتـه العسكرية ضدّ المسلمين ، غير أنّ أميرهـا كونراد دي مونتفرات أغلق أبواب المدينة ، ورفض دخول غي بحجّة أنـه يحكـم المدينـة نـيابة عن ملوك الغرب الذين كان يتوقّع وصولهم إلى بلاد الشام بـين لحظة وأخرى[2].

لكنّ غي دي لوزغنان ما لبث أن جمع ما أمكنـه من بقايا الفرسان الـصليبـيين ، وسار بهم صوب عكّا ، حيث تمكّن من السير عبر طريق عرفه جيداً ، بعيداً عن أعين صلاح الدين وخطره ، ووصل قُبالةَ أسوار عكّا ، في شهر رجب سنة ٥٨٥هـ/أواخـر آب سـنة ١١٨٩م[3] ، فيما كان صلاح الدين منشغلاً بحصار حصن شقيف أرنون[4] ، وقسم آخـر من قوّاتـه أرسله بقيادة ابن أخيـه تقي الدين عمر ، ليكون مقابل أنطاكية لئلاّ يـهاجِم

---

١) ابن شدّاد : الموسوعة - ج ١٥ - ص ١٠٦. رتشارد دي تمبلو : حملة الملك رتشارد إلى أراضي القدس المقدسـة - الموسوعة الشامية - ج ٣١ - ص ٢٦. أبو شامة : الموسوعة - ج١٩ - ص ٢٠٨.

٢) أرنول : الموسوعة الشامية - ج ٨ - ص ٣٤٨. ابن شداد : الموسوعة - ج ١٥ - ص ١٠٦. جاك دي فيتري : الموسوعة الشامية - ج ٣٤ - ص ٢٣٥. روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ - الموسوعة - ج ٤٤ - ص ٣٢٧. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة - ج ٣١ - ص ٢٦. أبو شامة : الموسوعة - ج ١٩ - ص ٢٠٨.

Jonathan Phillips: Defenders of the Holy Land , Oxford University Press , 1996 , p. 266.
Peter Chrisp: The Crusades , England , 1992 , pp. 30-32.
R.C. Smail: The Crusades in Syria and the Holy Land , London , 1973 , pp. 23-24.

٣) أمبرويز : صليبيـة رتشارد قلب الأسد - الموسوعة - ج٣٢ - ص ١٩٤-١٩٥. رتشارد دي تمبلو : الموسـوعة - ج ٣١ - ص ٢٦. أبو شامة : الروضتين - الموسوعة - ج ١٩ - ص ٢١٢. ابن واصل : مفرّج الكـروب - ج٢ - ص ٢٨٨.

٤) العماد الأصفهانـي : الفتح القسي في الفتح القدسي - الموسوعة - ج ١٣ - ص ١٩١. ابن شـدّاده: النـوادر السلطانـية - الموسوعة - ج ١٥ - ص ١٠٤. ابن واصل : المصدر نفسه - ج٢ - ص ٢٨٨. أبـو الفـداء : المختصر في أخبار البشر - الموسوعة - ج ٢٢ - ص ٥١.

أميرها بوهيموند الثالث (١١٦٣ – ١٢٠١م) معاقل المسلمين عند انقضاء الهدنة التي عقدها معه[1].

وعندما وصل خبر التحرك الصليبـي إلى صلاح الدين ظنّ أنّ الأمر مجـرّد مراوغـة لفكّ الحصار عن حصن شقيف أرنون ، ولكنـه حالما أيقن بجدّية تلك التحركات ، سـار صوب عكّا ، وعسكر فوق تل كيسان وتل العياضية ، قريباً من معسكر الصليبـيين[2].

ولنا أن نتساءل : لماذا اختار غي دي لوزغنان عكّا ؟!

المؤكّد أن موقعها كميناء بحري مهمّ كان سيمكّنـه من تلقّي الإمدادات من تلقّـي الإمدادات الأوروبـية ، هذا إلى أنّ المدينة كانت مفتاح ساحل بلاد الشام ، لحـصانتـها وضخامة مينائها ، وقربها من القدس[3]. ولا نستغرب أنّ اختيار عكّا كان جزءاً من خطّـة استراتيجية صليبـية أوروبـية بدليل أنّ أساطيل بـيزا وجنوى قـد سـارعت إلى نقـل المتطوّعين من مختلف أنحاء أوروبا ، فضلاً عن المؤن والعتاد ، كما قَدِمَ في شهر شعبان سـنة ٥٨٥ هـ / أواخر أيلول سنة ١١٨٩م ، كونراد دي مونتفرات ، على رأس جيشه للمشاركة في حصار عكّا[4].

وشرعت قوّات صلاح الدين في شنّ هجمات خاطفة على معسكرات الصليبـيين ، حتّى أضحوا – وهم الذين أتوا لحصار عكّا – محاصرين فعلاً بـين القوّات الإسلامية داخل

---

١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٢٧. ابن العديم : زبدة الحلـب – ج٢ – ص ٥٨٦. المقريـزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ١٠٢. والهدنة كانت لمدة ثمانـية أشهر فقط ، بدءاً من شهر شعبان سـنة ٥٨٤هـ / تشرين الأول سنة ١١٨٨م.

٢) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٣٤. ابن واصل : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ٢٩١. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب – ص ١٦٠.

٣) أمبرويز : الموسوعة – ج ٣٢ – ص ١٨٩. رحلة حج الراهب الروسي دانـيال – الموسـوعة – ج ٣١ – ص ٣١٣. فيتيلوس : رسالة في وصف الأرض المقدسة – الموسوعة – ج ٣١ – ص ٣٨٣. رحلة يـوانس فوقـاس في الأرض المقدسة – الموسوعة – ج ٣٥ – ص ٣٨٣.

٤) جاك دي فيتري : الموسوعة الشامية – ج ٣٤ – ص ٢٣٥. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة الشامية – ج ٤٤ – ص ٣٢٧–٣٢٨. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية – ج ٣١ – ص ٢٦.

عكّا ، وقوّات صلاح الدين حولهم.

على أنّ تراجع صلاح الدين وقوّاتــه من تل كيسان إلى الخروبة أعطى الـصليبـيين حرية الحركة ، فشرعوا في حفر خندق حول معسكرهم حول عكّا من البحر إلى البحــر ، وصاروا – أي الصليبــيين – وعكّا بمعزل عن المسلمين ، الذين لم يعد لهم من وسيلة للقيام بالهجمات أو دعم حامية عكّا المحاصرة بالمؤن والرجال سوى استخدام ســفن الأسـطول المصري ، والتي عانت كثيراً في سبــيل تحقيق مهمّتــها[1].

وطال أمد الحصار ، فالصليبــيون كانوا غير مستعجلين في إنــهاء هذا الوضع علــى أمل وصول الحملة الكبرى التي يقودها ملكا فرنسا وإنكلترا ، فيما كانت السفن الإيطاليــة تواصل إمدادهم بالمؤن والعتاد ، أمّا المسلمون فقد بدوا عاجزين عن القيام بأي عمل حاسم واكتفوا بإرسال المؤن والطعام والرجال – على الرغم من الخطر والصعوبات الـشديدة – عبر السفن إلى حامية عكّا وأهلها[2] ، بـينما أرسل صلاح الدين يطلب المساندة والنجــدة والمشاركة في الجهاد ضدّ الصليبــيين ، فــاجتمع لديــه ، في ســنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م ، الشريف فخر الدين مبعوثاً من الخليفة العبّاسي ببغداد ، ومعه معونــة متواضــعة لم تــرضِ طموح صلاح الدين[3]. كما وصل في شهر ربــيع الآخر من السنة نفسها عمــاد الــدين زنكي بن مودود بن زنكي – صاحب سنجار – وكذلك معزّ الدين سنجرشاه بن غــازي ابن مودود بن زنكي – صاحب الجزيرة – ووصل ابن صاحب الموصل ، وهو علاء الــدين خرم شاه بن عزّ الدين مسعود بن مودود بن زنكي نائباً عن أبــيه ، كما وصل أيــضاً صاحب إربل زين الدين يوسف بن زين الدين علي ، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقي

---

١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٤٠. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج ١٩ – ص٢٢٦. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٢ – ص ٣٠٣.

٢) العماد الأصفهانــي : الموسوعة الشامية – ج ١٣ – ص ٢٨٢-٢٨٣. ابن شدّاد : الموسوعة الشامية – ج ١٥ – ص ١٤٥-١٤٦. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٣٠-٣٣١.

٣) العماد الأصفهانــي : الموسوعة الشامية – ج ١٣ – ص ٢٤٧. ابن شداد : الموســوعة – ج ١٥ – ص ١٢٧-١٢٨. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣١٤.

صاحب دارا ، والكثير من العساكر الإسلامية من حمص وحلب وشيزر وبعلبك ودمشق[1].

ولا شكّ أنّ توافد كلّ هذه الحشود لمساندة صلاح الدين كان يعكس وعياً عربياً وإسلامياً بالخطر المحدق والذي كان يتهدّد الأمّة كلّها ، فمصر حينذاك تحمل راية الصمود والتحرير ، وسقوطها يعني استفحال الخطر الصليبي ورسوخه في المنطقة ، وبالتالي تطلعه إلى توسيع نفوذه وامتلاكه الثروات والموارد وزمام المبادرة، ممّا يعني الإطاحة بأغلب الإمارات الإسلامية والقضاء عليها. لذا تغاضى الجميع – خاصّة أفراد البيت الزنكي – عن خلافاتهم وقَدِموا لتقديم كلّ عون ممكن ، فالأمّة وقت الأزمات الخارجية التي قد تطيح بوجودها ومعتقدها يجب أن تتّحد – ولو مؤقتاً – إذ ليس من المناسب التشفّي واستيفاء اللطمات ، وصلاح الدين كان قد أدرك عظمة موقف الأمراء عامّة ، وأمراء آل زنكي خاصّة ، ففرح بقدومهم فرحاً شديداً ، ولقيهم بالاحترام والتعظيم ، وأكرمهم إكراماً فائقاً[2].

كما أرسل صلاح الدين ، في شهر رمضان سنة ٥٨٦هـ/تشرين الأول سنة ١١٩٠م ، كتاباً إلى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن خليفة الموحّدين في المغرب يطلب عونه والوقوف إلى جانبه في وجه أعداء المسلمين ، غير أنه لم يحصل على ما التمس منه من النجدة[3].

وبدأت عكّا تعاني من الحصار الصليبي ، إذ نقصت المؤن ، وانتشرت المجاعة ،

---

١) العماد الأصفهاني : الموسوعة – ج ١٣ – ص ٢٥٧. ابن شداد : الموسوعة – ج ١٥ – ص ١٧٨. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج ٢١ – ص ٥٢٧. البدر العيني : الموسوعة – ج ٢٤ – ص ٣٧٢. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب – ص ١٦٠. ابن سباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ١٩٦.

٢) العماد الأصفهاني : الموسوعة – ج ١٣ – ص ٢٥٧-٢٥٨. ابن شداد : الموسوعة – ج ١٥ – ص ١٧٨. البدر العيني : المصدر المتقدم – ج٢٤ – ص ٣٨٠.

٣) أبو شامة : الموسوعة – ج ١٩ – ص ٢٩٨. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٢ – ص ٣٦١. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم – ص ١٦٩.

كما أنّ حاميتـــها شعرت بالتعب الشديد والإرهاق[١] ، ولم يكن صلاح الدين ليدّخر أي جهد ممكن ، فحاول إرسال الطعام والمؤن بكلّ الوسائل ، كما عمل على إبـــدال عناصـــر حامية المدينة في شهر المحرم سنة ٥٨٧هـ/شباط سنة ١١٩١م[٢] ، على الرغم من أنّ هـــذه العملية تركت أثراً سيئاً على صمود المدينة وثباتـــها ، «إذ دخل عشرون مقدّماً وأميراً شبه المكرهين ، عوض ستّين ، واستخدمت الرجال وأنفقت الأموال ، فلا جرم وقع الـــوهن ، وقُضِيَ الأمر»[٣].

– وصول ملكي فرنسا وإنكلترا :

إذا كان الصليبيـــون المحاصرون لعكّا يترقّبون بلهفة شديدة خبر وصول ملكي فرنسا وإنكلترا ، خصوصاً بعد موت الإمبراطور الألمانـــي فردريك بربروسا وتشتّت جيشه ، فإنّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى فيليب الثانـــي أغسطس ، ملك فرنسا ، وريتشارد قلـــب الأسد ، ملك إنكلترا ، إذ كان ملك فرنسا قد أبحر من جنوى ، فيما أبحر ملك إنكلترا من مرسيليا ، وذلك في شهر رجب سنة ٥٨٦هـ/آب سنة ١١٩٠م ، والتقى الاثنان في جزيـــرة صقلية ، حيث أمضيا وجيشاهما قرابة ستة أشهر لقضاء فصل الشتاء ، ثمّ أبحر فيليب ملـــك فرنسا من ميناء مسينا ، في الأول من ربـــيع الأول سنة ٥٨٧ هـ / ٢٩ آذار سنة ١١٩١م ، ووصل إلى عكّا في ٢٣ ربـــيع الأول / ٢٠ نـــيسان من السنة نفسها[٤] ، وســـط حفـــاوة

---

١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٥٥. أبو شامة : الموسوعة – ج ١٩ – ص ٣١٧. ابن واصـــل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٤٥.

٢) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٥٥-٥٦. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٤٥. ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات – مج٤ – ج١ – ص ٢٤٢.

٣) أبو شامة : الروضتين – الموسوعة الشامية – ج ١٩ – ص ٣١٨.

٤) العماد الأصفهانـــي : الموسوعة – ج ١٣ – ص ٣١٩. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٦٣. ابن شداد : النوادر السلطانـــية – ج١٥ – ص ١٦٨. جاك دي فيتري : الموســـوعة – ج ٣٤ – ص ٢٣٩. روجـــر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج ٤٤ – ص ٣٦٨. رتشارد دي تمبلـــو : الموســـوعة – ج ٣١ – ص ٣٨. ابـــن الفرات : المصدر المتقـــدم – مج ٤ – ج٢ – ص ٢. البدر العينـــي : عقـــد الجمان – الموســـوعة – ج ٢٤ – ص ٣٧٠.

الصليبـــيين وفرحهم الشديد ، فيما أوضاع المسلمين أمام عكّا وداخلها تزداد سوءاً ، فضلاً عن رحيل صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة ، وكذلك ابن صاحب الموصل[١] ، «ولم يبقَ عند السلطان إلاّ نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصّة»[٢].

أمّا ملك إنكلترا رتشار قلب الأسد فقد ترك جزيـــرة صـــقلية إلى جزيـــرة رودس ، ومنـــها توجّه إلى جزيرة قبرص ، وكانت تحت حكم إسحق دوكاس كومينوس ، وكـــان رتشارد ناقماً عليـــه بشدّة ، لأنـــه تصرّف بشكل غير لائق مع الأمـــيرة جوانـــا أخـــت رتشارد ، والأميرة بـــيرنغاريا النافارية خطيبتـــه ، وذلك عندما جنحت سفينتـــــهما إلى شاطئ جزيرة قبرص ، فضلاً عن أنـــه اشتـــهر بكراهيتـــه للاتين ، وامتناعه عن تقديم أي معونة أو مساعدة للصليبـــيين في بلاد الشام[٣].

وفعلاً تمكّن رتشارد قلب الأسد من أسر إسحق كومينوس ، والاستيلاء على الجزيرة في ١١ ربـــيع الآخر سنة ٥٨٧هـ/٨ أيار سنة ١١٩١م ، وأقام حفل زواجه من خطيبتـــه بـــيرنغاريا في قبرص ، ثمّ غادر الجزيرة مسرعاً صوب عكّا ، التي وصلها في ١٣ من شـــهر جمادى الأولى سنة ٥٨٧هـ/٨ حزيران ١١٩١م[٤] ، ممّا أثار فرحاً لا مثيل له بـــين صفوف الصليبـــيين ، في مقابل سوء موقف الحامية الإسلامية المرابطة في المدينة ، بسبب الـــضغط

---

١) العماد الأصفهانـــي : الموسوعة الشامية - ج ١٣ - ص ٣٠٥-٣٠٦. ابن واصل : مفرّج الكـــروب - ج٢ - ص ٣٤٦. ابن الفرات : المصدر نفسه - - مج ٤ - ج١ - ص ٢٣٧.

٢) أبو شامة : الروضتين - الموسوعة الشامية - ج ١٩ - ص ٣١٧.

٣) أمبرويز : الموسوعة الشامية - ج ٣٢ - ص ١١٧-١١٨. أرنول : الموســـوعة الـــشامية - ج ٨ - ص ٣٨٣-٣٨٥. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة - ج ٣١ - ص ٥٢-٥٤.

٤) أمبرويز : الموسوعة - ج ٣٢ - ص ١٢٥ - ١٢٦. ملحمة رتشارد قلـــب الأســـد : الموســـوعة - ج ٩ - ص ٢٣١. أرنول : الموسوعة - ج ٨ - ص ٣٨٦-٣٨٩. جاك دي فيتري : الموسوعة - ج ٣٤ - ص ٢٣٩. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة - ج ٤٤ - ص ٣٦٨-٣٦٩. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة - ج ٣١ - ص ٥٨-٥٩. ابن العبري : الموسوعة - ج ٥ - ص ٤٣١. ابن واصل : مفرّج الكروب - ج٢ - ص ٣٥٠. ابـــن الفـــرات : المصدر المتقدم - مج٤ - ج٢ - ص ٦. عاشور : قبرص والحروب الصليبيـــة - ص ٢٧.

James A. Brundage: The Crusades, Holy War and canon Law , England , 1991 , pp.63-64.
Matthew Holden: The Crusades , London , 1973 , p. 76.
Mike Corbishley: The Middle Ages , Oxford , 1990 , p. 35.
Geo Jeffery: Cyprus under Richard I , London , p. 49.

المتزايد عليها ، ونقص المؤن والذّخائر لديها.

– سقوط عكّا :

وعلى الرغم من ذلك فإنّ هذه الحامية المحاصرة داخل أسوار عكّا ، والمسلمون القابعون حولها ، كانوا قد قدّموا جميعاً أمثلة رائعة في البطولة والفداء. ففي ١٦ جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ/ ١١ حزيران سنة ١١٩١م ، كان صلاح الدين قد أمر بتسيير سفينة كبيرة من بيروت ، وشحنها بالآلات والأسلحة والمير والرجال ، لإمداد حامية عكّا عن طريق البحر ، وكان عدّة رجالها من المقاتلين ستمائة وخمسين رجلاً ، ولكنّ السفينة الإسلامية لم تكد تصل إلى مياه عكّا ، حتّى حاصرتها سفن رتشارد ملك إنكلترا وأحاطت بها من كلّ جانب ، وعندئذٍ أبى رجال السفينة الإسلامية الاستسلام ، وظلّوا يقاتلون أربعين سفينة من سفن الأعداء حتّى أحرقوا إحداها[1] ، وعندما يئس المقاتلون في السفينة من النجاة ، ورأوا أمارات الغلبة عليهم ، وأن ليس أمامهم إلاّ القتال ، قال مقدّمهم : «والله لا نقتل إلاّ عن عزّ ، ولا نسلّم إليهم من هذه البطسة شيئاً ، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول ، فهدموها ، ولم يزالوا كذلك حتّى فتحوها من كلّ جانب أبواباً ، فامتلأت ماءً ، فغرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك ، ولم يظفر العدوّ منها بشيء»[2].

وكان الصليبيون قد صنعوا دبّابة ضخمة مرعبة تتألف من أربع طبقات ، وكانت تعلو على السور ويركب فيها المقاتلون الغزاة بحيث يمكنهم دخول عكّا ومهاجمة

---

١) العماد الأصفهاني : الموسوعة الشامية – ج ١٣ – ص ٣٢٨. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٦٥. ابن شداد : النوادر السلطانية – الموسوعة – ج ١٥ – ص ١٧٤. ابن العديم : زبدة الحلب – ج٢ – ص ٥٩٤–٥٩٥. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٥١. ابن الفرات : المصدر نفسه – مج٤ – ج٢ – ص ٦–٧.

٢) ابن شداد : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ١٥ – ص ١٧٤. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٥١. وهو يورد الخبر نفسه تماماً.

حاميتـــها ، وسبّب وجود هذه الدبّابة هلعاً وذعراً بـــين أهل المدينة ، خصوصاً مع اقترابها الشديد من السور ، «وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها بالنفط ليلاً ونـــهاراً حتّى قـــدّر الله تعالى حريقها ، واشتعال النار فيـــها»[1].

وشدّد الصليبـــيون هجماتـــهم ، وكثّفوها ، خصوصاً بعد وصول رتـــشارد ملـــك إنكلترا ، وحاول صلاح الدين تخفيف الضغط عن الحامية المحاصَرة ، فهاجم بضراوة ، وكان يرسل السفينة تلو الأخرى ، لمساندة الحامية وعونـــها ، غير أنّ رسالة مؤلمة وصـــلت مـــن رجال الحامية وقادتـــها ، كان فيـــها : «إنّا قـــد بلغ منّا العجز إلى غاية مـــا بعـــدها إلاّ التسليم ، ونحن في الغد ثامن الشهر (جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ) ، إن لم تعملوا معنا شـــيئاً نطلب الأمان ونسلّم البلد ، ونشتري مجرّد رقابنا»[2].

وأخفق صلاح الدين في إنقاذ عكّا ، ولم تستطع هجماتـــه شـــدّ أزر حاميتـــــها أو تخفيف الضغط عنـــها ، وحيال ذلك ، اضطرّ قادة الحامية المحاصَرة في عكّا إلى الاستـــسلام للصليبـــيين ، وخرج بعض كبار أمرائهم ، مثل سيف الدين المـــشطوب ، وبهـــاء الـــدين قراقوش ، للتفاوض بشأن تسليم المدينة ، ولمّا كان يوم الجمعة السابع عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ/١٢ تموز سنة ١١٩١م ، تمّ الاتّفاق على تسليم مدينة عكّـــا[3] وفـــق الشروط الآتية :

---

١) أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج ١٩ – ص ٣٣١. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٥١-٣٥٢. ابن الفرات : المصدر المتقدم – مج ٤ – ج٢ – ص ٧-٨.

٢) ابن شدّاد : النوادر السلطانـــية – الموسوعة – ج ١٥ – ص ١٨١. أبـــو شـــامة : الموســـوعة – ج ١٩ – ص ٣٣٤-٣٣٥. ابن الفرات : المصدر نفسه – مج٤ – ج٢ – ص ١٣-١٤.

٣) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٢ – ص ٣٢٧. العماد الأصفهانـــي : الموســـوعة الـــشامية – ج ١٣ – ص ٣٤٦. أرنول : الموسوعة – ج ٨ – ص ٣٩٦. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٦٧. ابن شـــداد : الموسوعة – ج ١٥ – ص ١٨٦. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج ٤٤ – ص ٣٧٢. رتـــشارد دي تمبلـــو : الموسوعة – ج ٣١ – ص ٨٦-٨٧. أبو شامة : الموسوعة – ج ١٩ – ص ٣٣٩. ابن واصل : مفرج الكروب – ج٢ – ص ٣٥٩. ابن الفرات : المصدر نفسه – مج٤ – ج٢ – ص ٢١. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب – ص ١٧٠. ابن سباط : تاريخ ابن سباط – ج١ – ص ١٩٧.

١- استسلام عكّا بكل ما تحتويـــه من الآلات والعُدد والمراكب.

٢- يؤدّي المسلمون للصليبـــيين فدية مقدارها مئتا ألف دينار.

٣- يطلق المسلمون سراح ألف وخمسمائة أسير صليبـــي ، بالإضـــافة إلى مئـــة معيّنـــين من جانبهم.

٤- يردّ المسلمون صليب الصلبوت إلى الصليبـــيين.

٥- يخرج المسلمون بأنفسهم سالمين[1].

وعندما علم صلاح الدين ببنود الاتّفاق رفضه بشدّة ، واجتمع وأمـــراءه وأصـــحاب مشورتـــه لتقييم الوضع ، لكنـــه فوجئ بأعلام الصليبـــيين وشعاراتـــهم ترفـــرف علـــى أسوار عكّا ، وكان ذلك ظهيرة نـــهار الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ/١٢ تمـــوز ١١٩١ ، إذ عقدت الحامية الاتفاقية باسمه ، ولما كان يتّصف به من الـــشرف لم يـــسعه إلا الالتزام بها ، ثمّ أمر بنقل معسكره إلى شفرعم على الطريق المؤدية إلى صفورية ، إذ لم يبـــقَ من مسوّغ في بقاء قوّاتـــه على حصار عكّا ، وفي مواقعها ، فضلاً عن خشيتـــه من مهاجمة الصليبـــيين لقوّاتـــه[2].

كان سقوط عكّا ، ودخول الصليبـــيين إليـــها ، بعد حصار استمرّ قرابة عـــامين ، أمراً فظيعاً ، أشاع موجة عارمة من الحزن والأسى ، وأحسّ الناس بالعجز والحيرة.

وما لبث أن غادر ملك فرنسا ، فيليب الثانـــي أغسطس ، بلاد الشام ، مبحراً صوب بلاده ، في ١٠ رجب / ٣ آب ، من السنة نفسها ، بحجّة المرض. والواقع أنّ ذلك لم يكن

---

١) أمبرويز : الموسوعة الشامية - ج ٣٢ - ص ٣٢٨. العماد الأصفهانـــي : الموســـوعة الـــشامية - ج ١٣ - ص ٣٤٦. ابن الأثير : المصدر نفسه - ج١٢ - ص ٦٧. ابن شداد : الموسوعة الشامية - ج ١٥ - ص ١٨٦. أبـــو شامة : الروضتين - الموسوعة - ج ١٩ - ص ٣٣٩. ابن واصل : المصدر نفسه - ج٢ - ص ٣٦٠.

٢) ابن شداد : الموسوعة الشامية - ج ١٥ - ص ١٨٦. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية - ج ٣١ - ص ٩٠. أبو شامة : الموسوعة - ج ١٩ - ص ٣٤٠. سمباط الأرمنـــي : الموسوعة - ج ٣٦ - ص ٢٩٩. ابـــن واصـــل : المصدر نفسه - ج٢ - ص ٣٦٠. ابن الفرات : المصدر المتقدم - مج ٤ - ج٢ - ص ٢٣. البـــدر العينـــي : الموسوعة الشامية - ج ٢٤ - ص ٣٨٦.

إلاّ حجّة واهية ، إذ أنــه فضلاً عن مرضه ، كان يرغب بالعودة للاستيلاء علــى نــصيب زوجتــه في إقليم فلاندرز - شمال فرنسا – التي توفّي كونتــها أثنــاء حــصار عكّــا ، وانتــهاز فرصة غياب رتشارد قلب الأسد وانشغاله بشؤون الأراضــي المقدّســة للقيــام بالهجوم على نورماندي ، بالإضافة إلى شكّ الملك الفرنسي بالاتصالات التي جرت بــين رتشارد وصلاح الدين[1].

وأظهر الصليبــيون العناد حول تنفيذ البند المتعلّق بهم ، وهو إطلاق سراح المــسلمين من أهل المدينة ، في حين كان صلاح الدين قد أرسل لهم الدفعة الأولى من المــال وبعــض الأسرى الصليبــيين ، ولمّا طالبهم بتنفيذ البند الخاصّ بهم ، رفضوا ، حينذاك أدرك عزمهم على الغدر ، ورفض أن يسلّمهم ما تبقّى من المال والأسرى ، فقام رتشارد قلــب الأســد بعمل بعيد عن الأخلاق والشرف ونبالة الفرسان ، وذلك بأنــه كان أمر بقتل ثلاثة آلاف أسير مسلم ، ونفّذ ذلك بنفسه بعدما كان قد أعطاهم الأمان والعهد. وتــأثّر المــسلمون وصلاح الدين كثيراً لهذه المذبحة ، وعلى الرغم من ذلك فقد أبى صلاح الــدين أن يلطّــخ سمعتــه كقائد مسلم ، ورفض أن يقتل مــن كان في حــوزة المــسلمين مــن الأســرى الصليبــيين ، وأمر بردّهم ، وصليب الصلبوت ، إلى دمشق ، وكان ذلك في ٢٧ رجــب ٥٨٧هـ/ ٢٠ آب ١١٩١م[2].

---

١) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٢ – ص ٣٣٠-٣٣١. ملحمة رتشارد قلب الأسد - الموسوعة – ج ٩ – ص ٢٦٧. أرنول : الموسوعة الشامية – ج ٩ – ص ٤٠٥. جاك دي فيتري : الموسوعة – ج ٣٤ – ص ٢٤١. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة الشامية – ج ٤٤ – ص ٣٧٣. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة – ج ٣١ – ص ٩٢.

٢) أمبرويز : الموسوعة – ج ٣٢ – ص ٣٤٥-٣٤٦. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٦٨. ابن شداد : النوادر السلطانــية – الموسوعة – ج ١٥ – ص ١٨٩. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة – ج ٣١ – ص ٩٥-٩٦. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج ١٩ – ص ٣٤٢. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٢ – ص ٣٦٤. ابــن الفرات : المصدر المتقدم – مج ٤ – ج٢ – ص ٢٧-٢٨. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ١٠٥. البدر العينــي : عقد الجمان – الموسوعة – ج ٢٤ – ص ٣٨٧.

Stanley Lane-Poole: Saladin and the fall of Jerusalem , London , 2002 , pp. 189-193.
Malcolm Cameron Lyons and D. E. P. Jackson: Saladin the politics of the Holy War , Cambridge , 1997 , p. 331.
Simon Lloyd: English Society and the Crusade (1216-1307) , Oxford University Press , 1988 , p. 10.

- موقعة أرسوف :

أراد رتشارد قلب الأسد استغلال سوء أوضاع المسلمين ، وجني ثمار سقوط عكّا ، فخرج على رأس جيش صليبي ضخم للاستيلاء على شاطئ فلسطين ، من عكّا حتّى عسقلان ، وذلك في ٢٩ رجب ٥٨٧هـ/٢٢ آب ١١٩١م. ومن المؤكّد أنّ هدفه في الوصول إلى عسقلان كان واضحاً ، إذ أراد تأمين الساحل الشامي والسيطرة عليه ، ثمّ الالتفات إلى الداخل واسترداد بيت المقدس ، أو أنه أراد من الوصول إلى عسقلان قطع طريق مصر عن بلاد الشام عامّة ، وبيت المقدس خاصّة ، ومنع قدوم إمداداتها ، أو ربّما أراد الضغط على مصر ، بل وحتّى مهاجمتها[1]. وبالتالي شرعت فكرة الاستيلاء على مصر ، عند رتشارد قلب الأسد ، بالبزوغ والتحفّز ، بعد أن أيقن تماماً ، أنّ الاستيلاء على مصر يعني الاستيلاء على القدس وتملّكها بقوّة.

ولم يكن صلاح الدين بغافلٍ عن نوايا رتشارد وأطماعه ، لذا كان وجيشه قد ساروا إثر الجيش الصليبي ، لرصد تحرّكاته عن كثب ، وانتهاز أي فرصة مواتية للانقضاض عليه ومهاجمته. غير أنّ رتشارد قلب الأسد كان التزم تماماً خطّ سيره بمحاذاة الساحل ، حتّى لا يفقد دعم الأسطول له ، ومساندته وتزويده بالمؤن وما يحتاج إليه. ولذلك لم تنفع كلّ المناوشات العسكرية والاشتباكات ، التي قام بها الجيش الإسلامي ، في جرّ الصليبيين إلى مواجهة عسكرية بعيدة عن الشاطئ ، أو حتّى إيقاف زحفهم ، فوصلوا إلى حيفا التي أخلتها حاميتها الإسلامية ، ثمّ ساروا إلى قيسارية ليجدوها مخرّبة تماماً. وأتمّ رتشارد قلب الأسد وجيشه زحفهم حتّى أرسوف ، واضطرّ هناك إلى فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين ، بسبب مشاقّ الطريق التي واجهها الجيش الصليبي ،

---

١) العماد الأصفهاني : الموسوعة - ج ١٣ - ص ٣٦٠. ابن واصل : المصدر نفسه - ج٢ - ص٣٦٥. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة - ج٦ - ص ٤٦.
Edward Noble Stone: Three Old French Chronicles of the Crusades , U.S.A , 1939 , p. 80. Steven Runciman: Op. cit, volume III. pp. 71-72. P. M. Holt: Op. Cit, p. 58.

وضغط الجيش الإسلامي عليــهم ، وملازمتــه إيّاهم[١].

أمّا صلاح الدين فقد كان أرسل في طلب قوّاتٍ جديدة ، ووجد في قبول المفاوضات فرصةً لكسب الوقت ، فأوفد أخاه الملك العادل نــيابة عنــه ، لكنّ رتشارد قلب الأســد أصرّ على استعادة بــيت المقدس كشرط أساسي للمفاوضات ، ورفض العادل بشدّة هــذا الطلب ، لذا كان لا بدّ من القتال ، حيث التقى الطرفان في صباح يوم السبت ١٤ شعبان سنة ٥٨٧هـ/٧ أيلول سنة ١١٩١م ، وأحاط الفرسان المسلمون بالــصليبــيين في بدايــة المعركة ، ووضح أنّ صلاح الدين وجيشه كانوا سيحرزون نصراً كبــيراً ، إلاّ أنّ شجاعة رتشارد قلب الأسد وبراعتــه العسكرية ، حوّلت مسار المعركــة إلى صــالحه ، وأحــرز الصليبــيون فوزاً عظيماً ، واستُشهِد من المسلمين عدد كبــير من الجند والأمراء[٢].

وارتفعت معنويات الصليبــيين إلى حدّ كبــير ، فاستأنفوا سيرهم صوب عسقلان. لكنّ صلاح الدين لم يكن ليمكّنــهم من الاستيلاء عليــها «ويأخذوا بها القدس الشريف ، ويقطعوا طريق مصر ، وخشي السلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكّا ، وما جرى على مَنْ كان مقيماً بها»[٣]. لذلك أسرع صلاح الــدين إلى

---

١) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٣٦١. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية – ج ٣١ – ص ١٠٣-١٠٥. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٦٥.

٢) أمبرويز : الموسوعة – ج ٣٣ – ص ٣٨١. العماد الأصفهانــي : الفتح القــسي – الموســوعة – ج ١٣ – ص ٣٦٨. ابن شداد : الموسوعة – ج ١٥ – ص ١٩٩. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية – ج ٣١ – ص ١٠٨. سبط ابن الجوزي : الموسوعة – ج ١٥ – ص ٤١٦. أبو شامة : الموسوعة – ج ١٩ – ص ٣٤٧. ابن واصــل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٦٧-٣٦٨. ابن الوردي : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ١٤٨. ابن الفرات : المصدر المتقدم – مج ٤ – ج٢ – ص ٣٣. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ١٠٥-١٠٦. ابن تغــري بــردي : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٤٥. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم – ص ١٧١-١٧٢.

Trevor Cairns: Medieval Knights , Cambridge , 1992 , p. 28.
Stewart Ross: A Crusading Knight , England , 1986 , p. 24.
Malcolm Braber: Crusaders and Heretics, 12th centuries , Great Britain , 1995 , p. 447.
David Jacoby: Studies on the Crusader States and on Venetian Expansion , Great Britain , 1989 , p. 210.
James Reston, Jr: Warriors of God , London , 2001 , pp. 209-216.
Caroline Bingham: The Crowned Lions , London , 1978 , p. 108.

٣) أبو شامة : الروضتين – الموسوعة الشامية – ج ١٩ – ص ٣٤٩-٣٥٠.

خرابها وإحراقها ، وسط بكاء أهلها وأسفهم. ثمّ سار صوب بيت المقدس لعلمه أنها غاية الصليبيين ومقصدهم. ومرّ في طريقه بالرملة فخرب تحصيناتها ، وأمر بتخريب حصنها وتخريب كنيسة لدّ[1].

- **محاولة رتشارد الاستيلاء على بيت المقدس :**

كان رتشارد قلب الأسد قد أهدر فرصة استثمار نصره في معركة أرسوف ، وذلك بمداهمة المسلمين أثناء انشغالهم بتخريب عسقلان ليستولي على تلك المدينة دون جهد كبير ، كما كان أبطأ في مهاجمة القدس ومحاولة الاستيلاء عليها ، في وقت كانت تعاني من سوء أوضاعها وحاجتها إلى الغلّة والعدّة والرجال[2] ، ووجّه اهتمامه نحو إعمار يافا[3] ، حيث أضاع قرابة شهرين من الزمن ، استغلّهما صلاح الدين لترتيب صفوفه ، والاستعداد لجولة أخرى مع رتشارد قلب الأسد ، الذي كان تحرّك في أوائل شوّال سنة ٥٨٧هـ/أواخر تشرين الأول ١١٩١م ، صوب بيت المقدس ، فوصل وجيشه إلى الرملة واللدّ ، وهما أوّل مدينتين مهمّتين على الطريق بين يافا وبيت المقدس. غير أنهم كانوا قد أصيبوا بدهشة شديدة عندما وجدوا ما فعله صلاح الدين بالرملة ، ثمّ ما لبثوا أن ساروا صوب النطرون ، لتقع بهم دهشة أخرى أيضاً ، إذ كان صلاح الدين قد أمر بهدم حصنها ، ثمّ سار مسرعاً صوب القدس ، ليعزّز دفاعاتها ، ويشرف بنفسه

---

١) العماد الأصفهاني : الموسوعة الشامية - ج ١٣ - ص ٣٧٣. ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ج١٢ - ص ٧١-٧٢. ابن شداد : الموسوعة - ج ١٥ - ص ٢٠٣. ابن واصل : مفرّج الكروب - ج٢ - ص ٣٦٩-٣٧١. ابن الفرات : المصدر المتقدم - مج ٤ - ج٢ - ص ٣٤-٣٦. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم - ص ١٧٢.

٢) ابن شداد : النوادر السلطانية - الموسوعة - ج ١٥ - ص ٢٠٦. البدر العيني : الموسوعة - ج ٢٤ - ص ٣٩٨. عاشور : الحركة الصليبية - ج٢ - ص ٦٩٠.

Hilaire Belloc: The Crusade , London , 1937 , p. 301.
Miriam Moss: The Crusades , England , 1986 , p. 21.

٣) أمبرويز : الموسوعة - ج ٣٣ - ص ٤٢٩. جاك دي فيتري : الموسوعة الشامية - ج ٣٤ - ص ٢٤٠. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية - ج ٣١ - ص ١٢٧.

على حفر خندقها ، وتجديد سورها[1].

ووصل الصليبيون إلى ربض بيت المقدس في أواخر سنة ٥٨٧هـ/سنة ١١٩١م ، بعد أن أنهكتهم غارات البدو والأعراب ، والتي كانت بتشجيع من صلاح الدين ، فضلاً عن قسوة الشتاء وإحكام صلاح الدين دفاعات المدينة وتحصيناتها ، فاضطرّ رتشارد ورجاله إلى الانسحاب صوب الرملة يجرّون أذيال الحزن والإخفاق[2].

على أنّ رتشارد كان أرسل إلى صلاح الدين لفتح باب المفاوضات ، لما فيه مصلحة الصليبيين والمسلمين ، لكنّ تلك العملية تعثّرت بسبب إصرار رتشارد على عودة مملكة بيت المقدس كما كانت عند وفاة ملكها بلدوين الرابع سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م[3] ، إذ كان رتشارد قد أرسل مع الملك العادل – أخي صلاح الدين ونائبه في المفاوضات – رسالة يقول فيها : «إنّ المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وخرجت من يد الفريقين بالكلية ، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حقّه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، والقدس متعبّدنا ، ما ننزل عنه ولو لم يبقَ منّا واحد ، وأمّا البلاد فيعاد ما هو قاطع الأردن ، وأمّا الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ، فيمنّ به السلطان علينا ، ونستريح من هذا العناء

---

١) أمبرويز : الموسوعة – ج ٣٣ – ص ٤٦١-٤٦٢. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٧٤. ابن شداد : النوادر السلطانية – الموسوعة – ج ١٥ – ص ٢٠٦-٢٠٨.ابن واصل : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ٣٧١. النويري : نهاية الأرب – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ٥١٥. ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار – ج٢٣ – ص ٨٣. ابن الفرات : المصدر المتقدم – مج ٤ – ج٢ – ص ٤٢. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ١٠٧. البدر العيني : عقد الجمان – الموسوعة – ج ٢٤ – ص ٤٢٢. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم – ص١٧٥.

٢) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٤٧٤. ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٧٤. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية – ج ٣١ – ص ١٣٩.

٣) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٤٤٩. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٢ – ص ٣٧٣. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية – ج ٣١ – ص ١٣٩.

الدائم»[1]. ولكنّ صلاح الديـــن كان رفض فحوى الرسالة قائلاً : «القدس لنا كما هـــو لكم ، وهو عندنا أعظم ممّا عندكم ، فإنـــه مسرى نبـــينا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصوّر أن ننـــزل عنـــه ، ولا نقدر على التلفّظ بذلك بـــين المسلمين ، وأمّا البلاد فهي أيضاً لنـــا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئاً عليـــها ، لضعف مَنْ كان بها من المـــسلمين في ذلـــك الوقت ، وأمّا الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز أن نفرّط فيـــه إلاّ لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منـــها»[2].

لكنّ رتشارد قلب الأسد ما لبث أن اقترح حلاً آخر يحمل سمة الغرابة والطرافـــة ، إذ كان عرض زواج أختـــه جوانا – أرملة ملك صقلية – من الملك العادل ، أخـــي صـــلاح الدين ، على أن يستقرّ العروسان في بـــيت المقدس ، ويعطي رتشارد إلى أختـــه ما في يده منّ ساحل بلاد الشام ، من عكّا حتّى يافا وعسقلان ، وبالمثل يتنازل صلاح الـــدين عـــن أملاكه في بلاد الشام إلى أخيـــه الملك العادل ، كما يتمّ إعادة صليب الصلبوت ، ويقطـــع العادل الدّاويّة والاستبارية ما يشاء من البلاد والقرى دون الحصون ، كما يُطلَـــق ســـراح الأسرى من الطرفين[3].

ولكن ألا نلمح في عرض رتشارد قلب الأسد محاولة منـــه لإقامة مملكـــة صليبيـــية إسلامية في بلاد الشام ، وعزل مصر عن الجزيرة والعراق ، وخلق نسيج يحمل صفة التعايش بـــين المسلمين والصليبـــيين ؟ لِمَ لا ، وقد أيقن استحالة الاستيلاء على القدس ، مع وجود صلاح الدين ، واستحالة الخلاص من صلاح الديـــن وهزيمتـــه بشكـــل ساحق مع وجود مصر ، لذا كان لا بدّ من إيجاد حلّ يبعد فيـــه مصر عن دورها ، ويحقـــق بـــه أهـــداف

---

١) أبو شامة : الموسوعة الشامية – ج ١٩ – ص ٣٥٤-٣٥٥. ابن واصل : المـــصدر نفـــسه – ج٢ – ص ٣٧٢-٣٧٣. ابن الفرات : المصدر المتقدم – مج٤ – ج٢ – ص ٣٩.

٢) أبو شامة : الموسوعة – ج ١٩ – ص ٣٥٥. ابن واصل : المصدر نفـــسه – ج٢ – ص ٣٧٣. ابـــن الفـــرات : المصدر نفسه – مج٤ – ج٢ – ص ٣٩-٤٠.

٣) العماد الأصفهانـــي : الموسوعة الشامية – ج ١٣ – ص ٣٧٧-٣٧٨. ابن شداد : الموســـوعة – ج ١٥ – ص ٢١٢. أبو شامة : الموسوعة الشامية – ج ١٩ – ص ٣٥٣. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٧٢. ابـــن الفرات : المصدر نفسه – مج٤ – ج٢ – ص ٣٨. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم – ص ١٧٣.

حملتـــه ، في وقتٍ كانت أوضاع مملكتـــه في إنكلترا تزداد اضطراباً ، غير أنّ المذهل إبداء صلاح الدين رضاه عن طرح رتشارد ، ربّما لإدراكه عدم قدرة رتشارد على تنفيذ ذلك ، وأنّ الأمر كان مجرّد مكر وهزل من رتشارد قلب الأسد ، وربّما أراد منـــه الإيقاع بـــين صلاح الدين وأخيـــه العادل الذي رحّب بالعرض ، ورأى في ذلك عين الصواب ، إلاّ أنّ الأميرة جوانا رفضت الزواج بالعادل إلاّ أن يدخل في دينـــها ، حينـــذاك انتـــــهى هـــذا العرض رغم غرابتـــه[1].

كان العداء والتنافس الشديد بـــين كونراد دي مونتفرات وغي دي لوزغنان يثقـــل كاهل رتشارد قلب الأسد ، ويقضّ مضجعه ، إذ كانت سيبـــيلا قد توجّت على بـــيت المقدس بعد موت أخيـــها الملك بلدوين الرابع ، سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م ، وعند وفاتـــها سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م ، غدت أختـــها إيزابـــيلاّ وريثةً لها ، وكانت إيزابـــيلاّ متزوّجـــة مـــن هنفري الرابع – صاحب تيرون – المكروه من قبل النبلاء حينذاك ، لهذا أقنعوها بـــالطلاق منـــه ، على أساس أنـــها خُطِبت إليـــه بدون موافقتـــها ، ثمّ زوّجوها المركيز كونراد دي مونتفرات الذي كان أثيراً لديـــهم ، وبذلك أعطوه حقّ المطالبة بعرش المملكة ضدّ غي دي لوزغنان أرمل سيبـــيلا، والمتمتّع بعطف وتأييد رتشارد قلب الأسد[2] ، الذي أقدم على منح غي جزيرة قبرص مقابل تخلّيـــه عن حقّه في مملكة بـــيت المقدس ، وقد قَبِلَ غـــي ذلـــك العرض ، وخفّ مسرعاً إلى مملكتـــه الجديدة سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢م[3].

وفي الوقت نفسه ، كانت وصلت إلى رتشارد أخبار مزعجة مـــن بـــلاده ، إذ أنّ

---

١) ابن شداد : الموسوعة الشاميـــة – ج ١٥ – ص ٢١٣. ابن واصل : المصدر نفـــسه – ج٢ – ص ٣٧٢. ابـــن الفرات : المصدر نفسه – مج ٤ – ج٢ – ص ٣٩.

٢) أرنول : الموسوعة الشامية – ج ٨ – ص ٣٧١-٣٧٤. جاك دي فيتـــري : الموســـوعة – ج ٣٤ – ص ٢٢٦-٢٢٧. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة – ج ٣١ – ص ١٥٥.

٣) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٥٤٤-٥٤٥. أرنول : الموســـوعة الـــشامية – ج ٨ – ص ٤١٥-٤١٨. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية – ج ٣١ – ص ١٦١.

أخيــه جون قام بمؤامرة ضدّه[1] ، ممّا كان يستلزم عودتــه الملحّة إلى إنكلترا. لذا دعا إلى اجتماع حضره النبلاء وقادة الجيش ، حتّى يتمّ اختيار ملك لبــيت المقدس ، واستقرّ رأي الجميع على أنّ كونراد دي مونتفرات هو الأجدر بتلك المهمّة[2] ، غير أنّ كونراد لم يــهنأ بتلك الثقة طويلاً ، إذ كان اغتيل على يد الحشيشية في ١٣ ربــيع الآخر سنة ٥٨٨هـ/٢٨ نــيسان سنة ١١٩٢م ، فتخلّص رتشارد من خصم عنــيد وتحكّم في صور ، واختار ابن أختــه ، هنري كونت شامبــين ، لعرش مملكة بــيت المقدس ، بعــد أن تــزوّج مــن إيزابــيلاّ ، في اليوم التالي للذي قُتِلَ فيــه زوجها كونراد[3].

وتحرّك رتشارد لتصفية القضايا الشائكة مع صلاح الدين ، مفضّلاً الحلّ العسكري ، فاستولى على قلعة الداروم – دير البلح – في شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٨هـ/أيــار ســنة ١١٩٢م ، ولكنــه أخفق في اقتحام حصن مجدل يابا ، واتّجه – على الرغم من ذلك – إلى عسقلان ، ومنــها شرع في الزحف صوب بــيت المقدس ، حيث كان وصل إلى بــين نوبة ، وهناك قضى رتشارد وجيشه بضعة أسابــيع في انتظار قدوم الإمدادات والمؤن مــن عكّا ويافا[4].

- وكان المسلمون شعلة من النشاط ، فبثّوا الذعر والهلع بــين أفراد الجيش الصليبــي ،

---

١) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٥١٣. روجر أوف وينــدوفر : الموســوعة – ج ٤٤ – ص ٣٩٣. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة – ج ٣١ – ص ١٤٩–١٥٠.

٢) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٥١٦–٥١٧. أرنول : الموســوعة الــشامية – ج ٨ – ص ٢٧٢–٢٧٣. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة – ج ٣١ – ص ١٥١.

٣) أمبرويز : الموسوعة الشامــية – ج ٣٣ – ص ٥٢٧–٥٢٨. رالــف أوف ديسيتــو : الموســوعة – ج ٣٠ – ص ٢٥٠. أرنول : الموسوعة – ج ٨ – ص ٤٢١–٤٢٢. جاك دي فيتري : الموســوعة – ج ٣٤ – ص ٢٤٣–٢٤٤. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية – ج ٣١ – ص ١٥٢–١٥٥. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٢ – ص ٣٨١–٣٨٢.

٤) العماد الأصفهانــي : الفتح القسي – الموسوعة – ج ١٣ – ص ٤٠٢–٤٠٣. ابن شداد : النوادر الــسلطانــية – الموسوعة – ج١٥ – ص ٢٢٩–٢٣١. أبو شامة : الموسوعة – ج ١٩ – ص ٣٦٤. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٨٢. ابن الفرات : المصدر المتقدم – مج ٤ – ج٢ – ص ٦٥. ابن سباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٢٠٣.

بغاراتـــهم المفاجئة والخاطفة وانقضاضاتـــهم السريعة ، كما عمد صلاح الدين إلى اتّخـــاذ عدّة إجراءات تكفل صمود القدس في وجه أي حصار أو هجوم ، فوزّع أمراءه على أسوار المدينة ، و«أخذ في إفساد المياه ظاهر القدس ، فخرب الصهاريج والجباب بحيـــث لم يبـــقَ حول القدس ماء يُشرَب أصلاً»[١] ، كما استدعى القوّات من مختلف الأطراف للحضور ، فقدم بدر الدين دلدرم مع خلق كثير من التركمان ، كما وصل بعده عزّ الدين بن المقدّم ، وحضر – أيضاً – الملك الأفضل مع العساكر الواصلة إليـــه من الشرق[٢].

وازدادت أوضاع الصليبـــيين سوءاً ، بسبب نقص المؤن والماء وشدّة الحرارة وازدياد غارات المسلمين على المعسكرات الصليبـــية ، وحاول رتشارد – للخروج من ذلك الوضع الصعب أولاً والضغط على صلاح الدين ثانـــياً – قطع طريق المواصلات بـــين مـــصر والشام ، مستغلاً سيطرتـــه على عسقلان وقلعة الداروم ، فهاجم في ٩ جمادى الآخرة سنة ٥٨٨هـ/٢٢ حزيران سنة ١١٩٢م ، قافلة برّية ضخمة كانت قادمة من مصر ، وقتل وأسر عدداً كبـــيراً من رجالها ، وغنم أعداداً هائلة من الخيل والجِمال والأقمشة والأموال ، ممّـــا سبّب ألماً كبـــيراً لصلاح الدين ، وجعل الروح المعنويـــة للجـــيش الإســـلامي في أســـوأ حالاتـــها[٣]. وعلى الرغم من ذلك ، فإنّ رتشارد كـــان اتّخذ قراره برفع الحصار عـــن القدس ، والانسحاب ورجاله عائدين إلى الرملة ، وأرسل منـــها إلى صلاح الدين للتباحث بشأن الصلح[٤].

---

١) أبو شامة : الروضتين – الموسوعة الشامية – ج ١٩ – ص ٣٦٨.

٢) ابن شداد : النوادر السلطانـــية – الموسوعة – ج ١٥ – ص ٢٣٠. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج ١٩ – ص ٣٦٥. ابن الفرات : المصدر المتقدم – مج ٤ – ج٢ – ص ٦٢.

٣) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٦٠٩-٦١٥. العماد الأصفهانـــي : الموسوعة الـــشامية – ج ١٣ – ص ٤٠٤-٤٠٥. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٨٢. أبو شامة : الموسوعة الـــشامية – ج ١٩ – ص ٣٦٧. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٢ – ص ٣٨٣. ابن الفرات : المصدر نفسه – مـــج ٤ – ج٢ – ص ٦٦-٦٧.

٤) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٦٣١-٦٣٢. جاك دي فيتري : الموســـوعة – ج ٣٤ – ص ٢٤٢. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٩.

ولكن حريّ بنا أن نسأل ونبحث عن أسباب هذا الانسحاب المفاجئ لرتشارد قلب الأسد وجيشه من أمام أسوار بيت المقدس، خصوصاً أنّ رتشارد كان على يقين، من أنّ كلّ أعماله كانت ضعيفة، بل هي لا تأخذ وزناً أبداً، إن هو لم يتمكّن من الاستيلاء على القدس.

كان رتشارد قلب الأسد قد طلب من الصليبيين القدامى في بلاد الشام أن يصوّروا له دفاعات مدينة بيت المقدس والوضع الجغرافي لها، وأن يذكروا الإجراءات التي اتّخذها صلاح الدين لمنع سقوط المدينة، وحينذاك أدرك رتشارد - بعدما أنجزوا له ما طلب - استحالة اقتحامها، والاستيلاء عليها، خاصة أنّ صلاح الدين كان لا يزال حيّاً، وكلمة المسلمين مجتمعة حوله[1]، فضلاً عن أنّ الخلاف بين الصليبيين حول استمرار الحصار ومهاجمة القدس، كان قد تعاظم إلى حدّ كبير، إذ أيّد الفرنسيون مهاجمة القدس، وحثّوا رتشارد على فعل ذلك، فيما عارض الداوية والاستبارية ومعهم عدد كبير من قادة الجيش الإنكليزي، وكان رتشارد ميّالاً إلى الأخذ بهذا الرأي، ولكن على الرغم من ذلك، كان تمّ الاتّفاق على اختيار لجنة من عشرين شخصاً، بحيث تمثّل جميع الأطراف المشاركة في الحصار، حتّى يتسنّى لها اتّخاذ القرار المناسب، وبعد التشاور، قرّرت اللجنة أنّ على الصليبيين السير مباشرة صوب مصر، والاستيلاء عليها، لأنّ ذلك سوف يقدّم فوائد عظيمة للصليبيين ودويلاتهم في بلاد الشام[2]. إذاً بات جلياً تماماً أنّ عجز الحملة الصليبية الثالثة عن تحقيق أسمى أهدافها، وهو الاستيلاء على القدس، كان بفعل دور مصر في المواجهة، وبفضل إمكاناتها البشرية والمادية الكبيرة، لذا كان لزاماً على رتشارد قلب الأسد وقادة حملته السير مباشرة صوبها إذا ما أرادوا الاستحواز على القدس

---

١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ج١٢ - ص ٧٥. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية - ج ٣١ - ص ١٧٦. طقوش : المرجع المتقدم - ص ١٩٧.

٢) أمبرويز : الموسوعة الشامية - ج ٣٣ - ص ٦٠٢-٦٠٣. ابن شداد : الموسوعة الشامية - ج ١٥ - ص ٢٣٨-٢٣٩. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة - ج ٣١ - ص ١٧٥-١٧٧. ابن واصل : مفرّج الكروب - ج٢ - ص ٣٩٠. ابن الفرات : المصدر المتقدم - مج ٤ - ج٢ - ص ٧٢. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم - ص١٧٥-١٧٦.

وترسيخ وجودهم فيـــها.

لكنّ هذا القرار كان صعب التنفيذ ، لأنّ الجيش الصليبـــي كان يعانـــي من نقـــص حادّ في المؤن والطعام والماء ، فضلاً عن شدّة الحرّ ، وتأخّر قدوم الإمـــدادات[1] ، وتـــواتر وصول الأخبار المقلقة من إنكلترا[2]. زد على ذلـــك ، اســـتمرار هجمـــات المـــسلمين ، وغاراتـــهم على المعسكرات الصليبيـــة ، وجهل رتشارد وجيشه بأوضـــاع المـــسلمين ، وحالة الإحباط التي كانت سيطرت عليـــهم ، خصوصاً بعد إخفاق القافلـــة المـــصرية في النجاة ، وسقوط رجالها وأحمالها بـــيد رتشارد قلب الأسد[3].

إذاً ، وبناءً على ما تقدّم ، رُفِعَ الحصار الصليبـــي عن القدس ، وانسحب رتـــشارد قلب الأسد صوب الرملة ، ثمّ بدأت المفاوضات بـــين الطرفين ، المسلم والصليبـــي.

كان رتشارد قلب الأسد قد أعلن عن تمسّكه بحقّ الصليبـــيين في حمايـــة الأمـــاكن المقدّسة ، خاصّة كنـــيسة القيامة ، وضمان حريّة الحج والعبادة للصليبـــيين[4].

وكان صلاح الدين قد أبدى موافقتـــه على طلب رتـــشارد ، وعلـــى أن يكـــون للصليبـــيين ما في أيديـــهم من البلاد الساحلية ، من يافا إلى صور بأعمالهـــا ، شـــرط أنّ «عسقلان وما وراءها يكون خراباً ، لا لنا ، ولا لكم»[5]. وأصرّ صلاح الـــدين ، طيلـــة

---

1) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٦٢٦-٦٢٧. رتشارد دي تمبلـــو : الموسوعة الـــشامية – ج ٣١ – ص ١٨٦.

2) أرنول : الموسوعة الشامية – ج ٨ – ص ٤٤٣. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة الشامية – ج ٤٤ – ص ٣٩٣. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٢ – ص ٣٩٩.

3) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٦١٥. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج ١٢ – ص ٨٢. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية – ج ٣١ – ص ١٧٩. أبو شامة : الموسوعة الـــشامية – ج ١٩ – ص ٣٦٧. ابـــن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٨٣. ابن الفرات : المصدر المتقدم – مج ٤ – ج٢ – ص ٦٦-٦٧.

4) ابن شداد : النوادر السلطانـــية – الموسوعة – ج ١٥ – ص ٢٤٢. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة – ج ١٩ – ص ٣٧٣. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٩٢.

5) أبو شامـــة : الروضتين – الموسوعة الشاميـــة – ج ١٩ – ص ٣٧٢. ابن واصـــل : المصدر نفـــسه – ج٢ – ص ٣٩١. وهو يورد اللفظ نفسه تقريباً.

استمرار المفاوضات ، على إبعاد سيطرة الصليبيين عن عسقلان وما يليها من بلدان الساحل تجاه مصر ، مثل غزّة والداروم ، حتّى لا تؤدّي سيطرتهم على تلك الجهات إلى قطع الاتصال بين مصر والشام[1]. هذا إلى جانب أنّ القدس كانت تبعد مسافة واحدة تماماً عن يافا وعسقلان[2] ، وكلتا المدينتين تقعان على الساحل ، وبالتالي فهما تمثّلان رئتي القدس وعينيها على البحر ، لذا كان على صلاح الدين التمسّك بعسقلان لتكون نداً لمدينة يافا ومكافئاً لها ، وليضمن عدم قطع الإمدادات البرية والبحرية عن القدس ، وليضمن وجود خط دفاعي متقدّم ضدّ أطماع رتشارد قلب الأسد في مصر.

المفاوضات كانت تعثّرت بسبب رفض رتشارد تسليم عسقلان وتخريبها ، لذا تحرّك صلاح الدين صوب يافا لتقوية موقفه في المفاوضات ، والضغط على رتشارد قلب الأسد للقبول بشروطه ، فضلاً عن رغبة صلاح الدين في الردّ على تحرّك رتشارد قلب الأسد صوب بيروت ، بانتزاع يافا ، بعد أن كانت قد خلت من المدافعين عنها ، ولا ريب أنّ صلاح الدين كان يبغي – أيضاً – رفع معنويات جنده ، وإعادة هيبته إلى نفوسهم ، بعد إخفاقاته المتكرّرة أمام رتشارد قلب الأسد وجيشه.

كان صلاح الدين قد تمكّن فعلاً من دخول يافا ، في ١٨ رجب سنة ٥٨٨هـ/٣٠ تمّوز سنة ١١٩٢م ، بعد قتال مرير مع حاميتها ، وضرب حصاراً على قلعتها ، التي رفضت الاستسلام ، ولكنّ رتشارد كان أسرع إلى نجدة يافا ، بعد أن وصلته أخبارها ، وكان حينذاك في عكّا ، فقام بشنّ هجوم عنيف أرغم المسلمين على ترك

---

١) أبو شامة : الروضتين – الموسوعة الشامية – ج ١٩ – ص ٣٤٩. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٦٩. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم – ص ١٧٢.

٢) جون أوف وورزبيرغ : وصف الأرض المقدسة – الموسوعة – ج ٣٤ – ص ٣٠١. ويذكر أنّ «القدس تقع على مسافة أربعة وعشرين ميلاً من عسقلان ، والقدر نفسه من يافا». رواية حاج مجهول : الموسوعة الشامية – ج ٣٩ – ص ٦٨. ويورد المسافة ذاتها بين القدس وكلتا المدينتين ، يافا وعسقلان. ثيوديرك : وصف الأماكن المقدسة – الموسوعة – ج ٣٥ – ص ٣٥٧. سانوتو : الأسرار – الموسوعة – ج ٣٨ – ص ٢٢٥. ويذكر أن المسافة بين يافا وعسقلان هي عشرة أميال.

يافا ، والعودة إلى القدس[1].

– صلح الرملة :

وعاد رتشارد قلب الأسد – مجدّداً – إلى طلب الصلح ، على الرغم من انتصاره في يافا ، وذلك بسبب خوفه على أوضاع بلاده المضطربة ، وتدهور صحّته إلى حدّ كبير[2]. ولكنّ عسقلان وغزّة والداروم كانت نقاط الخلاف المسيطرة على جوّ المفاوضات ، والتي استغرقت عدّة أيّام ، ومع قدوم يوم الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ٥٨٨ هـ / ٢ أيلول سنة ١١٩٢م ، تمّ الاتفاق على توقيع صلح الرملة ، والذي كان ينصّ على الآتي :

١- يكون للصليبيين المنطقة الساحلية ، من صور شمالاً إلى يافا جنوباً ، بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف.

٢- تكون عسقلان بأيدي المسلمين ، على أن يتمّ تخريبها ، بعد أن كان الصليبيون قد عمّروها.

٣- تكون اللد والرملة ، مناصفة بين المسلمين والصليبيين.

٤- تكون للمسيحيين حرية زيارة بيت المقدس دون دفع أي ضريبة.

---

١) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٦٥٧-٦٥٩. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج ١٢ – ص ٨٤. ابن شدّاد : النوادر السلطانية – الموسوعة – ج ١٥ – ص ٢٤٦. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٩٣-٣٩٦. ابن الفرات : المصدر المتقدم – مج ٤ – ج٢ – ص ٧٥-٧٧. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ١١٠.

٢) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٦٨٦. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج ٤٤ – ص ٣٩٢. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة – ج ٣١ – ص ٢٠٧.

٥- مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاث أشهر(١).

واشترط صلاح الدين دخول الإسماعيلة ، واشترطوا هم دخول صاحبي أنطاكية وطرابلس في الصلح. وكان ناب عن صلاح الدين في توقيع الصلح ، ولداه الملك الأفضل والملك الظاهر ، وأخوه الملك العادل ، وغيرهم من الأمراء ؛ فيما كان مثّل رتشارد قلب الأسد ، هنري كونت شامبين ، وعدد من الأمراء الصليبيين(٢).

وارتحل رتشارد من عكّا باتّجاه بلاده ، ولكنه وقع أسيراً في يد دوق النمسا ، الذي باعه إلى هنري السادس — إمبراطور ألمانيا — ولم يطلق سراحه إلاّ بعد أن دفع فدية كبيرة ، ولمّا عاد إلى بلاده وقع في نزاع مع أخيه جون ، ومع فيليب ملك فرنسا ، ولم يلبث أن لقي مصرعه سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩م(٣).

أمّا صلاح الدين فقد كان عاد إلى دمشق إثر صلح الرملة ، وانتابه بعد مدّة بسيطة المرض ، وغشيته الحمّى ، وتوفّي في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ / ٤ آذار سنة ١١٩٣م ،

---

١) ملحمة رتشارد قلب الأسد - الموسوعة الشامية - ج ٩ — ص ٢٨٧. رالف أوف ديسيتو : الموسوعة - ج ٣٠ — ص ٢٥١. جاك دي فيتري : الموسوعة - ج ٣٤ — ص ٢٤٣. أبو شامة : الموسوعة - ج ١٩ — ص ٣٨١. ابن واصل : مفرّج الكروب — ج٢ — ص ٤٠٣-٤٠٤. أبو الفداء : الموسوعة الشامية - ج ٢٢ — ص ٦٠. ابن الوردي : المصدر المتقدم — ج٢ — ص ١٥٠. ابن فضل الله العمري : الموسوعة الشامية - ج ٢٣ — ص ٨٦. البدر العيني : عقد الجمان — الموسوعة - ج ٢٤ — ص ٤٣٣. ابن الفرات : المصدر المتقدم — مج ٤ — ج٢ — ص ٨٤-٨٥. المقريزي : السلوك — ق١ — ج١ — ص ١١٠. ابن سباط : المصدر المتقدم — ص ٢٠٤.

Ralph V. Turner and Richard R. Heiser: The Reign of Richard Lion Heart , England , 2000 , p. 101.
H. G. B: Chronicles of the Crusades , London , 1903 , p. 61. John Gillingham: Richard I , England , 1999 , pp. 217-218.
T. E. Lawrence: Crusades castles , Oxford , 1988 , p. 68.
Dana C. Munro:The Kingdom of the Crusaders , U. S. A , 1935 , P. 170.
The Oxford dictionary of World religions , Oxford University Press , 1997 , p. 247.
Bingham: Op. cit, pp. 111-112.

٢) ابن شداد : النوادر السلطانية — الموسوعة - ج ١٥ — ص ٢٥٨-٢٦٠. ابن واصل : المصدر نفسه — ج٢ — ص ٤٠٣-٤٠٤. ابن الفرات : المصدر نفسه — مج ٤ — ج٢ — ص ٨٤.

٣) رالف أوف ديسيتو : الموسوعة الشامية - ج ٣٠ — ص ٢٥١-٢٥٢-٢٧٨. أرنول : الموسوعة الشامية - ج ٨ — ص ٤٤٦-٤٤٧. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة - ج ٤٤ — ص ٣٩٦.

Simon Schama: A History of Britain , London , 2002 , p. 154. John Gillingham: Op. cit, p. 221.

ودُفِنَ في قلعةِ دمشق[1].

وهكــذا أُسدِل الستار على الحملة الصليبيــة الثالثة ، الــتي كانــت – بــضخامة جيوشها ، وزخم ملوكها – آخر الحملات الصليبيــة صوب بلاد الشام. وإذا كان أحــد أشهر ملوك الحملة وقادتــها ، وهو رتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا ، قد استطاع إحراز مكاسب سياسية ، فتخلّص من غي دي لوزغنان ملك القدس أيام حطين ، وأزاح كــونراد دي مونتفرات صاحب صور من حلبة مسرح الأحداث بالتعاون مع الحشيشية ، وفرض ابن أختــه هنري أوف شامبــين ملكاً على مملكة بــيت المقدس الثانــية.

كما استطاع – أيضاً – إحراز انتصارات عسكرية مهمة ، في أرسوف ويافا ، فــإن رتشارد كان قد أخفق في الهدف الأساسي الذي كان يصبو إليــه من وراء مــشاركتــه ، وهو الاستيلاء على القدس ، وإعادتــها إلى الأيدي الصليبيــية.

وإذا كان رتشارد قلب الأسد قد نجح في إيقاف نشاط صــلاح الــدين ، وتجميــد طموحاتــه في تحرير بلاد الشام ، وطرد الصليبــيين منــها ، كما نجح في تثبــيت وضــع عكا كقاعدة جديدة لمملكة بــيت المقدس الصليبــية ، وإطالة أمد الحروب الصليبــية قرناً آخر ، فإن رتشــارد كان قد أخفق – أيضاً – في منــع تــــهلهل القــوى والإمــارات الصليبــية ، واستمرار ضعفها ، وفي المقابل كان صلاح الدين لا يزال يتحكّم في دولة قوية تمتدّ من حلب ودمشق وبــيت المقدس إلى وادي النــيل واليمن ، وتحيط ببقايا الإمــارات الصليبــية المتناثرة على شواطئ بلاد الشام وقربه ، في شريط ضيّق لا يزيد عرضــه علــى

---

١) العماد الأصفهانــي : الفتح القسي – الموسوعة – ج ١٣ – ص ٤٢٩. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج ١٢ – ص ٩٥. ابن شداد : النوادر السلطانــية – الموسوعة – ج ١٥ – ص ٤٣٢. ابن العديم : زبدة الحلــب – ج٢ – ص ٥٩٩. أبو شامة : الروضتين – الموسوعة الشامية – ج١٩ – ص ٤٠٩. ابن واصل : مفــرّج الكــروب – ج٢ – ص ٤١٩–٤٢٠. أبو الفداء : الموسوعة – ج ٢٢ – ص ٦٤. ابن الوردي : المصدر المتقــدم – ج٢ – ص ١٥٢–١٥٣. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ١١٢. ابن تغري بردي : المــصدر المتقــدم – ج٦ – ص ٥١. ابن سباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٢٠٧. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلــوب – ص ١٧٩. د. سهيل زكار : حطين مسيرة التحرير – دمشق – ١٩٨٤م – ص ١٨٤–١٨٥. د. شاكر مصطفى : صلاح الدين – دار القلم – دمشق – ١٩٩٨م – ص ٣٥٠.

عشرة أميال ، ويمتدّ نحو تسعين ميلاً[1].

من الطبـــيعي أن يخطر في بال أي باحث أو دارس لأحداث الحملة الصليبـــية الثالثة ، سؤال مهم عن العلاقة بـــين هذه الحملة وبـــين مصر ، أو بصيغة أخرى ، أكثـــر تحديـــداً ودقّة ، إلى أي مدى شاركت مصر في أحداث الحملة الصليبـــية الثالثة ؟ وما أهمية هـــذه المشاركة ؟

كانت الحملة الصليبـــية الثالثة قد أفرزت حقيقة قديمة وجديدة ، ألا وهي خطـــورة وأهمية موقف مصر وموقعها.

قلنا حقيقة قديمة ، لأنـــها كانت تبدّت مذ تطلّع بلدوين الأول ملك بـــيت المقدس (٤٩٤-٥١٢هـ / ١١٠٠-١١١٨م) لغزو مصر ، وسار صـــوبها ، ووصـــل إلى الفرمـــا ، واصطيد له السمك من بحيرة المنـــزلة ، ثمّ نـــــهج بلـــدوين الثالـــث (٥٣٨-٥٥٨ هـ / ١١٤٣-١١٦٢م) سياسة التوسع باتّجاه مصر ، مبتدئاً بالاستيلاء على عسقلان. ثمّ كثّف نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ / ١١٤٦-١١٧٤م) جهده لدخول مصر ، وتصدّى لـــه في المقابل عموري الأول ملك بـــيت المقدس (٥٥٧-٥٦٩هـ / ١١٤٦-١١٧٤م) ، وذلك للحؤول دون تحقيق مطمحه ، إذ يبدو أن عموري الأول كان يدرك تماماً خطورة وحـــدة

---

١) د. سهيل زكار : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبـــية — ج٣١ — ص ٥. عاشور : الحركة الصليبـــية — ج٢ — ص ٧٠٦. د. أمينة بـــيطار : تاريخ العصر الأيوبـــي — دمشق — ١٩٨١م — ص ١٦٠. د. وفاء محمد علي : قيام الدولة الأيوبـــية في مصر وبلاد الشام — القـــاهرة — ١٩٨٧م — ص ١٥٠-١٥١. د. محمـــد سـهيل طقوش : تاريخ الأيوبـــيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة — بـــيروت — ١٩٩٩م — ص ٢٠٣.

Peter W. Edbury: The conquest of Jerusalem and the third Crusade , England , 1996 , pp. 164-174.
J. A. P. Jones: The Crusades , London , 1984 , pp. 43-44.
Miriam Moss: The Crusades , England , 1986 , p. 21.
Christopher Gibb: Richard the Lion heart and the Crusades , England , 1985 , p. 46.
Keneth M. Setton: A History of the Crusades , 6 vols , U. S. A , 1958 , VI , p. 590.
Jacob G. Ghazarian: The Armenian Kingdom in Cilicia during the Crusades , England , 2000 , p. 142.
Henry Treece: The Crusades , London , 1978 , pp. 157-159.
Terence Wise: The Wars of the Crusades , London , 1978 , p. 23.
The new Cambridge Medival History , 7 vols , Cambridge University Press , 1999 , volume V , pp. 590-606.
Christopher Tyerman: England and the Crusades , U. S. A , 1988 , pp. 57-81.

مصر وبلاد الشام على أوضاع الصليبيين ، خصوصاً أنّ تلك الوحدة كانت ستضع مملكة بيت المقدس بين فكّي كمّاشة إسلامية ، وتشتّت قواها بين القتال على جبهتين ، واحدة في الشمال وأخرى في الجنوب.

وقلنا حقيقة جديدة ، لما كانت شكّلته مصر — خلال حقبة الحملة الصليبية الثالثة — من منبع إمدادات لا ينضب ، سواء أكان بالمال والرجال ، أم بالمؤن والعتاد ، ممّا مكّن صلاح الدين من دعم المحاصَرين في عكّا ، طيلة سنتين تقريباً ، حيث شَرَع الأسطول المصري منذ اللحظات الأولى لحصار عكّا بشحن المدينة بالغلال والرجال ، فوصل في منتصف شهر ذي القعدة سنة ٥٨٥ هـ / كانون الأول سنة ١١٨٩م ، أسطول مصري ضخم يحمل مؤناً وذخائر ورجال ، أسهمت في شحذ عزيمة أهل عكّا ، ورفعت من معنوياتهم ، بالإضافة إلى ذلك فإن الأسطول نفسه كان قد صادف في طريقه سفينة صليبية ضخمة فأوقع بها ، وغنم محتوياتها كافّة[1].

فالأسطول المصري ضرب أروع الأمثلة في عملية إيصال الإمدادات إلى عكّا ، وتحدّى الحصار البحري المضروب عليها ، ونازل الأساطيل الصليبية في مواقع عدّة ، فأغرق بعضاً من سفنهم ، وأسر بعضاً آخر[2].

وقد أدرك الصليبيون خطورة مشاركة مصر في القتال عند أسوار عكّا «فقالوا : إنّ عسكر مصر لم يحضر والحال مع صلاح الدين هكذا ، فكيف يكون إذا حضر ؟»[3]. وفي

---

١) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٢ — ص ٢١٥-٢١٦. وهو يقول إنّ الأسطول الإسلامي كان قدم من «مصر التي ناضلت مع عكّا بوحدة وانسجام». وانظر : العماد الأصفهاني : الموسوعة – ج ١٣ — ص ٢٣١. وهو يذكر أنّ الأسطول المصري كان يتكوّن من خمسين شينياً. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج ١٢ — ص ٤١. ابن واصل : مفرّج الكروب — ج٢ — ص ٣٠٥. البدر العيني : عقد الجمان — الموسوعة – ج ٢٤ — ص ٣٣٠.

٢) أمبرويز : الموسوعة – ج ٣٢ — ص ٢٥٧. العماد الأصفهاني : الموسوعة – ج ١٣ — ص ٢٦٠. أبو شامة : الروضتين — الموسوعة الشامية – ج ١٩ — ص ٢٤٤-٢٤٥. ابن واصل : المصدر نفسه — ج٢ — ص ٣١٧. ابن الفرات : المصدر المتقدم — مج٤ — ج١ — ص ٢١٣. البدر العيني : الموسوعة – ج ٢٤ — ص ٣٣٩.

٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج ١٢ — ص ٣٦.

أوائل شهر شعبان من سنة ٥٨٦ هـ / أيلول سنة ١١٩٠م كتب بهاء الدين قراقوش ، والي عكّا ، والحاجب لؤلؤ ، المقدَّم على الأسطول ، يخبران صلاح الدين أنّ مؤن البلد ومخزوناته لن تدوم سوى إلى ليلة النصف من شعبان ، فكتب السلطان الناصر فوراً : «إلى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والمؤن والأدم والمير ، وجميع ما يحتاج إليه في الحصار ، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء ، وأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ، ولججت في البحر تتوخّى النوتية بها الريح ، حتّى ساروا بالريح التي تحملها إلى نحو عكّا ، ولم يزالوا كذلك حتّى وصلوا إلى عكّا ليلة النصف من شعبان المذكور ، وقد فني الزاد ولم يبقَ عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم ، وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها والعساكر الإسلامية تشهد ذلك من الساحل ... ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب ، والله يدفع عنها ، والريح تشتدّ والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين ، والدعاء يخرق الحجب ، حتّى وصلوا سالمين إلى ميناء البلد ، وتلقّاهم أهل عكّا تلقّي الأمطار عند الجدب ، وامتاروا ما فيها ، وكانت ليلة بليال ، وكان دخولها في وقت العصر رابع عشر شعبان»[1] من السنة نفسها.

وكان شتاء سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠م ، قاسياً وعاصفاً ، فرأى صلاح الدين «إدخال البدل إلى عكّا ، وحمل المِيَر والذخائر ، وإخراج مَنْ كان بها من الأمراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ، ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً ...... وكان ممّا دخل إليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات ، كانت وصلت من مصر ، وكان دخولها يوم الإثنين ثاني ذي الحجة ، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب من الميناء ، فانقلب كل من في البلد من المقاتلة إلى جانب البحر لتلقّي البطس وأخذ ما فيها ، ولمّا علم العدو انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلّم واحد فاندقّ بهم

١) ابن شداد : النوادر السلطانية — الموسوعة - ج ١٥ — ص ١٤٨-١٤٩. أبو شامة : الروضتين :.الموسوعة - ج ١٩ — ص ٢٦٢-٢٦٣. ابن واصل : مفرّج الكروب — ج٢ — ص ٣٣١. ابن الفرات : المصدر المتقدم — مج٤ — ج١ — ص ٢٢٨-٢٢٩. البدر العيني : الموسوعة - ج ٢٤ — ص ٣٥٢.

السلّم ، كما شاء الله تعالى ، وأدركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقاً عظيماً وعادوا خائبين خاسرين ، وأمّا البطس فإنّ البحر هاج هيجاناً عظيماً ، وضرب بعضها ببعض على الصخر ، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم ، قيل كان عددهم ستين نفراً ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم ، وحرج السلطان لذلك حرجاً شديداً ، وكان ذلك أوّل علائم أخذ البلد»[1].

إذاً ، البدل كان قَدِم من مصر ، وهو من الضخامة بحيث أنه – لو تيسّر دخوله – كان سيكفي عكّا سنة كاملة !! وبالتالي عُدَّ إخفاقه علامةً قويّة على أنّ عكّا شارفت على السقوط بأيدي الصليبيين.

وبذا فإن مصر كانت ركيزة صلبة استند إليها صلاح الدين في التصدّي للصليبيين ، بل – مكّنته أيضاً – من تجاوز كل إخفاق في مواجهة رتشارد قلب الأسد ، والنهوض مجدداً للتصدّي له ، وإبعاده عن القدس ، وحتى عن مصر نفسها ، ذلك أنّ رتشارد ومعظم قادة جيشه ، ومعهم الداوية والإستبارية ، كانوا قد قرّروا خلال حصار القدس ، سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢م ، رفع الحصار ، والسير مباشرةً صوب مصر[2] ، ربّما ليقينهم أنّ الاستيلاء على مصر كان سيتيح لهم الاستيلاء على القدس ، بل ربّما سقطت بلاد الشام كافّة.

في مقابل ذلك ، كان صلاح الدين على دراية كبيرة بأهمية مصر ، وعظم دورها ، ومدركاً في الوقت نفسه ، النوايا الصليبية تجاهها ، لذلك لم يذهب بعيداً في سروره ،

---

١) ابن شدّاد : الموسوعة الشامية – ج ١٥ – ص ١٦٣-١٦٤. أبو شامة : الموسوعة – ج ١٩ – ص ٣١٧-٣١٨. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٤٥. ابن الفرات : المصدر نفسه – مج٤ – ج١ – ص ٢٤٢-٢٤٣. البدر العيني : عقد الجمان – الموسوعة – ج ٢٤ – ص ٣٥٥-٣٥٦.

٢) أمبرويز : الموسوعة – ج ٣٣ – ص ٦٠٢-٦٠٣. ابن شداد : الموسوعة – ج ١٥ – ص ٢٣٨-٢٣٩. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية – ج ٣١ – ص ١٧٧. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٩٠. ابن الفرات : المصدر نفسه – مج٤ – ج٢ – ص ٧٢. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم – ص ١٧٥-١٧٦.

حين رفع الصليبيون الحصار عن القدس ، بل كان لا يزال قلقاً على مصر[1] ، لعلمه بتوجّه أنظار رتشارد قلب الأسد صوبها ، خاصة بعد أن كان استولى ، خلال حصار القدس ، على قافلة برية ضخمة قادمة من مصر ، وذلك في ١١ جمادى الآخرة ٥٨٨ هـ / ٢٤ حزيران ١١٩٢م[2]. وحسبنا أن نتأمّل ما حوته تلك القافلة من مواد ومؤن لندرك مدى ما قدّمته مصر من دعم وإمدادات ، وندرك – أيضاً – حجم غناها بالموارد المادية والبشرية.

فقد استولى الصليبيون على عدد هائل من الجِمال ، وصل عددها إلى أربعة آلاف وسبعمائة رأس ، مع قطيع كبير من البغال والحمير المحمّلة بالنفيس والنادر من الذهب والفضة ، والأقمشة والمنسوجات التي حيكت في دمشق وبغداد ، فضلاً عن الحرير والدروع والأغطية والأثواب والخيام ، والشعير والقمح والطحين والتوابل والقرفة والسكّر ، وعقاقير للتقوية ، وأحواض وصناديق وأوعية جلدية ، وقدور ، وحوامل شموع من الفضة الصافية ، وشموع ، وكميات ضخمة من الأطعمة المحفوظة ، والأموال ، والأسلحة من مختلف الأنواع ، كما قُتِل أكثر من ألف وسبعمائة فارس رافقوا الحملة ، وأُسِرَ خمسمائة منهم[3].

ومهمّ جداً التوقّف للبحث في أسباب قدوم هذه القافلة ، من خلال مناقشة محتوياتها ومَنْ كان يقودها.

---

١) ابن شداد : الموسوعة الشامية – ج ١٥ – ص ٢٣٩. أبو شامة : الموسوعة الشامية – ج ١٩ – ص ٣٧١.

٢) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٦١٥. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج ١٢ – ص ٨٢. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة الشامية – ج ٣١ – ص ١٧٩. أبو شامة : الموسوعة الشامية – ج ١٩ – ص ٣٦٧. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٢ – ص ٣٨٣. ابن الفرات : المصدر المتقدّم – مج٤ – ج٢ – ص ٦٦-٦٧.

٣) أمبرويز : الموسوعة الشامية – ج ٣٣ – ص ٦٢٢-٦٢٥. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج ١٢ – ص ٨٢. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة – ج ٣١ – ص ١٨٣-١٨٤. أبو شامة : الموسوعة الشامية – ج ١٩ – ص ٣٦٧. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٨٤. ابن الفرات : المصدر نفسه – مج ٤ – ج٢ – ص ٦٧-٦٨. البدر العيني : عقد الجمان : الموسوعة – ج ٢٤ – ص ٤٢٠-٤٢١. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم – ص ١٧٤.

القافلة كانت نجدةً لصلاح الدين في مواجهته للحصار الصليبي الذي ضربه رتشارد قلب الأسد على القدس ، وكان يقود هذه القافلة فلك الدين أخو العادل لأمّه[١] ، ممّا يدلّ على أهميتها وخطورة ما تحمله من مواد ومتاع وأسلحة كانت ستمكّن صلاح الدين من الاستمرار في التصدي لتحرّكات رتشارد قلب الأسد وجيشه ، أو – ربّما – الانتقال من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم ، بدليل أنّ القافلة ضمّت النادر من الذهب والفضة والأقمشة والمنسوجات والحرير والأثواب والأموال ، وما حاجة صلاح الدين إلى ذلك إلاّ لدفع تعويضات مغرية لجنده ، وربّما شراء بعض الأعوان في المعسكر الصليبي ، هذا إلى أنّ وجود الأطعمة المحفوظة والأسلحة من مختلف الأنواع والشموع ، وحوامل الشموع والخيام والدروع ، بل حتّى الجمال الكثيرة ، يشير وبدلالة واضحة جداً إلى نية صلاح الدين في خوض معركة طويلة الأمد وقاسية ، وربّما كان لشنِّ غارات ليلية خاطفة ، وما الأحواض والأوعية الجلدية والشعير والقمح والطحين والسكّر والعقاقير التي للتقوية ، إلاّ تأكيد على هذا الافتراض ، وحتّى نعلم مقدار ما كان يعوّل صلاح الدين على وصول هذه القافلة وهي سالمة ، وخشيته من وقوعها بيد الصليبيين ، إرساله عدداً من الأمراء لتأمين طريقها ، وإبلاغ قادتها بتوخّي الحذر ، ومن ثمّ حزنه البليغ على استيلاء رتشارد عليها «فما مرَّ بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه ، ولا أكثر تشويشاً لباطنه»[٢]. ولا نعدو جادّة الصواب إذا قلنا : إنّ أخفاق هذه الحملة في الوصول إلى صلاح الدين ، كان أحد الأسباب المهمّة التي اضطرّته إلى عقد صلح الرملة.

حتّى المفاوضات التي جرت مع رتشارد قلب الأسد ، فإن صلاح الدين كان حذِراً فيما يخصّ مصر ، والطريق الواصلة بينها وبين بلاد الشام ، لذا شدّد على إبعاد سيطرة الصليبيين عن عسقلان ، وما يليها من بلدان الساحل تجاه مصر مثل غزة

---

١) العماد الأصفهاني : الفتح القسي – الموسوعة – ج ١٣ – ص ٤٠٤. ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٨٢. ابن شدّاد – الموسوعة – ج ١٥ – ص ٢٣٣. سبط ابن الجوزي : الموسوعة – ج ١٥ – ص ٤٢١. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٨٤. البدر العيني : الموسوعة – ج ٢٤ – ص ٤٢٠.

٢) ابن شداد : النوادر السلطانية – الموسوعة – ج ١٣ – ص ٢٣٤. البدر العيني : عقد الجمان – الموسوعة – ج ٢٤ – ص ٤٢١.

والداروم ، بل فضّل تخريب عسقلان ، فلا تكون لأي أحد من الطرفين ، الصليبي والمسلم[1]. وبالمحصّلة ، فإنّ الصليبيين كانوا قد أدركوا – خلال حقبة الحملة الصليبية الثالثة – وبشكل قاطع ، أنّ الطريق إلى القدس ، كانت تمرّ عبر مصر ، فلا عجب أن كانت حملاتهم تتالت صوبها ، للاستيلاء عليها ، وتملّك مقدّراتها.

– الحملة الصليبية الرابعة :

على الرغم من أنّ مسار هذه الحملة وأحداثها ، كانا يُعدّان خارج نطاق البحث ، فإنّ الهدف الأساسي الذي كان مرسوماً للحملة يضطرنا إلى التحدّث عن أهمّ أسباب وأحداث ونتائج الحملة الصليبية الرابعة ، وذلك لتلمّس النقاط التي تؤكّد ما ذهبنا إليه ، من أنّ الصليبيين كانوا قد وجّهوا أنظارهم – وبشكلٍ أساسي – صوب مصر. إذ كان البابا انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) قد وضع لنفسه وللكنيسة وللبابوية برنامجاً ضخماً ، على رأسه مشروع محو آثار حروب صلاح الدين في الشرق ، واغتصاب بيت المقدس من المسلمين[2] ، يقيناً من البابا انوسنت الثالث ، أنّ الحملة الصليبية الثالثة كانت أخفقت في تحقيق ذلك الهدف ، لذلك ما لبث أن دعا – بعد أشهر قليلة من تولّيه مهام منصبه – إلى قيام حملة صليبية رابعة ، وفعلاً كان تجمّع عدد كبير من الأمراء والبارونات ، للبحث في طرق الاستعدادات ، وتحديد وجهة الحملة. ورأى كبار القادة أن

---

١) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٨٦. ابن أبي الدم : التاريخ المظفري – الموسوعة – ج ٢١ – ص ٢٧٥. سبط ابن الجوزي : الموسوعة – ج ١٥ – ص ٤٢٣-٤٢٤. أبو شامة : الموسوعة – ج ١٩ – ص ٣٨٠. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٣٩١-٣٩٢. أبو الفداء : الموسوعة – ج ٢٢ – ص ٦٠. النويري : الموسوعة – ج ٢٢ – ص ٥١٥-٥١٦.

٢) د. إسمت غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضدّ القسطنطينية – جدّة – ١٩٧٨م – ص ٥٠. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٧٣٣. د. عادل زيتون : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية – دمشق – ١٩٨١م – ص ٢٣٦.

Paul Magdalio: The Medieval Empire (780-1204), «The Oxford History of Byzantium», Oxford, 2002 , pp. 195-196.
George Ostrogorsky: History of The Byzantine State , U. S. A , 1957 , pp. 356-370.
Peter Lock: The Franks in the Aegean (1204-1500) , U. S. A , 1995 , pp. 40-43.

يكون سيرهم صوب مصر ، على أساس أنــها الخطر الحقيقــي الــذي كـــان يـــهدّد الصليبـــيين في بلاد الشام ، بما تملك من إمكانات مادية وبـــشرية ضـــخمة اســـتعان بهـــا الأيوبـــيون على محاربتـــهم ، بالإضافة إلى أنّ إعادة توحيد الدولة الأيوبـــية تحت حكـــم الملك العادل – أخي صلاح الدين – جعل الخطر يتزايد على الصليبـــيين ، فيما لو اتّجهوا لحصار بـــيت المقدس أولاً ، لأنـــهم كانوا حينئذٍ سيقعون بـــين فكّي الكمّاشة ، عنـــدما تخرج الجيوش من مصر ، ومن دمشق في الوقت نفسه ، للتصدّي لهم. وهكذا تمّ الاتفـــاق على أن تكون مصر مقصد الحملة الصليبـــية الرابعة(١).

واتّصل قادة الحملة بالبندقية ، وعقدوا معها اتفاقية سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م ، لأجـــل نقل جيوشهم إلى الشواطئ المصرية ، غير أنّ البندقية انتـــهزت فرصة عجز الصليبـــيين عن دفع كامل المبلغ المطلوب لنقلهم بسفنـــها إلى مصر ، لتطلب إليـــهم مهاجمة مدينة زارا – على الشاطئ المقابل للبحر الأدرياتي – واستردادها من ملك هنغاريا ، الذي كان انتزعهـــا من البندقية سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦م ، واستجاب الصليبـــيون لذلك الطـــلـــب ، فهاجموا زارا ، ونـــهبوها سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢م(٢).

وفي القسطنطينـــية كان ألكسيوس الثالث أنجيليوس قد قام بانقلاب ســـنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥م ، وأطاح بشقيقه الإمبراطور البـــيزنطي إسحق الثانـــي أنجيليوس ، وأودعه وابنـــه

---

١) فيلهاردين : الاستيلاء على القسطنطينـــية – الموسوعة – ج ١٠ – ص ٤٠. روبـــرت دي كـــلاري : ســـقوط القسطنطينـــية للصليبـــيين – الموسوعة – ج ١٠ – ص ٢٠٥.

Penny J. Cole: The Preaching of the Crusades to the Holy Land (1095-1270) , U. S. A , 1991 , pp. 98-99.
Elizabeth Siberry: Criticism of Crusading (1095-1204) , Oxford University Press , 1985 , pp. 82-85.
Michael Angold: The Byzantine Empire (1025-1204) , U. S. A , 1984 , pp. 284-296.
Ronald C. Finucane: Soldiers of the faith , London , 1983 , p. 26.
David Nicolle: The Crusades , London , 1988 , p. 13

٢) فيلهاردين : الموسوعة – ج ١٠ – ص ٥٨-٥٩. روبرت دي كلاري : الموسوعة – ج ١٠ – ص ٢١٠-٢١٣.
عاشور : الحركة الصليبـــية – ج٢ – ص ٧٣٥.

Donald E. Queller: Medieval Diplomacy and the Fourth Crusade , London , 1980 , pp. 31-34.
Edward Peters: Christian Society and the Crusades (1198-1229) , U. S. A , 1971 , p.7.
Ernle Bradford: The Sword and the Scimitar , London , 1974 , p. 163.
The Times Books: History of Europe , London , 2001 , p. 84.

ألكسيوس الرابع السجن ، ولكن ألكسيوس الرابع تمكّن من الفرار صوب الغرب ، طالباً المساعدة من البابوية وجموع الصليبيين ، مقابل التزامه بعدّة أمور ، من أهمّها أنه كان سيضع كنيسة القسطنطينية تحت تصرّف السيادة البابوية ، كما كان سيقوم بمرافقة الصليبيين إلى مصر ومعه عشرة آلاف جندي[١].

ومجدّداً كانت البندقية أن عادت للبحث عن مصلحتها الخاصة ، ضاربةً عرض الحائط مصلحة الغرب والصليبيين ، ذلك أنّ ما التزم به ألكسيوس الرابع كان يتّفق ورغبتها في إعادة سيطرتها وهيبتها التجارية على الأراضي البيزنطية ، خاصّة مع تنامي نفوذ غريمتيها التقليديتين ، بيزا وجنوى ، وحصولهما على العديد من الامتيازات التجارية الفعلية. فضلاً عن أنه لم يكن من السهل على البندقية أن تفرّط بمصالحها الاقتصادية الواسعة في مصر ، وتغامر بكلّ نفوذها وامتيازاتها الضخمة فيها ، مقابل أجر نقل جيوش الحملة ، التي قد تدمّر كلّ ما للبندقية من مكاسب في مصر ، سواء أنجحت في مهمّتها أم أخفقت.

لذا فإنّ البندقية كانت وجدت في تغيير مسار الحملة الصليبية الرابعة فرصة لا تعوّض في الإبقاء على مصالحها في مصر ، وغنم الإمبراطورية البيزنطية ، في الوقت نفسه[٢].

وبالفعل ، كان قادة الحملة قد اقتنعوا بوجهة نظر البندقية ، وأنه من الأفضل المبادرة بالمسير صوب القسطنطينية ، التي وصلوا إليها ، وضربوا عليها الحصار

---

١) فيليباردين : الموسوعة – ج ١٠ – ص ٦١. روبرت دي كلاري : الموسوعة – ج ١٠ – ص ٢٢٨. زيتون : المرجع المتقدم – ص ٢٣٩.

George Hill: A History of Cyprus, 4 Vols, Cambridge University Press, 1948 , volume II , p. 65.

James A. Brundage: The Crusades , U. S. A , 1976 , p. 199.

Archibald R. Lewis: Nomads and Crusaders, U. S. A , 1988 , p. 142.

٢) عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٧٣٥-٧٣٦. زيتون : المصدر نفسه – ص ٢٤٦.

John Godfrey: 1204 The Unholy Crusade , Oxford , 1980 , pp. 63-64.

Robert Payne: The Dream and the tomb , London , 1986 , p. 282.

سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣م[١].

وكان الإمبراطور ألكسيوس الثالث أنجيليوس (١١٩٥-١٢٠٣م) قد أدرك عدم جدوى المقاومة، فهرب من المدينة، وأُعيد إسحق الثاني أنجيليوس إلى العرش، وتمّ تنصيب ابنه ألكسيوس الرابع إمبراطوراً مشاركاً، ولكن إسحق وابنه أخلاّ في التزاماتهما، وحدث انقلاب مفاجئ ضدّهما بقيادة ألكسيوس الخامس دوقاس، الذي اعتلى العرش بسرعة وتخلّص من إسحق وابنه، فضلاً عن حدوث اضطرابات واصطدامات عنيفة في القسطنطينية بين اللاتين المقيمين في المدينة، وبين السكان البيزنطيين، وأشعلت النيران في الأحياء التي يقطنها اللاتين، حتّى اضطرّ هؤلاء إلى اصطحاب أولادهم وزوجاتهم وممتلكاتهم، واتّجهوا إلى المعسكر الصليبي[٢].

كلّ ما تقدّم كان قد أعطى الصليبيين المسوِّغ القوي لاقتحام القسطنطينية، والقيام بأعمال السلب والنهب والقتل والذبح، وذلك سنة ٦٠٠ هـ / شهر نيسان سنة ١٢٠٤م، وتقاسم الصليبيون والبنادقة الإمبراطورية البيزنطية، وتمّ تعيين إمبراطور لاتيني كاثوليكي على عرش القسطنطينية، وتعيين بطريرك لاتيني كاثوليكي – أيضاً – على كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية[٣].

يمكننا القول، إنّ الحملة الصليبية الرابعة كانت أخفقت في القيام بأيّ عمل يشكّل تهديداً أو خطراً على أوضاع المسلمين في مصر وبلاد الشام، لكنها كانت أنجزت بعض أهداف الحملة الصليبية الأولى. إذ حقّقت الحملة الصليبية الرابعة رغبة البابا

---

١) فيلهاردين : الموسوعة – ج ١٠ – ص ٨١-٨٣. روبرت دي كلاري : الموسوعة – ج ١٠ – ص ٢٣٦-٢٤٤.

٢) فيلهاردين : الموسوعة – ج ١٠ – ص ٩٠-٩٩. روبرت دي كلاري : الموسوعة – ج ١٠ – ص ٢٤٨-٢٤٩. تاريخ المورة – الموسوعة – ج ١٠ – ص ٣٨٧-٣٨٨. ميخائيل زابوروف : الصليبيون في الشرق – ترجمة : إلياس شاهين – موسكو – ١٩٨٦م – ص ٢٦٥-٢٦٦. غنيم : المرجع المتقدم – ص ٨٣-٨٤.
Robert of Clari: The conqest of Constantinople , U. S. A , 1936 , p. 77.

٣) فيلهاردين : الموسوعة – ج ١٠ – ص ١١٧-١١٨. روبرت دي كلاري : الموسوعة – ج ١٠ – ص ٢٨٦. غنيم : المرجع نفسه – ص ٩٠-٩١.
John H. Mundy: Europe in the High Midlle Ages (1150-1300) , England , 2000 , p. 38.

أوربان الثانـــي (١٠٨٨-١٠٩٩م) في إخضاع الكنـــيسة الشرقية للكنـــيسة الغربـــية ، كما حقّقت – أيضاً – حلم بوهيموند الأول باستيلاء الغرب الأوروبـــي على بـــيزنطة ، وتدمير إمبراطوريتـــها[1].

1) Terry Jones and Alan Ereira: Crusades , London , 1994 , p. 211.

الفصل الرابع

الأيوبيون والحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة

- المنازعات بين أفراد الأسرة الأيوبية
- الحملة الصليبية الخامسة :
  - أوضاع مملكة بيت المقدس
  - انطلاق الحملة صوب مصر
  - وفاة السلطان العادل
  - الكامل محمد يعرض الصلح على الصليبيين
  - الزحف الصليبي صوب القاهرة
  - أسباب إخفاق الحملة
- الحملة الصليبية السادسة :
  - اتفاقية يافا
  - ردود الفعل على اتفاقية يافا
  - دخول فردريك الثاني بيت المقدس
  - عودة فردريك الثاني إلى الغرب الأوروبي

- المنازعات بين أفراد الأسرة الأيوبية :

ترك رحيل صلاح الدين فراغاً ضخماً لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر أو إخوته أو أبناء إخوته أن يشغله ، أو يعوّض غيابه ، خصوصاً أنّ الصراع بين معظمهم قد احتدم إلى حدّ الاقتتال ، بهدف زعامة الأسرة الأيوبية ، والسيطرة على مناطق أكبر وأهمّ ممّا كان في أيديهم.

كان الملك الأفضل نور الدين علي — الابن الأكبر لصلاح الدين — قد احتفظ بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين إلى الداروم ، فيما احتفظ الملك العزيز عثمان بمصر ، وأخذ الملك الظاهر غازي حلب وجميع أعمالها ؛ وأمّا الملك العادل سيف الدين أبو بكر — أخو صلاح الدين — فقد أخذ الكرك والأردن ، فضلاً عن الجزيرة وديار بكر[1]. وربّما كانت هذه الإقطاعات لا تتناسب مع طموحات العادل وتطلعاته ، وسعيه الحثيث إلى الملك.

كان صلاح الدين قد أوصى بالسلطنة لابنه الأفضل — صاحب دمشق — وحَلَفَ له العساكر جميعهم غير مرّة ، في حياته ، ولكن الأفضل لم يكن يصلح للزعامة لضعفه ، وانشغاله عن أمور الرعية باللهو وشرب الخمر ، كما نبذ أمراء والده صلاح الدين ومستشاريه ، ووضع كل ثقته في وزير جديد هو ضياء الدين بن الأثير ، ممّا دفع بهؤلاء الأمراء إلى الفرار إلى مصر ، حيث التفّوا حول أخيه الملك العزيز ، وأوغروا صدره ضدّ الأفضل في دمشق[2].

---

١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ — ج١٢ — ص ٩٧-٩٨. ابو شامة : الموسوعة الشامية — ج١٩ — ص ٤٤٠-٤٤١. ابن واصل : مفرّج الكروب — ج٣ — ص ٣-٤. أبو الفداء : الموسوعة الشامية — ج٢٢ — ص ٦٦-٦٧. ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي — ج٢ — ص ١٥٤-١٥٥. ابن سباط : تاريخ ابن سباط — ج٢ — ص ٢٠٩.

٢) ابن واصل : المصدر نفسه — ج٣ — ص ١٠-١١. أبو الفداء : الموسوعة الشامية — ج٢٢ — ص ٦٧. ابن الوردي : المصدر نفسه - ج٢ — ص ١٥٥.

وما لبث أن ترك الملك العزيز مصر سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤م ، متّجهاً صوب دمشق ، وضرب عليـــها الحصار ، ممّا حدا بالأفضل إلى الاستنجاد بعمّه العادل ، الـــذي لم يكـــن ليفوّت هذه الفرصة ، فتحرّك سريعاً صوب دمشق ، حيث التقى الظاهر غازي ، صـــاحب حلب ، والمنصور محمد ، صاحب حماه ، وأسد الدين شيركوه الثانـــي ، صاحب حمص ، والأمجد ، صاحب بعلبك[1].

وكانوا جميعاً قد اتفقوا على منع العزيز عثمان من الاستيلاء علـــى دمـــشق «علمـــاً منـــهم أنّ العزيز إن ملكها أخذ بلادهم»[2] ، وأدرك العزيز أنـــه لا يمكنـــه مقاومة هـــذا التحالف الأيوبـــي ، فجنح إلى السلم ، واجتمع بعمّه العادل في ٢٤ شعبان سنة ٥٩٠ هـ / ١٥ آب سنة ١١٩٤م ، وتمّ الاتفاق على أن يحتفظ الأفضل علي بدمشق وطبرية وأعمـــال الغور ، بـــينما يتخلّى عن بـــيت المقدس ، وما جـــاوره من أعمال فلسطين ، لأخيـــــه العزيز عثمان ، كما يتخلّى – أيضاً – عن جبلة واللاذقية ، لأخيـــــه الظـــاهر غـــازي ، صاحب حلب[3].

يبدو جلياً أنّ العادل كان قد خرج خالي الوفاض من تلك التسوية ، ولكنـــه أصـــبح الحَكَم بـــين أفراد الأسرة الأيوبـــية ، فضلاً عن أنـــه كان قد بدا للجميع بأن العادل هـــو القوّة الراجحة لأيٍّ من أطراف النـــزاع ، ممّا مكّنـــه من فرض مـــشورتـــه ، وتوجيـــــه الصراع حسب رغباتـــه.

كان الأفضل علي قد عاد للانغماس في لذّاتـــه ، وإدمان الخمر ، ممّا شـــجّع العزيـــز عثمان على الخروج وجيشه من مصر قاصداً دمشق لانتزاعها من يد أخيـــه الأفضل ، الذي استنجد مرّة أخرى بعمّه العادل ، وأخيـــه الظاهر غازي ، صاحب حلب ، وذلـــك ســـنة

---

١) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ١٠٩–١١٠. ابن أبـــي الدم : الموســـوعة الـــشامية – ج٢١ – ص ٢٧٨. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٣ – ص ٣٠.

٢) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ١١٠.

٣) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ١١٠. النويري : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ٥٢٤. المقريـــزي : السلوك – ج١ – ق ١ – ص ١١٧.

٥٩١ هـ / ١١٩٥م.

- عمل العادل على تحريض أمراء العزيز عثمان من الأكراد والأسدية ضدّه ، وحثّهم على تركه ، فوجد العزيز نفسه ، وهو في الطريق إلى دمشق ، وقد انفضّ عنه أمراؤه ، ممّا اضطرّه للعودة إلى مصر(١).

إلاّ أنّ الأفضل علي والعادل قرّرا المسير صوب مصر ، على أن يأخذ الأفضل مصر ، ويترك دمشق للعادل. وتحرّك الاثنان وجيوشهما باتجاه القدس ، حيث استوليا عليها ، وشرعا يزحفان ضدّ العزيز في مصر ، حتّى وصلا إلى بلبيس ، وضربا عليها الحصار ، ولكنّ العادل – السياسي الحاذق – خشي من غدر الأفضل ، وعدم التزامه بالاتفاق ، لذا أرسل إلى العزيز سرّاً يطلب منه الثبات ويتعهّد له بأن يجعل الأفضل ينسحب من أمام بلبيس عائداً إلى دمشق(٢).

وعاد الأفضل علي إلى اعتزال رعيّته ، حيث أنكر الموبقات ، ولزم الزهد ، وأقبل على العبادة ، تاركاً شؤون الحكم لوزيره ضياء الدين بن الأثير. فضجّ الناس من سوء إدارته ، وأعلنوا سخطهم على الأفضل وابن الأثير ، وهنا وجد العادل الفرصة سانحة للخلاص من الأفضل ، فاستعان بالعزيز عثمان من مصر ، ودخل الاثنان دمشق في ٢٧ رجب سنة ٥٩٢ هـ / ٢٧ حزيران سنة ١١٩٦م ، وتسلّم العادل المدينة ، بينما عُوِّض الأفضل بمنطقة صرخد ، ونال العزيز عثمان لقب السلطنة ، وبقيت له مصر ، والقدس ، على أن يُذكر اسمه في الخطبة في البلاد الواقعة تحت سيطرة العادل ، ويُنقَش اسمه على السكّة(٣).

---

١) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ١١٨-١١٩. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٣ – ص ٤٦-٤٧. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ١٢٤-١٢٥.

٢) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ١١٩. أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ٧٢. النويري : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ٥٢٧.

٣) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ١٢٢-١٢٣.ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٣ – ص ٦١-٦٢. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ١٣٤-١٣٥.

كان العزيز عثمان – صاحب مصر – قد توفّي في شهر المحرّم سنة ٥٩٥ هـ / تشرين الثاني سنة ١١٩٨م ، وكان ابنه الأكبر ناصر الدين محمد في العاشرة من عمره ، فتولّى الوصاية عليه عمّه الأفضل[١].

أراد الأفضل أن يستفيد من وضعه الجديد لاستعادة دمشق من عمّه العادل ، فاستعان بأخيه الملك الظاهر – صاحب حلب – واتّجه الاثنان إلى دمشق ، حيث ضربا عليها الحصار طوال ستة أشهر ، دون أن يتمكّنا من الاستيلاء عليها ، في حين أحبط العادل حصارهما بحسن تدبيره ، إذ استمال قادة ابني أخيه وعمل على زرع الخلاف بينهما ، فعاد الأفضل إلى مصر ، والظاهر غازي إلى حلب ، ولكن العادل تبع الأفضل ، وأنزل الهزيمة بجنده قرب بلبيس ، ثمّ لحق به في القاهرة ، حيث استسلم الأفضل ، مقابل إعادته إلى إقطاعه في صرخد ، وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ / شباط سنة ١٢٠٠م[٢].

كان العادل قد قنع بالوصاية على ناصر الدين محمد ، وأن يكون أتابكَ له ، ونائباً عنه ، إلى أن يبلغ سنّ الرشد ، ولمّا ثبّت أقدامه في تسلّم زمام مصر ، قَطَعَ الخطبة للمنصور في السنة نفسها ، وخطب لنفسه ، ولابنه الكامل من بعده ، وأخرج المنصور محمد إلى بلاد الشام ، وأقطعه حماه وأعمالها[٣]. وهكذا أضحى العادل سلطاناً على مصر وبلاد الشام في شهر شوّال سنة ٥٩٦ هـ / آب سنة ١٢٠٠م ، وبات رأس الأسرة الأيوبية

---

١) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ١١٠. ابن أبي الدم : الموسوعة الشامية – ج٢١ – ص ٢٧٩. ابن نظيف : الموسوعة الشامية – ج٢١ – ص ٣٣٣. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٥٤٨–٥٥٠. النويري : نهاية الأرب – الموسوعة – ج٢٢ – ص ٥٣٢–٥٣٤. ابن الوردي : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ١٦٢. ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات – مج ٤ – ج٢ – ص ١٤٧–١٥٣. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ١٤٣–١٤٤. ابن سباط : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٢٢٢–٢٢٣.

٢) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ١٥٥–١٥٦. ابن واصل : مفرج الكروب – ج٣ – ص ١٠٩. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق١ – ص ١٥١.

٣) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ١٥٦. ابن نظيف : الموسوعة الشامية – ج٢١ – ص ٣٣٥. ابن الفرات : المصدر المتقدّم – مج ٤ – ج٢ – ص ١٧٧.

بجدارة ، ودون منازع.

– الحملة الصليبيـــية الخامسة :

أصبح راسخاً في قناعات الغرب الأوروبـــي بأنّ الاستيلاء على مصر يجب أن يـسبق أي محاولة لاسترداد بـيت المقدس. وإذا كانت الحملة الصليبيـــية الرابعة قد خرجت عـــن الخطة الموضوعة لها ، واتّجهت إلى القسطنطينـــية بدلاً من مصر ، انتصاراً لإرادة البنادقة ، وتحقيقاً لمآربـــهم ، فإن الحملة الخامسة التزمت مسارها ، واتّخذت مصر هدفاً لها ، تتويجاً لجهد البابوية ، إذ لم يكن البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦م) ليـدّخر أي وسـيلة ممكنة يشحذ بـــها همم ملوك وحكّام أوروبا ، للقيام بحملة صليبـــية جديـــدة. وتكريـــساً لذلك السعي ، كان عقد مجمع اللاتيران سنة ١٢١٥م ، للنظر في بعض الشؤون الكنسية ، ومسألة توحيد الكنـــيستين الشرقية والغربـــية ، فضلاً عـــن الإعداد لحملـــة صليبـــــية جديدة ، وهو الهدف الرئيس لانعقاد المجمع[1].

ولم يكن موت البابا انوسنت الثالث سنة ١٢١٦م ليضيّع جهده سُدى ، إذ سريعاً ما تمّ انتخاب خلف له هو البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ – ١٢٢٧م) ، الذي سار علـــى نـــهج سلفه ، فكتب إلى جميع الأساقفة ورجال الدين يحثّهم على الاســـتمرار في الـــدعوة لحملة صليبـــية جديدة ، كما أرسل إلى ملوك أوروبا يدعوهم إلى الاشتراك بالحملة ، حيث لبّى دعوتـــه أندرو الثانـــي ، ملك هنغاريا (١٢٠٣ – ١٢٣٥م) ، وليوبولد الـــسادس ، دوق النمسا (١١٩٨ – ١٢٣٠م) ، وهيـــو دي لوزغنـــان ، ملـــك قـــبرص (١٢٠٥ – ١٢١٨م) ، واجتمع الثلاثة ، مع عدد كبـــير مـــن الجنـــد ، في عكّـــا ســـنة ٦١٤ هـ /

١) أولفر أوف بادربورن : الاستيلاء على دمياط – الموسوعة – ج٣٤ – ص ٢٩. روجـــر أوف ويـنـــدوفر : ورود التاريخ – الموسوعة – ج٤٥ – ص ٧٥٢. عمران : المرجع المتقدّم – ص ٢٢٧. طقوش : المرجع المتقـــدّم – ص ٢٨٧.

R. W. Southern: Western views of Islam in the Middle Ages , Harvard University Press , 1962 , p. 45.
Hans Eberhard Mayer: The Crusades , Oxford University Press , 1988 , p. 218.

١٢١٧م[1].

وإذا كانت هذه الجموع تعدّ مقدمة أو طليعة للحملة الصليبية الخامسة التي جعلت من مصر هدفاً لها ، فإنها كانت أخفقت في تحقيق أي إنجاز يُذكَر ، أو القيام بأي عمل يسهم في تقريب الهدف ، أو نيله.

- أوضاع مملكة بيت المقدس :

بعد موت هنري أوف شامبين ، ملك بيت المقدس (١١٩٢ – ١١٩٧م) ، كانت زوجته إيزابيلا هي وارثة المملكة ، لأنّ ابنتها من هنري : أليس وفيليبا ، ما زالتا صغيرتين ، أمّا ابنتها من كونراد دي مونتفرات ، وهي ماري ، فلم تتجاوز الخامسة من عمرها. لذا تمّ تزويجها من عموري الثاني دي لوزغنان ، ملك قبرص ، وتوحّد – نتيجة ذلك الزواج – تاجا مملكتي بيت المقدس وقبرص[2].

تمكّن عموري الثاني دي لوزغنان ، ملك بيت المقدس الجديد (١١٩٨ – ١٢٠٥م) ، من الاستيلاء على بيروت سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٧م[3] ، ممّا أتاح للصليبيين إحكام سيطرتهم على شاطئ بلاد الشام ، خاصّةً المنطقة الواقعة بين طرابلس وعكّا.

---

١) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة الشامية – ج٣٤ – ص ٢٩. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٧٥٥. طقوش : المرجع نفسه – ص ٢٩٠.
Stevenson: Op. Cit, P.302. Robert Payne: Op. Cit, p. 291.

٢) جاك دي فيتري : تاريخ القدس – الموسوعة الشامية – ج٣٤ – ص ٢٤٤. أرنول : ذيل تاريخ وليم الصوري – الموسوعة الشامية – ج٨ – ص ٥١٦. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ١٢٨. النويري : نهاية الأرب – الموسوعة – ج٢٢ – ص ٥٣٢.

٣) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ١٢٦-١٢٧. أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج٢٠ – ص ١٢. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٣ – ص ٧٤. ويذكر الخبر ضمن أحداث سنة ٥٩٤ هـ. أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ٧٥. وهو – أيضاً – يورد الخبر ضمن أحداث سنة ٥٩٤ هـ. النويري : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ٥٣١. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب – تحقيق : ناظم رشيد – بغداد – ١٩٧٨م – ص ٢٠٣.

وترتّب على وفاة عموري الثاني انفصال تاجي مملكة قبرص، ومملكة بيت المقدس في عكّا، والتي تولّى عرشها ماري دي مونتفرات، البالغة ثلاثة عشر عاماً، وعُيّن جون دي إيبلين، صاحب بيروت، وصياً عليها، وبعد أن بلغت ماري سنّ الرشد، سنة ١٢٠٨م، تمّ تزويجها من جون دي بريين، وذلك سنة ١٢١٠م، على الرغم من كبر سنه، إذ كان في الستّين من عمره[١].

- انطلاق الحملة صوب مصر :

كان جون دي بريين قائداً عسكريّاً محنّكاً، عركته الحياة وتقدّم به العمر. وربّما كان وجد في تهافت الحشود الصليبية، القادمة من أوروبا، إلى عكّا، فرصة طيبة لإثبات الذات، وتحقيق مجد شخصي، مدفوعاً بدعم معظم الصليبيين في بلاد الشام، وعلى رأسهم الداوية والاستبارية.

وبناءً على ما تقدّم، تحرّك الأسطول الصليبي من عكّا، بقيادة جون دي بريين، في أواخر شهر صفر سنة ٦١٥ هـ / أواخر شهر أيار سنة ١٢١٨م، حيث وصل إلى دمياط بعد بضعة أيام، ونزل وأفراد عسكره إلى البرّ، ونصبوا معسكرهم على الضفة الغربية للنيل، قبالة مدينة دمياط، التي كانت محصّنة تحصيناً قوياً، بسبب وجود المآصر، وبرج السلسلة، وسط مجرى النهر[٢].

لقد كان طبيعياً أن يختار الصليبيون النزول بدمياط، إذ أن قربها الشديد من الساحل، كان سيتيح للمهاجمين الضغط عليها من البرّ والبحر، كما أنّ اتّساع فرع دمياط النهري يفسح المجال للسفن الضخمة بالإبحار مباشرةً صوب القاهرة عبر نهر

---

١) جاك دي فيتري : تاريخ القدس – الموسوعة الشامية – ج٣٤ – ص ٢٤٦. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٧٥٠. طقوش : المرجع المتقدم – ص ٢٨٢.

٢) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة الشامية – ج٣٤ – ص ٢٩-٣٧. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٣٢٣. روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ – الموسوعة الشامية – ج٤٥ – ص ٧٥٢ – ٧٥٣. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٣ – ص ٢٥٨-٢٥٩. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ١٨٨.

النيل[1].

ودمياط هي أقرب موانئ مصر بالنسبة إلى القدس خاصةً ، والإمارات الصليبية في بلاد الشام عامّةً ، ممّا يعني أنّ الاستيلاء عليها كان سيشكّل ضغطاً كبيراً على وضع مدينة القدس ، ويهدّد – في الوقت نفسه – الطريق البري المهمّ الذي يصلها مع مدينة القاهرة.

فإذا كان الطريق إلى القدس يمرّ عبر مصر ، فإنّ الطريق إلى مصر والقدس – معاً – كان يبدأ من دمياط.

كان الكامل محمد نائباً عن أبيه السلطان العادل في حكم مصر ، وعندما وصله خبر نزول الصليبيين في مقابل دمياط ، أسرع وجيشه إلى جنوبي المدينة ، عند منزلة العادلية ، ليكون على اتصال بدمياط وأهلها من جهة ، ويمنع الصليبيين من العبور إليها من جهة أخرى[2].

فيما كان السلطان العادل في دمشق ، وعندما علم بنزول الصليبيين في دمياط ، بدأ بإرسال العساكر إلى مصر ، وطلب من ابنه الأشرف موسى – صاحب حران – مهاجمة الإمارات الصليبية في بلاد الشام ، لعلّه يخفّف الضغط عن دمياط[3].

كان الصليبيون قد أدركوا – مع بداية المواجهة العسكرية – حجم الخطأ الذي ارتكبوه برسوّهم على الضفة الغربية للنيل ، بدلاً من الضفة الشرقية حيث تتوضّع مدينة

---

١) ابن شدّاد : سيرة صلاح الدين – الموسوعة – ج١٥ – ص ٤٨. أبو شامة : الموسوعة – ج١٨ – ص ٥٨. مارينو سانوتو : كتاب الأسرار – الموسوعة – ج٣٨ – ص ٣٠٢. البدر العيني : الموسوعة – ج٢٤ – ص ١٠٥.

٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٣٢٤. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٣ – ص ٢٦٠. أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ٩٨.

٣) أبو شامة : الموسوعة الشامية – ج٢٠ – ص ٢٠٩. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٣ – ص ٢٦١. أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ٩٨-٩٩. ابن الفرات : المصدر المتقدّم – مج ٥ – ج١ – ص ٢٣٠. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة – ج٦ – ص ٢٢٢. ابن سباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٢٦٠.

دمياط ، فقد أضاعوا كثيراً من الوقت في تجاوز نـــهر النـــيل ، ممّا أتاح للمسلمين فرصـــة كافية للاستعداد ، وأخذ احتياطات الدفاع.

وأخفقت محاولات الصليبـــيين للاستيلاء على برج السلسلة ، الذي كـــان العقبـــة الرئيسة التي تحول دون تقدّم السفن الصليبـــية ، حتّى تمكّنوا أخيراً من الاستيلاء عليـــه ، في ٣٠ جمادى الأولى ٦١٥ هـ / ٢٤ آب سنة ١٢١٨م ، وتمّ قطع السلاسل ، وإفساح المجـــال لتقدّم سفنـــهم ، ليس إلى دمياط وحسب ، بل إلى القاهرة ، ومعظم مدن مصر[1].

– وفاة السلطان العادل :

كان العادل – عند قدوم الحملة الصليبـــية الخامسة – قد تجاوز الخامسة والسبعين من عمره ، لذا فإن خبر سقوط برج السلسلة كان كافياً لوقوعه من ساعتـــه في مرض الموت ، وتوفّي في السابع من شهر جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ / ٣١ آب سنة ١٢١٨م[2] ، ووقع عبء الدفاع عن دمياط ، وردّ الصليبـــيين عن مصر ، على عاتق الكامل محمـــد ، الـــذي خلف أباه العادل في حكم مصر ، لذا كان عليـــه القيام بإجراء سريع لمنع تقدّم الصليبـــيين عبر نـــهر النـــيل ، فعمل على تشييد جسر ضخم بعرض المجرى ، ولكـــن الـــصليبـــيين قطعوا ذلك الجسر ، عندئذٍ لجأ الكامل إلى مراكب ، وملأها ، ثمّ خرقها وغرّقها في النـــيل ، لتعوق تقدّم السفن الصليبـــية ، فتوجّه الصليبـــيون إلى خليج كان يُعرَف بالأزرق ، كان النـــيل يجري فيـــه قديماً ، وحفروه حفراً عميقاً ، وأجروا فيـــه الماء إلى البحر ، وبـــذلك

-١) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة الشامية – ج٣٤ – ص ٤٤. روجر أوف ويندوفر : الموســوعة – ج٤٥ – ص ٧٥٤–٧٥٥. أبو شامة : الموسوعة – ج٢٠ – ص ٢١٠.

٢) ابن الأثير : المصدر المتقدّم – ج١٢ – ص ٣٥٠. ابن أبـــي الدم : الموسوعة – ج٢١ – ص ٢٨٥. ابن نظيف : الموسوعة الشامية – ج٢١ – ص ٣٦١. ابن العديم : زبدة الحلب – ج٢ – ص ٦٤٦. أبو شامة : الموســوعة – ج٢٠ – ص ٢١٣. ابن خلكان : وفيات الأعيان – الموسوعة الشامية – ج٢١ – ص ٧٩. ابن واصل : مفــرّج الكروب – ج٣ – ص ٢٧٠. أبو الفداء : الموسوعة – ج٢٢ – ص ١٠٠. ابن الوردي : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ١٩٤. ابن الفرات : المصدر المتقدم – مج٥ – ج١ – ص ٢٣٩. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ١٩٠. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدّم – ص ٢٢٦. ابن سباط : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٢٦٤.

تمكّنت سفنهم من دخول النيل حتّى وصلت إلى موضع يُقال له بورة ، كان يقابل منزلة العادلية ، حيث أقام الكامل ، وبذلك أصبح في استطاعة الصليبيين مهاجمة المعسكر الأيوبي عن طريق النهر(١).

كان موقف الكامل بعد وفاة والده العادل قد ازداد سوءاً ، مع إخفاقه أمام المدّ الصليبي ، إضافة إلى نزوح قبائل بدوية من سيناء والشرقية لاستغلال حالة الفوضى التي أعقبت قدوم الصليبيين ، فقطع هؤلاء البدو الطرق وأغاروا على القرى ، ونهبوها. فكان وقع فعلهم على المسلمين أشدّ من الغزو الصليبي نفسه(٢) ، زد على ذلك أنّ الكامل كان يتعرّض لمؤامرة خطيرة ، دبّرها له أحد قوّاده الأكراد المعروف بابن المشطوب ، بهدف عزله وإحلال أخيه الصغير – الفائز بن العادل – مكانه في الحكم ، ممّا اضطرّ الكامل إلى التسلّل من معسكره في العادلية ، متّجهاً صوب أشموم طناح ، وتبعه في صباح اليوم التالي معظم جنده ، تاركين وراءهم كل ما معهم من مؤن وأسلحة ، فأضحى الطريق سالكاً أمام الصليبيين ، الذين تقدّموا صوب العادلية ، بعد عبورهم نهر النيل ، واستولوا على معسكر المسلمين ، وغنموا كل ما فيه ، بغير منازع ولا مانع ، في ٢٠ ذي القعدة ٦١٥ هـ / ٧ شباط ١٢١٩م(٣).

وبينما كانت أوضاع الكامل والمعسكر الإسلامي تتفاقم وتزداد سوءً وتعقيداً ، وصلت المعسكر الصليبي مجموعة كبيرة من الحجّاج الأوروبيين للمشاركة في الحملة ، وكان على رأس الواصلين بيلاغيوس ، الذي كان نائباً عن البابا ، وقائداً أعلى للصليبيين في حملتهم على مصر ، ممّا أثار نقمة جون دي بريين ، وحدَّ من اندفاعه ،

---

١) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٣٢٤. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ١٦. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق١ – ص ١٩٤-١٩٥.

٢) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٣٢٦. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق١ – ص ١٩٦. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٧٦٧.

٣) أولفر أوف باردربورن : الموسوعة – ج٣٤ – ص ١٧. ابن الفرات : المصدر المتقدم – مج ٥ – ج١ – ص ٢٤٨-٢٤٩. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق١ – ص ١٩٦-١٩٧.

وأضرّ بقيادة الحملة ، وضعضع قراراتـــها[1].

- الكامل محمد يعرض الصلح على الصليبيـــين :

مع ازدياد الضغط الصليبـــي ، وتفكّك المعسكر الإسلامي ، بدا للجميع أنّ الجبـــهة الإسلامية كانت على وشك الانـــهيار ، وأنّ سقوط مصر كلها بات قريبـــاً مـــن أيـــدي الصليبـــيين ، ولكن استجابة المعظّم عيسى — صاحب دمشق — لنداء أخيــــه الكامـــل ، وقدومه إلى مصر ، خفّف من سوء أوضاع المسلمين ، وأصلح بعضاً منــــها ، إذ عنَّـــف المعظّم عيسى ، ابن المشطوب ، ونفاه إلى الشرق ، بعد أن استدرجه بعيداً عن المعـــسكر ، وسلّمه إلى جماعة من أصحابـــه ، وعهد إليـــهم بالذهاب بـــه إلى بلاد الشام ، في حـــين نفى الفائز إلى سنجار ، حيث مات في الطريق[2]. وربّما كان ذلك بتدبـــير من عيـــسى أو الكامل ، للخلاص من أخيـــهما الفائز ، ومنع حدوث فتنة أخرى.

وإذا كانت تحرّكات المعظم عيسى قد أفلحت في مساندة أخيـــه الكامل على ضـــبط الوضع الداخلي لجيش المسلمين ، فإنـــها أخفقت في رفع الحصار الصليبـــي المفروض على دمياط ، ولم تستطع النجدات التي وفدت من حماه وحلب ، ونداءات الاستغاثة والتحريض من أجل إنقاذ مصر وعونـــها[3] ، تحقيق أي نتيجة بالغة الأثر على أوضاع الـــصليبـــيين ،

---

١) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة — ج٣٤ — ص ٤٥. روجر أوف ويندوفر : الموســوعة — ج٤٥ — ص ٧٥٩. عاشور : الحركة الصليبـــية — ج٢ — ص ٧٦٥.

Malcolm Billing: The Crusades , Great Britain , 2000 , p. 115.
John Thomas: The Crusades , London , 1957 , p. 140.
R. D. Lobban: The Crusades , London , 1966 , p. 52.

٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ — ج١٢ — ص ٣٢٥. أبو شامة : الموسوعة الشامية — ج٢٠ — ص ٢٢٣. ابـــن واصل : مفرّج الكروب — ج٤ — ص ١٨. ابن الفرات : المصدر المتقدّم — مـــج ٥ — ج١ — ص ٢٥٠-٢٥١. المقريزي : السلوك — ج١ — ق١ — ص ١٩٧-١٩٨. ابن تغري بردي : النجوم الزاهـــرة — ج٦ — ص ٢٣٠-٢٣١.

٣) ابن العديم : زبدة الحلب — ج٢ — ص ٦٤٨. ابن واصل : المصدر نفسه — ج٤ — ص ٢٣. المقريزي : المـــصدر نفسه — ج١ — ق١ — ص ١٩٥.

وذلك على الرغم من أنّ المسلمين كانوا قد قاموا بـهجمات بطولية شجاعة ، كبّدوا من خلالها الصليبيين الكثير من القتلى والجرحى ، ولكنهم لم يتمكّنوا من فكّ الحصار[1].

في مقابل ذلك ، كان الحصار الصليبي على دمياط يزداد صلابة وإحكاماً ، خصوصاً بعد قدرتهم على الصمود في وجه هجمات المسلمين ، واستمرار تلقّيهم الإمدادات والمؤن من الغرب الأوروبي وقبرص[2]. في الوقت نفسه ، استمرّ وصول الأخبار من الشرق وبلاد ما وراء النهر ، عن زحف جيوش جنكيز خان صوب الدولة الخوارزمية[3] ، ممّا كان يعني تهديداً للمسلمين والبلاد الإسلامية ، فيما كانت الدولة الخوارزمية نفسها خطراً كبيراً هدّد وجود الخلافة العبّاسية ، خصوصاً بعد إسهام الخوارزميين في القضاء على السلاجقة ، وقتل السلطان طغرل السلجوقي سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣م[4] ، إذ سعى سلاطين الدولة الخوارزمية ، علاء الدين محمد (٥٩٦-٦١٧ هـ / ١١٩٩-١٢٢٠م) وابنه جلال الدين منكبرتي (٦١٧-٦٢٨هـ / ١٢٢٠-١٢٣٠م) ، إلى إقامة الخطبة لهم في بغداد ، وذكر أسمائهم إلى جانب اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢ هـ / ١١٨٠-١٢٢٥م)[5].

ويبدو أنّ الكامل محمد كان قد رسخ في فكره أنّ من الصعب هزيمة الصليبيين ، وإجلائهم عن مصر ، بالقوّة العسكرية ، وأنّ الحلّ الأنجع – في ظلّ تأزّم الأوضاع الداخلية

---

١) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة الشامية – ج٣٤ – ص ٥٤-٥٥. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج٤٥ – ص ٧٦٥-٧٦٦.

٢) ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٤ – ص ٣٢-٣٣. عاشور : قبرص والحروب الصليبية – ص ٤٠. طقوش : المرجع المتقدّم – ص ٣٠٥.

٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٣٥٨. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٣٤. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ٢٠٤-٢٠٥.

٤) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ١٠٧-١٠٨. أبو شامة : الموسوعة – ج٢٠ – ص ٦. أبو الفداء : الموسوعة – ج٢٢ – ص ٦٩-٧٠. ابن الوردي : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ١٥٦-١٥٧. ابن تغري بردي : المصدر المتقدّم – ج٦ – ص ١٣٤. ابن سباط : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ٢١١.

٥) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٣١٦. أبو شامة : الموسوعة – ج٢٠ – ص ١٩٤-١٩٥. ابن تغري بردي : المصدر نفسه – ج٦ – ص ٢١٩.

والخارجية – هو تقديم التنازلات وعرض الصلح على الصليبيين.

لذا أرسل الكامل محمد إلى الصليبيين عرضاً سخياً ، أعلن فيه استعداده لإعادة الأراضي التي كانت في حوزتهم قبل فتوحات حطين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م ، باستثناء الكرك والشوبك ، وأنه سوف يعيد الصليب المقدّس وجميع الأسرى الذين يمكن إيجادهم على قيد الحياة في أرجاء مصر وبلاد الشام[1].

ولمّا وصل ذلك العرض إلى الصليبيين ، قَبِلَه الملك جون دي بريين ، وأيّده أمراؤه ، والأمراء القادمون من الغرب الأوروبي ، فيما رفض النائب البابوي بيلاغيوس ، عرضَ الكامل محمد ، وأيّده فرسان الداوية ، والإستبارية ، ورجال الدين ، وجميع القادة الإيطاليين[2] ، الذين رأوا – وقتئذٍ – أنّ الاستيلاء على الدلتا يُعدُّ مكسباً تجارياً ضخماً ، يفوق في أهميته – بالنسبة إلى بيزا وجنوى والبندقية – استرداد بيت المقدس ، وربّما كانوا يودّون اتّخاذ دمياط مركزاً لتجارتهم ، لذلك كان من الطبيعي أن يرفضوا شروطاً تقضي بعدم بقائهم فيها ، أو رفع الحصار عنها[3].

وازداد موقف الكامل محمد سوءاً ، إذ كان منسوب مياه النيل منخفضاً سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩م ، ممّا هدّد البلاد بالقحط والمجاعة ، وغلت الأسعار ، وقلّت الأقوات ، وتردّى وضع حامية دمياط ، وتسرّب الإحباط إلى نفوس أفرادها ، وأنهكهم التعب ، وتعرّضت المدينة للمجاعة ، والوباء ، فامتلأت الطرقات من الأموات[4]. وعبثاً حاول المعظّم

---

١) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة – ج٣٤ – ص ٦٣. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج٤٥ – ص ٧٧٢. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٧٦٩.
Joseph P. Donovan: Pelagius and the Fifth Crusade , Philadelphia , 1950 , p. 62.

٢) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة – ج٣٤ – ص ٦٣. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج٤٥ – ص ٧٧٢–٧٧٣.
Donovan: Ibid, p. 63.

٣) عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٧٦٩. عمران : المرجع المتقدم – ص ٢٥٧. طقوش : المرجع المتقدم – ص ٣٠٧.

٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٣٢٦. ابن أبي الدم : الموسوعة الشامية – ج٢١ – ص ٢٨٦. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٤ – ص ٣٢–٣٣.

عيسى – صاحب دمشق – إمداد دمياط وحاميتها بخمسمائة مقاتل ، إذ وقعت تلك النجدة في أيدي الصليبيين ، فاستولوا على ما معها من مؤن وذخائر ، وقتلوا رجالها[1].
وعاد الكامل ليجدّد عرضه بالصلح ، مبدياً تنازلات أخرى جديدة ، إذ أبدى تنازله عن سائر الأراضي والمدن التي فتحها صلاح الدين ، باستثناء الكرك والشوبك ، وسوف يدفع مقابل هذين الحصنين جزية سنوية مقدارها اثنا عشر ألف دينار ، كما سيعيد الصليب المقدّس ، ويدفع النفقات اللازمة من أجل ترميم أسوار القدس[2]. ولكن الصليبيين عادوا – أيضاً – لرفض العرض ، ربّما ليقينهم من سوء أوضاع الكامل ، وعجزه عن التصدّي لهم ، وأنّ دمياط – بل ربّما مصر كلها – ستؤول إليهم ، وشجّعهم على التمسّك بموقفهم هذا ، استمرار قدوم الإمدادات من الغرب الأوروبي ، وعلمهم بما آلت إليه دمياط ، من ضعف ، ومجاعة ، وأمراض[3].

وأخيراً سقطت دمياط ، في ٢٥ شعبان من سنة ٦١٦ هـ / ٥ تشرين الثاني سنة ١٢١٩م[4] ، بعد حصارٍ قاسٍ دام تسعة أشهر ، ودخل الصليبيون المدينة «ورفعوا أعلامهم على السور ، وغدروا بأهلها ، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً ، وباتوا تلك

---

١) روجر أوف ويندوفر : الموسوعة – ٤٥ – ص ٧٧٣. أبو شامة : الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٢٢٤. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة – ج٦ – ص ٢٣٨.
٢) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة – ج ٣٤ – ص ٦٣. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج ٤٥ – ص ٧٧٢. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٧٧٠.
٣) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة – ج ٣٤ – ص ٦٢. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج ٤٥ – ص ٧٧٠-٧٧١. ابن العديم : زبدة الحلب – ج٢ – ص ٦٥٠.
٤) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة – ج ٣٤ – ص ٦٤. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٣٢٦. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج٤٥ – ص ٧٧٣. ابن أبي الدم : الموسوعة – ج ٢١ – ص ٢٨٦. أبو شامة : الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٢٢٤. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٤ – ص ٣٣. أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج ٢٢ – ص ١٠٤. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ٢٠١. ابن تغري بردي : المصدر المتقدّم – ج٦ – ص ٢٣٨. ابن سباط : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٢٦٨.
Alan Maquarrie: Scotland and the Crusades , Great Britain , 1997 , p. 36.
Mike Paine: The Crusades , Great Britain , 2001 , p. 73.
Antony Bridge: The Crusades , London , 1980 , p. 251.
Christopher Marshall: Warfare in the Latin East (1192,1291) , Cambridge , 1992 , p. 26.

بينما كان الكامل محمد – عقب استيلاء الصليبيين على دمياط – قد نَقَل معسكره إلى قبالة طَلْخا ، على الضفة الشرقية للنيل ، حيث خيّم بالمنزلة التي شيّدها ، وعُرِفت بالمنصورة ، إلى الجنوب من دمياط[1].ومن الراجح لدينا أن اختيار الكامل لهذه البقعة من الأرض ، ليبني عليها المنصورة ، وتكون معسكراً له ولجنده ، كان اختياراً صائباً ، نظراً لبعد المنصورة عن دمياط ، وقربها من القاهرة ، مما يعطي الفرصة لشحنها بالمؤن والجند ، فضلاً عن أن موقع المنصورة كان استراتيجياً لضمان تلقّي النجدات القادمة من بلاد الشام عبر البر ، ولحماية الطريق النهري المباشر صوب القاهرة.

كما أرسل الكامل يستصرخ الناس لإنقاذ مصر وغوثها ، وأعلن النفير العام في جميع أنحاء مصر ، «فاجتمع من المسلمين عالم لا يقع عليه حصر»[2] ، وتتالت النجدات في القدوم إلى معسكر الكامل ، فقد كان وصل الملك المعظم عيسى ، صاحب دمشق ، والملك الناصر قلج أرسلان ، صاحب حماه ، والملك المجاهد أسد الدين ، صاحب حمص ، والملك الأمجد بهرام شاه ، صاحب بعلبك ، والملك الأشرف موسى ، صاحب الجزيرة وأرمينية ، كما وصل عسكر حلب ، وذلك في سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م[3].

وإذا كان الكامل قد فعل ما في وسعه لوقف التقدم الصليبي ، واسترداد دمياط ، فإن ذلك لم يكن ليشكّل أي مقاومة ، أو حاجز ، يمنع تغلغل الصليبيين في رُبى مصر ، فيما لو كانت أهدافهم واحدة ، وقيادتهم متآلفة ومتّفقة ، ولكن الذي حدث كان العكس.

إذ كان جون دي بريين قد استاء كثيراً من سلوك بيلاغيوس ، فاستغلّ مشاكل

---

١) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٣٣. أبو الفداء : الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٠٤. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ٢٠١-٢٠٢.

٢) المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق١ – ص ٢٠٢.

٣) ابن العديم : زبدة الحلب – ج٢ – ص ٦٥٢. ابن واصل : مفرج الكروب – ج٤ – ص ٩٤-٩٥. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق١ – ص ٢٠٣.

أرمينـيا عذراً ، وعاد إلى عكّا في أواخر شهر آذار سنة ١٢٢٠م[1] ، مّما سـبّب شـرخاً كبـيراً وسـط أفراد الجيش الصليبـي ، فقد التفّ القادة العسكريون حـول جـون دي برين ، وارتبطت تحرّكاتـهم بأوامره ، أو على الأقل وجوده على رأس الحملة ، وعودتـه إلى عكّا ، كانت تعنـي لهم عدم إطاعة أوامر النائب البابوي بـيلاغيوس ، وربّما التخلّي عن مرافقة الحملة نفسها[2].

في حين كان بـيلاغيوس مصمماً على المضي قدماً صوب القاهرة ، متشجعاً بالحشود الأوروبـية المتـهافتة على دمياط[3] ، من أجل مساندة الجيش الصليبـي ، ونـيل شرف المشاركة في الحملة ، فضلاً عن أن بـيلاغيوس كان قد ازداد تشبثاً برأيـه ، بعـد أن أكّدت الأخبار ، وكذلك مندوبو الإمبراطور فردريك الثانـي نفسه ، بـأن وصـوله إلى دمياط بات مؤكّداً ، وقريباً جداً[4] ، هذا إلى جانب رغبة بـيلاغيوس انتـهاز فرصـة اضطراب جيش المسلمين في مصر ، مع خبر معاناة الكامل وجنده من نقص في الإمدادات ، وتفشّي الخلافات بـينـهم[5].

أمّا الإيطاليون المشاركون في الحملة ، فكانت مواقفهم متباينة إلى حد كبـير ، وقـد

---

١) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة - ج٣٤ - ص ٧٨. عاشور : الحركة الـصليبـية - ج٢ - ص ٧٧٢-٧٧٣. طقوش : المرجع المتقدم - ص ٣١٦.

٢) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة - ج٣٤ - ص ٨٠. روجر أوف ويندوفر : الموسـوعة - ج ٤٥ - ص ٧٨٥. سمباط الأرمنـي : الموسوعة - ج ٣٦ - ص ٣٢٠-٣٢١.

Franco Cardini: Europe and Islam , Translated from Italian by : Caroline Beamish , Oxford , 2001 , p. 73.
Joshua Prawer: Crusade Institutions , Oxford University Press , 1980 , p. 483.
Kahen Armstrong: Holy War , London , 1988 , p. 306.
Palmer A. Throop: Criticism of Crusade , Philadelphia , 1975 , p. 32.

٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ج١٢ - ص ٣٢٧. ابن واصل : مفرّج الكروب - ج٤ - ص ٩٣. المقريزي : السلوك - ج١ - ق١ - ص ٢٠٣.

٤) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة - ج ٣٤ - ص ٧٩. روجـر أوف وينـدروف : الموسـوعة - ج ٤٥ - ص ٧٨٦.

Armstrong: Op. cit, p. 306.

٥) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة - ج ٣٤ - ص ٨٢.

Donovan: Op. cit, pp. 64-65.

يحار الباحث في فهمها ، أو تفسيرها ، فعندما أيّدوا حصار دمياط ، من أجل الاستيلاء عليها ، وعارضوا كل هدنة مع المسلمين ، كنا قلنا إن موقفهم حينذاك بُني على أساس رغبتهم في إيجاد موطئ قدم لهم فوق ثرى مصر ، والسيطرة على الدلتا ، ومكاسبها التجارية.

أمّا موقفهم المعارض لرغبة بيلاغيوس ، في الزحف صوب القاهرة[1] ، فيمكن أن نعزوه إلى قناعتهم بأن دمياط كانت تكفي لتحقيق أحلامهم الاقتصادية ، ولم يعد يعنيهم استمرار الحملة في سيرها ، مع ما قد يحمله متابعة الزحف من احتمالات الإخفاق ، أو دفع نفقات ضخمة إضافية.

وربّما كان موقف الإيطاليين المعارض هو خوفهم من نجاح الحملة في الاستيلاء على القاهرة ، وسقوط مصر كلها ، ممّا قد يشجّع الإمبراطور فردريك الثاني على القدوم بنفسه على رأس جيش كبير ، لتتويج هذه الانتصارات ، ووضع يده عليها ، ممّا يعني الإطاحة بآمال الإيطاليين ، ووجودهم في مصر ، لذا فالأفضل لهم — حسب وجهة النظر هذه — انكماش الحملة عند حدود دمياط ، وتوقفها ، وربّما أمكننا القول إنّ الإيطاليين كان راق لهم استمرار الصراع بين الصليبيين والمسلمين ، مع المحافظة على توازن القوى بين الطرفين ، وحاجة كليهما إلى البضائع الإيطالية. ويؤيّد ما ذهبنا إليه ، قيام البندقية بإرسال سفن تحمل مؤناً وإمدادات إلى الصليبيين في دمياط ، كما أرسلت — في الوقت نفسه — عدداً كبيراً من السفن لمساندة الكامل محمد وجيشه[2].

وما لبث أن جدّد الكامل عرض الصلح على الصليبيين ، ولكن بيلاغيوس جدّد — أيضاً — رفضه[3] ، ليس لأنه كان يريد إضافة بنود أخرى إلى الصلح ، إنّما ليقينه من قرب وصول الإمبراطور فردريك الثاني على رأس حملة صليبية كبيرة ، خصوصاً

---

١) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة - ج ٣٤ — ص ٨١. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة - ج ٤٥ — ص ٧٨٥.

٢) أولفر أوف بادربون : الموسوعة الشامية - ج ٣٤ — ص ٨٤.

٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ — ج١٢ — ص ٣٢٩. ابن واصل : مفرج الكروب — ج٤ — ص ٩٥. المقريزي : السلوك — ج١ — ق١ — ص ٢٠٧.

بعد أن كان وصل إلى دمياط ، لودويغ دوق بافاريا ، كممثل للإمبراطور ، فتشجّع بيلاغيوس ، وقرّر الزحف نحو القاهرة ، وأرسل إلى الملك جون دي برين في عكّا ، يطلب إليه الحضور للمشاركة في ذلك التحرك[1].

وفي شهر جمادى الأولى سنة ٦١٨ هـ / تموز سنة ١٢٢١م ، زحف الصليبيون جنوباً نحو فارسكور ، بمحاذاة النيل ، فاستولوا عليها ، ثمّ تابعوا زحفهم صوب شارمساح ، فاستولوا عليها – أيضاً – غير أنهم كانوا تعجّلوا في سيرهم ، مع جهلهم بأوقات فيضان نهر النيل ، ممّا أوقعهم في قبضة المسلمين. فقد صادف زحف الصليبيين ارتفاع منسوب مياه النيل ، فاستغلّ الكامل محمد هذا الوضع وأرسل مجموعة من جنده ، حيث قاموا بعمل فجوات كبيرة ، سلّطوا من خلالها مياه النهر الغزيرة والقوية صوب المعسكر الصليبي ، وأغرقوا الأرض به ومن حوله[2] ، كما أمر الكامل «بنصب جسور عند أشموم طناح ، فعبرت العساكر عليها ، وملكوا الطريق التي يسلكها الفرنج إلى دمياط إن أرادوا العودة إليها ، فلم يبقَ لهم خلاص ، وبقوا محصورين من جميع الجهات»[3] كما أبحرت عدّة سفن مصرية في بحر المحلة – فرع من النيل كان يخرج منه جنوبي المنصورة ، ويعود إليه جنوبي فارسكور – فمنعت نجدات السفن الصليبية القادمة من دمياط عبر نهر النيل ، كما حالت دون عودة السفن الصليبية المهاجمة ، ومنعتها من الفرار ، واستولت على بضع سفن صليبية كبيرة ، محمّلة بالمؤونة وأدوات الحرب ،

---

١) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة – ج ٣٤ – ص ٨٨-٨٩. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج ٤٥ – ص ٧٨٩. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٧٧٣.

٢) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة – ج ٣٤ – ص ٩١-٩٣. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٣٢٩. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج ٤٥ – ص ٧٨٨. أبو شامة : الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٢٤٨. أبو الفداء : الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١١٠. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ٢٠٧.
Oliver of Paderborn: The Capture of Damietta , Translated by : John J. Gavigan , Oxford University Press , 1984 , pp. 72-73. Steven Runciman : A History of Crusades , 3 vols , Cambridge , 1988 , volume III , p.167-168. Charles Oman: A History of the art of war in the Middle ages , tow volume , U.S.A , 1969 , volume I , p. 266-267.

٣) ابن واصل : مفرج الكروب – ج٤ – ص ٩٦. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق١ – ص ٢٠٧. وهو يورد الخبر نفسه تماماً.

وأسرت معظم رجالها ، فيما أخذت عساكر المسلمين تتخطف أفراد الجيش الصليبي ، وتشدّد من هجماتها عليه ، ومن الأطراف كافة[1].

حينذاك أدرك الصليبيون أنّ مشروعهم في الزحف نحو القاهرة والاستيلاء عليها ، كان قد أخفق ، وأنهم كانوا وقعوا في مأزق مميت ، ولا بدّ من محاولة أخيرة للنجاة ، لذا أحرقوا خيامهم وأثقالهم ، وانسحبوا في ليلة الرابع والعشرين من آب ، ولكن الأرض الموحلة ، والغارقة بالمياه ، ويقظة عساكر المسلمين ، أحبطت محاولتهم[2].

وأمام ذلك الوضع البائس بالنسبة للجيش الصليبي ، مع النقص الحاد في الأقوات والمؤن ، اضطرّ النائب البابوي بسيلاغيوس إلى طلب الصلح من الكامل محمد في ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ / ٢٨ آب سنة ١٢٢١م ، وأبدى استعداده للجلاء عن دمياط مقابل السماح لهم بالخروج سالمين ، والعودة إلى بلادهم ، على أن تستمر الهدنة مدة ثماني سنوات ، ويسلّم الطرفان ما بحوزتهم من الأسرى[3].

وقد قَبِل الكامل بالعرض الصليبي ، على الرغم من معارضة أخويه – المعظم

---

١) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة – ج ٣٤ – ص ١٠٣. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٣٣٠. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٩٦.

٢) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة – ج ٣٤ – ص ١٠٤-١٠٧. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٩٧. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ٢٠٧-٢٠٨.

٣) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة – ج ٣٤ – ص ١٠٩-١١١. ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٣٣٠. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج ٤٥ – ص ٧٨٨. ابن أبي الدم : الموسوعة – ج ٢١ – ص ٢٨٧. ابن نظيف : الموسوعة – ج ٢١ – ص ٣٦٧. أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٢٤٩. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٩٨. أبو الفداء : الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١١٠-١١١. ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي – ج٢ – ص ٢٠٤-٢٠٥. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق١ – ص ٢٠٨. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة – ج٦ – ص ٢٤١-٢٤٣. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب – ص ٣٠٦-٣٠٧.

Michael Chamberlain : The Crursader era and the Ayyubid dynasty , tow volume , Cambridge . 1998 , volume I , p. 223. Jonathan Riley Smith : The Crusades , Oxford , 1995 , p. 39. Régine Pernoud : The Crusades , London , 1962 , p. 224. Peter Partner : God of Battle , London , 1997 , p. 89-90. George A. Campbell : The Crusades , Great Britain , 1938 , p. 386.

عيسى والأشرف موسى – إذ كان رأيهما القضاء على الصليبيين[1] ، لكن الكامل خشي «إن فَعَل ذلك أن يمتنع من بقي منهم بدمياط أن يسلّمها ، ويحتاج الحال إلى منازلتها مدّة ، فإذا كانت ذات أسوار منيعة ، وزاد الفرنج عندما استولوا عليها في تحصينها ، ولا يُؤْمَن في طول محاصرتها أن يفد ملوك الفرنج نجدةً لمن فيها ، وطلباً لثأر مَنْ قُتِل من أكابرهم ، هذا وقد ضجرت عساكر المسلمين ، وملّتْ من طول الحرب»[2].

واشترط الكامل على الصليبيين أن يبعثوا إليه برهائن من ملوكهم ، يبقون لديه حتّى يسلموا دمياط ، فوافق الصليبيون على ذلك ، وأرسلوا إلى الكامل عشرين رهينة ، كان على رأسهم بيلاغيوس النائب البابوي نفسه ، وجون دي بريين ، ودوق بافاريا ، في مقابل ذلك أرسل الكامل ، ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وجماعة من خواصّه[3].

«ولمّا قَدِمَ هؤلاء الملوك إلى السلطان الملك الكامل جلس لهم مجلساً عظيماً ، ووقف بين الملوك من إخوته وأهل بيته جميعهم ، ورأى الفرنج من عظمته وناموسه ما هالهم ، ثمّ أرسلت الفرنج قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط لتُسلَّم إلى المسلمين ، فسلّمت إليهم تاسع عشر رجب من هذه السنة – ٦١٨هـ – وكان يوم تسلمها يوماً مشهوداً»[4].

وبذا تمّ جلاء الصليبيين عن دمياط ، في ١٩ رجب سنة ٦١٨هـ / ٩ أيلول سنة ١٢٢١م ، ودخلها الملك الكامل وعساكره ، وأبحر الصليبيون الغربيون إلى أوروبا ،

---

١) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٩٧. ابن الوردي : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٢٠٥. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق١ – ص ٢٠٨.

٢) المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق١ – ص ٢٠٨.

٣) أولفر أوف بادربون : الموسوعة – ج ٣٤ – ص ١١١. وهو يذكر أن عدد الرهائن الذين تسلمهم الكامل كان أربعاً وعشرين رهينة. ابن الأثير : الكامل – ج١٢ – ص ٣٣٠. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٤ – ص ٩٨. ابن الوردي : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٢٠٥. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق١ – ص ٢٠٨.

٤) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٩٨-٩٩. المقريزي : المواعظ والاعتبار – ج١ – ص ٢٧٧. ويورد الوصف نفسه.

فيما عاد جون دي بريين إلى عكّا[1].

وبذلك أخفقت الحملة الصليبيـــية الخامسة في تحقيق أي مكسب أو هدف ، بعـــد أن كادت تثبت أقدام الصليبيـــين في دمياط ، بل أضـــاع قادة الحملة فرصة قبـــول عـــرض الكامل ، والحصول على بـــيت المقدس ، والعديد من المدن والحصون ، مقابل ترك دمياط ، فأرغموا على طلب الصلح ، وخرجوا وفي جعبتـــهم الخزي والهزيمة. وقد شاءت الأقدار أن كانت وصلت نجدة صليبيـــية ضخمة ، قادمة من أوروبا ، في اليوم نفسه الذي تسلّم فيـــه المسلمون دمياط ، ولو أنّ تلك النجدة كانت أسرعـــت في الوصول إلى الـــصليبيـــين في دمياط ، فإنـــهم — ربّما — امتنعوا عن تسليمها إلى المسلمين[2].

– أسباب إخفاق الحملة :

يمكن لنا أن نعزو إخفاق الحملة الصليبيـــية الخامسة إلى عدّة عوامل ، منـــها ما يتعلّق بالغرب الأوروبـــي ، ومنـــها ما يتعلّق بالصليبيـــين ، ومنـــها ما يتعلّق بالمسلمين.

فبالنسبة إلى الغرب الأوروبـــي يمكننا أن نلاحظ العوامل الآتية :

١ – محاولة البابا هونوريوس الثالث السيطرة على قيادة الحملة حتّى لا تتعـــرّض لمـــا تعرّضت له الحملة الصليبيـــية الرابعة لذا فإنـــه منح نائبـــه البابوي بـــيلاغيوس السلطة المطلقة التي كانت تعلو صلاحيات أهل الشأن والخبرة من الأمراء والقادة العسكريين.

---

١) أبو شامة : الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٢٥٠. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٩٩. أحمد بـــن إبـــراهيم الحنبلي : شفاء القلوب – ص ٣٠٧.

James M. Powell: Anatomy of a Crusade (1213-1221) , Philadelphia, 1986, pp. 160 - 161.
Ian Heath : Awargamers' guide to the Cusades , England , 1980 , p. 16.
Francesco Gabriel: Arab Historians of the Crusadea , Translated from Italian by : E. J. Costello . London , 1984 , p. 266.

٢) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة – ج ٣٤ – ص ١١٢. ابن الأثير : الكامل في التـــاريخ – ج١٢ – ص ٣٣١. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٩٩.

٢- كان فردريك الثاني قد قطع على نفسه – للبابا انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) – عدّة وعود من بينها القيام بحملة صليبية إلى الشرق ، وذلك قُبيل تتويجه ملكاً على ألمانيا سنة ١٢١٢م ، ثمّ أكّد التزامه بتلك الوعود عند إعادة تتويجه في كتدرائية آخن سنة ١٢١٥م[١].

إلاّ أن فردريك الثاني ماطل في تنفيذ وعده بالقيام بحملة صليبية ، ريثما يتمّ تتويجه إمبراطوراً من قِبَل البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ – ١٢٢٧م) ، ضارباً عرض الحائط بمصير الحملة الصليبية الخامسة ، ومكتفياً – في الوقت نفسه – بإمدادات ، ربّما كان القصد منها خداع البابا وطمأنته ، حتّى يحصل منه على التاج الإمبراطوري[٢].

أمّا بالنسبة إلى الجانب الصليبي ، فإنّ جُلَّ الملاحظات التي يمكن أن ندوّنها كانت نجمت عن قدوم النائب البابوي بيلاغيوس للمشاركة في الحملة ، فقد تشبّث برأيه ، وتجاهل وضعه كرجل دين ، وتصرّف كقائد مطلق ، ممّا سبّب امتعاض جون دي برين ، فآثر التطلّع إلى مصلحته الخاصة – في أرمينية – وقفل عائداً إلى عكّا ، وهذا بدوره كان قد أثار اضطراب القادة العسكريين ، ومعارضتهم لتوجّهات وآراء بيلاغيوس ، وانتشرت الفوضى واللامبالاة بين صفوف الجيش الصليبي ، وتصرّف أفراده دون اكتراث بأوامر قادتهم ، ورحل قسم منهم عائداً إلى بلاده غير عابئ بالحملة ومصيرها[٣].

لقد أخطأ قادة الحملة باختيارهم الطريق المحاذي لفرع النيل الشرقي ، من أجل زحفهم صوب القاهرة ، إذ كان يعترض هذا الطريق العديد من الترع والقنوات التي تتفرّع

---

١) فيليب دي نوفار : الموسوعة - ج ٣٥ – ص ٣٢. عاشور : أوروبا في العصور الوسطى - ص ٣٥٢. زيتون : المرجع المتقدم – ص ٢٦٢.

٢) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة - ج ٣٤ – ص ٧٩. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة - ج ٤٥ – ص ٧٨٩. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٧٧٣.

٣) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة - ج ٣٤ – ص ٨٤. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة - ج ٤٥ – ص ٧٦٩. طقوش : المرجع المتقدّم – ص ٣٢١.
Antony Bridge : Op. cit, p. 258. Christopher Marshall: Op. cit, p. 31. Terence Wise: Op. cit, p. 26.

من نـــهر النـــيل ، فضلاً عن تجاهلهم لأوقات فيضان النـــهر نفسه ، هذا إلى جانب إهمال قادة الحملة عنصر السرعة وانتـــهاز الفرص ، فحينما تمكّنت القوات الصليبيـــية من عبـــور الضفة الشرقية لنـــهر النـــيل ، بعد مؤامرة ابن المشطوب ، توانت تلك القوات عن الزحف مباشرة صوب القاهرة ، مستغلّةً حالة الارتباك التي أصابت الجيش الإسلامي.

كما أخطأ قادة الحملة حين أعرضوا بوجوههم عن عرض الكامل للـــصلح ، وزاد في تشتّتـــهم عدم وحدة موقفهم تجاه هذا الأمر.

أمّا بالنسبة إلى الجانب الإسلامي ، فإنّ الدور الأساسي الذي أسهم في إخفاق الحملة كان يرجع إلى توحيد جهود قادة دمشق والقاهرة ، وتنظيم تحركاتـــهم ، والتنسيق فيمـــا بـــينـــهم.

فقد عمل الكامل على إعداد خطّ دفاع العادلية ، وَثَبُتَ وقوّاتـــــه — في مواجهـــة الصليبـــيين — طوال ثمانـــية أشهر ، واضطرّ إلى التراجع بعد مؤامرة ابن المشطوب ، الـــتي أتاحت عبور الصليبـــيين إلى الضفة الشرقية وحصار دمياط ، وهنا يبرز دور المعظّم عيسى الذي قدم من دمشق ، وأنـــهى المؤامرة ، ورفع من معنويات الجيش المـــصري وأخيـــه الكامل ، ثمّ عاد إلى بلاد الشام ليضغط على أملاك الصليبـــيين ، كما هدم أسوار بـــيت المقدس ، وبعض القلاع الإسلامية[1] ، لجعلها في حالة تمكّن المسلمين من استردادها إذا مـــا سقطت في أيدي الصليبـــيين ، وكثّف المعظّم تحرّكاتـــه لجمع إمدادات بلاد الشام وإرسالها إلى الكامل في مصر ، كما قام بشحذ همم أفراد وأمراء الأسرة الأيوبـــية للوقوف إلى جانب الكامل ودعمه ضدّ الخطر الصليبـــي.

وكذلك فعل الكامل محمد في مصر ، إذ شرع في جمع المال والرجال ، وأقام مدينـــة المنصورة ، وتصدّى وجيشه ببراعة عسكرية فائقة للزحف الصليبـــي صوب القاهرة.

---

١) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة – ج ٣٤ – ص ٥٣. ابن الأثير : الكامل – ج١٢ – ص ٣٢٧. روجـــر أوف ويندوفر : الموسوعة – ج ٤٥ – ص ٧٥٨. أبو شامة : الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٢٢٢. ابن واصـــل : مفـــرّج الكروب – ج٤ – ص ٣٢. ابن الوردي : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ١٩٦. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ٢٠٤.

- الحملة الصليبيـــة السادسة :

كانـــت عُرى التعاضـــد والتآزر بـــين أبناء العادل الثلاثـــة ، الكامـــل والمعظّـــم والأشرف ، قد تـــهمّشت واندثرت ، وذلك عندما هاجم المعظّم عيسى حماه ، واســتولى على بعض أعمالها مثل المعرّة وسلمية ، سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣م[١] ، ممّا أثار استياء الأشرف ، والكامل - أيضاً - الذي أرسل إلى أخيـــه المعظّم يطلب منـــه الرحيل عن حماه «فتركهـــا وهو حَنِق»[٢] وكانت حماه حينذاك بـــيد ابن عمّه الملك الناصر قلج أرسلان بـــن الملـــك المنصور محمد.

وما لبث الأشرف موسى أن قَدِمَ إلى أخيـــــه المعظّـــم في دمـــشق ، ســـنة ٦٢٣ هـ/١٢٢٦م ، «لقطع مادّة الشرّ»[٣] وتنقية الأجواء المشحونة ، وإعـــادة توحيـــد الـــصفّ الأيّوبـــي بمواجهـــة خطر الخوارزمية الذين باتـــوا يطرقـــون أبـــواب الأمـــلاك الأيوبـــية ، والأشرف - بدوره - كان الأكثر إلماماً بحجم هذا الخطر لمتاخمة بـــلاده ، في الجزيرة وخلاط ، لهم ، ولكنّ المعظّم انتـــهز فرصة قدوم الأشرف إليـــه ، فضيّق عليـــه بما يشبـــه الأسر ، ولم يمكّنـــه من العودة إلى بلاده إلاّ بعد أن تعهّـــد لـــه بمـــساعدتـــه في الاستيلاء على حمص وحماه ، والوقوف إلى جانبـــه ضدّ أخيـــهما الكامل في مصر[٤].

ولكنّ الأشرف ما كاد يفلت من يد المعظّم وقبضتـــه الصارمة حتى «رجع عن جميع ما تقرّر بـــينـــه وبـــين الملك المعظّم ، وتأوّل في أيْمانـــه التي حلفها أنـــه كان مكرهـــاً عليـــها»[٥].

---

١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري - الموسوعة - ج٢١ - ص ٣٦٨. ويورد الخبر ضمن أحداث سنة ٦١٩هـ. ابـــن واصل : المصدر نفسه - ج٤ - ص ١٢٦. أبو الفداء : الموسوعة - ج٢٢ - ص ١١٣.

٢) المقريزي : السلوك- ج١ - ق١ - ص ٢١٤.

٣) ابن واصل : مفرّج الكروب في أخبار بنـــي أيوب - ج٤ - ص ١٧٩.

٤) ابن واصل : المصدر نفسه - ج٤ - ص ١٨٠. أبو الفداء : الموســـوعة الـــشامية - ج٢٢ - ص ١١٨-١١٩. المقريزي : السلوك - ج١ - ق١- ص ٢٢١.

٥) ابن واصل : المصدر نفسه - ج٤ - ص ٢٠٥-٢٠٦. أبو الفداء : الموســـوعة الـــشامية - ج٢٢ - ص ١٢٠. ويورد الكلام نفسه تماماً.

غير أنّ المعظّم خرق حلقة النـزاع الأيوبـي ، فكاتب سلطان الخوارزميـة جـلال الدين منكبرتي ، «ووعده أن يخطب له ، ويضرب السكّة باسمه ، فسيّر إليـه جلال الـدين خلعة لبسها ، وشقّ بـها دمشق ، وقطع الخطبة للملك الكامل»(١).

وردّ الكامل على ذلك بأن أرسل ، سنة ٦٢٤هـ/أواخر سنة ١٢٢٦م ، الأمير فخـر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ بن حمويـه إلى صقلية ليطلب مساندة الإمبراطور فردريـك الثانـي ، حيث عرض الكامل بأن يمنحه بـيت المقدس ، وجميع فتـوح صـلاح الـدين بالساحل(٢).

وحبّذا أن نقف هنا قليلاً لنتأمّل دعوة الأخوين – المعظّم والكامـل – إلى الأعـداء لمساندتـهما ضدّ بعضهما البعض ، وكأنـهما لم يتّعظا من أنّ وحدتـهما كانت العامل الأهمّ والأقوى في إخفاق الحملة الصليبـية الخامسة التي كادت تحقّق نجاحاً باهراً.

وإذا كان ما فعله المعظّم – بدعوتـه جلال الدين الخوارزمي – عملاً سيّئاً ، فإنّ فعل الكامل كان أسوأ وأفظع ، إذ لم يكتفِ بدعوة فردريك الثانـي ، بل وعـده بإعطائـه بـيت المقدس ، وهذا ما يعدُّ انتـهاكاً للمقدّسات ، إذ لا يحقّ لأيّ رجل التنـازل عـن حقوق الأمّة وأراضيـها ، فما بالنا إذا كان يتنازل – وبكلّ رضى – عن القدس ؟!

لاقت دعوة الكامل قبولاً حسناً لدى فردريك الثانـي نفسه ، الذي كـان يواجـه ضغطاً كبـيراً من البابوية للقيام بحملتـه الصليبـية – التي كان وعد بـها – خـصوصاً بعد تفاقم أوضاع الصليبـيين السيّئة نتيجة إخفاق الحملة الصليبـية الخامسة ، فضلاً عـن أنّ فردريك الثانـي كان يرغب – فعلاً – بالتوجّه إلى بلاد الشام من أجل المطالبة بحقّه ، وتثبـيت وضعه القانونـي كملك للقدس.

---

١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك – ج١ – ق١ – ص ٢٢٢.

٢) فيليب دي نوفار : حروب فردريك الثانـي ضدّ الإيبلينـيين في سورية وقبرص – الموسوعة – ج٣٥ – ص ٣٧. أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ١٢٠. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق١ – ص ٢٢١-٢٢٢. عاشور : الحركة الصليبـية – ج٢ – ص ٧٩٠. طقوش : تاريخ الأيوبـيين – ص ٣٢٦.

إذ كان فردريك الثاني قد تزوّج ، في التاسع من شهر تشرين الثاني سنة ١٢٢٥م ، من الملكة إيزابيل دي برين ابنة الملك جون ، بناءً على مقرّرات مجمع فيرينتينو سنة ١٢٢٣م ، وآل اللقب الملكي إليه عن طريق ذلك الزواج ، على الرغم من استياء جون واحتجاجه(١).

وأبحر الإمبراطور فردريك الثاني من ميناء برنديزي في جزيرة صقلية في ٢٤ رمضان سنة ٦٢٤هـ/ ٨ أيلول سنة ١٢٢٧م ، غير أنّ تفشّي الطاعون بين الجند ، وعزوف عدد كبير منهم عن متابعة الحملة ، وإصابة الإمبراطور نفسه بالمرض ، اضطرّه إلى العودة ، وتأجيل سفره إلى الشرق(٢).

ولكن البابا غريغوري التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) ، الذي خلف البابا هونوريوس الثالث بعد موته في آذار من العام نفسه ، اتهم الإمبراطور فردريك الثاني بالتمارض ، وعدّه مرتدّاً ، فأصدر بحقّه حرماناً كنسياً ، في ١٦ شوّال سنة ٦٢٤هـ/٢٩ أيلول سنة ١٢٢٧م(٣).

وكان الإمبراطور قد أوضح أنّ مرضه لم يكن بيده ، وأنّ المصاعب في برنديزي لم يكن هو سببها ، وكانت فوق طاقته ، ولكنّ البابا غريغوري التاسع أعرض عن هذه المسوّغات ، فأدرك الإمبراطور أنّ من الأفضل له النهوض فوراً بحملته الصليبية لئلاّ

---

١) ابن نظيف : الموسوعة – ج٢١ – ص ٣٨٨. فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص ٣٤.

W.B.Stevenson: The Crusaders in the East, Cambridge University press, 1907, p.307.
Steven Tibble: Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem, Oxford University press, 1989, p.78.
J. J. Saunders: Aspects of the Crusades, New Zealand, 1962, p. 33.
Wolfgang Müller-Wiener: Castles of the Crusades, London, 1966, p. 24.
Jean Richard: The Crusades, Cambridge University press, 1999, pp.307,308.

٢) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص ٣٥-٣٦. د. عادل زيتون : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية – دمشق – ١٩٨٢م – ص ٢٦٥.

Annie E. Keeling: The Nine Famous Crusades of the Middle Ages, London , 1889, p. 218,219.
George W. Cox: The Crusades , London , 1874 , pp. 181,182.

٣) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص٣٦. د. سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى – بيروت – ١٩٧٢م – ص ٣٥٣.

Anthony J. C. Kerr & M. A. Cantab: the Crusades , Great Britain , 1966, pp. 71,72.

يعطي الفرصة للبابا في تشويــه صورتــه كمسيحي مخلص للكنـــيسة ، وأقلع أخيراً في ٢٢ رجب سنة ٦٢٥هـ/٢٨ حزيران سنة ١٢٢٨م ، وذلك على الرغم من الحظر البابوي ، فيما كان وضعه القانونـــي بالنسبة إلى عرش مملكة بـــيت المقدس ، قد تحوّل بصفتـــه وكـــيلاً لابنـــه الرضيع ، إذ كانت الإمبراطورة إيزابـــيل قد توفّيت في ٢٥ نـــيسان سنة ١٢٢٨م – أي بعد عدّة أيّام من ولادتـــها – وأصبح طفلها كونراد وريثاً لعرشها في القدس[١].

وصل فردريك الثانـــي في ٢١ تـــمّـــوز سنة ١٢٢٨م إلى ميناء ليماسول في جزيرة قبرص ، بـــهدف تأكيد سيادتـــه على الجزيرة ، التي كـــان يعـــدّها بمثابـــة إقطاعيـــة إمبراطورية ، على أساس أنّ الملك عموري الثانـــي دي لوزغنان كان قد اعترف بالتبعيـــة للإمبراطورية ، عندما تلقّى لقبـــه الملكي من هنري السادس في سنة ١١٩٧م ، إلى جانـــب رغبة الإمبراطور فردريك الثانـــي في كسب موارد قبرص لتغطية نفقات الحملة[٢].

وفي الثالث من أيلول سنة ١٢٢٨م ، أبحر فردريك الثانـــي من جزيرة قبرص قاصـــداً عكّا ، حيث وصل إليـــها ، في ٤ شوّال سنة ٦٢٥هـ/٧ أيلول سنة ١٢٢٨م[٣].

وفي عكّا واجه فردريك الثانـــي عدّة صعوبات ، لعلّ أهمّها :

- رفض رجال الدين منحه «قبلة السلام»[٤] ، أو التعاون معه ، خصوصاً بعـــدما لحقه إلى عكّا بعض الرهبان الفرنسيسكان وهم يحملـــون رســـائل مـــن البابـــا غريغوري التاسع ضدّ فردريك الثانـــي ، وتتضمّن الرسائل أمراً من البابا بالابتعاد

---

١) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص ٣٨. طقوش : تاريخ الأيوبـــيين – ص ٣٤٣.
Paul Alphandéry: La Chrétienté L'idée De Croisade , Paris, 1959, pp. 184,185.

٢) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص ٣٩. د. سعيد عبد الفتـــاح عاشـــور : قـــبرص والحـــروب الصليبـــية – القاهرة – ٢٠٠٢م – ص ٤١.
Ernest Barker: The Crusades , Oxford University Press , England , 1925 pp. 77-78.

٣) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص ٤٢. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١– ص ٢٢٨.
Louis Bréhier: L'eglise Et L'Orient Au Moyen Age Les Croisades , Paris , 1921 , pp. 198-199.

٤) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ – الموسوعة – ج٤٥ – ص ٨٧٧. فيليب دي نوفار : الموسوعة الـــشامية – ج٣٥ – ص ٤٢.

عن الإمبراطور وعدم مساندتـــه ، لكونـــه محروم كنسياً و لم يتبْ[1].

- رفض البابا قبول الاعتذار الإمبراطوري ، الذي أرسله الإمبراطور مع الكونـــت هنري صاحب مالطا ، ورئيس أساقفة باري[2].

- رفض مقدّما الإستبارية والداوية الزحف تحت الراية الإمبراطورية ، أو التعاون مع رجل محروم من الكنـــيسة ، واستند الإمبراطور إلى تأييد الفرسان التيوتون[3].

- كان الإمبراطور فردريك الثانـــي قد أبحر من ميناء برنديزي في جزيرة صـــقلية وبصحبتـــه عدد ضئيل من القوّات[4] ، مّما قد يثير الاســـتغراب والتـــساؤل ، إذ ليس من المعقول أن تكون حملة صليبـــية إمبراطورية متوجّهة إلى الشرق وتنـــوي تحقيق إنجازات ولا يصحبـــها جيش جرّار.

ولكن يخيّل إلينا أنّ فردريك الثانـــي كان وضع في حسبانـــه أمرين اثنـــين :

الأوّل : أنّ عدداً كبـــيراً من قوّاتـــه تقدّمت أمامه في الإبحار صوب بلاد الـــشام ، ووصلت إلى هناك فعلاً ، ولكن المعظّم عيسى – صاحب دمشق – كان لا يزال حيّاً ، فلم تستطع هذه القوّات القيام بأيّ نشاط في بلاد الشام إلاّ بعد وفاتـــه[5] ، حيث توجّه قـــسم منـــهم نحو صيدا ، التي كانت أراضيـــها مناصفة بـــين المسلمين والصليبـــيين ، فعمّروها

---

١) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ – الموسوعة – ج٤٥ – ص ٨٨٤. فيليب دي نوفار : الموسوعة الـــشامية – ج٣٥ – ص ٤٢.

René Grousset: Histoire Des Croisades Et Du Royaume France De Jérusalem, 3 vols , Paris- 1936- vol 3 , p. 303.

٢) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص ٤٢.

٣) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص ٤٣-٤٤. طقوش : المرجع المتقدّم – ص ٣٤٥.

Norman Daniel: The Arabs and Mediaeval Europe , London , 1975 , pp. 158-159.

٤) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص ٣٨. محمود سعيد عمران : تاريخ الحـــروب الـــصليبـــية – الإسكندرية – ١٩٩٦م – ص ٢٩١.

٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٤٧٨. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٤ – ص ٢٣٤. عاشور : الحركة الصليبـــية – ج٢ – ص ٧٩٣.

واستولوا على حصّة المسلمين[1] ، وبذا فإنّ هذه القوّات انشغلت بأمور أخرى ثانوية ، أو أنها أوجدت لنفسها مكاناً وسط الكيان الصليبي في بلاد الشام ، فلم تعد تبالي بقدوم الإمبراطور أو تأخره ، إلى جانب ذلك ، فإنّ الحظر البابوي ربّما زرع الخوف والحذر في نفوس الجند ، فآثروا الابتعاد عن إمبراطور محروم كنسياً.

الثاني : كان الإمبراطور فردريك الثاني قد استأنس بدعوة الكامل محمد ، وعوّل على ذلك كثيراً ، لذا فإنّ خروجه بصحبة عدد محدود من قوّاته كان دافعه الأهمّ – كما هو مرجّح – اتّكاله على دعم الكامل ، ومدى التزامه بوعده.

إلاّ أنّ الإمبراطور أصيب بخيبة شديدة عندما وصل إلى عكّا ، إذ إنّ وضع بلاد الشام كان قد تغيّر – حتى قبل إبحاره من جزيرة صقلية صوب الشرق – فالملك المعظّم توفّي في شهر ذي القعدة ٦٢٤هـ/تشرين الثاني ١٢٢٧م[2]، وخلفه ابنه الناصر داود ، وهو شابّ في العشرين من عمره ، وقد افتقر إلى الخبرة والتجربة ، وليست له قوّة تجعله يشكّل خطراً على عمّه الكامل محمّد في مصر ، بل إنّ داود لم يلبث أن «اشتغل باللهو ، وأعرض عن مصالح الدولة»[3].

استغلّ الكامل محمد هذا الوضع السياسي ، فخرج من القاهرة على رأس جيشه ، متّجهاً صوب فلسطين ، وضمّ القدس ونابلس إلى أملاكه ، في شهر شوّال سنة

---

١) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٤٧٨. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٢٣٤. أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ١٢٣.

٢) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٤٧١. ابن أبي الدم : الموسوعة الشامية – ج٢١ – ص ٢٨٩. ابن نظيف : الموسوعة الشامية – ج٢١ – ص ٣٩٣. ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب – ج٢ – ص ٦٦٣. أبو شامة : الموسوعة الشامية – ج٢٠ – ص ٢٩٣. ابن خلّكان : وفيات الأعيان – الموسوعة الشامية – ج٢١ – ص ٥٢. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٥٧٩. أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ١٢١. ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي – ج٢ – ص ٢١٣.

٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك – ج١ – ق١ – ص ٢٢٥.

٦٢٥هـ/أيلول سنة ١٢٢٨م[١] ، فاستنجد الناصر داود بعمّه الأشرف موسى الذي قدم إلى دمشق متظاهراً بحماية ابن أخيه ، بينما أرسل من دمشق رسالة إلى الكامل محمد «يستعطفه ، ويعرّفه أنه ما جاء إلى دمشق إلاّ طاعة له ، وموافقة لأغراضه ، والاتّفاق معه على منع الفرنج عن البلاد»[٢].

وأجاب الكامل محمد بأنه ما حضر – أيضاً – إلى بلاد الشام إلاّ لدفع الصليبيين ، الذين عمّروا صيدا وجزءاً من قيسارية ، وأنّ واجبهما حماية البيت المقدس الذي فتحه عمّهما صلاح الدين[٣].

وانسحب الكامل إلى تلّ العجول ، جنوب غزّة ، لمراقبة تطوّر الأوضاع ، في حين غشي الذّعر سكّان القدس ، لخشيتهم عودة الكامل محمد إلى مصر ، فيقتحم الصليبيون مدينتهم[٤].

ولم يلبث الأشرف موسى أن لحق بأخيه الكامل إلى تل العجول ، وهناك اتّفق الاثنان على اقتسام أملاك ابن أخيهما ، وذلك في شهر ذي الحجّة سنة ٦٢٥هـ/تشرين الثاني سنة ١٢٢٨م[٥].

سار الأشرف إلى دمشق ، وضرب عليها الحصار ، فيما ظلّ الكامل مرابطاً في تلّ العجول ، ربّما ليبحث لنفسه عن مخرج من ورطته تلك ، إذ إنّ هدوء الأحوال بين أبناء البيت الأيّوبي في بلاد الشام كان ألغى حاجة الكامل للتحالف مع فردريك

---

١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – ج١٢ – ص ٤٧٩. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٥٧٩. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ٢٢٦.

٢) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٤٨٠.

٣) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٤٨٠. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٧٩٥.

٤) ابن الأثير : المصدر نفسه – ج١٢ – ص ٤٨٠. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٤ – ص ٢٣٠. أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ١٢١.

٥) بو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج٢٠ – ص ٢٩٦. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٢٣١. أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ١٢٢.

الثانـــي ، خصوصاً بعد وفاة المعظّم ، واستيلاء الكامل على القدس ونابلس[1].

ولكن فردريك لم يأتِ إلى الشرق إلاّ بناءً على دعوة الكامل ، ووعده بتقديم بـــيت المقدس له ، ولو كان يعلم أنّ الكامل سينكث بوعده لمّا خرج في حملتــه صوب الشرق ، أو ربّما هيّأ نفسه بجيش ضخم يحقّق بــه غايتــه ، فضلاً عن أنّ فردريك لم يكن يستطيع الاعتماد على مساعدة الصليبــيين في بلاد الشام جرّاء الحرمان الكنسي. أمّا مسألة عودتــه إلى بلاده دون إنجازات مدوّية ، فذلك أمر لم يكن في ذهن فردريك الثانـــي مطلقاً ، وكان عليـــه تحقيق أي انتصار ، وبأيّ وسيلة ، حتّى لا يرجع بمظهر المخفق في أعــين الغـــرب المسيحي ، فالقضية بالنسبة له – ربّما – كانت تعنـــي مستقبل عرشه في أوروبـــا ، بـــل مستقبل صراعه مع البابوية ، التي لم تألُ جهداً في وضعِ كلّ عائقٍ في طريقه ، إلى حـــدّ أنّ البابا غريغوري التاسع كتب مباشرة إلى الكامل محمد يطلب منـــه ألاّ يقدّم أيّ تنازلات إلى فردريك الثانـــي[2].

– اتفاقية يافا :

بادر الإمبراطور فردريك الثانـــي ، مُذْ وصل إلى عكّا ، بإرسال رسولين إمبراطوريين إلى الكامل محمد ، لمطالبتـــه بتنفيذ وعده ، ومنح القدس إلى الإمبراطور ، لكنّ الظـــروف تبدّلت ، والكامل أصبح في غنىً عن مساعدة الإمبراطور ، ولم يعـــد مـــضطرّاً إلى تقـــديم تنازلات كبـــيرة ، سيّما أنّ التفريط في البـــيت المقدس سيؤلّب مشاعر المسلمين ضـــدّه ، ويثير سخطهم عليـــه.

١) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص ٤٣. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٢٣٤. وهـــو يقول : «ولمّا وصل الأنبرطور إلى عكّا نشب بـــه الملك الكامل لأنّ أخاه الملك المعظّم الذي كـــان الـــسبب في استدعائه توفّي وقد استغنى عنـــه». أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج٢٢ – ص ١٢٣.
Peter Thorau: The Lion of Egypt, England, 1992, pp.9-10.

٢) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص ٤٣. عاشور : الحركـــة الـــصليبيـــة – ج٢ – ص ٧٩٧. زيتون : تاريخ العصور الوسطى الأوروبـــية – ص ٢٧٠.

ودخل رسل الكامل والإمبراطور في مفاوضات طويلة وعقيمة ، وذلك بسبب حساسية موقف كلّ منهما ، ولجأ الكامل إلى إطالة أمد المفاوضات ، على أمل أن يعجز فردريك عن البقاء في بلاد الشام ، ويرجع إلى بلاده دون تحقيق مبتغاه ، فيما خَلَد فردريك الثاني إلى استدرار عطف الكامل وتسامحه[1].

لكنّ الكامل محمد ما لبث أن تعجّل في إنهاء المفاوضات ، رغبةً منه في التفرّغ لشؤون بلاد الشام ، وتحديداً خلافات أفراد الأسرة الأيوبية ، إذ إنّ دمشق كانت لا تزال صامدة في وجه حصار الأشرف موسى ، والناصر داود استنجد بالخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتي[2].

وربّما لخشية الكامل من عمل عسكري ما ، قد يقوم به الإمبراطور ضدّه ، وتحت تأثير الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ رسول الكامل في المفاوضات ، تمّ عقد اتّفاقية يافا بين السلطان الكامل محمد ، وبين الإمبراطور فردريك الثاني ، في ٢١ ربيع الأول ٦٢٦هـ/١٨ شباط ١٢٢٩م[3].

وكانت البنود الأساسية للمعاهدة كما يأتي :

١- يسلّم السلطان إلى فردريك أو نوّابه مدينة القدس[4].

---

١) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية - ج٣٥ - ص ٤٣.
Peter Malcolm Holt: The age of The Crusades, London, 1986, p.64.
٢) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية - ج٣٥ - ص ٤٤-٤٥. ابن واصل : مفرّج الكروب - ج٤ - ص ٢٤٠.
٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ج١٢ - ص ٤٨٢. ابن نظيف : الموسوعة الشامية - ج٢١ - ص ٤٠٦. فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية - ج٣٥ - ص ٤٥. أبو شامة : الموسوعة - ج٢٠ - ص ٢٩٩. ابن واصل : المصدر نفسه - ج٤ - ص ٢٤١. أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر - الموسوعة - ج٢٢ - ص ١٢٤. ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي - ج٢ - ص ٢١٦. المقريزي : السلوك - ج١ - ق١ - ص ٢٣٠. ابن سباط : تاريخ ابن سباط - ج١ - ص ٢٩٥.
Claude Cahen: Orient et Occident au temps des Croisades, Paris, 1983, pp. 183,184.
٤) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ - الموسوعة الشامية - ج٤٥ - ص ٨٩٢. ابن أبي الدم : التاريخ المظفّري - الموسوعة الشامية - ج٢١ - ص ٢٩٠. فيليب دي نوفار : حروب فريدريك الثاني ضدّ الإيبلينيين في سورية وقبرص - الموسوعة الشامية - ج٣٥ - ص ٤٥. ابن واصل : المصدر نفسه - ج٤ - ص ٢٤١. أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر - الموسوعة - ج٢٢ - ص ١٢٤. ابن الوردي : المصدر نفسه - ج٢ - ص ٢١٦. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - تحقيق : ناظم رشيد - بغداد - ١٩٧٨م - ص ٣١١.

٢- تبقى القدس «على ما هي من الخراب ، ولا يجدّد سورها ، وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين ، لا حكم فيها للفرنج ، وأنّ الحرم - بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى - يكون بأيدي المسلمين ، لا يدخله الفرنج إلاّ للزيارة فقط ، ويتولاّه قوّام من المسلمين ، ويقيمون فيه شعائر الإسلام من الأذان والصلاة»[١].

٣- يأخذ الصليبيون بيت لحم واللّدّ ، والقرى القائمة بينهما وبين القدس[٢].

٤- يأخذ الصليبيون الناصرة وتبنين وصيدا[٣].

٥- يتعهّد الإمبراطور بعدم السماح لأيّ من رعاياه بإثارة الحرب ضدّ السلطان الكامل في مصر ، كما تعهّد الإمبراطور بالبقاء على الحياد تجاه أي حربٍ قد تُشَنّ ضدّ السلطان ، وأن لا يساعد أحداً ضدّه[٤].

٦- إطلاق سراح الأسرى من كلا الجانبين - المسلمين والصليبيين - بما فيهم أسرى الحملة الصليبية الخامسة[٥].

٧- لا تشمل المعاهدة طرابلس وأنطاكية وطرطوس وقلاع صافيتا والمرقب والكرك[٦].

---

١) المقريزي : السلوك - ج١ - ق١ - ص ٢٣٠.

٢) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب - ج٢ - ص ٦٦٤. أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر - الموسوعة - ج٢٢ - ص ١٢٤.

٣) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ - الموسوعة الشامية - ج٤٥ - ص ٨٩٣. فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية - ج٣٥ - ص ٤٦.

٤) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية - ج٣٥ - ص ٤٦. وقد انفرد هذا المصدر بذكر أخبار تفصيلية رائعة عن الحملة الصليبية السادسة.

٥) روجر أوف ويندوفر : الموسوعة الشامية - ج٤٥ - ص ٨٩٤. فيليب دي نوفار : الموسوعة - ج٣٥ - ص ٤٧.

٦) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية - ج٣٥ - ص ٤٦. طقوش : تاريخ الأيوبيين - ص ٣٤٧.

٨- مدّة الهدنة عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعون يوماً [١].

وهكذا تمكّن الإمبراطور فردريك الثاني من تحقيق نصر عظيم ، على الرغم من أنه لم يخض أي معركة ، أو حتّى يفقد جندياً واحداً مقابل إنجازه الكبير ، لذا ربّما جاز لنا أن نطلق على ما حقّقه فردريك من حملته صفة النصر الأبيض.

- ردود الفعل على اتفاقية يافا :

أعتقد أنه ليس هناك من اتّفاقية أو هدنة في تاريخ الحروب الصليبية — على الأقلّ — حظيت بهذا الرفض المباشر من كلا الجانبين : المسلمين والصليبيين.

إذ «لمّا وُقّعت الهدنة بَعَثَ السلطان مَنْ نادى في القدس بخروج المسلمين ، وتسليمه إلى الفرنج»[٢] ، ولكنّ ذلك كان كالصاعقة على المسلمين ومشاعرهم ، فقد «وَقَعَ في أهل القدس الضجيج والبكاء ، وعَظُمَ ذلك على المسلمين ، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم ، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل ، واستشنعوه منه»[٣] ، وازداد السخط على الكامل إلى حدّ أنه «حضر الأئمّة والمؤذّنون من القدس إلى مخيّم الكامل ، وأذّنوا على بابه في غير وقت الأذان»[٤].

ويبدو أنّ الكامل كان أحسّ بفظاعة فعله ، فقال مدافعاً عن المعاهدة : «إنّا لم نسمح للفرنج إلاّ بكنائس وأدر خراب ، والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، ووالي المسلمين متحكّم في الأعمال والضياع»[٥].

---

١) روجر أوف ويندوفر : الموسوعة - ج ٤٥ — ص ٨٩٣. ويذكر أنّ مدّة الهدنة عشر سنوات. فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية — ج٣٥ — ص ٤٧. المقريزي : السلوك — ج١ — ق١ — ص ٢٣٠.

٢) ابن واصل : مفرّج الكروب — ج٤ — ص ٢٤٣. المقريزي : المصدر نفسه - ج١ — ق١- ص ٢٣١.

٣) ابن واصل : المصدر نفسه — ج٤ — ص ٢٤٣.

٤) المقريزي : السلوك — ج١ — ق١- ص ٢٣١.

٥) فيليب دي نوفار : الموسوعة— ج٣٥ — ص ٤٥. ابن واصل : مفرّج الكروب — ج٤ — ص ٢٤٣-٢٤٤. المقريزي : المصدر نفسه - ج١ — ق١- ص٢٣٠.

طبعاً هذا التسويغ ضعيف ، وغير مقبول ، إذ لا عزّة لعقيدة تحت وصاية محتـــلّ ، ولا سلطة لوالٍ وأرضه مدنّسة ، وما قول بعض المؤرّخين[1] ، إنّ النشأة العلمية المتشابـــهة لكلّ من فردريك والكامل ، والتوافق في الطباع وطريقة التفكير كان أدّى إلى التفاهم ، ودَفَـــعَ الكامل إلى تسليم القدس ، إلاّ قولاً واهياً بعيداً عن الحقيقة ، فمن الطبـــيعي أن تخلق الثقافة من المرء إنساناً هادئاً واقعياً ، ولكنـــها لا تزرع فيـــه التساهل في الحقوق والمقدّســـات ، والعالم أقرب الخلق إلى الله تعالى[2] ، فكيف يُفرِّط بما أوجب الله بذل الروح لأجله ؟!

وأجدر بنا أن نعزو ما فعله الكامل إلى أنانـــيتـــه وحبـــه للسلطة ، ذلك أنـــه هـــو مَنْ شجّع الإمبراطور على حملتـــه ، وحين قَدِمَ فردريك الثانـــي — فعلاً — أرضاه الكامل بمقدّسات الأمّة وكرامتـــها ، بـــل حتّى بنود الاتفاقية ، التي كانت قد أُعِـــدّت بـــشكل سرّيّ[3] ، أكّد فيـــها الكامل على أمنـــه الشخصي ، وأغفل مصالح الأمّة ، وتـــهاون في تسليم أراضيـــها.

ولقد حاول شهاب الدين إبراهيم بن أبـــي الدم ، قاضي قضاة حماه ، تسويغ اتّفـــاق الكامل مع الإمبراطور فردريك الثانـــي ، وذكر أنّ ما فعله كان «من أكبر مصالح المسلمين وأعظمها»[4] ، ويبدو أنّ موقف ابن أبـــي الدم كـــان سببـــه قربـــه من الأيوبـــيين ، ملوك حماه ، وخصوصاً الملك المظفّر الثانـــي محمود (٦٢٦ — ٦٤٢هـ/١٢٢٩ — ١٢٤٤م) الذي تولّى عرش حماه بفضل مساعدة الكامل وجيشه[5].

---

١) فيليب دي نوفار : الموسوعة— ج٣٥ — ص ٤٣. ابن واصل : المـــصدر نفـــسه - ج٤ —ص ٢٤٢. عاشـــور : الحركة الصليبـــية — ج٢ — ص ٧٨٨.

Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the middle Ages, London, 1968, p.226.

٢) في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكّد هذه الحقيقة ، منـــها قوله تعالى (شَهِدَ اللّهُ أَنـــه لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُـــوَ وَالْمَلاَئِكَـــةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١٨) سورة آل عمران.

٣) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية — ج٣٥ — ص ٤٥.

٤) ابن أبـــي الدم : التاريخ المظفّري — الموسوعة الشامية — ج٢١ — ص ٢٩٠.

٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ — ج١٢ — ص ٤٨٦-٤٨٧. ابن واصل : مفرّج الكـــروب — ج٤ — ص ٢٥٢-٢٥٣. المقريزي : السلوك — ج١ — ق١- ص ٢٣٥-٢٣٦.

إذاً ، بما أنّ علاقات المظفّر الثانـــي كانت قويّة جدّاً مع خاله الكامل محمـــد ، فقـــد سوّغ ابن أبـــي الدم تنازل الكامل عن القدس إلى الصليبـــيين ، ربّما محاباةً من ابن أبـــي الدم للمظفّر الثانـــي ، أو بضغط منـــه.

وسار حذو ابن أبـــي الدم مؤرّخ آخر ، هو جمال الدين محمد بن واصل الحمـــوي ، الذي رأى في اتّفاق الكامل مع فردريك الثانـــي ما هو مصلحة للمسلمين ، وأنّ الحـــاكم «يجوز له تسليم بلد من البلاد الإسلامية إلى الكفّار»[1] ، ويبدو أنّ ابن واصل كان اتّخـــذ ذلك الموقف بسبب قربـــه – هو أيضاً – من الأيّوبـــيين ، حتى إنـــه اخـــتصّ بالتـــأريخ لبنـــي أيّوب.

أمّا على الجانب الصليبـــي فقد رَفَضَت المعاهـــدة معظم الفئات ، وخاصّـــة رجـــال الدّين ، الذين عارضوا السماح للمسلمين بالعبادة في القدس ، كما انتقد رجال الـــدين – وبشدّة – تعهّد الإمبراطور بعدم السماح لأيّ صليبـــي بغزو مصر ، وعدّوا ذلك الالتـــزام على أنـــه «أكثر الفقرات لا مسيحية»[2].

إذاً ، كانت لا تزال مصر – وستبقى – الهدف الرئيس والأساس لمعظـــم الحمـــلات الصليبـــية ، على الرغم من أنّ الحملة السادسة كانت أنجزت هـــدفاً مهمّـــاً باســـتردادها للقدس، ولكن يبدو أنّ مصر كانت لا تقلّ شأناً عن بـــيت المقدس ، بل ربّما فاقتـــه مـــن حيث الأهمية ، من حيث غناها بالموارد ، ومركزها الاستراتيجي المؤثّر ، ولهذا فقد كان من الطبـــيعي أن يكون هاجس الصليبـــيين الدائم ، هو الاستيلاء على مصر ، لإدراكهـــم أنّ القدس لم تكن سوى مملكة صليبـــية هشّة ، ستقف عاجزة أمام أي هجـــوم إســـلامي ، فالضمان لهم – ولاستمرار وجودهم على أرض بلاد الشام – كان يتمّ بالسيطرة على مصر ومقدّراتـــها.

ويجدر بنا أن ننوّه بالدور اللافت للأمير فخر الدين يوسف ، ابن شيخ الشيوخ بـــن

---

١) ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٥٨٠.

٢) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج٣٥ – ص ٤٧.

حمويـــه ، الذي أسهم كثيراً في التأثير على السلطان الكامل ، وفي صياغة بنود المعاهدة[1].

وقد ظلّ لأسرة شيخ الشيوخ بن حمويـــه دور كبـــير ، ويدٌ طولى في قيـــادة دفّـــة الأحداث ، والإسهام فيـــها حتى زمن الملك الصالح نجم الدين أيّـــوب ، وقـــدوم الحملـــة الصليبـــية السابعة ، ومقتل فخر الدين[2].

- دخول فردريك الثانـــي بـــيت المقدس :

لم يتوانَ الإمبراطور فردريك الثانـــي - عقب إتمام اتفاقية يافا - عن السير صـــوب المدينة المقدّسة ، التي دخلها في ١٩ ربـــيع الآخـــر ســـنة ٦٢٦هـ/١٧ آذار ١٢٢٩م[3]، واستقبلـــه القاضي شمس الدين ، قاضي نابلس ، عند باب المدينة موفداً من قِبَـــل الكامـــل محمد ، ليكون في خدمتـــه[4] ، وفي اليوم التالي دخل الإمبراطور كنـــيسة القيامة ليتـــوّج نفسه بـــيده ، بعد أن رفض أيٌّ من رجال الكنـــيسة تتويج إمبراطور محروم. وربّما كـــان الإمبراطور قد تقصّد تتويج نفسه بـــيده ، في إشارة منـــه إلى تلقّيـــه التاج والسلطة من الله

---

١) ابن نظيف : الموسوعة الشامية - ج٢١ - ص ٤٠٦. فيليب دي نوفار : الموسوعة الـــشامية - ج٣٥ - ص ٤٣.
ابن واصل : مفرّج الكروب - ج٤ - ص ٢٤٢. المقريزي : السلوك لمعرفـــة دول الملـــوك - ج١ - ق١- ص ٢٣٠. عاشور : الحركة الصليبـــية - ج٢ - ص ٧٩٩. طقوش : المرجع المتقدّم - ص ٣٤٧.

٢) سنوضّح ذلك الدور عند الحديث عن أخبار الحملة الصليبـــية السابعة.

٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ج١٢ - ص ٤٨٢. فيليب دي نوفار : الموسوعة الـــشامية - ج٣٥ - ص ٤٧.
أبو شامة : الموسوعة الشامية - ج٢٠ - ص ٢٩٩. أبو الفداء : الموسوعة الـــشامية - ج٢٢ - ص ١٢٤. ابـــن تغري بردي : النجوم الزاهرة - ج٦ - ص ٢٧٢. ابن سباط : تاريخ ابن سباط - ج١ - ص ٢٩٥.
G. G. Coulton: Crusades, Commerce and Adventure, London, 1930, p.166.
Jean Richard: The Latin Kingdom of Jerusalem, Translated from French by Janet Shirly. Holland, 1979, p.235.
M. M. C. Calthrop: The Crusades , London, 1936, p.70.

٤) ابن واصل : مفرج الكروب - ج٤ - ص ٢٤٤. المقريزي : السلوك - ج١ - ق١ - ص٢٣١.

مباشرة ، دون وساطة البابوية أو تدخّلها[1]. وأمر الإمبراطور بترميم بعض أبـــراج المدينـــة وأسوارها ، وتنظيم الأوضاع فيـــها[2].

- عودة فردريك الثانـــي إلى الغرب الأوروبـــي :

لم تطل غبطة الإمبراطور بتتويجه في بـــيت المقدس ، إذ ما لبث أن وصل إلى المدينـــة رئيس أساقفة قيسارية ، حاملاً أوامر جيرولد - بطريرك مدينة القدس - بوضـــع المدينـــة المقدّسة تحت الحظر والحرمان ، ممّا أثار استياء الإمبراطور وغضبـــه ، فتوجّـــه إلى يافـــا ، ومنـــها إلى عكّا ، حيث قام هناك ببعض الإجراءات الانتقامية ضدّ عـــددٍ مـــن الرهبـــان والبطريرك ، وضدّ الداوية ، فيما كان أغدق المنح على الفرسان التيوتون والبـــيازنة[3].

وأنجز ترتيباتـــه بسرعة ، لكي يعود صوب إيطاليا ، حيث كان الجيش البابوي تحت قيادة حميـــه ، جون دي بريين ، يقوم بغزو ممتلكاتـــه وأراضيـــه[4].

وفي الخامس من شهر جمادى الآخرة سنة ٦٢٦هـ/الأول من أيار سنة ١٢٢٩م ، أبحر الإمبراطور فردريك الثانـــي من ميناء عكّا ، قاصداً جزيرة قبرص حيث مكث فيـــها عدّة

---

١) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ - الموسوعة الشامية - ج٤٥ - ص ٨٩٤. فيليب دي نوفـــار : الموســـوعة الشامية - ج٣٥ - ص ٤٨.

٢) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ - الموسوعة الشامية - ج٤٥ - ص ٨٩٤. فيليب دي نوفـــار : الموســـوعة الشامية - ج٣٥ - ص ٤٨.

٣) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية - ج٣٥ - ص ٤٨-٤٩.

Steven Runciman: A History of The Crusades, 3 vols, Cambridge, 1988, volume III, pp.188,189.

Annie E. Keeling: the Nine Famous Crusades of the Middle Ages, London , 1889, pp. 236,237.

٤) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية - ج٣٥ - ص ٤٩. عاشور : الحركة الصليبـــية - ج٢ - ص ٨٠٤.

George W. Cox: The Crusades , London, 1874, pp. 184,185.

Paul Alphandéry: La Chrétienté L'idée De Croisade , Paris, 1959, pp. 188,189.

أيّام ، ثم غادرها إلى إيطاليا ، فوصل إليـــها في أوائل شهر حزيران من الـــسنة نفـــسها ، وبذلك انتـــهت الحملة الصليبـــية السادسة[1].

١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري — الموسوعة — ج٢١ — ص ٣٦٨. فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية — ج٣٥ — ص ٤٩. ابن واصل : مفرّج الكروب — ج٤ — ص ٢٤٦. المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملـــوك — ج١ — ق١— ص ٢٣٢. عاشور : الحركة الصليبـــية — ج٢ — ص ٨٠٤.

Ronald C. Finucane: Soldiers of The Faith, London, 1983, p. 27.
Jean Richard: The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 239.

الفصل الخامس
الأيوبـيون والحملة الصليبـية السابعة

- وفاة السلطان الكامل والخلافات بـين أفراد الأسرة الأيوبـية
- حملة سنة ١٢٣٩ م الفرنسية
- الخوارزمية واسترداد البـيت المقدس
- نـهاية الخوارزمية
- الحملة الصليبـية السابعة ، أسبابـها :

الاستعداد للحملة وإبحارها

وصول الحملة إلى دمياط والاستيلاء عليها

زحف الحملة نحو القاهرة

هزيمة الصليبـيين في المنصورة

استسلام الصليبـيين وأسر لويس التاسع

مقتل توران شاه ونـهاية الدولة الأيوبـية في مصر

تسليم دمياط وجلاء الصليبـيين عن مصر

أسباب إخفاق الحملة الصليبـية السابعة

– وفاة السلطان الكامل والخلافات بين أفراد الأسرة الأيوبية :

كانت وفاة الكامل محمد ، في ٢١ شهر رجب سنة ٦٣٥ هـ / ١١ شهر آذار سنة ١٢٣٨ م[١] ، سبباً رئيسياً في تفاقم الخلافات بين أفراد الأسرة الأيوبية ، وازدياد حدّتها ، فقد تمت مبايعة العادل الثاني بن الكامل محمد (٦٣٥ – ٦٣٧ هـ / ١٢٣٨ – ١٢٤٠م) سلطاناً على مصر[٢] ، وعمره لم يتجاوز – حينذاك – العشرين عاماً ، لكن أخاه الصالح نجم الدين أيوب الذي لم يكن راضياً عمّا حدث ، أخذ في مراقبة تطورات الأوضاع ، ربما حتى تسنح له فرصة مواتية ينفذ من خلالها لتحقيق طموحاته .

كان الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن الملك العادل ، نائباً عن العادل الثاني في حكم دمشق ، وقد سوّلت له نفسه الاستقلال عن ابن عمه بملك دمشق والعصيان بها ، لكن العادل الثاني هدّد بالزحف نحو المدينة ، واعتقال الملك الجواد ، مّما اضطر هذا الأخير إلى التطلع صوب نجم الدين أيوب – صاحب الجزيرة – وعرض عليه تسليمه دمشق ، مقابل تعويضه بسنجار والرقة وعانة ، ولم يتوانَ نجم الدين أيوب عن قبول العرض ، وسار فوراً صوب دمشق ، حيث دخلها في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٣٦ هـ / شهر كانون الثاني سنة ١٢٣٩ م[٣].

وكان نجم الدين أيوب يدرك تماماً أن دمشق ليست سوى خطوة قرّبته من الهدف الأغلى ، وهو الاستيلاء على مصر ، والتربع على عرش الدولة الأيوبية ، وكان يدرك –

---

١) ابن خلكان : وفيات الأعيان – الموسوعة – ج ٢١ – ص ٨٣. ابن واصل : التاريخ الصالحي – الموسوعة – ج٢١ – ص ٥٩٨. ابن الوردي : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ٢٣٨. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ٢٥٨. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب – ص ٣١٩. ابن سباط : تاريخ ابن سباط – ج١ – ص ٣١٣.

٢) ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٥ – ص ١٧٤. أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر – الموسوعة – ج٢٢ – ص ١٤٦. ابن كثير : البداية والنهاية – ج١٣ – ص ١٧٢. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٢٦٧. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة – ج٦ – ص ٣٠٣. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر نفسه – ص ٣٦٦.

٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٣٢٩. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٢٠٣–٢٠٤. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٢٧٩.

أيضاً – أن المواجهة مع مصر وصاحبـها العادل الثاني أمر لا بدّ منـه ، بعد أن انتـزع دمشق منـه ، وأشهر عداوتـه له ، لذا فإنـه ما لبث أن خرج من دمشق في ٢٨ رمضان سنة ٦٣٦ هـ / ٤ أيار سنة ١٢٣٩م ، على رأس خمسة آلاف جندي ، متوجهاً إلى مصر ، ووصل بعد عيد الفطر إلى نابلس ، فدخلها ونـزل في دار المعظم عيسى[١].

وتواترت كتب الأمراء في مصر ، على الصالح أيوب ، يستدعونـه لتولي الحكـم ، ويعدونـه بالمساعدة ، لكن نجم الدين أيوب فضّل التمهّل في سيره ، والتوقف في نـابلس «خوفاً أن لا يكون لما كاتبوه بـه حقيقة ، وعلم أن عسكره لا يقوم بحرب عسكر مصر ، فتوقف حتى تتبـين له الأمور»[٢].

في مقابل ذلك ، انتـهز الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل ، صاحب بعلبك ، والمجاهد أسد الدين ، صاحب حمص ، خروج نجم الدين أيوب بعسكره صـوب مصر «وليس في دمشق من يمنع عنـها ولا يذبّ»[٣] فتوجّها نحـو المدينـة وهاجماهـا ، واستوليا عليها في ٢٧ صفر سنة ٦٣٧ هـ / ٢٨ أيلول سنة ١٢٣٩م[٤] ، مما أحـرج نجـم الدين أيّـوب أمام جيشه « ففسدت نـيات العسكر ، وعلموا أنـهم لا يمكنـهم المقام معه ، والبلاد قد صارت لغيره ، وأيضاً فأهاليهم وأولادهم بدمشق»[٥] ولم يبقَ معه سـوى عدد ضئيـل من مماليكه وأمرائه ، فالتجأ إلى نابلس ، ثم سار صوب الكرك ، ولما وصـل إليها ، اعتقله صاحب الكرك ، الملك الناصر داود ، ابن الملك المعظم ، وأودعه ومن معه في سجن القلعة[٦]. ولما وصل خبر اعتقال نجم الدين أيّوب إلى مصر ، أرسل العادل الثانـي

---

١) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٢١٣. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة الشامية – ج ٢٢ – ص ١٥٠. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٢٨٣.

٢) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٢١٥.

٣) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٢٢٩.

٤) أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٣٣١. أبو الفـداء : الموسـوعة – ج ٢٢ – ص ١٥١. ابن الوردي : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٢٤١.

٥) ابن واصل : المصدر المتقدّم – ج٥ – ص ٢٣٢.

٦) أبو الفداء : الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٥٢. ابن الوردي : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٢٤٢. ابـن سـباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٣١٩.

إلى ابن عمه الناصر داود أن يسيّر إليه أخاه نجم الدين ، فلم يجبه إلى طلبه[١] ، مّما يدفعنا إلى القول ، إن الناصر داود قد أراد من اعتقال نجم الدين حمايته من خطر أخيه العادل الثاني ، وعمه الملك الصالح إسماعيل ، بدليل رفضه تسليم نجم الدين إليهما . وإكرامه الزائد له في المعتقل[٢] ، ولكن هذه الحماية لم تكن عبثاً ، أو حباً بالصالح أيوب ، بل بقصد الاستيلاء على دمشق ، إن لم يكن أكثر من ذلك ، وزيادة ملكه ونفوذه . ويؤكّد ما ذهبنا إليه إقدام الناصر داود على الإفراج عن نجم الدين أيوب ، والاتفاق معه على مهاجمة مصر ، على أن تكون لنجم الدين أيوب ، فيما يأخذ الناصر داود بلاد الشام والجزيرة ، وأمر هذا الأخير بقطع الخطبة للعادل الثاني ، وخطب للملك الصالح نجم الدين أيوب[٣].

ويبدو أن الناصر داود كان لجأ إلى مفاوضة الصالح أيوب بعد أن خاب أمله في استجابة العادل الثاني إلى مطالبه ، بدليل ذهاب الناصر داود إلى خيمة العادل الثاني التي تم اعتقاله فيها – فيما بعد – وعاتبه بالقول : «كيف رأيت ما أشرت به عليك»[٤] مما يعني أن عرضاً كان الناصر داود قدمه إلى العادل الثاني ، ورفضه هذا الأخير ، فاضطر الناصر داود إلى استخدام الصالح أيوب كوسيلة ، علّه يحقق بها غرضه .

وسار الاثنان ، الناصر داود ونجم الدين ، فوصلا غزة ، بينما خرج العادل الثاني وجيشه قاصدين بلاد الشام ، فحطّ رحله في بلبيس ، ومنها أرسل إلى الصالح إسماعيل – صاحب دمشق – الذي زحف وصاحب حمص ، الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد ، للإطباق على الناصر داود ونجم الدين أيوب ، ومحاصرتهما[٥].

---

١) ابن واصل : المصدر المتقدم – ج٥ – ص ٢٤٤. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٣١٠. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدّم – ص ٣٧٣.

٢) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٢٤٢. المقريزي : المصدر المتقدم – ج١ – ق٢ – ص ٢٨٩. ابن سباط : المصدر المتقدّم – ج١ – ص ٣١٩.

٣) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٢٥٩. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٢٩٤. ابن سباط : المصدر نفسه – ج١ – ص ٣٢٠.

٤) ابن أيبك : كنز الدرر – ج٧ – ص ٣٤٠. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٢٩٧.

٥) أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٥٤. ابن الوردي : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٢٤٣. ابن سباط : المصدر نفسه – ج١ – ص ٣٢١.

وأمام تهافت حشود العساكر من جهة مصر ، ومن جهة دمشق ، وفي ظل عدم ورود أي خبر إيجابي أو مشجع من قبل أمراء مصر ، وجد الناصر داود ونجم الدين أيوب أن من الأسلم لهما الرجوع إلى نابلس ، والتحصن بها[1] ، ولكن طارئاً ما كان وقع في مصر بدّل مجرى الأحداث لصالحهما . ذلك أن وضع العادل الثاني في مصر ازداد تدهوراً بسبب سوء تدبيره وانصرافه إلى اللهو واللعب ، وإعراضه عن أكابر الدولة وعظمائها[2] ، فانتهز المماليك الأشرفية والكاملية فرصة خروج العادل الثاني لملاقاة الناصر داود ونجم الدين أيوب «فركبوا وأحاطوا بدهليز الملك العادل ، وانتهبوا ما حوله ، ورموا الدهليز ، وجعلوا الملك العادل في خيمة صغيرة ، ووكلوا به من يحفظه ، فلم يتحرك أحد من الأمراء الأكراد ولا غيرهم ، ولزم كلٌّ وِطاقه»[3] .

وتم استدعاء نجم الدين أيوب لتولي حكم مصر ، فخفّ مسرعاً بصحبه الناصر داود ، ووصلا إلى بلبيس ، وتسلم نجم الدين أخاه العادل الثاني ، وصار في قبضته ، ثم سار صوب مصر ، ودخل القاهرة في ٢٤ شهر ذي القعدة سنة ٦٣٧ هـ / ١٧ شهر حزيران سنة ١٢٤٠ م ، ليغدو سلطان مصر ، وسط فرح أهلها وسعادتهم[4] .

- حملة سنة ١٢٣٩ م الفرنسية :

كانت اتفاقية يافا ، التي عُقِدَتْ بين الكامل محمد وبين الإمبراطور فردريك

---

١) المقريزي : المصدر المتقدّم – ج١ – ق٢ – ص ٢٩٤. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب – ص ٣٧٤. ابن سباط : المصدر نفسه – ج١ – ص ٣٢١.

٢) ابن واصل : مفرج الكروب – ج٥ – ص ٢٦٢. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٢٩٤. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر نفسه – ص ٣٦٦.

٣) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٢٦٣.

٤) أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٣٣٢. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٢٦٦. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٥٤. ابن الوردي : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٢٤٣. ابن كثير : المصدر المتقدّم – ج١٣ – ص ١٧٧. المقريزي : المصدر المتقدّم – ج١ – ق٢ – ص ٢٩٧. ابن تغري بردي : المصدر المتقدّم – ج٦ – ص ٣١١. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم – ص ٣٧٤. ابن سباط : المصدر المتقدّم – ج١ – ص ٣٢١-٣٢٢.

الثانـي ، قد انتـهت مدتـها سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ م ، لذا سرعان مـا دعـا البابـا غريغوري التاسع (١٢٢٧ – ١٢٤١م) إلى حربٍ صليبيـة جديدة ، ربمـا أراد منـها استعادة مدينة بـيت المقدس ، خالصةً للصليبيـين دون مشاركةٍ إسلامية ، وقد استجاب لدعوتـه عدد كبـير من نبلاء وفرسان فرنسا ، على رأسهم ثيبـوت الرابـع ، كونـت شامبـين وملك نافار ، وهيو الرابع ، دوق بـيرغندي ، وبـيير موكليرك ، كونت أوف بريتانـي ، والكونت هنري دي بار ، وعموري كونت أوف مونتفورت[1].

وكان ثيبـوت الرابع أول الواصلين إلى عكا ، ومعه ألف وخمسمائة فـارس ، عـدا المشاة ، وذلك في ٢ شهر صفر سنة ٦٣٧ هـ / ٣ أيلول سنة ١٢٣٩ م[2].

واجتمع الصليبيـون في عكا لتحديد مسار زحفهم ، واتفقوا على مهاجمة عسقلان ، وهدم تحصيناتـها والاستيلاء عليها ، ثم السير – بعد ذلك – صوب دمشق.

والواقع أن الصليبـيين بقرارهم هذا ، كانوا قد افتقروا إلى بُعد نظر ، فهم لم يعملوا على استغلال خلافات الملوك الأيوبـيين ونـزاعاتـهم ، بل على العكس ، قاموا بكسب عداء العادل الثانـي الذي كان لا يزال سلطان مصر ، وعسقلان جزء من أملاكه ، كمـا استفزّوا الصالح إسماعيل ، صاحب دمشق.

وتحرك الصليبـيون تجاه عسقلان ، واستولوا في طريقهم على قافلة تجارية إسـلامية قرب نـهر الأردن ، كانت في طريقها إلى دمشق ، مما أثار نقمة الناصر داود ، صـاحب الكرك[3] ، بـينما تجرّأت جماعة صليبـية كبـيرة علـى الانشقاق عـن بقيـة الجـيش الصليبـي ، وعصيان أوامر ثيبوت الرابع قائد الحملة ، حيث سارت تلك الجماعة نحو غزة

---

١) فيليب دي نوفار : الموسوعة – ج ٣٥ – ص ٢٠٣. ويقول : «وعرفت هذه الصليبـية باسم صليبـية البارونات لأنـه وجد بـها عدد كبـير جداً من البارونات». عاشور : الحركة الصليبـية – ج٢ – ص ٨١٧. رينـيه غروسيه : الحروب الصليبـية – ترجمة : أحمد إيبش – دمشق – ٢٠٠٢م – ص ٨٦. طقوش : المرجع المتقدم – ص ٣٦٦.

٢) فيليب دي نوفار : الموسوعة – ج ٣٥ – ص ٢٠٣. عاشور : المرجـع نفـسه – ج٢ – ص ٨١٧. طقـوش : المرجع نفسه – ص ٣٦٦.

٣) د. يوسف غوانمة : إمارة الكرك الأيوبـية – عمّان – ١٩٨٢م – ص ٢٥٦. عاشور : المرجع نفـسه – ج٢ – ص ٨١٨. طقوش : المرجع نفسه – ص ٣٦٧.

من أجل التصدي للقوة العسكرية ، التي كان أرسلها العادل الثانـــي للدفاع عن عسقلان ، وبذا تخلى الصليبـــيون عن حذرهم وحرصهم ، فواجهوا الجيش المصري بالقرب من غزة ، في ١٤ ربـــيع الأول سنة ٦٣٧هـ / ١٤ تشرين الأول سنة ١٢٣٩ م ، وأبـــيد معظم أفراد تلك الجماعة الصليبـــية ، فقُتِلَ منـــهم ألف وثمانمائة ، فيما أُسِرَ عدد من جنودهم ، وبعض زعمائهم ، وسيقوا جميعاً إلى القاهرة[1]. وعندما وصلت أخبار تلك الفاجعة الـــتي حلـــت بالصليبـــيين ، إلى المحتشدين منـــهم عند أسوار عسقلان اضطر هؤلاء إلى الانـــسحاب إلى يافا ، ومنـــها إلى عكا[2].

ويبدو أن الناصر داود ، صاحب الكرك ، كان وجد الفرصة مواتيـــة بعـــد هزيمـــة الصليبـــيين بالقرب من غزة ، فأراد أن يقتصّ منـــهم لمهاجمتـــهم القافلة الإسلامية بالقرب من نـــهر الأردن ، وعملهم في القدس على بناء قلعة ، جعلوا برج داود أحـــد أبراجهـــا ، مخالفين بذلك بنود اتفاقية يافا ، فسار – أي الناصر داود – يصحبـــه جيشه حتى وصل إلى القدس ، وشرع بمهاجمة القلعة التي بناها الصليبـــيون ، فرماها بالمجانـــيق ، وضغط عليهـــا بشدة حتى سلمت إليه بالأمان ، فقام بـــهدمها ، وهدم برج داود ، ثم استولى على القدس ودخلها ، وذلك في شهر جمادى الأولى سنة ٦٣٧ هـ / كانون الأول سنة ١٢٣٩م[3].

وهنا يشير بعض المؤرخين العرب إلى أن الناصر داود أجلى الصليبـــيين عن القدس ،

---

١) متى باريس : التاريخ الكبـــير – الموسوعة الشامية – ج ٤٦ – ص ٣٣٥. فيليب دي نوفار : الموسوعة – ج ٣٥ – ص ٢٠٣-٢٠٤. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٥ – ص ٢٦٧-٢٦٨. المقريزي : السلوك – ج١ – ق٢ – ص ٢٩٢.

Hans Eberhard Mayer: The Crusades , Oxford University Press , 1988 , p. 257.

٢) نوفار : الموسوعة – ج ٣٥ – ص ٢٠٤. عاشور : المرجع المتقدم – ج٢ – ص ٨١٩. طقوش : المرجع المتقـــدم – ص ٣٦٨.

Hans Mayer : Ibid. p. 257

٣) ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٥ – ص ٢٤٦-٢٤٧. أبو الفداء : المختـــصر – الموســـوعة – ج ٢٢ – ص ١٥٣. ابن الوردي : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٢٤٢. المقريزي : المصدر المتقدّم – ج١ – ق٢ – ص ٢٩١. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب – ص ٣٥١. ابن سباط : المصدر المتقدّم – ج١ – ص ٣١٩.

وطهّرها منـــهم[1] ، وأحسب أن ذلك لم يحدث فعلاً ، وإنما كان ما ذكرناه من دخـــول الناصر القدس وهدمه برج النبـــي داود والقلعة التي بناها الصليبـــيون ، ولكن المــؤرخين بالغوا في ذكر الخبر ربما بدافع غبطتـــهم لعمل الناصر داود وسط تنـــازلات الأيوبـــيين واستـــهانتـــهم بمكانة القدس وحرمتـــها ، أو ربّما رأى المؤرخين في دخول الناصـــر إلى القدس بشرى فتح قريب يعيد بـــه أمجاد صلاح الدين ومعركة حطين ، ودليل آخر على أن الناصر داود لم يُخرِج الصليبـــيين من القدس هو عدم ذكر أيّ من المصادر الغربـــية — التي بـــين أيدينا — ذلك الخبر ، وهي التي لا تنفك عن تلقف كل ما يمس كيانـــهم في الشرق لتحرك بـــه مشاعر الغرب الأوربـــي وعواطفه ، هذا إلى أن المصادر العربـــية لم تتفق على ذكر الخبر كاملاً ، ولو أن الناصر داود ، كان رحّل الصليبـــيين فعلاً لمـــا توانـــت تلـــك المصادر — سواء المعاصرة أم المتأخرة — عن تأكيد ما حدث[2].

وأعتقد أن ما قام بـــه الناصر داود كان مجرّد ردّة فعل ظهرت إثر مهاجمة الصليبـــيين للقافلة التجارية الإسلامية قرب نـــهر الأردن ، ولو كانت غيرتـــه على القدس وحرصـــه عليها كبـــيرة جداً لما أسهم وتحالفه الأيوبـــي - فيما بعد - في التنازل عنـــها للصليبـــيين للحصول على دعمهم ضد الصالح أيوب .

إذا كان الصليبـــيون قد أفناهم تـــهوّرهم على يد العساكر المصرية بالقرب من غزة ، ورحلوا عن القدس على يد الناصر داود ، فإن ذلك كان يعنـــي إخفاق الجموع الصليبـــية الفرنسية — التي قدمت مؤخراً — في تحقيق أي مكاسب جديدة ، بل أســـهمت في فقـــدان القدس وعودتـــها إلى حوزة المـــسلمين ، لكـــن مـــشاحنات ملـــوك بنـــي أيـــوب ،

---

1) ابن واصل : المصدر نفسه — ج٥ — ص ٢٤٦-٢٤٧. المقريزي : المـــصدر نفـــسه — ج١ — ق٢ — ص ٢٩١. الحنبلي : المصدر نفسه — ص ٣٥١.

2) أبو شامة : الذيل على الروضتين — الموسوعة - ج ٢٠ — ص ٣٣١. وهو لا يورد أي ذكر لهـــذا الخـــبر ضـــمن حوادث سنة ٦٣٧ هـ ، على الرغم من أنـــه مؤرّخ معاصر لتلك الحقبة. أبو الفداء : المختصر — الموســـوعة - ج ٢٢ — ص ١٥٣. ويكتفي بالقول : «قصد الناصر داود القدس ، ..... ، فحاصرها وفتحهـــا وخـــرب القلعـــة وخرب برج داود أيضاً». ابن أيبك : كنـــز الدرر — ج٧ — ص ٣٤٠. بل هو يـــذكر أن الناصـــر داود ســـلّم القدس للفرنج. ابن الوردي : المصدر المتقدم — ج٢ — ص ٢٤٢. ابن سباط : المـــصدر المتقـــدم — ج١ — ص ٣١٩.

ونـــزاعاتـــهم الحادة ، كانت أوجدت ثلمة واسعة نفذ منـــها الـــصليبـــيون ، وأنجـــزوا بعض مآربـــهم فقد مر بنا الاتفاق الذي يقضي بمساعدة الناصر داود لنجم الدين أيـــوب لاعتلاء عرش مصر ، مقابل تملك الناصر داود – نفسه – لبلاد الشام والجزيرة ، مما أثـــار حنق الصالح إسماعيل ، صاحب دمشق ، فتطلع إلى ثيبوت الرابع ، وطلـــب مـــساعدتـــه ، ونصرتـــه ضد نجم الدين أيوب والناصر داود ، مقابل تنازله عن صفد وقلعـــة الـــشقيف ، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها ، وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل[1].

وبادر الصالح إسماعيـــل إلى تسليم حـــصنـــي صـــفد والـــشقيف وأعمالهمـــا إلى الصليبـــيين ، مما أثار غضب المسلميـــن واستنكارهم[2] ، ولكن الصالح إسماعيـــل أصـــمّ أذنـــيه ، ومضى وحلفاؤه صوب الناصر داود ، فأوقعوا بـــه هزيمة نكراء اضطرتـــــه إلى الفرار إلى الكرك[3].

ولّما تناهى إلى نجم الدين أيوب خبر مسير الحشد صوب مـــصر ، خـــرج وجيـــشه لمواجهتـــهم ، وكان المصاف قرب غزة ، ولكن عساكر بلاد الشام تحولـــت إلى جانـــب عساكر مصر ، وقاموا جميعاً بالهجوم على الصليبـــيين «فهزموهم وأسروا منـــهم خلقاً لا يحصون»[4] وذلك سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠م . وما لبث نجم الدين أيوب أن عقد صلحاً مع الصليبـــيين ، وأطلق سراح أسراهم الذين أخذوا بالقرب من غزة[5] ، والمؤكد أنـــه كـــان فعل ذلك لضمان حياد الصليبـــيين ، فيتفرغ لنـــزاعاتـــه مع ملوك أسرتـــــه الأيوبـــية عامةً ، ومع الصالح إسماعيل – صاحب دمشق – خاصةً .

---

١) فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية – ج ٣٥ – ص ٢٠٦. ابن واصل : المـــصدر نفـــسه – ج٥ – ص ٣٠٢. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٠٣. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر نفسه – ص ٣٢٥.

٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٣٣٤. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٥٨. ابن سباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٣٢٤.

٣) المقريزي : السلوك – ج١ – ق٢ – ص ٣٠٤. يوسف غوانمة : المرجع المتقدّم – ص ٢٦٤. عاشور : الحركـــة الصليبيـــة – ج٢ – ص ٨٢١.

٤) المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٠٥.

٥) متى باريس : التاريخ الكبـــير – الموسوعة – ج ٤٦ – ص ٣٩١. فيليب دي نوفار : الموسوعة – ج ٣٥ – ص ٢٠٧. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٠٥.

ويبدو أن قادة الحملة الفرنسية اكتفوا بما أنجزوه في رحلتهم ، فغادروا عكا عائدين إلى بلادهم في شهر صفر سنة ٦٣٨ هـ / أيلول سنة ١٢٤٠م[١].

ولم تكد جموع الفرنسيين تودع عكا ، حتى وصلت إليها جموع إنكليزية ، كان يقودها الإيرل رتشارد أوف كورنوول ، أخو هنري الثالث ملك إنكلترا ، في ٢٢ ربيع الأول سنة ٦٣٨ هـ / ١١ تشرين الأول سنة ١٢٤٠م[٢] ، غير أن إقامة رتشارد وصحبه كانت قصيرة جداً ، إذ عقد معاهدة مع نجم الدين أيوب ، أكد فيها إنجازات الحملة الصليبية الفرنسية ، ثم غادر عكا في ١٩ شوال سنة ٦٣٨ هـ / ٣ شهر أيار سنة ١٢٤١م[٣].

- الخوارزمية واسترداد البيت المقدس :

لم يكن باستطاعة الملك الصالح أيوب التخلص من عمه الصالح إسماعيل ، صاحب دمشق ، لوجود ابنه المغيث عمر مسجوناً لديه ، ولكن أمام إخفاقه في حلّ هذه الأزمة سياسياً ، اضطر إلى الاستعانة بالخوارزميين[٤] ، فيما لجأ الصالح إسماعيل ، والناصر داود ، صاحب الكرك ، والمنصور إبراهيم ، صاحب حمص ، إلى الاتصال بالصليبيين ، وطلب نجدتهم ، مقابل التنازل لهم عن القدس وطبرية وعسقلان ، بل إنّ الصالح إسماعيل وعد

---

١) متى باريس : التاريخ الكبير – الموسوعة - ج ٤٦ – ص ٣٩٢. عاشور : المرجع المتقدّم – ج٢ – ص ٨٢١.
Hans Mayer: Op. cit, p. 257.

٢) متى باريس : التاريخ الكبير – الموسوعة - ج ٤٦ – ص ٢٨٣. فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية - ج ٣٥ – ص ٢٠٧. رسائل صليبية من الأرض المقدسة : الموسوعة - ج ٣٦ – ص ٣٦٠. عاشور : المرجع نفسه – ج٢ – ص ٨٢١.

٣) متى باريس : التاريخ الكبير – الموسوعة - ج ٤٦ – ص ٤٥٥. فيليب دي نوفار : الموسوعة الشامية - ج ٣٥ – ص ٢٠٨. رسائل صليبية من الأرض المقدسة : الموسوعة - ج ٣٦ – ص ٣٦٠.
Grousset: Op. cit, III, p. 394.

٤) ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٥ – ص ٣٣٦. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة - ج ٢٢ – ص ١٦٢. المقريزي : السلوك – ج١ – ق٢ – ص ٣١٥.

الصليبـــيين بإعطائهم جزءاً من مصر إن هم ساعدوه في تملكها[1].

وهكذا باتت القدس — ليس إرثاً ثقيلاً وحسب — بل هدية نفيسة تمـــنح إلى أعـــداء الأمة لكسب ودّهم ، واستجداء نصرتـــهم ، ضد أفراد الأسرة الواحدة ، فمن هو الـــذي يعطي زعيماً ما ، حق التفريط بالمقدسات والأراضي ، لأجل السلطة وزيادة النفوذ والثروة.

وشرع الصليبيـــون في عمارة قلعتي طبرية وعسقلان ، ثم دخلوا القدس صيف ســـنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م[2] ، وقد صدف زيارة ابن واصل للمدينة في السنة نفسها ، وبعد دخول الصليبـــيين إليها ، فيقول «ودخلت البـــيت المقدس ورأيت الرهبـــان والقـــسوس علـــى الصخرة المقدسة ، وعليها قنانـــي الخمر برسم القربان ، ودخلت الجامع الأقـــصى وفيـــه جرس معلّق ، وأبطل بالحرم الشريف الأذان والإقامة»[3].

كانت جموع الخوارزمية قد تبعثرت تبحث عن خلاصها ورزقها بعد مقتل سلطانـــها جلال الدين منكبرتي ، سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١م ، واســـتيلاء المغـــول علـــى خـــوارزم وخراسان[4] ، لذا أخذت تعرض خدماتـــها على من يرغب في شرائها من حكام المسلمين حينذاك .

وما كادت دعوة الصالح أيوب تصل إلى الخوارزمية ، حتى اجتاح عشرة آلاف فارس شمالي بلاد الشام ، بعد ما عبروا نـــهر الفرات كالسيل الجارف ، وعند اقترابـــهم من تخوم دمشق أغلق الصالح إسماعيل أبواب مدينتـــه وتحصن بـــها ، فساروا صوب الجليل حيـــث استولوا على طبرية ونابلس ، ويـــمّـــموا وجوههم صوب القـــدس ، الـــتي غادرتـــــها حاميتـــها الصليبـــية مؤثرةً النجاة بنفسها ، وتركت المدينة تواجه قدرها لوحدها ، ودخل الخوارزمية القدس ، في أوائل شهر صفر ســـنة ٦٤٢ هـ / تمـــوز ١٢٤٤ م ، واســـتباحوا

---

١) ابن الوردي : المصدر المتقدم — ج٢ — ص ٢٤٩. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم — ج٦ — ص ٣٢٢. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم — ٣٧٥.

٢) المقريزي : المصدر المتقدم — ج١ — ق٢ — ص ٣١٥. ابن الوردي : المصدر نفسه — ج٢ — ص ٢٤٩. ابـــن تغري بردي : المصدر نفسه — ج٦ — ص ٣٢٢.

٣) ابن واصل : مفرّج الكروب — ج٥ — ص ٣٣٣.

٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ — ج ١٢ — ص ٣٩٠-٣٩٤. المقريزي : السلوك — ج١ — ق١ — ص ٢٤١. ابن سباط : المصدر المتقدم — ص ٣٠١-٣٠٢.

سكانـــها ، ونـــهبوا دورها ، ثم اتجهوا صوب غزة للاجتماع بالعسكر المصري الذي كان أرسله السلطان الصالح أيوب(١).

وحشد الصليبـــيون جيشاً كبـــيراً ، اشترك فيه فرسان الداوية والإسبتارية والفرسان التيوتون ، كما أرسل بوهيموند الخامس (١٢٣٣ – ١٢٥١ م) ، أمير أنطاكية ، عدداً من الفرسان ، وصحب الجيش ، روبرت بطريرك بـــيت المقدس ، ورئيس أســـاقفة صـــور ، وأسقف الرملة ، واشترك أيضاً فيليب مونتفورت صاحب تبنـــين وصور ، ووالتر بـــريين ، كونت يافا ، وصحبـــهما عدد كبـــير من الفرسان(٢).

وانضمّ إلى هـــذه القوات الصليبـــية المنصور إبراهيم ، صاحب حمـــص ، وقـــوات دمشق ، وفرقة من الفرسان ، كان أرسلهم الناصر داود ، صاحب الكرك(٣).

وسارت القوات المتحالفة من عكا باتجاه غزة ، حيث كان ينتظرهم الجيش المصري ، المكون من خمسة آلاف مقاتل ، فضلاً عن الخوارزميين ، «ووقع المصاف بـــين الفـــريقين بظاهر غزة ، فَكُسِرَ الملك المنصور ومن معه كسرة عظيمة»(٤) ، وقدر عدد قتلى القـــوات المتحالفة بحوالي ثلاثين ألفاً ، فيما أسر أكثر من ثمانمائة مقاتل ، ولم ينج منـــهم إلا ما ندر ، وكانت تلك المعركة في يوم الاثنـــين ١٢ جمادى الأولى سنة ٦٤٢ هـ / ١٧ تشرين الأول سنة ١٢٤٤م(٥).

---

١) أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٣٤٢. ابن واصل : مفرّج الكـــروب – ج٥ – ص ٣٣٦-٣٣٧. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٦٣.

٢) طقوش : المرجع المتقدم – ص ٣٧٥. يوسف غوانمة : المرجع المتقدّم – ص ٢٦٩. عاشور : المرجع المتقدّم – ج٢ – ص ٨٢٦.

٣) أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٦٣. المقريزي : السلوك – ج١ – ق٢ – ص ٣١٧. ابـــن تغري بردي : النجوم الزاهرة – ج٦ – ص ٣٢٣.

٤) ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٥ – ص ٣٣٨.

٥) أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٣٤٣. ابن واصل : - المصدر نفسه – ج٥ – ص ٣٣٩. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٦٣. ابن الوردي : المـــصدر المتقـــدم – ج٢ – ص ٢٤٩. ابن كثير : المصدر المتقدم – ج١٣ – ص ١٨٨. المقريزي : الـــسلوك – ج١ – ق٢ – ص ٣١٧. ابـــن تغري بردي : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٣٢٣. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلـــوب – ص ٣٧٦. ابـــن سباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٣٣١.

كانت موقعة غزة أعظم كارثة أصابت الصليبيين منذ معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، إذ فقدوا معظم جيشهم ، ولم يصل منه إلى عكا ويافا سوى فلول ضئيلة العدد ، في حين أن الموقعة نفسها ، كانت فأل خير على الصالح نجم الدين ، حيث سار الجيش المصري فاستولى على القدس والخليل وبيت جبريل والأغوار ، ولم يبق بيد الملك الناصر داود إلا الكرك والبلقاء والصلت وعجلون[1].

ثم أرسل الصالح نجم الدين أيوب حملة ضخمة بقيادة الصاحب معين الدين ابن شيخ الشيوخ ، لمهاجمة دمشق وانتزاعها من الصالح إسماعيل ، الذي حوصر والمنصور إبراهيم – صاحب حمص – داخل المدينة ، ولم يتمكنا من مقاومة الحصار ، لكثرة العساكر المصرية ، وانعدام المؤن ، وتخلي الحلبيين عنهم ، فضلاً عن شدة الحصار ، فاضطر إلى مراسلة الصاحب معين الدين ، وتم الاتفاق على تسليم دمشق ، على أن يسمح للصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم بالخروج سالمين ، وأن يعوض الصالح إسماعيل عن دمشق ببعلبك وبصرى وأعمالهما ، وأن يكون للمنصور حمص وتدمر والرحبة[2].

وبذا دخلت قوات نجم الدين أيوب مدينة دمشق ، في يوم الاثنين ٨ جمادى الأولى سنة ٦٤٣ هـ / ٢ تشرين الأول سنة ١٢٤٥م[3] ، وقدم إلى دمشق – في الوقت نفسه – صاحب قلعة عجلون ، معلناً خروجه عن طاعة الناصر داود ، وتسليمه قلعته إلى نواب الصالح نجم الدين أيوب[4].

---

١) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٣٤٠. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣١٨. غوانمة : المرجع المتقدّم – ص ٢٧١.

٢) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٣٤٨. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٦٥. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٢١.

٣) المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٢١. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم – ص ٣٧٦. ابن سباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٣٣٤.

٤) المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٢١. غوانمة : المرجع المتقدم – ص ٢٧١.

– نهاية الخوارزمية :

كان الخوارزميون يأملون خيراً من الصالح نجم الدين أيوب ، بعد أن أعانوه ضد أعدائه ، ومكنوه من إزاحة عمه الصالح إسماعيل ، والاستيلاء على دمشق ، وظنوا أن الصالح نجم الدين «يقاسمهم البلاد»[1] ، ويشاركهم «في الأخباز العظيمة»[2] ، لكن نجم الدين لم يوجه دعوته للخوارزمية للقدوم إلى مصر ، ونائبه معين الدين ابن شيخ الشيوخ منعهم من دخول دمشق ، وأغلق أبوابها في وجوههم[3] ، فاتفق الخوارزمية على العصيان ، والخروج عن طاعة الصالح نجم الدين ، واستطاعوا استمالة أحد أكبر أمرائه في غزة ، وهو الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي ، كما كاتبوا الناصر داود – صاحب الكرك – والصالح إسماعيل[4].

وما لبث الناصر داود ، أن انتهز فرصة هذا الاتفاق ، واستولى على نابلس والقدس والخليل والأغوار وبيت جبريل[5] ، ثم سارت حشود الخوارزمية والناصر داود والصالح إسماعيل صوب دمشق ، وضربت عليها الحصار ، لكن الصالح أيوب ، استطاع إعمال عقله ، وإنقاذ حيلته ، وتمكن من استدراج ركن الدين بيبرس إلى مصر ، واعتقله في قلعة الجبل ، كما استطاع كسب ولاء المنصور إبراهيم صاحب حمص ، وعساكر حلب ، التي قدمت إلى حمص لتكون بأمر صاحبها[6].

ولما بلغ الخوارزمية مسير الصالح نجم الدين من مصر ، متجهاً نحوهم ، وكذلك

---

١) ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٥ – ص ٣٥٠. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٢٢.

٢) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٣٥٠. ابن تغري بردي : المصدر المتقدّم – ج٦ – ص ٣٢٤.

٣) أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٦٥. المقريزي : المصدر المتقدم – ج١ – ق٢ – ص ٣٢١. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم – ص ٣٧٦.

٤) ابن واصل : المصدر المتقدم – ج٥ – ص ٣٥٠. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٦٥. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٣٢٤.

٥) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٣٥٠. المقريزي : المصدر المتقدم – ج١ – ق٢ – ص ٣٢٢. ابن تغري بردي : المصدر نفسه – ج٦ – ص ٣٢٥.

٦) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٣٥٣-٣٥٤. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٢٣. ابن تغري بردي : المصدر نفسه – ج٦ – ص ٣٢٥.

«مسير الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص بعساكر حلب ، رحلوا عن دمشق يريدون لقاء المنصور»[1] ، وفي الأول من شهر المحرم سنة ٦٤٤ هـ / ٢٠ أيار سنة ١٢٤٦ م ، التقى الفريقان بظاهر حمص ، وكانت بينهم «وقعة عظيمة انهزم فيها الخوارزمية هزيمة قبيحة ، تبدّد منها شملهم ، ولم تقم لهم بعدها قائمة»[2] ، وقُتِلَ مقدَّمهم بركة خان ، وفرّ من بقي منهم ليدخل في خدمة التتار ، أو ليعمل لحساب الناصر داود[3]. ولم يتوان الصالح نجم الدين أيوب عن قطف ثمار نصره ، فأرسل الجيش المصري ، تحت قيادة الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، حيث استرد قلعة طبرية من الصليبيين ، في شهر صفر سنة ٦٤٥ هـ / حزيران سنة ١٢٤٧ م ، ثم قامت القوات المصرية بمحاصرة عسقلان وتمكنت من اقتحام أسوارها والدخول إليها ، في منتصف شهر جمادى الآخرة / شهر تشرين الأول ، من السنة نفسها ، وأمر نجم الدين أيوب بتدمير الحصنين ، وهدم أسوارهما[4] ، ليبعد الخطر الصليبي عنهما بعد أن أصبحا غير ذي فائدة بالنسبة لهم .

وهكذا عادت إلى الدولة الأيوبية وحدتها ، وانضوت القاهرة ودمشق والقدس تحت ظل الصالح نجم الدين أيوب ، الذي هرع إليه ملوك الأسرة الأيوبية لتقديم الطاعة ، وخطب الولاء والرضا[5].

---

١) المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٢٣.

٢) المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٢٤.

٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٣٥١. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٥ – ص ٣٥٩. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٦٧. ابن الوردي : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ٢٥٣. ابن كثير : المصدر المتقدم – ج١٣ – ص ١٩١. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٢٤. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٣٢٥. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم – ص ٣٧٧. ابن سباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٣٣٦. د. نافع العبود : الدولة الخوارزمية – منشورات جامعة بغداد – بغداد – ١٩٧٨م – ص ١٨٩.

٤) أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٣٥٤. ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٣٧٨. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٦٩.

٥) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٣٧٢–٣٧٣. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٦٩. المقريزي : المصدر المتقدم – ج١ – ق٢ – ص ٣٢٤.

- الحملة الصليبية السابعة : أسبابها :

كانت المعاهدة التي أُبْرِمَتْ بين الإمبرطور الألماني فردريك الثاني وبين الكامل محمد ، سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ، قد انتهى أمدها بعد انقضاء سنواتها العشر ، وأخذت تلوح في الأفق الدعوة إلى حملة صليبية جديدة ، في وقت كان فيه الصليبيون يعانون ضعفاً وعجزاً أفقدهم قدرة الحفاظ على بيت المقدس ، أو إبقائه تحت سيطرتهم ، واعتمدوا على ما أتاحته خلافات الأيوبيين وتنازلاتهم عن مدن فلسطين وساحل بلاد الشام ، وبالتالي كان طبيعياً نجاح الخوارزمية في اجتياح القدس ، وطرد الصليبيين منها ، ثم إيقاع هزيمة كبيرة بالحشود الصليبية ، بالقرب من غزة ، وقيام الجيش المصري باسترداد طبرية وعسقلان وهدم حصونهما ، مما اضطر بطريرك بيت المقدس إلى الإسراع بإرسال سفارة إلى الغرب الأوروبي ، لشرح سوء أوضاع الصليبيين في بلاد الشام ، ولحثهم على النهوض بحملة عاجلة. وأثمرت جهود السفارة في عقد مجمع ليون ، سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م ، حيث دعا البابا انوسنت الرابع (١٢٤٢ - ١٢٥٤م) إلى قيام حملة صليبية لإنقاذ الأراضي المقدسة ونجدة الصليبيين في الشرق[1] ، ولكن ألمانيا وإيطاليا أعرضتا عن تلبية هذه الدعوة ، بفعل الصراع الذي كان قائماً حينذاك بين البابوية والإمبراطورية ، بينما لاقت دعوة البابا قبولاً واستجابة عند لويس التاسع ، ملك فرنسا ، الذي كان معروفاً بورعه وتقواه ، ووجد في تلك الدعوة فرصة مواتية لتحقيق نذرٍ كان قد قطعه على نفسه أثناء إصابته بمرض خطير ، أواخر سنة ١٢٤٤ م ، بأن يقوم بحملة صليبية تجاه الأراضي المقدسة إذا شفي من مرضه[2].

---

١) متى باريس : التاريخ الكبير - الموسوعة الشامية - ج ٤٧ - ص ٧٥٤-٧٥٧. عاشور : الحركة الصليبية - ج٢ - ص ٨٣٢.

Malcolm Barber: The New Knighthood , Cambridge University Press , 1994 , p. 148.
Maureen Purcell: Papal Crusading policy , Netherlands , 1975 , p. 23.

٢) جين جوانفيل : حياة القديس لويس - الموسوعة - ج ٣٦ - ص ٥٠. د. جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر - بيروت - ١٩٨١م - ص ٥٢.

Anthony West: The Crusades , London , 1967 , p. 160.
Runciman: Op. cit, III, p. 255.
William Chester Jordan: Louis IX and the challenge of the Crusade , U. S. A , 1979 , p. 3.

إذاً هي مصر ، والحل بالنسبة للصليبيين كان بها ومنها ، وقد بات من نافلة القول أن نوضح أسباب توجههم إليها ، إذ أضحى يقيناً ثابتاً لديهم أن مفتاح القدس موجود في مصر ، وأن أي حملة تتجه مباشرة إلى بلاد الشام لأخذ القدس ، هي محض غباء ، وستبوء بإخفاق مُزْرٍ ذلك أنها لن تصمد أمام أي تحرك لعساكر مصر وأمرائها ، هذا إلى جانب أن مصر بمواردها المادية والبشرية كانت حملت لواء الزعامة في العالم الإسلامي آنذاك ، إذ غدت بلاد الشام مسرحاً لصراعات أمراء الأسرة الأيوبية ونزاعاتهم ، فيما كانت الخلافة العباسية في العراق تعيش وضعاً صعباً ، وهي في النزع الأخير من عمرها ، وبذا فإن مصر كانت حجر الزاوية ، والركن الأساسي ، في مقاومة الصليبيين والتصدّي لهم ، والقضاء على حكّامها واحتلالها ، كان يعني عودة القدس وبقوّة إلى أحضان الصليبيين ، وإلاّ فما معنى أن تتسم الحملة الصليبية السابعة بطابع ديني ، ويكتسب قائدها لويس التاسع لقب قديس ، وتعلن أن هدفها استرداد بيت المقدس وإغاثة الصليبيين في الشرق ، ثم تتجه صوب مصر .

طبعاً ذلك التوجه يحمل تفسيراً واحداً بأن كل الأهداف كانت ستحققها الحملة الصليبية السابعة فيما لو تمكنت من دخول مصر والسيطرة عليها .

- الاستعداد للحملة وإبحارها :

انطلق الدعاة والمبشرون يطوّفون أنحاء أوروبا لحثّ شعوبها وحكامها على الاشتراك في الحملة ، أو دعمها مادياً ومعنوياً ، كما أخذ لويس التاسع يشجع رجال مملكته ، ويبث الحماسة بينهم ، ويثير مشاعرهم الدينية ، فكان أول من حمل الصليب أمامهم ، وحذا حذوه أخوته الثلاثة : روبرت ، كونت دي أرتو ، وألفونسو ، كونت بواتييه ، وشارل ، كونت آنجو ، وانضم إليهم هوغو ، دوق دي بيرغندي ، ووليم ، كونت فلاندرز ، وعدد كبير من رجال الدين والبارونات ، والكثير من

المتطوعين ، ومن مختلف الطبقات والفئات[1].

وقام لويس التاسع عشر باستئجار عدد من سفن جنوى بينما أحجمت البندقية عن تقديم سفنها لحرصها على مصالحها وامتيازاتها في مصر ، وحرص لويس التاسع على ضمان المؤن والطعام في قبرص ، فأرسل إليها مجموعة من رجاله لإعداد هذا الأمر ، فيما وضع ضرائب إضافية على رجال الدين والكنائس في فرنسا لتوفير المال اللازم للحملة ، وقد هدد البابا بحرمان كل من يعترض على إجراءات لويس التاسع ، كما أرسل عمّاله لجمع الأموال وجبايتها[2].

لقد استغرقت استعدادات الحملة زهاء ثلاث سنوات ، ابتداءً من سنة ١٢٤٥ م ، ومع إطلالة صيف سنة ١٢٤٨ م ، تحرك الملك الفرنسي لويس التاسع صوب مدينة ليون الفرنسية ، حيث التقى البابا إنوسنت الرابع ، وطلب إليه الصفح عن الإمبراطور فردريك الثاني ، لكن البابا أصر على موقفه وأبقى الحرمان الكنسي على الإمبرطور[3].

وفي ٤ جمادى الأولى سنة ٦٤٦ هـ / ٥ آب سنة ١٢٤٨ م أبحر ملك فرنسا ، لويس التاسع ، صوب جزيرة قبرص ، حيث وصل ميناء ليماسول ، في ٢٧ جمادى الأولى / ١٧ أيلول ، من السنة نفسها. ومع أن الملك الفرنسي كان يودّ الذهاب مباشرة إلى مصر ، دون التوقف في قبرص ، فقد أهدر بها قرابة ثمانية أشهر ، نزولاً عند نصيحة باروناته ، لانتظار بقايا المتطوعين الذين لم يكونوا قد وصلوا بعد[4].

كانت المدة الطويلة التي قضاها لويس التاسع وجيشه في قبرص ، قد أضرّت بالحملة

---

١) متى باريس : التاريخ الكبير — الموسوعة – ج ٤٧ — ص ٨٢١. جوانفيل : حياة القديس لويس — الموسوعة – ج ٣٦ — ص ٥٠-٥١.

Comte Riant: Archives de L'Orient Latin , II tome , Paris , 1964 , tome II , pp. 226-227.

٢) د. جوزيف يوسف : المرجع المتقدم — ص ٦٢. طقوش : المرجع المتقدم — ص ٣٧٩.

Stanley Lane , Poole: A History of Egypt in the middle Ages , London , 1968 , pp. 232-233.
Jean Richard: La Politique Orientale de Saint Louis , Paris , 1976 , pp. 201-204.
Ann Hyland: The Medieval War Horse , Great Britain , 1994 , pp. 144 - 145.

٣) متى باريس : التاريخ الكبير — الموسوعة – ج ٤٨ — ص ١٠٠٩-١٠١٠. يوسف : المرجع نفسه — ص ٦٦.

Hans E. Mayer: The Crusades , Oxford University Press , 1988 , p. 261.

٤) جوانفيل : حياة القديس لويس — الموسوعة – ج ٣٦ — ص ٥٨. يوسف : المرجع نفسه — ص ٧٣.

Grousset: Op. cit, vol 3 , p. 432.
Mayer: Ibid , pp. 261-262.

بشكل كبـــير ، فقد نفذت الأموال التي كانت بحوزة قادة الحملة وجندها ، تلك الأمـــوال التي ادّخرت لتصرف في موضعها وعند حاجتـــها ، كذلك نفذت المؤن و لم يبق شيء مـــن تلال القمح والشعير وبراميل الخمرة الضخمة ، كما ضعفت حماسة الجند ، وفقدت الحملة عنصر المفاجأة ، و لم يُتَحْ إلى لويس التاسع مباغتة مصر وإنـــزال ضربة قاضـــية وحاسمـــة بجيشها[1] ، هذا إلى جانب أن المدة الطويلة - نفسها - كانت كفيلة بانتشار أخبار الحملة ووجهتـــها ، ودليلنا في ذلك أن سفارة التتار كانت وصلت إلى قبرص لمقابلة لويس التاسع والتحالف معه ضد المسلمين ، وتقديم العون لحملتـــه للاستيلاء على القدس[2] ، كما امتنع الملك الناصر داود ، صاحب الكرك ، عن تسليمها إلى نجم الدين أيوب ، بعد أن عرضـــها عليه «لما بلغه من شدة مرض السلطان ، وتحرك الفرنج لأخذ ديار مصر»[3].

كان الصالح أيوب قد تحرك وجيشه من مصر صوب بلاد الشام لاسترجاع حمـــص ، التي كان قد استولى عليها الناصر يوسف ، صاحب حلب ، ولكن الأخبار المتـــواترة عـــن لويس التاسع وحشوده الضخمة القابعة في قبرص ، والمتأهبة لقصد مصر ، اضطرت الصالح أيوب إلى عقد الصلح مع صاحب حلب[4] ، والإسراع بالإياب إلى مصر ، كـــي يتّخـــذ الإجراءات اللازمة لمواجهة الحملة والتصدي لها ، ولكن يسترعي انتباهنا أن الصالح أيـــوب كان تلقى تحذيراً مباشراً من فردريك الثانـــي ، الذي أرسل رجلاً متنكراً بزي تاجر فأخبره عن الحملة ووجهتـــها ، وحذّره منـــها[5].

---

١) متى باريس : المصدر نفسه — الموسوعة - ج ٤٨ — ص ١٠٥٧. جوانفيل : حياة القديس لويس — الموســوعة - ج ٣٦ — ص ٥٨.

٢) جوانفيل : حياة القديس لويس — الموسوعة - ج ٣٦ — ص ٥٨. عاشور : المرجع المتقـــدم — ج٢ — ص ٨٣٥. يوسف : المرجع المتقدم — ص ٦٨.

Aziz S. Atiya: The Crusade in the Later Middle Ages , London , 1938 , pp. 241-242.

٣) المقريزي : السلوك — ج١ — ق٢ — ص ٣٣٢.

٤) المقريزي : المصدر نفسه — ج١ — ق٢ — ص ٣٣١. ابن تغري بردي : النجـــوم الزاهـــرة - ج٦ — ص ٣٢٩. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب — ص ٣٧٩.

٥) ابن واصل : مفرّج الكروب — ج٤ — ص ٢٤٧. ابن أيبك الدواداري : الدر المطلوب في أخبار ملـــوك بنـــي أيوب — تحقيق : د. سعيد عبد الفتاح عاشور — ج٧ — ص ٣٦٦.

ويبدو أن ذلك لم يكن غريباً على الإمبراطور فردريك الثاني الذي ظل محافظاً على علاقاته الطيبة مع السلطان الكامل محمد ، ثم ابنه الصالح أيوب ، وأراد التعبير عن استمرار العلاقات وتواصلها بنقل أخبار الحملة وتحركاتها إلى الصالح أيوب .

وربّما خشي الإمبرطور فردريك الثاني من أن تصبّ نجاحات الحملة وإنجازاتها في مصلحة البابا ، المؤيّد بشدة للملك الفرنسي وحملته ، فترجح كفة البابوية وينحسر نفوذ الإمبراطورية ، وبذا فإن إخفاق الحملة كان يمثّل – من وجهة نظر فردريك – تناقصاً في أسهم البابا وإحكام الطوق حوله ، زد على ذلك ، أن إخفاق الحملة الصليبية السابعة كان سيثبت صحّة سياسة الإمبرطور فردريك الثاني السلمية ، وأن لا سبيل لاستعادة القدس سوى طرق الودّ والتفاهم .

نزل الملك الصالح نجم الدين أيوب بأشموم طناح في مصر ، في يوم الثلاثاء ٣ صفر سنة ٦٤٧ هـ / ١٨ أيار سنة ١٢٤٩ م ، وأشرف على تحصين دمياط ، لعلمه أنها كانت دوماً هدف الصليبيين في حملاتهم السالفة ، وخوفه أن يجري عليها ما وقع في أيّام أبيه الكامل محمد ، وشحنها بالميرة والذخيرة وآلات الحرب ، فيما أوكل إلى بني كنانة ، وهم مشهورون بالشجاعة مهمة الدفاع عن المدينة[1]. ثم أوفد الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، على رأس قوة كبيرة ، إلى البر الغربي لدمياط ، ليمنع نزول الصليبيين من تلك الجهة[2].

– وصول الحملة إلى دمياط والاستيلاء عليها :

وفي سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م ، أبحر لويس التاسع ملك فرنسا وحملته من ميناء ليماسول متّجهاً صوب مصر في أسطول ضخم بلغ ١٨٠٠ سفينة ما بين كبيرة

---

١) أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج ٢٢ – ص ١٧٢-١٧٣. المقريزي : المصدر المتقدم – ج١ – ق٢ – ص ٣٣٣. ابن تغري بردي : : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٣٣٠.

٢) أبو الفداء : الموسوعة الشامية – ج ٢٢ – ص ١٧٣. ابن أيبك : المصدر المتقدم – ج٧ – ص ٢٦٩. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٣٣. ابن تغري بردي : المصدر نفسه – ج٦ – ص ٣٣٠. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب – ص ٣٧٩. ابن سباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٣٤٣.

وصغيرة ، وتحمل نحو خمسين ألف مقاتل من راجل وفارس ، ووصلت إلى الشواطئ المصرية في ٢٠ صفر / ٤ حزيران ، من السنة نفسها ، حيث رست قبالة البر الغربي لدمياط[1].

وإذا كنا لا نود الحديث عن أسباب اختيار دمياط ، وعن أهمية تلك المدينة ، حيث أسهبنا في هذا الأمر فيما تقدم ، فإننا نذكّر أن دمياط ، إلى جانب أهميتها الصناعية ، وموقعها الممتاز من الناحيتين الجغرافية والتجارية ، كانت أقرب موانئ مصر إلى بيت المقدس - الهدف الرئيسي الذي قامت من أجله هذه الحملة - فضلاً عن أن ميناء دمياط كان يفضي بالصليبيين إلى القاهرة مباشرةً.

وعلى الرغم من ضحالة مياه الشاطئ ، فقد استقلّ الصليبيون قواربهم الصغيرة وانتقلوا للنزول إلى اليابسة ، غير أن العساكر المصرية تصدّت لهم وحاولت منعهم ، لكن الصليبيين تفوّقوا بفضل كثرة عددهم ، وتمكّنوا من قتل عدد من الأمراء المصريين البارزين ونصبوا معسكراتهم على الشاطئ[2]. وعندما هبط الليل رحل الأمير فخر الدين يوسف وقواته المصرية من الشاطئ الغربي لنهر النيل ، إلى الجانب الشرقي الذي فيه مدينة دمياط ، و لم يكتفِ بذلك بل سار فوراً نحو الجنوب ، متّجهاً إلى معسكر الصالح أيوب عند أشموم طناح[3] ، وقد نسي جنده أن يحطّموا الجسر الواصل بين ضفتي نهر النيل ، الشرقية والغربية ، فأفسحوا المجال لاستيلاء الصليبيين عليه[4] ، وبات طريقهم إلى دمياط سالكاً تماماً. ويمكن القول ، إن السبب الوحيد - الذي يبدو مقبولاً - لفرار فخر

---

١) أبو الفداء : الموسوعة الشامية - ج ٢٢ - ص ١٧٣. ابن أيبك : المصدر المتقدم - ج٧ - ص ٣٦٩. المقريزي : المصدر نفسه - ج١ - ق٢ - ص ٣٣٣. ابن تغري بردي : المصدر نفسه - ج٦ - ص ٣٣٠. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب - ص ٣٧٩. ابن سباط : المصدر المتقدم - ج١ - ص ٣٤٣.

٢) جوانفيل : حياة القديس لويس - الموسوعة الشامية - ج ٣٦ - ص ٦٨-٦٩. المقريزي : المصدر نفسه - ج١ - ق٢ - ص ٣٣٥. الحنبلي : المصدر نفسه - ص ٣٧٩.

٣) أبو الفداء : الموسوعة الشامية - ج ٢٢ - ص ١٧٣. ابن أيبك : المصدر المتقدم - ج٧ - ص ٣٦٩. المقريزي : المصدر نفسه - ج١ - ق٢ - ص ٣٣٥. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم - ج٦ - ص ٣٣٠. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب - ص ٣٧٩. ابن سباط : المصدر المتقدم - ج١ - ص ٣٤٣.

٤) جوانفيل : حياة القديس لويس - الموسوعة - ج ٣٦ - ص ٦٩. أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر - الموسوعة - ج ٢٢ - ص ١٧٣. المقريزي : المصدر نفسه - ج١ - ق٢ - ص ٣٣٥.

الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، هو ظنه أن الصالح قد وافته المنية ، فالأفضل له العودة إلى القاهرة ، لعله ينال حظاً من السلطة ، خصوصاً مع تمتعه بنفوذ قوي يعزز طموحاته ، ويشد أزرها[1].

واستولى الذعر على أهل دمياط ، فتركوا مدينتهم بما فيها ، وساروا صوب القاهرة ، مفضلين النجاة بأرواحهم ، ثم تبعهم بنو كنانة ، الذين عهد إليهم الصالح أيوب بالدفاع عن المدينة ، فلحقوا بفلول الجيش المصري إلى أشموم طناح ، واكتفوا قبل فرارهم بإشعال النيران في سوق المدينة[2]. وبعد أن تيقن الصليبيون من خلوّ مدينة دمياط من سكانها وحماتها ، دخلوا إليها واستولوا عليها ، وعلى ما بها من ذخائر ومؤن ، وذلك في ٢٢ صفر سنة ٦٤٧ هـ / ٦ حزيران سنة ١٢٤٩م[3].

- زحف الحملة نحو القاهرة :

عندما عمَّ خبر سقوط دمياط بأيدي الصليبيين ، أصاب الهلع سكان مصر وأهلها ، وظنوا أن الصليبيين هذه المرة لا بدَّ أنهم سيملكون البلاد ، بعد أن استولوا على دمياط بكل يسر وسهولة ، ودون قتال ، وأجفل الجيش المصري عن مواجهتهم .

وزاد في إحباط أهل مصر ، وقوع ملكهم تحت وطأة المرض الشديد ، وعجزه عن قيادة جيشه بنفسه ، ولكن الصالح أيوب أبى الاستسلام إلى مرضه ، أو الركون إلى العجز ،

---

١) جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ٦٩. يوسف : المرجع المتقدم – ص ١٠٦. طقوش : المرجع المتقدم – ص ٣٨٢.

٢) جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ٦٩. المقريزي : المصدر المتقدم – ج١ – ق٢ – ص ٣٣٥. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٣٣٠.

٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٣٦١. متى باريس : التاريخ الكبير – الموسوعة – ج ٤٨ – ص ١٠٦٨. جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ٧١. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٧٣. ابن الوردي : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ٢٥٩. المقريزي : المصدر المتقدم – ج١ – ق٢ – ص ٣٣٦.

Barbara N. Sargent,Baur: Journeys Toward God , U. S. A , pp. 143-144.
Jean Richard: Saint Louis , translated from French by: Jean Birrell , Cambridge , 1992 , p. 120.
Estelle Blyth: Jerusalem and the Crusades , London , 1936 , p. 213.

واستبد بـــه الغضب عند علم بفرار بنـــي كنانة ، فأمر بشنق ما ينـــيف عن خمسين مـــن أمرائهم وكبار رجالهم ، رافضاً أيَّ عذر أو تسويغ لفعلهم وتخاذلهم ، فيما عنّف فخر الدين ووبّخه[1] ، ولم يشأ أن يتّخذ ضده أي إجراء قد يثير حفيظة قادة الجيش وجنده ، فضلاً عن أن الظرف الحرج ، والوقت الضيق ، كانا يتطلبان تماسك الجبـــهة الإســـلامية ، وســـرعة تحرك الصالح أيوب ، الذي تراجع وجيشه إلى مدينة المنصورة ، حيث شرع الجند المصريون في تجديد أبنـــيتـــها للسكنى ، كما نصبوا بـــها الأسواق ، وأصلحوا الـــسور. في حـــين شُحِنَت السفن المصرية بالعتاد والمقاتلين ، وتـــهافتت إلى المدينة أفواج كثيرة من المتطوعين والعربان وعامة الناس ، لنـــيل شرف الجهاد والدفاع عن مصر[2].

في مقابل ذلك ، خَلَدَ لويس التاسع وجيشه إلى البقاء في دمياط مدة تزيد عن خمـــسة أشهر دون القيام بتحرك فعّال ، أو مواصلة التقدم نحو القاهرة ، لانتـــهاز فرصة ذهول أهل مصر وهلعهم ، جراء سقوط دمياط السريع والمفاجئ ، وآثر لويس التاسع انتظار قدوم أخيه ألفونسو ، كونت بواتييه ، على رأس قوة فرنسية[3]. وربما كانت دروس الحملة الصليبـــية الخامسة قد تركت بعض الأثر في تفكير لويس التاسع ، خاصة فيما يتعلق بفيضان نـــــهر النـــيل ، مع جهلهم بالمواعيد الدقيقة لانحسار الفيضان[4].

أضرّ ذلك الانتظار الطويل بالحملة الصليبـــية السابعة ، إذ تفشّت الخلافات بـــين أفرادها عامةً ، وبـــين الفرنسيين والإنكليز خاصةً ، كما أنفق الأمراء والبارونات الأمـــوال على الحفلات والملذّات ، وساد جو من التراخي والكسل[5] ، مما شجع المسلمين على القيام بغارات مباغتة ، تخطفوا أو قتلوا من خلالها ما استطاعوا من الجنود الـــصليبـــيين ، علـــى

---

١) ابن كثير : البداية والنـــهاية — ج١٣ — ص ٢٠١. المقريزي : المصدر نفسه — ج١ — ق٢ — ص ٣٣٦.

٢) المقريزي : المصدر نفسه — ج١ — ق٢ — ص ٣٣٧. ابن تغري بردي : المـــصدر المتقـــدم - ج٦ — ص ٣٣٠. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم — ص ٣٧٩.

٣) جوانفيل : حياة القديس لويس — الموسوعة - ج ٣٦ — ص ٧٥. نسيم : المرجع المتقدم — ص ١٢٢.
Jean Richard: Saint Louis , pp. 120-121.

٤) نسيم : المرجع نفسه — ص ١٢٣ . عاشور : المرجع المتقدم — ج٢ — ص ٨٣٩.
Runciman: Op. cit, III. p. 263.

٥) متى باريس : التاريخ الكبـــير — الموســـوعة - ج ٤٨ — ص ١١١٦-١١١٧. جوانفيـــل : المـــصدر نفـــسه — الموسوعة - ج ٣٦ — ص ٧٣.

الرغم من أن الملك الفرنسي لويس التاسع كان أمر جنده بحراسة المعسكر وهم مترجلون ، ليمنعوا تسلل المسلمين إليه من خلف الجياد ، كما أمر بحفر خندق عميق حول المعسكر ، وعهد بحراسته إلى رماة القسي ، إلاّ أن هجمات المسلمين الخاطفة تواصلت ، وكان الأسرى الصليبيون يصلون تباعاً إلى القاهرة(1).

وما أن وصل ألفونسو ، كونت بواتييه ، في شهر رجب سنة ٦٤٧ هـ / تشرين الأول سنة ١٢٤٩ م ، وانحسر فيضان نهر النيل ، حتى دعا الملك الفرنسي بارونات الجيش وقادته ، لاختيار طريقهم بعد الخروج من دمياط ، فإما الإسكندرية أو القاهرة ، وكان رأي بيير الطيب ، كونت بريتاني ، ومعه غالبية البارونات ، الذهاب صوب الإسكندرية لوجود ميناء مناسب لرسوّ سفنهم ، حيث يصبح بإمكانها تزويد الجيش بالمؤن بكل سهولة ، ولكن روبرت كونت دي أرتو ، رفض قبول ذلك الاقتراح ، وأصرّ على الذهاب إلى القاهرة ، دون أي مكان آخر ، معززاً رأيه بالقول : «إذا ما أردتَ قتل الثعبان ، عليك قبل كل شيء أن تهرس رأسه»(2) ، فوافق لويس التاسع على خطة أخيه وأعرض عن الرأي الآخر(3).

من المؤكد أن فكرة الذهاب إلى الإسكندرية كانت أنجع حلاً وأسلم رأياً ، إذ لو كان تيسّر للصليبيين الاستيلاء عليها ، فإن ذلك كان يعني توجيه ضربة قاصمة لمصر ، وتدهوراً كبيراً في معنويات أهلها ، وعزلاً لها عن العالم الخارجي من جهة البحر ، فضلاً عن أن السير من الإسكندرية إلى القاهرة كان أسهل وأضمن لابتعاده عن نهر النيل وفيضانه ، إلى جانب أن ميناء الإسكندرية كان سيستوعب السفن الصليبية الضخمة ويتيح لها حرية الحركة ، وسرعة إفراغ حمولتها من المؤن والجند .

وفي ١٢ شعبان سنة ٦٤٧ هـ / ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٢٤٩ م ، غادر

---

١) متى باريس : المصدر نفسه — ٤٨ — ص ١١٣٠. ويذكر أن السلطان جعل جائزة لمن يقدّم له رأس صليبي أو يده اليمنى أو قدمه. وانظر — أيضاً — جوانفيل : المصدر نفسه — الموسوعة — ج ٣٦ — ص ٧٥. المقريزي : المصدر المتقدم — ج١ — ق٢ — ص ٣٣٧-٣٣٨.

٢) جوانفيل : حياة القديس لويس — الموسوعة الشامية — ج ٣٦ — ص ٧٧.

٣) جوانفيل : المصدر نفسه — الموسوعة — ج ٣٦ — ص ٧٧. نسيم : المرجع المتقدم — ص ١٣١.
Grousset: Op. cit, III, pp. 448-449.

الصليبيـــون دمياط ، وتركوا معسكرهم صوب القاهرة ، متّخذين الطريق نفـــسه الـــذي سارت عليه الحملة الخامسة ، غير عابئين بما آلت إليه تلك الحملة قبل ثلاثين سنة ، وغـــير مستفيدين من أخطائها ، وأسباب إخفاقها[1].

– هزيمة الصليبـــيين في المنصورة :

فيما كان الصليبـــيون قد حزموا أمرهم وساروا باتجاه القاهرة ، كان المرض قد بلـــغ أشده بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، وتوفي في ١٤ شعبان ســـنة ٦٤٧ هـ / ٢٢ تـــشرين الثانـــي سنة ١٢٤٩م[2] ، في وقت عصيب وخَطِر على الأمة ، ولكن الأقدار أرادت لزوجة الصالح أيوب ، المسمّاة شجر الدر ، أن تدوّن اسمها بأحرف من نور على رُقُم التاريخ ، إذ عزمت على كتم خبر موت زوجها ، إلاّ عن الأمير فخر الدين يوسف ، ابن شيخ الشيوخ ، والطواشي جمال الدين محسن الصالحي ، اللذين كانا موضع ثقتـــها[3].

أخرجت شجر الدر الكتب والمراسيم باسم الصالح أيوب ، كالمعتاد مـــن معـــسكره بالمنصورة ، وقامت بإدارة شؤون الحكم كما لو أن نجم الدين كان لا يزال حياً ، ثم جمعت الأمراء والأجناد في المعسكر وأخبرتـــهم إن السلطان الصالح أيوب يأمرهم بأن يحلفوا له ، ومن بعده لابنـــه المعظم توران شاه – الذي كان حينذاك نائباً عن أبـــيه في حصن كيفا – وبذا أخذت ولايـــة العهـــد للمعظّـــم ، الذي لم يكن قد حضر بعد ، ومـــوت أبـــيه

---

١) جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ٧٨.
Jean Richard: Saint Louis , p. 122.
Stevenson: Op. cit, III, p. 326.

٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة الشامية – ج ٢٠ – ص ٣٦٢. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٧٤. ابن الوردي : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ٢٦٠. ابن كثير : البداية والنـــهاية – ج١٣ – ص ٢٠١. المقريزي : المصدر المتقدم – ج١ – ق٢ – ص ٣٣٩. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٣٣١. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب – ص ٣٨٠. ابن سباط : تاريخ ابن سباط – ج١ – ص ٣٤٥.
Jean Richard: Ibid , p. 122.

٣) أبو الفداء : المختصر – الموسوعة الشامية – ج ٢٢ – ص ١٧٤-١٧٥. ابن كثير : المصدر نفسه – ج١٣ – ص ٢٠١. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر نفسه – ص ٣٨٠.

لـما يعلن[1].

كان الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، قد تولى قيادة الجيوش وتدبير شؤون المملكة ، ريثما يصل الملك المعظم من حصن كيفا ، فشرع في إطلاق المساجين ، وأحسن إلى الرعية ، وأنفق في العسكر ، وخلع على خواصّ الأمراء ، وصار يخرج في موكب مهيب[2] ، وذلك يؤكد طموحه إلى السلطة ، ويؤكد مسؤوليته عن سقوط دمياط.

وعلى الرغم من كل الاحتياطات التي اتخذتها شجر الدر ، فقد تسرّب خبر وفاة الصالح أيوب إلى الصليبيين ، فارتفعت معنوياتهم ، وتابعوا تقدمهم جنوباً نحو القاهرة ، وأسطولهم يحاذيهم في نهر النيل ، ووصلوا إلى قرية فارسكور ، في ٢٤ شعبان سنة ٦٤٧ هـ / ٢ كانون الأول سنة ١٢٤٩ م ، دون أن يلقوا أي مقاومة جدّية من جانب المسلمين ، واستأنفوا سيرهم حتى نزلوا على شارمساح في أول رمضان / ٨ كانون الأول من السنة نفسها[3] ، وواصلوا زحفهم حتى نزلوا قبالة جيش المسلمين شمالي بحر أشموم ، إذ ينقسم نهر النيل – فرع دمياط – شمالي مدينة المنصورة إلى فرعين يتّجه أحدهما إلى دمياط ، وينحرف الآخر في اتجاه شمالي شرقي ، حيث يمرّ بمدينة أشموم طناح إلى أن يصب في بحيرة تنيس ، وهذا الفرع هو بحر أشموم ، حيث أقام الصليبيون معسكرهم على ضفته الشمالية ، ورابط المسلمون على ضفته الجنوبية[4].

وسرعان ما بدأت المناوشات بين الطرفين ، إذ عبر بعض المصريين القناة وهاجموا المعسكر الصليبي من جهة الشمال ، ولكن الصليبيين تمكّنوا من صدّ هذا الهجوم المفاجئ ، بينما أبدع المصريون في عبور القناة سباحة وتخطفوا الجنود الصليبيين ،

---

١) أبو الفداء : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٧٥. المقريزي : المصدر المتقدم – ج١ – ق٢ – ص ٣٤٣. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٣٦٤.

٢) المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٤٣-٣٤٤. يوسف : المرجع المتقدم – ص ١٤٣.

٣) أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٧٥. ابن الوردي : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ٢٦٠. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٤٦-٣٤٧.

٤) جوانفيل : حياة القديس لويس – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ٨٢. أبو الفداء : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٧٥. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٤٧.

وبرعوا أيضاً في إيجاد حيل مدهشة لاختطافهم[1].

وأقدم فخر الدين يوسف على مهاجمة المعسكر الصليبي ، في ١٤ شوال سنة ٦٤٧ هـ/ ٢٠ كانون الثاني ١٢٥٠ م ، وتصدّى الصليبيون ببسالة لهذا الهجوم ، وتكبّد الطرفان خسائر فادحة[2].

وحاول لويس التاسع – بدوره – عبور القناة ، ولكن المصريين أحبطوا محاولاته ببراعتهم ، وفتك بمجانيقهم ، وسعير نيران نفوطهم ، التي أرهبت الملك الفرنسي وحملته ، وأدخلت اليأس إلى قلوبهم ، بعد أن قضوا زهاء شهرين قبالة المنصورة ، وبحر أشموم يحول دون تمكنهم منها[3]. وأُرْشِد لويس التاسع إلى مخاضة يستطيع منها عبور بحر أشموم ، فما كاد ينبلج فجر الرابع من شهر ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ / ٨ شباط سنة ١٢٥٠ م حتى توغّل الصليبيون في مياه المخاضة ووحلها ، وعلى الرغم من مشاق العبور ، وغرق عدد من الصليبيين فقد وصلت طلائع الحملة إلى الضفة الجنوبية[4] ، وباغت فرسان الداوية معسكر المسلمين ، فقضوا على الكثيرين منهم ، وطالت سيوفهم النساء والأطفال والشيوخ ، وفوجئ الأمير فخر الدين يوسف بهذا الهجوم ، فخرج من حمامه مذهولاً ، واعتلى جواده دون أن يلبس درعه أو يأخذ حذره ، وانطلق يلمّ شعث رجاله الفارين ، فحاصرته ثلة من فرسان الداوية ، وأثخنوه طعناً وغرزاً ، فنال شرف الشهادة معطراً بدمه ، وأزال عن نفسه وصمة الفرار والتخاذل التي لحقت به عند

---

١) متى باريس : التاريخ الكبير – الموسوعة – ج ٤٨ – ص ١١٠٢. جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ٨٢. ابن أيبك : المصدر المتقدم –ج٧ – ص ٣٧٦.

٢) جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ٨٣-٨٤. ابن أيبك : المصدر نفسه – ج٧ – ص ٣٧٧. المقريزي : المصدر المتقدم – ج١ – ق٢ – ص ٣٤٨.

٣) جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ٨٥-٨٦. وهو يقدّم معلومات مهمّة.
Jean Richard: Saint Louis , p. 122.

٤) جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ٨٨. المقريزي : المصدر المتقدم – ج١ – ق٢ – ص ٣٤٩. عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٨٤٥.

عتبات دمياط[1].

وأصاب الغرور كونت دي أرتو ، وتملكتــه الأنانــية ، وأراد الانفراد بالنصر وتحقيق مجدٍ شخصي له ، ظناً من أن مقتل فخر الدين واضطراب أوضاع المسلمين داخل المنصورة عوامل مساعدة وكافية لتحقيق مآربــه ، فاندفع ومقدمة الجيش الــصليبــي تجــاه أزقــة المنصورة وأرجائها لمطاردة فلول القوات المصرية ، التي ما لبثــت أن نظمــت صــفوفها ، واستجمعت قواها ، بعد أن تولى قيادتــها ركن الدين بيــبرس البندقداري ، قائد المماليك البحرية ، الذي تصدى للقوة الصليبــية المهاجمة بكل عزيمة وقوة ، بــينما بــادر أهــل المنصورة إلى قذف الجنود الصليبــيين بالأحجار والطوب من الأسطح والنوافذ ، ورشقوهم بالسهام والرماح ، وانجلت المواجهة عن مقتل أكثر من ألف وخمسمائة صليبــي ، أبرزهم كونت دي أرتو – نفسه – وثلاثمائة من فرسانــه ، وعدد كبــير من فرسان الداوية[2].

ولكن النتيجة الأهم التي كانت سطعت عن تلك المواجهة ، هو تبدل ميزان القــوى لصالح المسلمين ، وتملكهم زمام المبادرة ، وعودة الروح المعنوية ، وثقتــهم بقدراتــهم وقوتــهم ، ويمكن القول ، إن بداية النــهاية للحملة الصليبــية السابعة كانت فعلاً بــهذا النصر الكبــير .

وما أن وصل لويس التاسع ، وقسم من جيشه ، إلى الضفة الجنوبــية لبحر أشموم حتى اندفع صوب المنصورة لعله ينقذ أخاه كونت دي أرتو من محنتــه ، ولم يكن قد علم بمــا حل بــه ، فتصدت له عساكر المسلمين وأجبرتــه على العودة صوب الضفة الجنوبــية لبحر أشموم ، حيث انتظر عبور باقي أفراد الجيش والحملة ، فيما أرخى الليل سدوله ، معلناً

---

١) أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٣٦٢. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٧٥. ابن الوردي : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ٢٦١.ابن كثير : المصدر المتقدم – ج١٣ – ص ٢٠٢. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٤٩. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٣٦٣.

٢) متى باريس : التاريخ الكبــير – الموسوعة – ج ٤٨ – ص ١١٣٣-١١٣٩. ويذكر معلومات وافية عن شخصية كونت دي أرتو وأنانــيتــه ومقتله داخل المنصورة. جوانفيل : حياة القديس لويس – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ٨٩. ابن أيبك : المصدر المتقدم – ج٧ – ص ٣٧٧-٣٧٨. المقريــزي : المــصدر نفــسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٥٠-٣٥١.

Guillaume De Saint-Pathus: Vie De Saint Louis, Paris , 1899, pp. 112-119.

نـــهاية يوم حافل بالنسبة للمسلمين ، وعقيم بالنسبة للصليبـــيين[1].

وفي منتصف نـــهار يوم الجمعة ٧ ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ /١١ شباط سنة ١٢٥٠ م اندفع فرسان المسلمين ومشاتـــهم صوب المعسكر الصليبـــي في هجوم ضار ، وقاد لويس التاسع المعركة بنفسه وأظهر شجاعة كبـــيرة ، وإرادة قوية ، فنظّم جيشه تنظيماً دقيقـــاً ، وثبت في ساحة القتال حتى اضطر المسلمون إلى التراجع نحو المنصورة[2].

من المفيد القول ، إن المسلمين لم يحققوا بـــهجومهم ذاك نصراً باهراً ، وربما تكبدوا خسائر فادحة ، ولكنـــهم جمدوا تحركات الصليبـــيين ، وألغوا مطامحهم في التقـــدم نحـــو القاهرة ، كما زادوا من قتلى فرسانـــهم ومشاتـــهم ، وأجهزوا على عدد كبـــير مـــن عتادهم .

ووقع الصليبـــيون تحت وطأة وباء قاتل ، ربما لعدم دفنـــهم جثث المـــوتى ، الـــتي تفسخت وانتشرت منـــها الروائح والأمراض ، وأصيب بـــها معظم أفراد الحملة ، وهلك عدد كبـــير منـــهم[3].

- استسلام الصليبـــيين وأسر لويس التاسع :

كان المعظم توران شاه بن الصالح أيوب قد وصل إلى دمشق ، في أواخر شهر رمضان سنة ٦٤٧ هـ /كانون الأول سنة ١٢٤٩ م ، ونودي بـــه سلطاناً ، ثم ســـار إلى مـــصر ،

---

١) متى باريس : — المصدر نفسه — الموسوعة - ج ٤٨ — ص ١١٤٠-١١٤١. جوانفيـــل : المـــصدر نفـــسه — الموسوعة - ج ٣٦ — ص ٩٤-٩٨.

Margaret Wade Labarge: Saint Louis «The Life of Louis IX of France» , London , 1968 , pp. 122-123.

Henry Treece: The Crusades , U.S.A , 1962 , p. 192. He Wrote: «The Egyptian Battle of Mansourah in 1249 was the real and final death,blow to any Christian hopes of controlling the Holy Land».

٢) جوانفيل : المصدر نفسه — الموسوعة - ج ٣٦ — ص ١٠٥-١٠٩.

Jean De Joinville & Geoffroy De Villehardouin: Chronicles of the Crusades , England , 1963 . pp. 220-228.

٣) جوانفيل : المصدر نفسه — الموسوعة - ج ٣٦ — ص ١١٢-١١٣. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم — ج٦ — ص ٣٦٤.

John of Joinville: The Life of St. Louis «The letter of St. Louis» , London , 1955 , pp. 247-249.

ودخلها في شهر ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ / شباط سنة ١٢٥٠م ، وأُعْلِنَتْ عندئذ وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وسلّمت شجر الدر مقاليد السلطة إلى توران شـــاه ، وارتفعـــت الروح المعنوية لدى المصريين ، واستبشر الناس خيراً بقدومه[1].

سار توران شاه إلى مدينة المنصورة ، ليكون قريباً من جبـــهة القتال ، ثم أمر بـــصنع عدة مراكب حُمِلت مفصلة على الجمال ، ونقلت إلى بحر المحلـــــة ، خلـــف المعـــسكر الصليبـــي ، حيث أعيد ، جمعها وأنـــزلت في هذا البحر ، وشحنت بالمحاربـــين ، وكمنت في مخبأ مستتر تتربص للقوافل البحرية الصليبـــية التي تنقل المؤن عـــبر نـــــهر النـــيل ، وتـــهيأت الفرصـــة عندما قدمت مراكب صليبـــية من دمياط ، فباغتتـــــها المراكـــب المصرية ، بـــينما أطبق عليها الأسطول المصري من جهة المنصورة ، وانـــهزم الصليبـــيون في هذه المواجهة وقُتِلَ وأُسِرَ منـــهم قرابة ألف نفس ، واستولى المـــسلمون علـــى اثـــنين وخمسين مركباً بما فيها من أزواد وأقوات. وتجددت المواجهات في التاسع مـــن شـــهر ذي الحجة سنة ٦٤٧ هـ/١٥ آذار ١٢٥٠ م ، إذ التحمت سفن المسلمين مع السفن الصليبـــية ، واستولى المسلمون على اثنين وثلاثين مركباً[2].

ويجدر بنا أن نرافق جوانفيل قليلاً ، لنتعرف من خلاله أوضاعَ المعسكر الصليبـــي ، والمحنة القاسية التي تعرض لها بعد انقطاع المؤن ، وتدمير مراكبـــه ، فقد كـــان جوانفيـــل مرافقاً للحملة الصليبـــية السابعة ، واشترك في مجرياتـــها ، وأرّخ أحداثها ، وهـــو يخبرنـــا بالقول : «وسببت هذه الغلايين حدوث مجاعة بـــيننا ، فبسببـــهم لم يعد أحد يتجرأ على القدوم عبر النـــهر من دمياط ليجلب لنا ميرة جديدة وأطعمة ،.......، والمحصلة كان هناك

---

١) أبو الفداء : المختصر — الموسوعة — ج ٢٢ — ص ١٧٥. ابن الوردي : المـــصدر المتقـــدم — ج٢ — ص ٢٦١. المقريزي : المصدر المتقدم — ج١ — ق٢ — ص ٣٥١-٣٥٢. ابن تغري بردي : المـــصدر نفـــسه — ج٦ — ص ٣٦٤. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم — ص ٤٢٧. ابن سباط : المصدر المتقدم — ج١ — ص ٣٤٧.

٢) متى باريس : التاريخ الكبـــير — الموسوعة — ج ٤٨ — ص ١١٤٢. جوانفيل : المصدر المتقدم — الموســـوعة — ج ٣٦ — ص ١١٣-١١٤. ابن أيبك : المصدر المتقدم — ج٧ — ص ٣٧٩. ابن الوردي : المصدر نفـــسه — ج٢ — ص ٢٦١. المقريزي : المصدر نفسه — ج١ — ق٢ — ص ٣٥٣-٣٥٤. ابن سباط : المصدر نفسه — ج١ — ص ٣٤٧.

ندرة عظيمة وانعدام للمؤن في المعسكر ، وبلغ الأمر حداً أنــه جرى تقدير ثمن الثــور في عيد الفصح بثمانــين ديناراً ، والشاة الواحدة أو الخنــزير بثلاثين ديناراً للرأس الواحد ، في حين بلغت قيمة البــيضة اثنــي عشر درهماً»[١].

وهكذا أطبق الجوع والمرض ، وغارات المسلمين ومعنوياتــهم المرتفعة ، على كل ما لدى الصليبــيين من معنويات وقوة ، ولم يعد أمام الملك الفرنسي لويس التاســع ســوى العودة وحملتــه إلى دمياط ، ولكن ذاك الأمر لم يكن سهلاً إنجازه ، لضعف الــصليبــيين وعجزهم عن حماية أنفسهم من هجمات المسلمين وغاراتــهم ، لذا لجأ لويس التاســع إلى فتح باب المفاوضات مع المسلمين ، على قاعدة تركه دمياط وأخذه لبــيت المقــدس ، وأن يرعى المسلمون مرضى الصليبــيين ، ويصونوا معداتــهم ، ريثما يتمكنوا من إجلائهــم. وكان طبــيعياً أن يرفض المسلمون وتوران شاه شروط لويس التاسع ، ليقينــهم أن عامل الزمن كان يضغط على الصليبــيين ويفت في عزمهم ، نتيجة نقص المؤن الحــاد وتفــشي المرض[٢].

وفي غرة شهر المحرم سنة ٦٤٨ هـ / ٥ نــيسان سنة ١٢٥٠ م ، شرع الــصليبــيون بترك معسكرهم على الضفة الجنوبــية لبحر أشموم ، والانسحاب صوب الضفة الشمالية ، لينطلقوا بعدها إلى دمياط ، ولكنــهم سهوا عن قطع الجسر ، الذي كانوا أقاموه على بحر أشموم ، فعبره المسلمون وأخذوا يتعقبون الجيش الصليبــي قتلاً وأســراً ، حــتى وصــلت مقدمتــه إلى قرية فارسكور ، حيث قاد بــيبرس البندقداري هجوماً ساحقاً قضى بــه على معظــم أفراد الجيش الصليبــي ، وكان عددهم – على أقل تقدير – ثلاثــين ألــف مقاتــل ، إلى جانــب الآلاف من الأســرى ، الذين كان على رأسهم الملك الفرنــسي

١) جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة الشامية – ج٣٦ – ص ١١٤.

٢) جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ١١٦-١١٧. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة الشامية – ج ٢٢ – ص ١٧٥. المقريزي : المصدر المتقدم – ج١ – ق٢ – ص ٣٥٤.

لويس التاسع ، وأخواه كونت أنجو وكونت بواتييه[1].

وسيق الملك الفرنسي مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة ، حيث سُجِنَ في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، وعُهِدَ إلى الطواشي صبيح المعظمي بحراسته ، وخصص له من يقوم بخدمته[2].

ولم تمضِ بضعة أيام على وقوع الصليبيين في الأسر ، حتى فُتِحَت المفاوضات مع الملك الفرنسي ، الذي تعرض للضغط والتهديد من قبل توران شاه ، لكي يتنازل عن بعض المعاقل الصليبية في بلاد الشام ، أو تلك التي تتبع جماعة فرسان الداوية أو الإسبتارية ، ورفض لويس التاسع هذه الشروط[3] ، معللاً ذلك بأن ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام لا سلطة له عليها ، لأنها كانت تتبع الإمبراطور فردريك الثاني ، الوصي على ابنه كونراد ، وظل الملك الفرنسي لويس التاسع مصراً على موقفه[4] ، وردّ على تهديد المسلمين ووعيدهم «بأنه كان أسيرهم ، وبإمكانهم أن يفعلوا معه كما يرغبون»[5]. وما لبث أن توصل الطرفان إلى اتفاق وفق الشروط الآتية :

---

١) أبو شامة : الذيل على الروضتين – الموسوعة – ج ٢٠ – ص ٣٦٤. متى باريس : التاريخ الكبير – الموسوعة – ج ٤٨ – ص ١١٤٤–١١٤٥. جوانفيل : الموسوعة – ج ٣٦ – ص ١١٨–١٢٠. أبو الفداء : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٧٦. ابن الوردي : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ٢٦٢. ابن كثير : المصدر المتقدم – ج١٣ – ص ٢٠٢. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٥٥–٣٥٦. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٣٦٤–٣٦٥. ابن سباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٣٤٨–٣٤٩. د. سهيل زكار : الموسوعة الشامية – ج ٣ – ص ٤٠٧. يوسف : المرجع المتقدم – ص ٢٠١–٢٠٢. عاشور : المرجع المتقدم – ج٢ – ص ٨٤٨.

Martin Erbstösser: The Crusades , Translated from Germany by: C.S.V. Salt , United Kingdom , 1978 , p. 152.

Palmer A. Throop: Criticism of the Crusade , Amsterdam , 1940 , p. 175.

٢) أبو الفداء : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٧٦. ابن الوردي : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٢٦٢. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٥٦.

٣) متى باريس : التاريخ الكبير – الموسوعة – ج ٤٨ – ص ١١٤٦–١١٤٨. جوانفيل : المصدر المتقدم – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ١٣٠. يوسف : المرجع نفسه – ص ٢١٥.

٤) جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة الشامية – ج ٣٦ – ص ١٢٧–١٣٠. يوسف : المرجع نفسه – ص ٢١٥. عاشور : المرجع المتقدم – ج٢ – ص ٨٤٩.

٥) جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ١٣٠.

Labarge: Op. cit, p. 127. Mayer: Op. cit, p. 264.

١ – يسلم الملك الفرنسي مدينة دمياط فديةً عن نفسه .

٢ - يدفع الملك الفرنسي مبلغ أربعمائة ألف ليرة ذهبية من أجل إطلاق سراح أتباعه.

٣ – يستمر الصلح مدة عشر سنوات .

وأقسم الجانبان على احترام هذه البنود ، وعدم الإخلال بها[١].

ولتطبيق نصوص الاتفاق ، رحل الملك المعظم توران شاه والقوات المصرية من المنصورة إلى فارسكور ، وعند وصوله إليها ضرب له بها دهليز السلطنة ، وأقيم إلى جانبه برج من خشب كان يصعد إليه ليشرف على العسكر والقرية كلها ، كما نقل الملك الفرنسي وكبار الأسرى من رجاله في أربع سفن ، رست قبالة فارسكور ، ثم نصبت خيمة بالقرب من سرادق توران شاه نزل بها لويس التاسع[٢].

– مقتل توران شاه ونهاية الدولة الأيوبية في مصر :

لم يكن توران شاه الرجل المناسب لحكم مصر ، ليس بسبب سوء أخلاقه وجهله بشؤون السلطة والسياسة فحسب ، بل لعدم قدرته كسب أمراء المماليك البحرية وشجر الدر ، الذين كان لهم الفضل الأكبر في تولّيه الحكم ، وفي الذود عن حياض القاهرة ، ريثما يأتي ويتولّى القيادة ، فتنكر لهم توران شاه ، وأساء معاملتهم ، وقبض على عدد كبير من أمراء المماليك وأخرجهم من وظائفهم ، وجرّدهم من مظاهر السلطة ليسبغها على خواصه ، الذين استقدمهم معه من حصن كيفا[٣] ، وذهب توران شاه بوعيده وتهديده لأمراء المماليك البحرية حداً بعيداً ، فكان «إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من الشمع، وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع ، ويقول : هكذا أفعل بالبحرية ، ويسمي

---

١) متى باريس : التاريخ الكبير – الموسوعة - ج ٤٨ – ص ١١٤٩-١١٥٠. جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ١٣١. عاشور : المرجع المتقدم – ج٢ – ص ٨٤٩.

٢) جوانفيل : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ١٣٢-١٣٣. يوسف : المرجع المتقدم – ص ٢١٨.
Jean Richard: Saint Louis , pp. 126-127.

٣) ابن أيبك : المصدر المتقدم – ج٧ – ص ٣٨٣. المقريزي : السلوك – ج١ – ق٢ – ص ٣٥٨-٣٥٩. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب – ص ٤٢٧.

كل واحد منــهم باسمه»[1].

في الوقت نفســه ، بعث توران شاه إلى شجر الدر يتــهددها ، ويطالبــها بمــال أبــيه ، وما عندها من الجواهر والنفائس ، فتسرّب الخوف إليها ، وباتت تخشى غــدره وسطوتــه ، «وكاتبت المماليك البحرية بما فعلتــه في حقه ، من تمهيد الدولــة وضــبط الأمور حتى حضر وتسلّــم المملكة ، وما جازاها بــه من التــهديد والمطالبة بمــا لــيس عندها ، فأنفوا لها ، وحنقوا من أفعال السلطان»[2].

وفي يوم ٢٨ المحرم سنة ٦٤٨ هـ / ٢ أيار سنة ١٢٥٠م ، وبــينما كان الملك المعظم توران شاه في خيمتــه هاجمه بــيبرس البندقداري وضربــه بسيفه ، ولكن تــوران شــاه تفادى الضربة بــيده فقطع بعض أصابعه ، ثم لجأ إلى برجه الخــشبــي ، ولكــن أمــراء المماليك أشعلوا النار فيه ، فألقــى تورانشاه بنفسه في نــهر النــيل طلباً للنجاة ، وهــو يقول : «ما أريد ملكاً دعونــي أرجع إلى الحصن. يا مسلمين ! أما فيكم من يصطنعنــي ويجيرنــي ؟!»[3] ، ولكن أحداً لم يكن ليتجرأ على نجدتــه ، والسهام تنــهال عليه مــن كل ناحية ، فيما السيوف تقطع أوصاله ، ومات جريحاً حريقاً غريقاً ، وتركــت جثتــه ملقاة على ضفة النــهر ثلاثة أيام دون أن يجسر أحد على دفنــها ، حتى شفع فيه رســول الخليفة العباسي المستعصم بالله (٦٤٠هـ — ٦٥٦ هـ / ١٢٤٤ — ١٢٥٨ م) ، فحمــل إلى الجانب الآخر من النــهر ودفن[4].

وبموت توران شاه انتــهى حكم الأيوبــيين في مصر ، لأن المماليك اختاروا للحكم شجر الدر التي انقطعت بزوجها الصالح أيوب لموتــه ، وموت ولدها خليل — وهو صــغير

---

١) ابن أيبك : المصدر نفسه — ج٧ — ص ٣٨٣. المقريزي : السلوك — ج١ — ق٢ — ص ٣٥٩. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم — ج٦ — ص ٣٧١.

٢) ابن أيبك : المصدر نفسه — ج٧ — ص ٣٨٣. المقريزي : المصدر نفسه — ج١ — ق٢ — ص ٣٨٥. ابن تغــري بردي : المصدر نفسه — ج٦ — ص ٣٧١.

٣) المقريزي : المصدر نفسه — ج١ — ق٢ — ص ٣٦٠. ابن تغري بردي : المصدر نفسه — ج٦ — ص ٣٧١. أحمد ابن إبراهيم الحنبلي : المصدر المتقدم — ص ٤٢٨.

٤) أبو شامة : الذيل على الروضتين — الموسوعة — ج ٢٠ — ص ٣٦٥-٣٦٦. جوانفيل : الموســوعة — ج ٣٦ — ص ١٣٣-١٣٥. أبو الفداء : المختصر — الموسوعة — ج ٢٢ — ص ١٧٧. ابن أيبك : المصدر المتقدم — ج٧ — ص ٣٨٣. ابن الوردي : المصدر المتقدم — ج٢ — ص ٢٦٢. المقريزي : المــصدر نفــسه — ج١ — ق٢ — ص ٣٦٠. ابن تغري بردي : المصدر نفسه — ج٦ — ص ٣٧١. أحمد بن إبراهيم الحنبلــي : المــصدر نفــسه — ص ٤٢٨. ابن سباط : المصدر المتقدم — ج١ — ص ٣٥٠.

– في حياة أبيه الصالح أيوب ، فضلاً عن أن شجر الدر كانت بحكم أصلها أقرب إلى المماليك منها إلى الأيوبيين ، لذا يمكن عدها أول سلاطين المماليك في مصر[1].

– تسليم دمياط وجلاء الصليبيين عن مصر :

بعدما فرغ أمراء المماليك البحرية من شؤون الحكم وتخلصوا من توران شاه ، عادوا إلى فتح باب المفاوضات مع لويس التاسع ، ملك الفرنسيين وقائد الحملة الصليبية السابعة ، وأبرم الطرفان معاهدة صلحٍ تشبه سالفتها التي عُقِدَتْ بين المعظم توران شاه ولويس التاسع ، سوى شرط إضافي يقضي بدفع الملك الفرنسي مبلغ مائتي ألف ليرة ذهبية إلى المسلمين ، قبل مغادرته أرض مصر ، ودفع مبلغ مماثل لدى وصوله إلى عكا ، وما لبث أن أقسم الطرفان على الالتزام بهذه الشروط والعمل بها[2].

وفي يوم الجمعة الثالث من شهر صفر سنة ٦٤٨ هـ / ٧ أيار سنة ١٢٥٠ م ، دخلت العساكر المصرية دمياط ، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة وأبراجها ، بعد أن ظلت في أيدي الصليبيين قرابة السنة[3].

ودفع لويس التاسع مُقدّم الفدية ، ثم أبحر على ظهر سفينة جنوية من ميناء دمياط قاصداً عكا ، يقود قلّة منهكة من قادة الجيش الناجين بأنفسهم ، وتاركاً – في الوقت نفسه – عدداً كبيراً من أسرى جنود حملته ، ومعلناً الإخفاق التام للحملة الصليبية

١) أبو الفداء : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٢٢ – ص ١٧٧. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٦١–٣٦٢. ابن تغري بردي : المصدر نفسه – ج٦ – ص ٣٧٣–٣٧٤.

٢) جوانفيل : حياة القديس لويس – الموسوعة – ج ٣٦ – ص ١٣٦. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٦٣. ابن تغري بردي : المصدر نفسه – ج٦ – ص ٣٦٩.

٣) متى باريس : التاريخ الكبير – الموسوعة – ج ٤٨ – ص ١١٥٠–١١٥١. أبو الفداء : المصدر المتقدم – الموسوعة – ج٢٢ – ص ١٧٧. ابن الوردي : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ٢٦٢. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٦٣. ابن تغري بردي : المصدر نفسه – ج٦ – ص ٣٦٩. ابن سباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٣٥١.

٥ — في مقابل ذلك ، كانت عناصر الطاعة والالتزام بأوامر القائد العسكري للقوات المصرية ، واحترام سلطة ملك مصر ، عوامل مهمة تميز بها المعسكر الإسلامي المصري ، إذ رأينا مدى شدة وقسوة عقوبات الصالح أيوب للمتراجعين من بني كنانة ، وكيف عنّف فخر الدين وقادة جيشه ، مما يدل على سلطة مطلقة وولاء تام ، كما رأينا سرعة انصياع الجند لتعليمات القائد العسكري الجديد ، بيبرس البندقداري ، الذي تولى القيادة بعد استشهاد فخر الدين ، مما يعطينا فكرة واضحة عن دقة التنظيم العسكري للجيش المصري ، وعن قدرته على مواجهة المحن وإيجاد القائد العسكري البديل فوراً .

٦ — يجب ألا نغفل أبداً دور أهل مصر في تحقيق النصر ، إذ لم يقد الحرب مماليك مصر وجندها وحسب ، بل إن أول من أضاء شعاع التفوق ، وخط بداية إخفاق الحملة ، كان أهل مدينة المنصورة الذين تسلقوا أسطح المنازل وجدرانها العالية ، وقذفوا القوات الصليبية المتوغلة داخل أحياء مدينتهم بالطوب والخشب والسهام والرماح ، فارتفعت الروح المعنوية لدى القوات الإسلامية المنهزمة بعد مقتل قائدها فخر الدين ، وعادت ونظّمت صفوفها ثم هاجمت القوات الصليبية مكملة ما بدأه أهل المنصورة وسكانها .

وهكذا تركت مصر ، بصمود أهلها وبسالة قواتها وحذاقة قادتها ، ندبة بارزةً على جبين لويس التاسع ملك فرنسا ، وخلفت في نفسه غصة عميقة الأثر ، فكان أن تحولت بفعل دورها ، وعظيم موقعها ، وسيلة أو مطية يتحقق بها هدف الاستيلاء على بيت المقدس إلى هدف بذاته ، وأخذ لويس التاسع يبحث عن منفذ آخر أو وسيلة أخرى ينفذ بها ومنها إلى مصر ، الهدف الجديد والمؤلم والصعب ، فكانت تونس والحملة الصليبية الثامنة ، سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م ، ولكن الملك الفرنسي لويس التاسع سقط ضحية حمى تيفية ، ومات في السنة نفسها ، وبداخله الكثير الكثير من آهات مصر وعذاباتها[1].

---

١) متى : التاريخ الكبير — الموسوعة الشامية — ج٥٠ — ص ١٨٤٤ — ١٨٤٦. جوانفيل : المصدر نفسه — الموسوعة — ج ٣٦ — ص ٢٦٢-٢٦٧. المقريزي : المصدر المتقدم — ج١ — ق٢ — ص ٣٦٤-٣٦٥. يوسف : المرجع المتقدم — ص ٢٨١.

Ronald C. Finucane: Soldiers of the faith , London , 1983 , p. 28.
David Nicolle: The Crusades , London , 1988 , p. 13.

الفصل السادس

حملة بطرس الأول دي لوزغنان على الإسكندرية

- أوضاع مصر في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي
- أوضاع الغرب الأوروبي
- أوضاع قبرص

- أثر الدعاة اللاتين في قيام الحملة
- أسباب اختيار الإسكندرية
- الاستعداد للحملة وإبحارها صوب الإسكندرية
- وقائع الحملة داخل وخارج الإسكندرية
- إخفاق الحملة ونتائجها

- أوضاع مصر في النصف الثانـــي من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي :

مع وفاة الناصر محمد بن قلاوون ، سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠م[١] ، انتقلت دولة المماليك إلى مرحلة جديدة من تاريخها ، حيث بدا واضحاً تسلّط كبار الأمراء على أمـــور الـــسلطة والحكم ، وكثرة عدد السلاطين الذين اعتلوا العرش ، وصغر سنـــهم ، وشـــدّة التنـــافس بـــين هؤلاء الأمراء الذي وصل إلى حدّ القتال في شوارع القاهرة بـــين حين وآخر ، ممّـــا أغرق البلاد في حالةٍ من الفوضى ، وانعدام الأمن ، فيما كان مصير سلاطين المماليك — في أغلب الأحيان — الخلع ثمّ النفي ، أو القتل. وممّا لا شكّ فيـــه أنّ عدم وجود نظام وراثـــي أو قاعدة معيّنة لاختيار أولئك السلاطين ، وتطلّع الأمراء للوصول إلى منصب السلطنة ، قد أدّى بدوره إلى كثير من الفتن والاضطرابات والمؤامرات التي شهدها العصر المملـــوكي ، إذ يكفي أن تعلن وفاة واحد من السلاطين أو مرضه أو هزيمة جنـــوده حتّـــى تعـــجّ الـــبلاد بالاضطراب ، وما أن يُذاع عن قيام سلطان جديد في الحكم حتّى يعلن منافسوه من كبـــار الأمراء في مصر أو في بلاد الشام عن عدم رضاهم لتوليتـــه وتمرّدهم ضدّه[٢] ، فينتـــشرون في الأسواق والطرقات لنـــهب الحوانـــيت وخطـــف العمـــائم وانتـــزاع الخيـــول مـــن أصحابـــها ، بل كانوا يـــهجمون — أحياناً — على النـــساء في البـــيوت والحمّامـــات فيخطفونـــهنّ[٣].

وصفوة القول ، إنـــه لم يكن بـــين أولاد الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده مَنْ يماثله في قدراتـــه الإدارية ، وكفاءتـــه العسكرية ، ففقدت مصر كثيراً من الاستقرار الداخلي ، وساد فيـــها الانحلال الخُلُقي ، الذي انغمس فيـــه بعـــض السلاطين من أحفـــاد الناصـــر

---

١) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي — ج٢ — ص ٤٧٢. ابن كثير : البدايـــة والنـــهاية — ج١٤ — ص ٢٠٧. مؤرّخ مجهول : تاريخ الملك الأشرف قايتباي — تحقيق : د. عمر عبد السلام التدمري — بـــيروت — ٢٠٠٣م — ص ٦٧.

٢) المقريزي : السلوك — ج٢ — ق١ — ص ٥٠٧-٥٠٨. سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي — القاهرة — ١٩٦٥م — ص ٣٢٤.

٣) المقريزي : المصدر نفسه — ج٢ — ق ٣ — ص ١٦٤. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة — ج١٠ — ص ١٢٢-١٢٣.

محمد ، حتّى قيل عن الملك المنصور صلاح الدين محمد (٧٦٢ – ٧٦٤هـ / ١٣٦١-١٣٦٣م) إنه كان لا يصحو من السُّكْر ساعة[1]. وانفرد الأتابكي يلبُغا الخاصكي بتصريف شؤون الدولة والحكم ، وفي سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣م ، خُلِع الملك المنصور محمد ، واتّفق يلبُغا وكبار الأمراء على تولية الملك الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون ، وكان عمره حينذاك عشرة أعوام[2] ، ممّا يدلّنا على سبب رغبة الأمراء – وخصوصاً يلبُغا الخاصكي – بتولية الأشرف شعبان ، فقد ازداد طغيان يلبُغا وقسوته إلى درجة أنه كان يضرب بعض مماليكه الضرب الشنيع المبرح على الذنب اليسير ، فنقموا عليه ، ولجأوا إلى الملك الأشرف شعبان ، علّه ينقذهم من محنتهم ، فردّ يلبُغا على ذلك بأن ولّى آنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون ، بدلاً من أخيه الأشرف شعبان ، ولقّبه بالملك المنصور ، غير أنّ المعركة اشتدّت بين جماعة الأشرف شعبان من الأمراء والمماليك ، ومَنْ معه من مماليك يلبُغا ، وبين يلبُغا وأتباعه ، حتّى انتهى الأمر بمقتل يلبُغا في شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٨ هـ / كانون الثاني ١٣٦٦م[3].

– أوضاع الغرب الأوروبي :

على الرغم ممّا أحدثه تحرير عكّا من الصليبيين ، سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م[4] ، من أثر هائل شمل الغرب الأوروبي كلّه ، فإنه لم يؤدِّ إلى قيام حملة صليبية شرع بها

---

١) ابن تغري بردي : المصدر نفسه – ج١١ – ص ٧. ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور – تحقيق : محمد مصطفى – (٥) أجزاء – القاهرة – ١٩٨٣م – ج١ – ق١ – ص ٥٩٣. عاشور : العصر المماليكي – ص ١٢٩.

٢) ابن كثير : المصدر المتقدّم – ج١٤ – ص ٣٢٣. المقريزي : السلوك – ج٣ – ق١ – ص ٨٣. مؤرّخ مجهول : تاريخ قايتباي – ص ٧٦.

٣) ابن كثير : المصدر نفسه – ج١٤ – ص ٣٤٥. المقريزي : المصدر نفسه – ج٣ – ق١ – ص ١٣٦-١٣٧. ابن تغري بردي : المصدر المتقدّم – ج١١ – ص ٣٨-٤٠. مؤرّخ مجهول : المصدر نفسه – ص ٧٩. ابن إياس : المصدر المتقدّم – ج١ – ق٢ – ص ٤٧-٥٠.

٤) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر – الموسوعة – ج٢٢ – ص ٢٦٧. ابن الوردي : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٣٣٦. ابن كثير : المصدر نفسه – ج١٣ – ص ٣٥٦. ابن تغري بردي : المصدر نفسه – ج٨ – ص ٥-٨. مؤرّخ مجهول : المصدر نفسه – ص ٦١.

ملوك وأمراء أوروبا ، إذ خبتْ جذوة الحماسة لديـــهم ، فضلاً عن تغيّر المفاهيم والقـــيم ، وانشغال معظم الدول الأوروبـــية بشؤونـــها الداخلية. ففي أوائل القـــرن الرابـــع عـــشر الميلادي تمّ اختيار البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤م) ، الذي فضّل الإقامة في أفينون كمقرّ جديد للبابويـــة ، وهكذا أضحتْ البابوية فرنسية ، بعد أن وليـــها بابا عُدَّ فرنـــسياً تماماً ، وأحاطتْ بـــه بطانة من الكرادلة الفرنسيين ، وازدادت البابوية رسوخاً في أفينـــون بعد أن أقدم البابا كليمنت الســـادس (١٣٤٢-١٣٥٢م) على شراء هذه المدينـــة ســـنة ١٣٤٨م ، وباتت مُلكاً للبابوية ، غير أنّ الأمن والسلام اللذين تمتّعت بـــهما البابوية وهي بعيدة عن روما ، قد اضطرّها إلى فقدان هالتـــها الروحية ، وهيبتـــها الدينـــية ، بعـــد أن تخلّت عن كرسي القديس بطرس ، الموجود أصلاً في روما ، فضلاً عن أنّ البابوية في أفينون لم تكن حرّة تماماً ، بل كان البابوات ظلاً لملوك فرنسا ، هذا إلى أنّ الخطر الحقيقي الـــذي كان أشدّ قسوة على البابوية ، هو ما نتج عن النشاط الاقتصادي المتسارع والتطوّر السياسي والاجتماعي ، وازدهار العلوم الجديدة التي احتضنتـــها الجامعات الناشئة ، والتي جعلـــت الغرب ينشغل عن الكنـــيسة وتعاليمها ، ويتّجه نحو حياة أكثر حرية ، وأوسع أفقاً ، حتّى بدا أنّ مصلحة الدولة والمجتمع تعلو مصلحة الكنـــيسة ، وأنّ واجب الفـــرد نحـــو نفـــسه ووطنـــه يجب أن يتقدّم واجبـــه تجاه الكنـــيسة.

ولا شكّ أنّ تلك التطورات والأفكار الجديدة جعلت الغرب – حينذاك – يعيد النظر في حقيقة البابوية ، ويتساءل عن وظيفة البابا ، وعـــن دوره ، ومـــدى أهمية ما يفعلـــه في المجتمع ، وما هو مصدر سلطة البابا ، فالانشقاق الدينـــي في الغرب ، وما تلاه من ظهـــور بعض الحركات الهرطقية التي اتّجهت نحو نقد الكنـــيسة وتصرّفاتـــها ، وتجـــريح رجـــال الدين – على رأسهم البابا – والإقلال من شأنـــهم ، كـــل هذا أسهم في ضـــياع هيبـــة البابوية ، وأفقد الحركة الصليبـــية الروح القوية التي بدأت بـــها بتشجيع من البابوية وتحت زعامتـــها ومباركتـــها[1].

---

١) إرنست باركر : الحروب الصليبـــية – ترجمة : السيد الباز العرينـــي – القاهرة – د.ت – ص ١٩٠. عاشور : الحركة الصليبـــية – ج٢ – ص ٩٤٢.

وفي فرنسا اجتمع مجلس طبقات الأمّة ، بعد وفاة شارل الرابع (١٣٢٢-١٣٢٨م) ، واختار فيليب السادس ملكاً على فرنسا ، ممّا جرّ إلى النـزاع حول وراثة العرش ، وقيام حرب المائة عام مع إنكلترا ، فضلاً عن انشغال كلتا الدولتين - إنكلترا وفرنسا - بمشاكلهما الداخلية ، ففي الأولى كان التطوّر الدستوري ، وما صحبه من صراع مع الملك ، فضلاً عن الحرب مع اسكتلندا ، وفي الثانية كانت الحرب ضدّ فلاندرز ، وثورة الفلاحين سنة ١٣٥٧م ، ثمّ مشكلة الوصاية على الملك شارل السادس. أمّا ألمانيا ، فقد أنهكها النـزاع مع البابوية ، وأدّى الانشغال الإمبراطوري بأمور إيطاليا إلى إهمال شؤون ألمانيا نفسها[1].

- أوضاع قبرص :

ما أن فتحت عكّا أبوابها للمسلمين ، في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ / أيار ١٢٩١م ، حتّى تهاوت كل المدن الصليبية ، مثل صور ، وصيدا ، وبيروت ، وحيفا ، وأنطرطوس[2]. وانتقل معظم الصليبيين - الذين نجوا من القتل أو الأسر - إلى قبرص ، وأصبحت الجزيرة أكبر ملجأ للاتين بالشرق ، والجبهة الرئيسية في الحروب الصليبية. كما أنها بدأت تحسّ بكيانها الاقتصادي ، الذي بدأ بالنموّ مع قدوم الجاليات التجارية التابعة للمدن الإيطالية ، البندقية وجنوى وبيزا ، وتأسيسها لمحطات تجارية قنصلية تشرف على أعمالها وتراقبها ، وتبقى على اتّصال مع فنادقها في مصر وآسية الصغرى ، وبذا فإن قبرص كمعقل صليبي - شبه وحيد - وكمحطّة تجارية

١) عاشور : المرجع نفسه - ج٢ - ص ٩٣٩. د. سهير محمد نعينع : حملة بطرس لوسنيان على الإسكندرية - القاهرة - ٢٠٠٢م - ص ٦٤-٦٥.

Ralph A. Griffiths: History of Britain, Oxford University Press, 1984. pp. 171-181.
Simon Schama: A History of Britain, London, 2002, pp. 213-221.

٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر : الموسوعة - ج٢٢ - ص ٢٦٧-٢٦٩. ابن الوردي : المصدر المتقدّم - ج٢ - ص ٣٣٧. ابن كثير : المصدر المتقدّم - ج١٣ - ص ٣٥٧. ابن تغري بردي : المصدر المتقدّم - ج٨ - ص ٥-٨. مؤرّخ مجهول : المصدر المتقدّم - ص ٦١.

ناشئة ، كان لزاماً عليها أن تنهض بحرب صليبية جديدة ، تبعث الماضي ، وترسّخ حاضرها ، وتعزّز شرعية ملوك قبرص ، الذين استمرّوا خلال القرن الرابع عشر الميلادي — وما بعد ذلك — يؤكّدون على أنهم ملوك قبرص والقدس ، وكانوا يصرّون على هذه الألقاب في وثائقهم الرسمية ، وعلى نقودهم(١). ولعلّ حرصهم على أن يتمّ تتويجهم في ميناء فيماغوستا ، مردّه رغبتهم جعل المدينة تبدو كأنها بديلٌ — ولو مؤقّتاً — لمملكة القدس الثانية في عكّا ، لذا لم يكن مستغرباً أن يتقدّم ملك قبرص هنري الثاني دي لوزغنان (١٢٨٥-١٣٢٤م) إلى البابا كليمنت الخامس بمشروع حملة صليبية كان الشرط الأول فيها — لضمان نجاحها — هو العمل على إضعاف قوة السلطان المملوكي اقتصادياً بضرب حصار بحري على مصر وبلاد الشام مدّة سنتين أو ثلاث سنوات ، بحيث يكون الأسطول الصليبي المكلّف بالحصار مستقلاً تمام الاستقلال عن الجمهوريات الإيطالية التجارية ، التي ارتاب هنري الثاني في إخلاصها للحركة الصليبية ، مع استمرار تعاملها التجاري مع المماليك. وقد ارتأى هنري الثاني في مشروعه من أن الحصار الاقتصادي البحري سيضعف السلطان المملوكي ودولته إلى درجة تجعل المماليك عاجزين عن مقاومة أيّ حملة صليبية تنزل بأراضي مصر نفسها — حاضرة السلطان وعاصمة ملكه — حتّى إذا ما تمّ ذلك أصبح دخول بلاد الشام والاستيلاء على القدس أمراً هيناً ، خصوصاً — بحسب زعم هنري — أنّ قبرص ستتولّى زعامة الحملة ، وتتكفّل بإمدادها بالرجال والمؤن. وختم الملك هنري مشروعه ببعض المعلومات عن قدرات مصر الحربية ، ومدى قوّة السلطان فيها ، وأكّد ضعف المماليك بسبب نزاعاتهم مع مغول فارس ، وخلافاتهم الداخلية(٢).

وعلى الرغم من أنّ مشروع هنري الثاني لم يلقَ استجابة سريعة ، فإنه يلفت الانتباه في إصراره على ضرورة مهاجمة مصر وإضعافها ، وأن تكون هي الهدف الأسمى

---

١) عاشور : قبرص والحروب الصليبية — ص ٥٣. نعينع : المرجع المتقدّم — ص ٦٨.

Aziz Suryal Atiya: The Crusade in the Later Miiddle Ages, London , 1938, p. 322.

2) Peter W. Edbury: The Crusading policy of King Peter I of Lusignan of Cyprus, England, 1977, p. 93.

والأول لأي حملة صليبيــية مقبلة. ولكن هيو الرابع (١٣٢٤-١٣٥٩م) ، ملــك قــبرص الجديد ووالد بطرس الأول ، ركّز جهده على التــهديد الملاحي التركي لطــرق التجــارة الأوروبــية ، ونجح في عقد سلسلة من التحالفات ضمّت البندقية ، والبابوية ، وقــبرص ، وفرسان القديس يوحنّا (الإستبارية) في جزيرة رودس[1] ، وقد نجح هؤلاء الحلفاء في تحقيق أعظم نجاحاتــهم في الاستيلاء على أزمير سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤م ، وحافظ ملك قــبرص على إبقاء غليونــين بمثابة حامية قبرصية للدفاع عــن المدينة[2] ، وربّما لتأكيد حقّ قبرص فيــها ، وتعزيز دورها في ذلك التحالف ، فقد كان موائماً جداً دعم قبرص للجهود الرامية لحماية طرق التجارة إلى الغرب الأوروبــي ، خصوصاً أنّ قبرص تدين بازدهارها الكبــير جداً لكونــها ثغراً للتجارة الأوروبــية مع آسيا ، وهو ما مارسه بنجــاح مطلــق مينــاء فيماغوستا القبرصي ، الذي وصفــه أحد الرحّالة الغربــيين بأنــه أغنى جميــع المــدن في قبرص ، وأنّ السكّان في فيماغوستا أثرياء إلى أبعد الحدود ، كما ذكر أنّ الشعب في قبرص هو الأغنى في العالم[3] حينذاك. ونستطيع إدراك مقدار أهمية التجارة بالنسبة لقبرص إذا مــا تتبعّنا قليلاً بعضاً ممّا ذكره ذلك الرحّالة عن وضع قبرص في منتصف القرن الرابــع عــشر الميلادي ، إذ يقول : «عليك أن تعرف أنّ جميع الأمراء والنبلاء والبارونــات والفرســان وأفراد الشعب في قبرص ، هم الأفضل والأغنى في العالم ، وهم يسكنون الآن هنــاك مــع أولادهم ، وكانوا قد اعتادوا من قبل على السكنى في أراضــي ســورية ومدنــــها ، وفي اليــهودية ، وفي مدينة عكّا الجليلة ، لكن أمّا الآن وقد تمّت خــسارة الأراضــي والمــدن السورية ، وكذلك اليــهودية ، ومدينــة عكّا الجليلة ، فقد هربوا إلى قبرص ، وســكنوا هناك ، ولا يزالون يسكنون حتّى الآن ، ويوجد في قبرص أناس أغنــياء جداً ، وتجّار ، ولا عجب في ذلك لأنّ قبرص موجودة في أقصى الشرق بالنسبة للبلدان المسيحية ، ولهذا لا بدّ

---

١) عاشور : قبرص والحروب الصليبــية – ص ٥٥. نعينع : المرجع المتقدم – ص ٧٣.

Edbury: Ibid, pp. 91-92.

٢) عاشور : المرجع نفسه – ص ٥٥. نعينع : المرجع نفسه – ص ٧٣.

Edbury: Ibid, pp. 91-92.

٣) لودولف دي سوخم : وصف الأرض المقدسة – الموسوعة الشامية – ج ٣٩ – ص ٢٩٣-٢٩٥.

لجميع السفن الصغيرة والكبيرة ، ولجميع التجارات مهما كان نوعها ، ومن أيّ بلد جاءت ، لا بدّ أنها محتاجة إلى القدوم أولاً ، وقبل كل شيء ، إلى قبرص ، حيث لا يمكنها بأي شكل من الأشكال تجاوزها ، فضلاً عن هذا يحتاج جميع الحجّاج القادمين من جميع أنحاء العالم ، ومن أي بلد كان ، عندما يتّجهون إلى البلدان القائمة فيما وراء البحار ، يحتاجون إلى القدوم إلى قبرص»[1]. إذاً من الواضح تماماً أنّ قبرص غدت قبلة للتجار والحجّاج والمسافرين ، وأنه لا يمكن أبداً أن تضحّي بثرائها ودورها المهمّ.

وعلى الرغم من أنّ بطرس الأول دي لوزغنان (١٣٥٩-١٣٦٩م) قد سار على نهج والده في الضغط على مراكز القوى التركية ، والحدّ من نشاطها البحري والتجاري ، وتمكّن سنة ٧٦١ هـ / ١٣٦٠م من الاستيلاء على ميناء غورهيغوس الأرمني ، بناءً على طلب سكّانها المحليين ، ومهاجمة واحتلال ميناء أنطاليا التركي ، سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦١م[2] ، فإنه ظلّ غير قانع بهذا العمل ، على أهميته ، ورغب بالقيام بحملة صليبية تترك أثراً لا حدود له ، ربّما بضغط من وضع ملكيته على قبرص ، وظرف اعتلائه العرش ، فهو لم يكن أكبر أبناء أبيه ، و لم تصبح له أحقية في الملك إلاّ بعد وفاة أخيه الأكبر ، الذي ترك طفلاً صغيراً كان اسمه أيضاً هيو ، وصار بطرس الأول ملكاً على قبرص ، وفي نفسه خشية من منافسة ابن أخيه الطفل ، مع أنّ قانون الوراثة في قبرص ، كان لصالح بطرس الأول ، فالولد التالي للملك الأخير يرثه وليس الحفيد ، على عكس الكثير من دول الغرب الأوروبي ، كما في إنكلترا مثلاً ، ولكن مسألة هيو ، ابن أخي بطرس الأول ، وصلت إلى البابا إنوسنت السادس (١٣٥٢-١٣٦٢) ، وعُرِضت على المحكمة البابوية في أفينون ، و لم يتمّ تسوية القضية نهائياً ، حتّى ذهب بطرس الأول بنفسه

---

١) لودولف دي سوخم : الموسوعة الشامية - ج ٣٩ - ص ٢٩٦.

٢) النويري الإسكندراني : الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية - تحقيق : د. عزيز سوريال عطية - (٧) أجزاء - مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن - الهند - (١٩٦٨-١٩٧٦م) - ج٣ - ص ١٢١.

Guillaume de Machaut: The Capture of Alexandria, translated by Janet Shirley, Ashgat Publishing Limited, London, 2001, p. 31.

لحسمها ، وتصالح من ابن أخيه ، وعوّضه بإقطاع كبير في قبرص ، وراتب ضخم ، ولكنه – أي بطرس الأول – ظلّ ممتنّاً إلى البابا أوربان الخامس (١٣٦٢-١٣٧٠م) ، لذا كانت تلك الحملة كجزء من التعبير عن الودّ تجاه البابا[1].

ومن جهة أخرى ، كان من نتائج انتشار الموت الأسود «وباء الطاعون» ، سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٨م ، أن بدأ حجم التجارة بالتناقص والانحدار ، فضلاً عن تأثير اضطراب الأوضاع في آسية الصغرى ، وتبدّل السياسة البابوية وتراخيها ، التي بدأت مع خمسينيات القرن الرابع عشر الميلادي ، بمنح التراخيص للرحلات التجارية الغربية ، خاصةً للبنادقة والجنوية ، لمزاولة التجارة في الإسكندرية ، تلك الرحلات التي كانت قبل بضع سنوات تطلق أشرعتها صوب قبرص ، لذا كان لا بدّ من تلك الحملة الصليبية لتنشيط التجارة القبرصية ، وضرب المنافس التجاري القوي ، وهو مصر[2].

– أثر الدعاة اللاتين في قيام الحملة :

على الرغم من أنّ الحركة الصليبية لم تنته مع تحرير عكّا على يد الأشرف خليل ، سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م ، وجلاء الصليبيين عن ثرى بلاد الشام ، فأنها لم تكن بزخم بدايتها قبل حوالي قرنين من الزمان ، فقد ساد الغرب الأوروبي إحساس بالهزيمة والإخفاق جرّاء حملات لم تعطِ نفعاً ، خصوصاً أنّ المقاييس باتت ماديةً اقتصادية ، وأنّ أساس قيام أي حملة يجب أن يكون أولاً ذا دافع اقتصادي يعود إلى الجمهوريات الإيطالية ، البندقية وبيزا وجنوى ، فأي مشروع صليبي – ضدّ مصر تحديداً – كان مصيره الإخفاق إذا لم يتوّج بإسهام تلك الجمهوريات ، لذا حمل معظم الدعاة اللاتين ، الذين امتلكوا ثقافة كبيرة ، فكرة القضاء على القوة الاقتصادية للدولة المملوكية ، وفي مصر

---

١) عاشور : قبرص والحروب الصليبية – ص ٥٦. نعينع : المرجع المتقدّم – ص ٧٨-٧٩.

Atiya: op. cit, pp. 321-323.

٢) نعينع : المرجع نفسه – ص ٦٢.

Edbury: Op. cit, pp. 95-97.

بالذات ، فكتب ثاديوس النابوليتانـي تقريراً عن مجريات سقوط عكّا ، لكونه شاهد عيان على ذلك الحدث ، وركّز ثاديوس على الأحداث التي تثير شعور الكاثوليك ضدّ المسلمين ، وأرسل تقريره إلى البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ – ١٢٩٣م) ، ولم يضمّن تقريره أي خطّة مستقبلية[١]. كما قدّم الراهب الفرانسيسكاني فيدانزيو دي بادوفا تقريره إلى البابا نيقولا الرابع أيضاً ، حيث اقترح فرض حصار بحري على مصر ، وتشكيل أسطول بحري لمراقبة ذلك الحصار ، وإنزال أشدّ العقاب بالمسيحيين الذين سوف يظلّون يتاجرون مع المسلمين. وأوضح فيدانزيو ضرورة تحوّل التجارة الهندية عن طريق بحر القلزم ومصر إلى فارس وأرمينية الصغرى ، وأكّد أنّ الحصار سيؤدّي إلى فقدان السلطان المملوكي والمسلمين مورداً مهماً كان يمنحهم الثراء والرخاء والقوة ، وأوضح فيدانزيو – كذلك – وجوبَ استمرار الحصار الاقتصادي لمصبّات النيل ، ولمدينة الإسكندرية ، وهذا سيؤدّي إلى نجاح الحملة في حال قيامها[٢].

وما لبث أن ظهر مشروع الداعية الإسباني ريموند لول ، الذي توفّي في شمال إفريقية سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٥م ، وتميّز بمعرفته اللغة العربية وإجادته لها ، ودرايته بطبيعة البلاد الإسلامية ، وقد نادى بالعمل على كسب المسلمين للدخول في الديانة المسيحية عن طريق حملات التنصير ، ولم يتخلّ لول عن فكرة مهاجمة البلاد الإسلامية عسكرياً ، بل رأى أن يتمّ ذلك براً وبحراً في آن واحد ، وأن يبدأ خطّ سير الحملة من إسبانيا حيث يقوم الصليبيون بطرد المسلمين منها ، ثمّ يجاوزون البحر إلى شمال إفريقية ، ويزحفون بحذاء الساحل حتّى مصر[٣].

وننتقل الآن إلى المحامي الفرنسي بيير دوبوا ، المرجّح ولادته بين عامي ١٢٥٠م و١٢٥٥م ، والذي أعدَّ كتابه «استرداد الأرض المقدّسة» منتهزاً صراع ملك فرنسا

---

١) نعينع : المرجع نفسه – ص ٨٧.
Atiya: Op. cit, pp. 31-34.

٢) عاشور : الحركة الصليبية – ج٢ – ص ٩٤٣. نعينع : المرجع نفسه – ص ٨٨-٨٩.
Atiya: Ibid, pp. 35-44.

٣) عاشور : المرجع نفسه – ج٢ – ص ٩٤٤. نعينع : المرجع نفسه – ص ٩١-٩٢.

4) Atiya: Ibid, pp. 79-85.

فيليب الرابع (١٢٨٥-١٣١٤م) مع البابا يونـــيفيس الثامن ، ثمّ هجومه علـــى الداويـــة ، بـــهدف الاستيلاء على أموالهم وثرواتـــهم. وقد حدّد دوبوا الـــشرط الأساســـي لحملـــة صليبـــية ناجحة هو إقامة السلام في أوروبا ، وإحداث إصلاح دقيق في الكنـــيسة ، يشمل البابا والأعضاء جميعاً[١]. ولكن كتاب دوبوا كان ذا تأثير محدود على الـــسياسة الفرنـــسية الرسمية بسبب عجز المؤلّف عن الدخول إلى دائرة المستشارين الملكيين ، وانـــشغال ساســـة أوروبا بصراعاتـــهم وشؤون بلادهم الداخلية.

ثمّ تقدّم بركارد بمشروع حملة صليبـــية إلى الملك الفرنسي فيليب السادس (١٣٢٨-١٣٥٠م) وذلك ضمن كتابـــه «دليل الملك فيليب» ، الذي جعله في قسمين ، تحـــدّث في الأول منـــه عن ضرورة إقامة السلام بـــين الأمم الأوروبـــية كشرط أساسي لنجـــاح أي حملة صليبـــية في الشرق — هذه نقطة مشتركة مع دوبوا — ثمّ ذكّر بضرورة الاتّفاق مـــع البنادقة والجنوية لنقل الحملة ، وحفظ خطوط المواصلات ، وأشار بركـــارد إلى المحطّـــات البحرية التي يمكن الإفادة منـــها للأسطول الصليبـــي في البحر المتوسّـــط ، مثـــل جزيـــرة كريت ، وجزيرة قبرص ، وشدّد على مسألة غزو بلاد الصرب ، واستيلاء الصليبـــيين على القسطنطينـــية ، وأورد الأسباب الدينـــية والسياسية والحربـــية التي تسوّغ مسلكه. أمّا في القسم الثانـــي ، فقد أوصى بركارد بعدم الثقة في الأرمن ، وأيّد التعاون مع المغول لتحقيق الهدف المشترك بالقضاء على الإسلام. وقد دأب مستشارو الملك فيليب السادس على فحص مشروع بركارد ، وشرعوا العمل ببعض بنوده ، غير أنّ تجدّد حرب المائة عام مع إنكلترا ، حال دون قيام حملة صليبـــية جديدة[٢].

ومع الداعية الإيطالي مارينو سانوتو وصلت الدعوة إلى قيام حملـــة صليبـــــية ضـــدّ المسلمين في الشرق إلى الأوج ، فقـــد ولد سانوتو ســـنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م ، في مدينـــة ريفوالتي ، من أعمال جمهورية البندقية ، ومات سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٣م ، وكان والده من

---

١) د. زكّار : الموسوعة الشامية – ج ٣٧ – ص ١٢-٥٦.

٢) عاشور : الحركة الصليبـــية – ج٢ – ص ٩٤٦-٩٤٧.

Atiya: Op. cit, pp. 95-113.

وجهاء البندقية ، وعضواً في مجلس شيوخها ، وشغل أدواراً مهمّة في حياة المدينة وشؤونها البحرية. أمّا سانوتو فقد نشأ نشأة دينية ، وتقلّد عدّة مناصب ، وبحكم الأجواء التي عاشها شارك بالاهتمام في الحروب الصليبية ، وبأوضاع الأرض المقدّسة ، وساعده على تقديم مشروعه إتقانه للغة الفرنسية القديمة ، واللغة اللاتينية ، والإغريقية ، وارتحاله — في سبيل مشروعه — إلى قبرص وأرمينيا والإسكندرية وجزيرة رودس ، وعكّا ، ويحتمل أنه زار أيضاً تونس ، وعرف الأراضي البيزنطية[1]. كل ذلك ساعده على تقديم مشروع ضخم ومهمّ إلى البابا يوحنّا الثاني والعشرين (١٣١٦-١٣٣٤م) حيث أعدّ كتابه «الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدّسة» الذي يُعدّ من أهمّ المشاريع التي قُدِّمتْ لحثّ البابوية وحكّام أوروبا على القيام بحملة صليبية ضدّ المسلمين ، وذلك لأنّ سانوتو كتب عن الحروب الصليبية بدقّة وموضوعية ، إضافة إلى غزارة معلوماته التاريخية والجغرافية ، كما لم يهمل أياً من المشاريع والكتب التي تقدّمت عليه ، إلاّ وعاد إليها ونقل منها ، هذا من جانب ، أمّا من جانب آخر فإنّ كتاب سانوتو يُعدّ ذا أهمية خاصة جداً لتركيزه الشديد على مصر ، ولجعلها هدفاً أساسياً ، يحمل معه كل الحلول لمشاكل أوروبا وغاياتها ، لذا كان رأيه الغالب دوماً «ضرورة محاربة المسلمين في مصر ، إذا ما أردنا استرداد الأرض المقدّسة»[2] لأنّ «مصر هي الدولة الأساسية للسلطان ، إذا قُهر فيها تحطّم كلياً ، وإذا لم يُغلَب كلياً ، فإنه بسبب الضائقة القريبة منه بهذا الشكل ، والواقعة في داخل مملكته ، سوف يطلب الصلح مرغَماً»[3]. وفي سبيل تحقيق هذه الضائقة التي ذكرها سانوتو ، ذكر الأرباح التي يجنيها السلطان المملوكي من تجارة الهند ، وما هي البضائع التي يتعامل بها ، وكيف يمكن للغرب الأوروبي الاستغناء عنها. وأشار إلى الأضرار والخسائر التي ستصيب السلطان ومصر من جرّاء الحصار الاقتصادي البحري ، الذي سيضربه الصليبيون على

---

١) د. زكّار : الموسوعة الشامية - ج ٣٨ — ص ٨.

٢) مارينو سانوتو : الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدّسة — الموسوعة الشامية - ج ٣٨ — ص ١٣٠.

٣) مارينو سانوتو : المصدر نفسه — الموسوعة الشامية - ج ٣٨ — ص ١٣١.

سواحل مصر ، وحدّد طرق الحصار ، وكيف يزعزع الصليبيـــون أركان مصر ، وذكـــر أنواع سفن النقل ، وأصناف الأسلحة ، وكميات الميرة ، ورواتب الجند ، وطريقة توزيـــع الأغذية ، وإذا ما تمّ نجاح الحملة، فإنّ سانوتو عرض طرق حماية الأوروبـــيين لأنفسهم في مصر الصليبيـــية ، ووصف سانوتو شواطئ مصر ، وتخومها ، والطرق البرية التي تصلها من الأراضي المقدّسة ، وذكر أوضاعها الداخلية ، وأكّد أنّ مصر هي العنصر الرئيس لنجـــاح الحملة ، ومنـــها يمكن بسهولة استعادة القدس ومعظم ساحل بلاد الشام ، ولم يغب عـــن سانوتو أن يذكّر بوجوب منع كل مسيحي من المتاجرة مع المسلمين ، والعقوبات التي ينبغي إنـــزالها لكلّ مخالف ، ووجوب يقظة الكنـــيسة والحثّ على متابعة هذا المشروع ، وطلب النجدة من كل أوروبـــي[1].

وما لبثت جهود الدعاة والمتحمّسين للحرب الصليبيـــية أن انتقلت من حيّز الخطـــب ونشر الدعاية الدينـــية والحثّ على قيام الحملة ، إلى حيّز التنفيذ والاتصالات الدبلوماســـية والتنسيق بـــين مختلف الأطراف لبعث الحروب الصليبيـــية وقيام حملاتـــها ، ولعلّ أبرز مَنْ مثّل الاتجاه الجديد هما بطرس دي توماس ، وفيليب دي مزيـــير.

فالأول ، وهو بطرس دي توماس ، فرنسي الجنسية ، درس في مستـــهلّ حياتـــه علم الجدل ، ثمّ تمكّن بعد ذلك من الحصول على درجة الدكتوراه في علم اللاهوت ، وفي ســـنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧م ، زار بلاد الشام ، وعرّج في طريق عودتـــه على مينـــاء فاماغوســـتا القبرصي ، وبرز دور بطرس دي توماس من خلال تعيينـــه مندوباً بابوياً في شهر كـــانون الثانـــي سنة ١٣٦٤م ، فكان اتّصاله مع بطرس الأول دي لوزغنـــان ، ومـــشاركتـــه في الحملة وحضّه على نـــهب وسلب مدينة الإسكندرية ، حتّى انتـــهت حياتـــه بعد مغادرة الحملة الإسكندرية ، حيث مات سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦م ، جرّاء جرح أصيب بـــه خلال مشاركتـــه[2].

---

١) مارينو سانوتو : المصدر نفسه — الموسوعة الشامية – ج ٣٨.

٢) نعينع : المرجع المتقدم — ص ١٠٠-١٠٢.

Atiya Op. cit, pp. 129-135.

أمّا فيليب دي مزيير ، فقد ولد سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧م ، في فرنسا ، وحالما تمّ تتويج بطرس الأول دي لوزغنان على عرش قبرص (١٣٥٩-١٣٦٩م) عيّنـــه في منصب مستشار ملكي ، وهو المنصب الذي احتفظ بـــه حتّى اغتيال بطرس الأول نفسه ســـنة ١٣٦٩م ، حيث غادر جزيرة قبرص ، واعتزل الحياة العامة في أحد الأديرة في باريس ، وانكبَّ علـــى التأليف وتدوين مذكراتـــه ، حتّى موتـــه سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م[١].

- أسباب اختيار الإسكندرية :

عمل صلاح الدين منذ الأيام الأولى للدولة الأيوبـــية في مصر على التحكّم في طريق بحر القلزم (البحر الأحمر) التجاري ، فلم يسمح للتجار الأوروبـــيين بالنفاذ إليـــه وعبوره ، فاقتصرت حركـــة التجـــارة بـــه علـــى المسلمين ، وجنت مصر بسبب ذلـــك ثـــروات طائلة دعمت اقتصادها ، وشحذتْ عزيمتـــها في مواجهة الصليبـــيين. ولمّا تحرّرت عكّـــا ، سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م ، وما تلاها — في السنة نفسهـــا — من تحرير صيدا ، وبـــيروت ، وصور ، وانطرطوس ، ورحيل الصليبـــيين صـــوب بلادهـــم ، ازدادت خـــشية الغـــرب الأوروبـــي من الدولة المملوكية في مصر ، التي سيطرت تماماً على طريق بحر القلزم التجاري المزدهر جداً[٢] ، خصوصاً بعدما أقدم سلاطين المماليك منذ أيام الظاهر بـــيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) على مهاجمة مملكة أرمينـــية الصغرى ، والحدّ مـــن دورهـــا التجاري[٣] ، ثمّ أرسل السلطان محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣١٠-١٣٤٠م) عدّة حملات لانتزاع ميناء إياس الأرمنـــي ، وإلغاء منافستـــه التجارية لميناء الإسكندرية ، ونجح سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧م ، في تحقيق ذلك الهدف ، عن طريق حملة عسكرية قادها الأمـــير

---

١) نعينع : المرجع نفسه — ص ١٠٣-١٠٧.

Atiya: Ibid, pp. 137-140.

٢) سانوتو : الأسرار — الموسوعة الشامية — ج ٣٨ — ص ٦٧. وهو يقول : «إنّ السلطان لا يسمح لمسيحي واحد بالمرور بأراضيـــه إذا كانت لديـــه نـــية بالذهاب إلى الهند».

٣) أبو الفداء : المختصر — الموسوعة — ج ٢٢ — ص ٢٣٣. ابن كثير : البداية والنـــهاية — ج١٣ — ص ٢٧٦. المقريزي : السلوك — ج١ — ق٢ — ص ٥٥٢.

ألطنبغا نائب حلب[1] ، وبذا انتعشت حركة التجارة في موانئ مصر ، وخاصّة ميناء الإسكندرية ، فقد كان طريق بحر القلزم التجاري ، علاوةً على أنه أقصر الطرق ، أكثرها أمناً واستقراراً ، وأقلّها نفقةً وعناءً ، حيث كانت ترد إلى ميناء عيذاب – على بحر القلزم – معظم السفن التجارية القادمة من الشرق ، وتُنْقَل حمولتها براً إلى ميناء الإسكندرية ، الذي ازدادت أهميته بعد هدم ميناء دمياط من قبل الظاهر بيبرس خوفاً من قدوم حملة صليبية أخرى ضدّه[2]. وهكذا غدت الإسكندرية من أكبر المراكز التجارية وأغناها ، إلى درجة أنّ سانوتو – المتقدّم ذكره – قد شدّد على مقدار ما يجنيه السلطان المملوكي جرّاء عائدات المكوس التجارية ، وتهافت البضائع والتجار على هذا الميناء[3].

في مقابل ذلك ، كنّا أوضحنا أنّ قبرص ، بعد دخول المسلمين إلى عكّا وجلاء الصليبيين عن بلاد الشام ، قد غدت أكبر ملجأ للاتين في الشرق ، والجبهة الرئيسة في الحروب الصليبية ، وأنها – أي قبرص – أخذت تنمو اقتصادياً ، مع نزوح الجاليات التجارية إليها ، وتحوّلها إلى محطّة تجارية مهمّة. لذا سارت سياسة ملوكها ، هنري الثاني وهيو الرابع ، على ترسيخ هذا الدور الجديد ، وضمان استمراريته. وعندما تُوِّج بطرس الأول دي لوزغنان أيقن أنّ دور قبرص التجاري عامّةً ، وميناء فيماغوستا خاصّةً ، آفلٌ لا محالة ، في ظلّ تعاظم دور ميناء الإسكندرية ، وقوّة نفوذ السلاطين المماليك ، لذا كان لا بدّ له من توجيه حملته الصليبية إلى الإسكندرية ، آملاً أن يحقّق واحداً من ثلاثة أهداف على الأقل :

الأوّل : أن يستولي على المدينة ويحتفظ بها حتّى يتمكّن في المستقبل ، هو ومملكته ، من الحصول على الأرباح الناجمة عن مركزها التجاري.

والثاني : أن يفاوض عليها المماليك طمعاً في الحصول على امتيازات تجارية على حساب تجّار الغرب الأوروبي المنافسين للتجّار القبارصة في موانئ المسلمين ، وهذا

---

١) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي – ج٢ – ص ٤٤٩. ابن كثير : المصدر نفسه – ج١٤ – ص ١٩٤.

٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك – ج١ – ق٢ – ص ٤٤٦.

٣) سانوتو : الأسرار – الموسوعة الشامية – ج ٣٨ – ص ٧٠-٧١.

الاتّجاه سوف يبرز جلياً في المفاوضات التي أعقبت الحملة ، سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م.

والثالث : أمّا إذا أخفق بطـرس الأول في احتلال الإسكندرية – وهذا ما حـدث فعلاً – فسيعمد إلى تخريبـها على أمل أن تتحوّل عائداتـها التجارية إلى ميناء فيماغوستا القبرصي[1].

وزبدة الكلام ، أنّ الملك بطرس الأول دي لوزغنان كرّس جهده لتثبـيت دور قبرص التجاري ، وضمان رخائها ، وتدفّق الثروات عليـها ، لذا كان استيلاؤه على ميناء أنطاليا التركي ، وتخريبـه مدينة الإسكندرية عندما أيقن تماماً استحالة الاحتفاظ بـها ، لعلّـه يبعدها عن منافسة ميناء فيماغوستا. وأمّا الحديث عن حملة صليبـية وإعادة الاستيلاء على القدس ، فلم يكـن إلاّ محاولة منـه لشحن قبرص بالرجـال والأمـوال مـن الغـرب الأوروبـي ، وتسخيرها في خدمة غرضه الحقيقي.

وأرى أن نعرّج على الأسباب التي انفرد النويري الإسكندرانـي بذكرها ، كـدافع لاختيار بطرس الأول لمدينة الإسـكندرية هـدفاً لحملتـه ، وقـد قـارب النـويري الإسكندرانـي الحقيقة في بعضها ، وابتعد في البعض الآخر.

فقد رأى النويري الإسكندرانـي أنّ السبب الأول هو الظلم الذي أصاب النـصارى في مصر وبلاد الشام ، حين أقدم السلطان الصالح صلاح الدين بن محمـد بـن قـلاوون (٧٥٢-٧٥٥هـ) ، سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م ، على طردهم من الخدمة في دواوين الحكومة ، وأرغمهم على لبس الخشن من الثياب تمييزاً لهم عن المسلمين ، وأن تقـصر أكمـامهم ، وتصغر عمائمهم ، كما أجرى مثل ذلك على اليـهود[2].

أمّا السبب الثانـي ، برأي النويري الإسكندرانـي ، فهو رفض السلطان حسن بن محمد بن قلاوون (٧٥٥ – ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤-١٣٦١م) لطلب تقدّم بـه الملك بطـرس

---

١) نعينع : المرجع المتقدّم – ص ١٠٩-١١٠.

Edbury: Op. Cit, p. 100

٢) النويري الإسكندرانـي : الإلمام – ج٢ – ص ٩٢-٩٥.

الأول دي لوزغنان كي يتمّ تتويجه في صور[1].

وأمّا السبب الثالث ، فيتلخّص في قدرة سفن قراصنة البحر من الصليبيين على مهاجمة ميناء الإسكندرية والاستيلاء على بعض السفن القادمة من بلاد الشام ، دون أن يتمكّن أحد من ردعها والتصدّي لها ، ممّا أغرى بطرس الأول بمهاجمة الإسكندرية بعد أن أيقن بخلوّها من وسائل الدفاع المناسبة[2].

والأسباب من الرابع إلى السادس ، تتضمّن غارات الصليبيين على سواحل مصر ، حيث قاموا بعمليات سلب ونهب في مينائَي رشيد وأبي قير ، ممّا عزّز من يقين الملك بطرس الأول دي لوزغنان بانعدام وسائل الدفاع عن الساحل المصري ، وسهولة مهاجمته ، وربّما تملك ، ذلك الساحل[3].

والسبب السابع الذي أتى به النويري الإسكندراني ، هو ما فعله عوام المسلمين بالإسكندرية من قتل البنادقة المقيمين بمدينتهم[4].

ولعلّ من الواضح أنّ الأسباب التي أوردها النويري الإسكندراني تفتقد إلى المسوّغ أو التعليل الذي يفسّرها ، كما في السببين الأول والسابع ، ممّا يدعنا في حيرة من أمرنا ؛ ويضطرّنا إلى عدم الأخذ بها كاملاً ، أو القبول بها دون حجّة دامغة.

- الاستعداد للحملة وإبحارها صوب الإسكندرية :

يبدو أنّ بطرس الأول دي لوزغنان أدرك صعوبة تحقيق هدفه ، وقيام قبرص بالحملة لوحدها ، لذا شرع القيام برحلة دامت نحو ثلاث سنوات ، جاب خلالها غرب أوروبا طلباً للمال والرجال ، متّخذاً من استرجاع القدس والأراضي المقدّسة ستاراً لحملته ، فأبحر من

١) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٩٦-٩٧.
٢) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٩٧-١٠١.
٣) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٠٣-١٠٩.
٤) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٠٩.

قبرص في ٣ المحرّم سنة ٧٦٤ هـ / ٢٤ تشرين الأول ١٣٦٢م ، صـــوب جزيـــرة رودس ، ومنـــها إلى البندقية ، حيث طلب إمداده بالسفن اللازمة للحملة ، ثمّ زار مدن لمبارديـــا ، وبادوا ، وفيرونا ، وميلان ، وبافاريا ؛ حتّى وصل إلى جنوى ، فأنـــهى خلافاتـــه معها ، وطلب مساعدتـــها البحرية[١] ، ثمّ اتّجه صوب أفينون ، والتقى البابا أوربـــان الخـــامس ، وملك فرنسا يوحنّا الثانـــي (١٣٥٠-١٣٦٤م) الذي عُرِف بفروسيّتـــه وتقواه[٢] ، لذلك لم يجد بطرس الأول أي صعوبة في كسبـــه لصالح قضيتـــه ، وعندما أطلق البابـــا أوربـــان الخامس دعوتـــه إلى قيام حملة صليبـــية ، رجب ٧٦٤ هـ / نـــيـــسان ١٣٦٣م ، أعطـــى القيادة إلى يوحنّا الثانـــي ، ملك فرنسا ، وعيّن الكاردينال إلياس تاليراند أوف بـــيرغورد ، مندوباً بابوياً[٣]. وإذا كنّا نعلم حقيقة غرض بطرس الأول من الحملة ، فما هو — في مقابل ذلك — غرض يوحنّا الثانـــي ؟

لقد أنـــهت معاهدة بريتنـــي ، الموقّعة سنة ١٣٦٠م ، الصراع المفتوح بـــين فرنسا وإنكلترا في حرب المائة عام ، لكنّ الأوضاع في فرنسا كانت مضطربة كثيراً ، ولا تـــساعد على قيام مثل هذه الحملة ، لذا فمن المحتمل أنّ الملك الفرنسي كان يأمل في أن يضع يديـــه على الإجراءات البابوية لجمع الضرائب من أجل الحملة الصليبـــية ، ليخفّف من مصاعبـــه المالية ، كما رغب أيضاً في أن تزيح الحملة الصليبـــية عن كاهل فرنسا عـــبء عـــصابات المرتزقة التي عُرِفت باسم الجماعات الحرة ، والتي لم يجرِ استخدامها وتوظيفها منـــذ قيـــام السلام ، والتي كانت تتولّى إرهاب أجزاء من الريف الفرنسي[٤].

ونعود إلى بطرس الأول دي لوزغنان ، الذي غادر أفينون صوب فلانـــدرز ، وبعـــد جولتـــه في عدّة مدن ألمانـــية ، توجّه إلى باريس للقاء يوحنّا الثانـــي ، ملك فرنسا ، مرّةً أخرى ، ثمّ التقى شارل دوق نورماندي ، وما لبث أن عبر البحر صوب لندن فقابل إدوارد

---

١) عاشور : قبرص والحروب الصليبـــية — ص ٥٦-٥٧.
Machaut: Op. Cit, p.32. Atiya: : Op. Cit, pp. 331-332.
2) Machaut: Ibid, p. 32.
3) Machaut: Ibid, p. 33. Norman Housley: The Avignon Papacy and the Crusades, Oxford , 1986, pp. 41-42.
4) Atiya: Op. cit, p. 339. Edbury: Op. cit, p.93.

الثالث ملك إنكلترا (١٣٢٧-١٣٧٧م) ، ولكـــن موت المندوب البـــابوي الكاردينـــال تاليراند ، في ١٧ كانون الثانـــي ١٣٦٤م ، وكذلك يوحنّا الثانـــي ملك فرنـــسا ، في ٨ نـــيسان من السنة نفسها ، اضطرّه للعودة إلى باريس لتشييع الملك الراحل ، وتتويج ولـــده دوق نورماندي بلقب شارل الخامس (١٣٦٤-١٣٨٠م) ، وانتقل بطرس الأول مجدداً إلى ألمانـــيا والتقى رودولف الثانـــي دوق سكسونـــيا (١٣٥٦-١٣٧٠م) ، والتقى أيضاً مع الإمبراطور الألمانـــي شارل الرابع (١٣٤٦-١٣٧٨م) الـــذي صحبـــه إلى كراكـــاو - عاصمة بولندا حينذاك -- حيث عُقِد اجتماع في أواخر شهر أيلـــول مـــن ســـنة ١٣٦٤م ضمّهما إلى كانب كازيمير الثالث ملك بولندا (١٣٣٣-١٣٧٠م) ، ولويس الأول ملـــك هنغاريا (١٣٤٢-١٣٨٢م) ، واتفق الإمبراطور وملكا بولندا وهنغاريا على دعـــم بطـــرس الأول[1] ، الذي قصد دوق النمسا ، رودولف الرابع أوف هابسبورغ (١٣٥٨-١٣٦٥م) في فيينا ، ثمّ عرّج - كما في بداية رحلتـــه - على البندقية آملاً في أن يكون ختام طوافـــه مسكاً[2].

وبعد ، لقد أتت رحلة بطرس الأول دي لوزغنان إلى الغرب على نـــهايتـــها ، فماذا كانت النتيجة ؟

تعدّ زيارة بطرس الأول إلى معظم مدن الغرب الأوروبـــي ، الأولى من نوعها خلال حقبة الحروب الصليبـــية ، فما عهدت أوروبا بأحد ملوكها أو حكّامها أن يتنـــازل عـــن كبريائه ويجوب دولها ومدنـــها مبشّراً بحملة صليبـــية ، وطالباً العون والمـــساعدة. وعلـــى الرغم من تعاطف أغلب الأمراء والملوك الذين التقى بـــهم بطرس الأول ، فإنّ ما حصده لم يكن سوى خطبٍ برّاقة ، ووعود جوفاء ، والعديد من الولائم والهدايا النفيسة ، ولا شـــيء حقيقياً لحملة صليبـــية نحو الشرق.

في مقابل ذلك بدا جلياً تماماً أنّ البابوية كانت وما تزال تحلم بالماضي ، وما سعيـــها الحثيث لإقامة السلام بـــين حكّام الغرب الأوروبـــي ، وحلّ الخلافات بـــينـــهم ، إلاّ

1) Machaut: : Op. Cit, pp.35-45. Atiya: Ibid, pp. 335-336
2) Machaut: : Ibid, pp.47-50. Atiya: Ibid, pp. 336-337

دليل على رغبتـــها في بعث الحروب المقدّسة ، لتبعث معها سلطة البابا ، وهيمنـــة رجـــال الدين[1].

وأبحر بطرس الأول دي لوزغنان – ملك قبرص – على رأس أسطوله مـــن مدينـــة البندقية صوب جزيرة رودس ، في ٥ شوال سنة ٧٦٦ هـ / ٢٧ حزيران ١٣٦٥م ، حيـــث استقبله هناك مقدَّم الإستبارية ريموند بـــيرنغر (١٣٦٥-١٣٧٤م) ، ومكث بطرس منتظراً انضمام أسطوله القادم من قبرص[2] ، والذي ما أن وصل ، في ٥ ذي الحجة سنة ٧٦٦ هـ / ٢٥ آب سنة ١٣٦٥م ، حتّى أصبح لديـــه أسطول ضخم مكوّن مـــن ســـبعين ســـفينة حربـــية[3]. وعمل بطرس الأول على منع تسرّب أخبار الحملة ، وعدم معرفة وجهتـــــها الحقيقية ، لخشيتـــه من معارضة البنادقة أولاً ، ولرغبتـــه في أخذ المبادرة تجاه حامية مدينة الإسكندرية وأهلها. وإذا كان قد نجح في مسعاه تجاه البنادقة و لم يبلغهم عن هدف الحملـــة سوى قبل أربعة أيام من وصولهم إلى الإسكندرية[4] ، فإنّ أخبار الحملة ، وتجهيزات الملـــك بطرس لها ، ومجريات رحلتـــه إلى الدول الأوروبـــية ، والغاية منـــها ، والإبحار صـــوب رودس ، واتّخاذها قاعدة لأسطول الحملة ، كل ذلك لم يكن خافياً على أهل الإسكندرية ، وأولي الأمر في القاهرة ، إذ يقول النويري الإسكندرانـــي : «ثمّ إنّ القبرسي[5] لّما قصد غزو الإسكندرية استنجد بملوك النصارى ، بإشارة الباب (البابا) لهم في ذلك ، .... ، فلمّـــا

---

١) نعينع : المرجع المتقدّم – ص ١١٨-١١٩.

Atiya: Ibid. pp. 338.

٢) نعينع : المرجع نفسه – ص ١٢٦.

Machaut: : Op. cit. pp.51-52.

٣) النويري الإسكندرانـــي : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ٢٣٠. وهو يذكر أنّ البنادقة كان إسهامهم بأربعة عـــشر مركباً ، والجنوية بمركبـــين ، وجزيرة رودس بعشرة مراكب ، والفرنسيين بخمسة مراكب ، والباقي من جزيـــرة قبرص. المقريزي : السلوك – ج٣ – ق١ – ص ١٠٥. ويذكر العدد ما بـــين سبعين إلى ثمانـــين قطعـــة. ابـــن تغري بردي : المصدر المتقدّم – ج١١ – ص ٢٩. ابن إياس : المصدر المتقدّم – ج١ – ق٢ – ص ٢١.

4) Machaut: OP. cit. p. 60. He says: "The king gave orders: let them now be told
To follow him to Alexandria;
God willing, there he'd land, he would not stop
Until they reached it. Then- astonishment,
Anger, dismay !".

٥) يقصد بطرس الأول دي لوزغنان ملك قبرص.

أعانت ملوك النصارى صاحب قبرس بالمال والرجال والغربان ، بإشارة الباب لهم في ذلك ، تعمّرت المراكب له - على ما قيل - برودس ، لأنـها دار صناعة الفرنج ، فكانت عمارتـها — على ما قيل — في أربع سنين ، وذلك في مدّة طوافه على الملوك. فلمّا رجع إلى قبرس وجدهم تـهيّأوا له ، فجمع ما جاء به على ما عُمِّر له ، وتوجّه إلى الإسكندرية.

وكانت الأخبار تأتي إلى الإسكندرية بأنّ العمارة عند القبرسي ، فاستـهمّ نائب السلطان بـها ، وهو الأمير زين الدين خالد[1] ، فرفع سورها القصير من جهة الباب الأخضر ، وصار يجتـهد في العمارة ، ويرسل يطلب من الأمير يلبغا الخاسكي ، مقدّم الجيوش المنصورة ، الإعانة على عمارة السور ، ويعلمه بخبر عمارة القبرسي للمراكب البحرية ، فيقول : إنّ القبرسي أقلّ وأذلّ من أن يأتي إلى الإسكندرية ، وما علم يلبغا أنّ شرارة أحرقت الجلمود ، وبعوضة أهلكت النمرود»[2]. ولعمري إنّ النويري قد أوجز معظم ما سلف وذكرناه ، بل أضاف عليه تـهاون أتابك العسكر ، يلبغا الخاصكي ، واستحقاقه بأمر الحملة ، وعدم مبالاته بشؤون الإسكندرية.

- وقائع الحملة داخل وخارج الإسكندرية :

ومع فجر يوم الخميس ٢١ المحرم سنة ٧٦٧هـ / ٩ تشرين الأول سنة ١٣٦٥م[٭] ، ملأت سفن الصليبيين ، بقيادة بطرس الأول ، الشاطئ المقابل لمدينة الإسكندرية ، ورستْ بعض منـها في بحر السلسلة من جهة الباب الأخضر ، فقام الأهالي بتعزيز الأسوار والأبراج

---

١) يبدو أن هذا الأمير كان نائباً عن السلطان المملوكي في أعمال العمران والبناء فقط. انظر : نعينع : المرجع المتقدم — ص ١٣٤-١٣٥. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية — (٣) أجزاء — دار النهضة العربية — القاهرة — ١٩٩٦م — ج٣ — ص ٩٩٧-٩٩٨.

٢) النويري الإسكندراني : المصدر المتقدم — ج٢ — ص ١١٠-١١١.

٣) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه — ج٢ — ص ١٣٧.

Machaut: Ibid, p. 62.

من جهة بحر القلزم برماة القسي[١] ، بينما فضّل الجيش الصليبي البقاء في مراكبه حتّى صباح اليوم التالي ، ريثما تصل بقية قطع الأسطول ، ربّما لقناعة بطرس الأوّل أنّ الإسكندرية ليست بتلك السهولة بحيث يمكن اقتحامها دون استكمال قوّاته ، مع ما وجده من معارضة لغزوها ، ممّن شاركوا في الحملة ، ممّا أضفى على مهاجمة المدينة واجتياحها هالة من الخوف والقلق[٢] ، في حين منحه موسم فيضان النيل شعوراً بالاطمئنان[٣] ، حيث لا يمكن الاتصال بالقاهرة إلاّ بالطريق الصحراوي البعيد ، وبالتالي لا يمكن قدوم نجدة سريعة إلى الإسكندرية ، هذا إلى أنّ والي المدينة ، صلاح الدين بن عرام ، كان في مكّة لقضاء فريضة الحج ، أمّا نائبه – جنغرا – فلم يكن أهلاً لتلك المسؤولية[٤] ، ورفض ما أشار به أحد التجّار المغاربة ، من أجل إخلاء رُبَط[٥] المدينة وساحلها من السكّان ، واحتمائهم بالأسوار لتتوحّد مقاومة الجميع في الدفاع عنها ، وها هو ذا النويري الإسكندراني يُقِرُّ بصحّة رأي التاجر المغربي «ولو كان المسلمون تركوا للقبرسي الجزيرة[٦] ، وتحصّنوا بالسور ، وقاتلوا من ورائه كل رجس كفور ، لكان المسلمون بتحصينهم الثغر ، سلموا من القتل والنهب والأسر ، وما كان عليهم من إخراب الفرنج للربط المبنية ، لسلامة الإسكندرية ، من أذى الملّة النصرانية ، فالذين خافوا على ربطهم تخرّبت ، ودورهم التي داخل البلد نهبت ، وذلك بالرأي غير الصائب ، حتّى حلّت بهم المصائب»[٧].

---

١) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٣٨.

٢) نعينع : المرجع المتقدّم – ص ١٣٩.

Machaut: Op. Cit, p. 60. "But Alexandria that's a strong city, powerful, all the world could never take it ! ".

٣) النويري الإسكندراني : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ١٣٤. «والنيل منتشر على البلاد ، قصد الملعون بإتيانه ذلك الزمن لتعوّق النجدة من مصر».

٤) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٣١-١٣٢.

٥) جمع رباط ، وكانت بهدف إقامة التجار والغرباء عن الإسكندرية ، فضلاً عن كونها مراكز دفاعية متقدّمة.

٦) الجزء من اليابسة الداخل في البحر والمتّصل بالمدينة ، أي ما يُقال له رأس.

٧) النويري الإسكندراني : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ١٤٤-١٤٥.

وفي ضحى يوم الجمعة ٢٢ المحرم سنة ٧٦٧ هـ / ١٠ تشرين الأول سنة ١٣٦٥م ، وقف المندوب البابوي بطرس دي دوماس بأعلى مكان في سفينته ، منتضياً سلاحه ، رافعاً الصليب في يده ، معلناً بدء الهجوم على مدينة الإسكندرية[١] ، وما لبثت أن تقدّمت سفن الأسطول نحو الشاطئ ، وتمكّنت مقدّمة الجيش من النزول إلى البرّ ، ودحرت مقاومة بعض العربان المسلمين الذين قُتِلَ أغلبهم[٢] ، فيما أيقن سكّان الإسكندرية أنهم باتوا وجهاً لوجه مع غزو صليبي منظّم يدنّس حرمة أرضهم ، وسيحاول اقتحام مدينتهم. في مقابل ذلك انهارت ربط المدينة ، وذُبِح معظم أفرادها[٣] ، وأصيب جنغرا – نائب ابن عرام – فأتى بيت المال وأخرج ما به ، ثمّ أمر بنقل التجّار الصليبيين وقناصلهم المقيمين في الإسكندرية ، وكانوا نحو الخمسين ، فأخرجوا من باب رشيد مقيّدين بالسلاسل ، وأرسل في الوقت نفسه بمن يُعلم السلطان في القاهرة بأمر الحملة ، والإسراع بإنفاذ النجدات[٤].

وأخفق الهجوم الأول لبطرس دي لوزغنان وجيشه تحت وابل السهام من أعلى سور المدينة ، فتحوّل من باب البحر إلى جهة باب الديوان ، غير أنّ المسلمين باغتوا الصليبيين بهجوم مضاد وقتلوا أحد فرسانهم وعدداً من جنودهم ، ممّا اضطرّ الملك القبرصي إلى المشاركة في هذا الهجوم بنفسه ، فامتطى صهوة جواده ، وتحرّك صحبة ثلّة من فرسان الإستبارية ، فتمركز بين باب الديوان وباب البحر ، بحيث يحمي مؤخرة جيشه ويحول دون قيام المسلمين بهجوم مباغت آخر ، ولمّا اطمأنّ إلى وصول جنوده ، انضمّ إليهم

---

١) يغلب الظنّ أنّ تلك الحركة كانت بالاتّفاق مع الملك القبرصي الذي أراد منها أنّ الحملة دينية مقدّسة ؛ هدفها الأول والأخير هو استرداد القدس ، وأنّ الهجوم على الإسكندرية يمثّل بداية الطريق لذلك الهدف.

٢) النويري الإسكندراني : المصدر المتقدّم – ج٢ – ص ١٤٦-١٤٧. المقريزي : السلوك – ج٣ – ق١ – ص ١٠٥.

Machaut: Op. Cit, pp. 64-66.

٣) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٥٠-١٥١.

٤) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٥٥-١٥٦. المقريزي : المصدر المتقدّم – ج٣ – ق١ – ص ١٥١.

للضغط على باب الديوان[1] ، الذي كان نقطة ضعف قاتلة في سور الإسكندرية ، لخلوّه من المدافعين ، وعزلته عن باب البحر لوجود برج ضرغام[2] ، فضلاً عن قيام كاتب الديوان ، وناظر الديوان ، بإغلاق الأبواب الداخلية المؤدية إلى المدينة[3]. وبذا خلت تلك الجهة من الرماة والمقاتلة ، فنجح الصليبيون باقتحام الباب ، وتسلّقوا السور ، ممّا أحبط الرماة المسلمين ، فتخلّوا عن مواقعهم عند باب البحر ، وفرّوا كلٌّ يبحث عن خلاص نفسه وعياله[4] ، وكذلك فعل معظم أهل الإسكندرية ، والنويري الإسكندراني أحدهم ، وأقدموا على إحراق باب الزهري ، وباب رشيد ، ليتمكّنوا من الفرار من المدينة ، وإتاحة الفرصة لجيوش النجدة القادمة من القاهرة للدخول إلى الإسكندرية بسهولة[5]. وأعتقد أنّ الأهالي فعلوا ذلك بفطرة سليمة ، الغاية منها جعل المدينة ضعيفة التحصين ، مشرعة المنافذ ، بحيث لا تصلح لإقامة الصليبيين وتحصّنهم بها – فيما لو خطّطوا لهذا الأمر – وهاج الصليبيون في أنحاء المدينة يقتلون كل مَنْ يصادفونه في طريقهم من سكّان ، طفلاً كان أم شيخاً عجوزاً أم امرأة ، وينهبون الحوانيت والفنادق ، ويحرقون القصور والخانات ، ويعتدون على النساء والبنات ، ويخربون الجوامع والمساجد ، ويعلّقون على السور أعلام الصلبان. ولم يسلم من أيديهم حتّى المجانين والبلهاء والعجائز ، وظلّوا على هذه الحال من عصر يوم الجمعة – ساعة دخولهم – إلى ظهر اليوم التالي[6].

---

1) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٥٦-١٥٧.

2) بناه الأمير أبو الأشبال ، ضرغام بن سوار ، سنة ٥٥٧ هـ ، عند باب البحر بالإسكندرية. المقريزي : اتّعاظ الحنفا – الموسوعة – ج ٢٥ – ص ٢٧١.

3) النويري الإسكندراني : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ١٥٧-١٦٨.

4) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٥٧.

Machaut: Op. Cit, pp. 75-79.

5) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٧٤. المقريزي : السلوك – ج٣ – ق١ – ص ١٠٦.

6) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٦٦-١٧٩. المقريزي : المصدر نفسه – ج٣ – ق١ – ص ١٠٦. وهو يقول : «فاستلم الفرنج الناس بالسيف ، ونهبوا ما وجدوه من صامت وناطق ، وأسروا وسبوا خلائق كثيرة ، وأحرقوا عدّة أماكن ، وهلك في الزحام بباب رشيد ، ما لا يقع عليه حصر ؛ ...... ، واستمرّوا كذلك ، يقتلون ، ويأسرون ، ويسبون ، وينهبون ، ويحرقون ، من ضحوة نهار الجمعة إلى بكرة نهار الأحد».

ولعلّ ما أورده لنا النويري الإسكندراني ، في وصفه للدمار الذي حلّ بمدينة الإسكندرية ، يُعدّ صورة شبه كاملة ، بل هي كاملة لأنه ينقلها عن شاهد عيان للأحداث ، فضلاً عمّا رآه هو بنفسه بعد رجوعه إلى المدينة ، إثر انسحاب الصليبيين منها ، فيقول :

«فكان ممّا أحرقوا حوانيت الصرف بكمالها ، وسوق القشاشين بالمعاريج ، والحوانيت الملاصقة لقيسارية الأعاجم من خارجها من الجهة الشرقية ، وحوانيت شارع المرجانيين ، وبعض فنادقه ، وفندق الطبيبة ، مع فندق الجوكندار ، وفندق الدماميني الذي بسوق الجوار ، ووكالة الكتّان ، المقابلة للجامع الجيوشي بالقرب من العطارين ، مع سوق الخشّابين ، وأحرقوا أيضاً درابزي مدرسة ابن حباسة مع سقف الإيوان ، وعبثوا بكل ناحية ومكان ، وأحرقوا باب مدرسة الفخر القريبة من باب رشيد»[1].

«قيل : إنّ الفرنج يستصحبون معهم حلق الحراقات المغموسة بالزيت والقطران والزفت والنفط ، فيضع أحدهم الحلقة الواحدة في نصل السهم الموضوع على متن قوس الركاب ويلقم الحلقة النار ، ويفكّ الوتر من الجوزة فيخرج السهم صاعداً إلى السقف يركز فيه ، فيلتهب الخشب بسرعة ، فينزل إلى الأرض يحرق كل ما في البيت ، ممّا ليس لحمله به حاجة ، يفعلون ذلك نكاية للمسلمين ، لعنة الله على الفرنج أجمعين»[2].

«وقتلوا مَنْ وجدوه بالجوامع والمساجد ، وأقاموا بالإسكندرية العرابد ، فقتلوا الناس في الدور والحمامات والشوارع والخانات ، وكانت الفرنج تخرج بالنهب من الإسكندرية إلى مراكبهم على الإبل والخيل والبغال والحمير ، فلمّا فرغوا من النهب وقضوا أربهم من البلد طعنوها بالرماح ، وعرقبوها بالصفاح ، فصارت مطروحة بالجزيرة والبلد لم يُعلَم لها عدد ، فهلكت وجافت ، فأحرقها المسلمون بالنار لتزول رائحة جيفها ، ثمّ إن الفرنج

---

١) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٦٦.

٢) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٦٧.

تحصّنوا بمراكبهم بعد وقرها وإشحانها بما نهبوه ، وكانت تزيد على سبعين راكباً ، وتركوا بالساحل فضلات البهار التي لم يجدوا لها محملاً»[1].

كما «أحرقوا أبواب البحر ، الأول والثاني ، وأبواب الباب الأخضر الثلاثة ، وباب الخوخة والمجانيق التي كانت بالصناعتين الشرقية والغربية ، وكانت أهل الإسكندرية وقت هزيمتهم أحرقوا أغربة كانت بالصناعة الشرقية لئلا تأخذهم الفرنج ، فلما رأتهم الفرنج مخروقة أحرقتهم بالنار ، ثمّ أحرقت الفرنج – أيضاً – دار الطراز والديوان ، بعد أن أخذوا ما في دار الطراز من الاستعمالات الرفيعة الأثمان ، وأحرقوا أيضاً قلعة ضرغام»[2]. وصارت القتلى «مطروحة في كل ناحية ومكان ، من الرجال والنساء والولدان ، قيل : إنّ الفرنج كانوا يذبحون المرأة ، ويذبحون ولدها على صدرها ، وقيل : إنهم كانوا يجذبون الصبي الصغير بين اثنين فيتقطّع ويتمزّق ، وقيل : يضربون الصغار في الحيطان فيهلكون»[3].

وبعد ، فهل لنا أن نضيف آخرَ على ما رواه لنا النويري الإسكندراني ؟ طبعاً لا ، ولكن حريٌّ بنا الإشارة إلى دلالة واضحة ممّا فعله الصليبيون ، ألا وهي تركيزهم الشديد على تدمير تجارة مصر ، وقطع صلاتها التجارية مع الجمهوريات الإيطالية خصوصاً ، والأوروبية عموماً ، من خلال إصرارهم على حرق فنادقهم ومحطّاتهم التجارية ، وتركيز الصليبيين الشديد – أيضاً – على تدمير الإسكندرية ، القاعدة البحرية التجارية المهمة جداً ، وإحدى أغنى مدن مصر ، فالصليبيون شدّدوا في تخريبهم على الحرق ، الذي لا يُبقي ولا يَذَر ، وحتّى الحيوانات آثروا إفناءها ، وبكلام آخر ، هم أرادوا ضرب القاعدة والبنية الأساسية التي قامت عليها الإسكندرية كمدينة ، وميناء بحري وتجاري مهم ومميّز.

وفي وقت متأخّر من يوم السبت ٢٣ المحرم سنة ٧٦٧ هـ / ١١ تشرين الأول سنة

---

١) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٧٣-١٧٤.

٢) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٧٧.

٣) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٢ – ص ٢٠٧.

١٣٦٥م ، وهو اليوم الثانـــي لاقتحام الإسكندرية ، عقد الملك القبرصي بطرس الأول دي لوزغنان اجتماعاً ضمّه وجميعَ أفراد حملتـــه ، جنوداً وقادة ، لتبـــيان رأيـــهم حول كيفية الاحتفاظ بالمدينة ، والتحصّن بـــها ، والدفاع عنـــها[1].

وهنا أعلن معظم المشاركين ، ممّن أُثقلوا بالغنائم والأسلاب ، تمسّكهم بالرحيل صوب بلادهم ، وفنّد قادة الجيش رفضهم البقاء ، لضخامة المدينة ، وامتداد تحصيناتـــها ، وقلّـــة جنودهم اللازمين للسيطرة عليـــها ، وعجزهم عن صدّ هجوم كبـــير – من المؤكّد قيامه – من قبل المسلمين ، في مقابل انقطاع أملهم – أي الصليبـــيين – من وصول أيّ نجـــدة أوروبـــية ، هذا إلى جانب قلّة المؤن وعدم كفاية الخيول ، فضلاً عن أنّ السلطان المملوكي لن يقبل أبداً بأيّ تعويض لما أصاب الإسكندرية ، وإذا جاءت جيوشه لتقاتلهم ، فـــسوف يقعون بأجمعهم في الشرك ، كما تقع الجرذان في المصيدة[2].

وعندما تحدّث الملك بطرس الأول ، للردّ على الراغبـــين بمغادرة المدينة ، بذل قُصارى جهده ليغريـــهم بالبقاء ، وبـــين لهم إمكانـــية الاعتماد على القليل من المؤن ريثما تـــصل الإمدادات ، وأنـــه ربّما تصلهم نجدات من إمبراطور القسطنطينـــية يوحنّـــا بـــاليلاغوس (١٣٤١-١٣٩١م) ، أو من أهل جزيرة رودس ، وأكّد لهم أنّ صمودهم سيحفّز الكثيرين على مساعدتـــهم ، والتحرّك لمساندتـــهم ، ولكن حالة الرفض استـــمرّت[3] ، فـــانبرى بطرس دي توماس ، المندوب البابوي ، ليدلي بدلوه ، ولكن ذلك لم يكن ليغيّر شيئاً ، إذ ما لبث أن صعد رجال الحملة سفنـــهم منتظرين المغادرة صوب بلادهم ، فما كان من الملك والمندوب البابوي إلاّ الصعود – هما أيضاً – إلى سفنـــهما استعداداً للإبحار[4].

في الوقت نفسه ، كان والي المدينة ، الأمير صلاح الدين بن عرام ، قد رجـــع مـــن

---

1) Machaut: Op. cit, p. 81.
2) Machaut: Ibid, p. 82. «My Lord, ...
you can expect no help
no succour's on its way to you, except,
of course, from God. Think – when the sultan moves,
there we'll all be, rats in a trap !».
3) Machaut: Ibid, p. 84.
4) Machaut: Ibid, pp. 85-86.

الحجاز ، ماراً بالقاهرة ، فوصل إلى الإسكندرية في يوم الإثنين ٢٥ المحرم سنة ٧٦٧ هـ / ١٣ تشرين الأول ١٣٦٥م ، وسارع إلى نزع أعلام الصلبان من فوق السور ، ورفع أعلام المسلمين بدلاً منها ، وذلك على مرأى من الصليبيين ، القابعين في سفنهم قبالة المدينة[١] ، وما لبث أن وصلت مقدمة الجيش المملوكي القادم من القاهرة ، بقيادة الأمير قطلوبغا المنصوري[٢] ، ثمّ وصل - أيضاً - الأمير يلبغا الخاصكي ، أتابك العسكر ، مع عدد كبير من عساكر مصر ، وذلك يوم الخميس ٢٨ المحرم ٧٦٧ هـ / ١٦ تشرين الأول ١٣٦٥م ، وأيقن الصليبيون بضرورة رحيلهم ، فأبحروا - من فورهم - صوب قبرص[٣] ، فكانت مدّة إقامتهم «من حين أتوا إلى الإسكندرية وظفروا بها إلى آخر مَنْ سافر منهم ثمانية أيّام»[٤].

- إخفاق الحملة ونتائجها :

ووصل بطرس الأول دي لوزغنان وأسطوله إلى جزيرة قبرص ، حيث رست السفن المثقلة بالغنائم وأسرى المسلمين ، في مينائَي ليماسول وفاماغوستا ، وأرسل الملك القبرصي إلى الباب أوربان الخامس وملوك أوروبا يعلمهم عن حملته المظفرة ، فيما أقيم احتفال كبير في نيقوسيا ابتهاجاً بهذه المناسبة[٥].

أمّا في الإسكندرية ، فقد عاين يلبغا الخاصكي بنفسه آثار الدمار والخراب الذي حلّ

---

١) النويري الإسكندراني : المصدر المتقدم - ج٣ - ص ٢٠٩. وهو يذكر محاولة ابن عرام التفاوض مع الملك القبرصي - عبر رجل يُدعى يعقوب اليهودي - بشأن استرداد أسرى المسلمين مقابل التجّار الصليبيين المعتقلين.

٢) المقريزي : السلوك - ج٣ - ق١ - ص ١٠٤. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة - ج١١ - ص ٢٩.

٣) النويري الإسكندراني : المصدر المتقدّم - ج٣ - ص ٢١٢.

Machaut: Op. cit, p. 87.

٤) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه - ج٢ - ص ١٧٨.

٥) نعينع : المرجع المتقدّم - ص ٢٠٠.

Machaut: Ibid, pp. 87-88.

بالمدينة ، ورأى جثث الأهالي وجيف الحيوانات مرميّةً في كل مكان ، فأمر والي المدينة – ابن عرام – بالبدء بإصلاح ما خرّبه الصليبيون ، وإعادة إعمار المدينة ، وتحصين أسوارها ، وأمدّه بالأموال اللازمة لذلك[1] ، كما أصدر أمراً يقضي بتغريم النصارى في مصر وبلاد الشام ربع أموالهم ليستعين بها على إصلاح ما خرّبه الصليبيون في الإسكندرية ، وإعداد أسطول كبير لغزو قبرص ، والانتقام لما حلّ بالمدينة وأهلها[2].

وبالفعل شرع يلبغا الخاصكي ببناء ذلك الأسطول ، فجُمِعت الأخشاب اللازمة من دمشق وبيروت ، وأخذ النجارون بالعمل ليلاً نهاراً ، حتّى أنجز خلال عام واحد مائة وخمسين مركباً[3] ، منها طرائد[4] للخيل ، وشواني[5] للغزو.

ولكن إذا كان بطرس الأول دي لوزغنان سعيداً مبتهجاً والبابا أوربان الخامس بتلك الحملة ، وكان المماليك يتوعّدون ، وأهل الإسكندرية يكفكفون جراحهم ، فإنّ البنادقة والجنوية ، كانوا جداً حانقين وغاضبين ، لما آلت إليه أوضاعهم ، إذ خسروا أعظم محطّاتهم التجارية وأغناها في مصر وبلاد الشام ، ولم يعد بإمكان سفنهم أن ترسو في أي ميناء مملوكي بسبب الحظر الذي فرضه السلطان[6] ، لذا كان لا بدّ لهم من التحرّك لخلق ظروف مواتية تزيل فتيل الأزمة ، أو الحرب ، بين المماليك والقبارصة ، وعلى هذا فإنّ أجدى الطرق لتحقيق ذلك ، كان حلّ قضية الأسرى المسلمين ، الذين

---

١) النويري الإسكندراني : المصدر المتقدم – ج٣ – ص ٢١٢. مؤرّخ مجهول : المصدر المتقدّم – ص ٧٧.

٢) ابن كثير : المصدر المتقدّم – ج١٤ – ص ٣٣٦. المقريزي : السلوك – ج٣ – ق١ – ص ١٠٧.

٣) ابن كثير : المصدر نفسه – ج١٤ – ص ٣٣٧. النويري الإسكندراني : المصدر المتقدّم – ج٣ – ص ٢٣١. المقريزي : المصدر نفسه - ج٣ – ق١ – ص١١٣.

٤) مفردها طريدة ، وهي سفن مخصصة لنقل الخيول. درويش النخيلي : السفن الإسلامية – الإسكندرية – ١٩٧٩م – ص ٨٩.

٥) مراكب الغزو تسمّى غربان ، وذلك لرقّتها وطولها وسوادها بالأطلية المانعة للماء عنها ، كالزفت وغيره ، فصارت تشبه بسوادها الغربان من الطير لسواد مناقيرها ، ويقال للغربان أيضاً شواني واحدها شيني. النويري الإسكندراني : المصدر المتقدم – ج٢ – ص ٢٣٠-٢٣٣.

٦) النويري الإسكندراني : المصدر نفسه – ج٣ – ص ١٩٢.

وصل عددهم إلى خمسة آلاف أسير[1] ، وعدَّ السلطان المملوكي الأشرف شعبان رجوعهم شرطاً أساسياً لإعادة العلاقات التجارية مع الغرب الأوروبـــي.

وأخذ البنادقة – بشكل خاص – يمارسون ضغوطهم على بطرس الأول دي لوزغنان لكي يطلق سراح الأسرى المسلمين ، وشرعوا يمهّدون لبدء المفاوضات بـــينـــه وبـــين المماليك ، والتي استغرقت زمناً طويلاً ، منـــذ شهر شـــعبان ســـنة ٧٦٧ هـ / نـــيسان ١٣٦٦م ، حتّى شهر جمادى الآخرة سنة ٧٧٢ هـ / كانون الأول سنة ١٣٧٠م ، بعد مقتل بطرس الأول – نفسه – وتنصيب ابنـــه بطرس الثانـــي دي لوزغنان (١٣٦٩-١٣٨٢م) ملكاً على قبرص.

ولن ندخل في تفاصيل هذه المفاوضات الشائكة ، بل سنكتفي بإيراد ملاحظة تـــهمّ بحثنا ، كانت بدت بوضوح في إصرار بطرس الأول دي لوزغنان على المطالـــب المتعلّقـــة بالامتيازات التجارية للقبارصة في موانئ مصر وبلاد الشام عامّةً ، والإسكندرية خاصـــةً ، وخفض قيمة المكوس المفروضة من قبل السلطان المملوكي إلى أقصى حدّ ممكـــن ، وإقامـــة فندق في مدينة الإسكندرية خاص بالتجّار القبارصة[2].

وفي سبـــيل إرغام السلطان المملوكي على الرضوخ إلى هذه المطالب ، لجـــأ الملـــك القبرصي إلى الإغارة على سواحل بلاد الشام ، كما هاجم ميناء أياس[3] ، ولكن اغتيالـــه ، في ٧ جمادى الآخرة سنة ٧٧٠ هـ / ١٧ كانون الثانـــي سنة ١٣٦٩م[4] ، أنـــهى مرحلـــة العناد وجمود المفاوضات «فإن الذي كان السبب فيما فعله بالإسكندرية قُتِلَ ومضى أمره ،

---

١) النويري الإسكندرانـــي : المصدر نفسه – ج٢ – ص ١٧٩. المقريزي : الـــسلوك – ج٣ – ق١ – ص ١٠٧. ويذكر العدد نفسه من الأسرى.

٢) النويري الإسكندرانـــي : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٣٧٠-٣٧١.

Machaut: Op. cit, pp. 126-144

٣) النويري الإسكندرانـــي : المصدر نفسه – ج٥ – ص ٧٦-٨٨. المقريزي : المصدر المتقدّم – ج٣ – ق١ – ص ١٤٩-١٥٠.

Machaut: Ibid, pp. 146-151.

٤) النويري الإسكندرانـــي : المصدر نفسه – ج٣ – ص ٨٢. ويورد الخبر سنة ٧٧٢ هـ.

Machaut: Ibid, p. 180.

وأخوه البرنـــز[1] المتملّك بعده بجزيرة قبرس طائع لمولانا السلطان ، وقد صار مـــن جملـــة الغلمان ، والماضي لا يُعاد ، والصلح يقع على السداد والرشاد»[2].

ولعلّ أبرز نتائج حملـــة بطرس الأول دي لوزغنان ، ملك قبرص ، على الإسكندرية هي :

١- اكتسبت حملة الملك القبرصي صفة الحرب المقدّسة لأنـــها خرجـــت بغـــرض الاستيلاء على القدس ، على الرغم من أنـــه مجرّد هدف معلن ، ومع هذا أخفق حتّى في مقاربة ذلك الهدف.

٢- أمّا إذا كان هدفه الحقيقي ، غير المعلن ، تحسين الوضع الاقتـــصادي لقـــبرص ، فإنـــه أخفق أيضاً في ذلك ، إذ تضرّرت قبرص - نفسها - جرّاء منـــع تجّـــار الغرب الأوروبـــي من القدوم إلى سواحل مصر وبلاد الشام ، وبالتالي ســـاءت أوضاع قبرص وتراجعت ، ولكن الحملة تمكّنت من ضرب مركز الإســـكندرية التجاري «ومنـــها اختلّت أحوالها ، واتّضع أهلها ، وقلّت أمـــوالهم ، وزالـــت نعمهم»[3].

٣- كانت الحملة على الإسكندرية ، آخر الحملات الصليبـــية الخطيرة ، والمتوجّهـــة مباشرة صوب مصر.

٤- كان إخفاق الحملة في تحقيق أيٍّ من أهدافها ، المعلنة وغير المعلنة ، سبباً رئيساً في مقتل بطرس الأول دي لوزغنان ، الذي روّج لها وأعدّها وقادها بنفسه ، فكانت وبالاً عليـــه ، وقصمت عمره.

---

١) يقصد يوحنّا دي لوزغنان ، أخو بطرس الأول ، والوصي على ابن أخيـــه الملك الجديد ، بطرس الثانـــي.

٢) النويري الإسكندرانـــي : المصدر نفسه - ج٦ - ص٤٠٥.

٣) المقريزي : السلوك - ج٣ - ق١ - ص ١٠٨.

الخاتمة

تعددت النتائج التي خلص إليها البحث في أعقاب كل فصل من فصول الرسالة ، تبعاً لاختلاف الأحداث، والسمة الواضحة لمجمل النتائج هو عدم تباينـــها فهي قـــد شـــكّلت نسيجاً زاهياً لبعد جغرافي واحد ، تجلّى في مصر وبلاد الشام.

كانت الدولة الفاطمية قد وقعت تحت نفوذ الوزراء ، كمـــا عانـــت مـــن انتـــشار الاضطرابات والفوضى السياسية الداخلية ، إلى جانب عجزها عـــن التـــصدّي للأخطـــار الخارجية التي عصفت بكيانها ، وقضت عليها ، أو كانت سبباً في القضاء عليهـــا ، وازداد عقم الأوضاع الداخلية بعدما بلغ الوزير الأفضل حدّاً من التسلّط مكّنه من تعيين أبي علـــي المنصور ، ولقّبه الآمر بأحكام الله ، وكان عمره خمسة أعوام وشهر[1] !!

ومع قدوم الحملة الصليبية الأولى ، ووصولها إلى مشارف أنطاكية ، وفرض الحـــصار عليها ، ظنّ وزراء الاستبداد الفاطميين أنّ الفرصة قد حانت لتحقيق مآربهم ، فعقدوا اتّفاقاً شائناً مع الصليبيين ، ولكن أيّ عهد لعدوّ أو غازٍ ؟! وما لبث هـــؤلاء أن اســـتولوا علـــى القدس ، وأدرك حينها الفاطميون أنّ دولتهم ستؤول إلى زوال على أيدي هـــؤلاء الغُـــزاة الأجلاف. فقاموا بمحاولات بائسة لردع تحرّكات الصليبيين وأطماعهم ، ولكنّ ذلك لم يمنع سقوط مدن سواحل بلاد الشام الفاطمية بأيدي الصليبيين ، الواحدة تلو الأخـــرى ، بـــدءاً بأرسوف[2] ، وانتهاءً بعسقلان[3] ، بل تطلّع الصليبيون نحو مصر ، فكانت محاولة بلـــدوين الأول[4] ، واستعدادات بلدوين الثالث[5] ، إذ بات جلياً أنّ مصر هي مفتاح بيت المقدس ، وسرّ أمنه وأمانه ، والاستيلاء عليها يعني تملّك القدس – ربّما – نهائياً ؛ لذا وجدنا استماتة

---

(١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق – ص ٢٢٨. ابن الأثير : الكامل – ج١٠ – ص ٣٢٨.

(٢) تشارترز : الموسوعة – ج ٦ – ص ٣٩٦. وليم الصوري : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٤٩٥.

(٣) ابن العديم : الموسوعة – ج ١٦ – ص ١٣٠. أبو شامة : الموسوعة – ج ١٧ – ص ٢٤٩.

(٤) تشارترز : الموسوعة – ج ٦ – ص ٤٥٣. وليم الصوري : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٥٦٥.

(٥) ابن القلانسي : الموسوعة – ج ١١ – ص ١١٩-١٢٢. أبو شامة : الموسوعة – ج ١٧ – ص ٢٢٣.

عموري الأول في سعيه لمنع دخول جيش نور الدين إلى مصر ، وإقامة الوحدة مع بلاد الشام[1] ، فهذا يحمل بداية النهاية للوجود الصليبي ، كما حملت وحدة بلاد الشام فأل الشؤم عليهم[2].

ولكن نور الدين داهمه الموت ، فتولّى صلاح الدين إتمام المهمّة ، معتمداً على إمكانات مصر الضخمة ، وعلى مواردها التي لا تنضب ، بعد أن كان نجح في توطيد الأمن ، وتنشيط التجارة ، وإزالة المكوس المرتفعة عن الشعب المصري ، فكسب محبّته وتأييده ، فيما كانت الخلافة الفاطمية قد عاشت في غربة عنه – أي عن الشعب – فالقاهرة كانت قلعة للدولة الفاطمية ، وكان جميع العاملين فيها من غير المصريين ، وبالتالي انقطع حبل التواصل بين الحاكم والمحكوم ، ويبدو أن صلاح الدين قد تنبّه لهذا الأمر ، فأقدم على جعل القاهرة «مبتذلة لسكن العامة والجمهور ، وحطّ من مقدار قصور الخلافة ، وأسكن في بعضها ، وتهدّم البعض ، وأزيلت معالمه ، وتغيّرت معاهده ، فصارت خططاً وحارات وشوارع ومسالك وأزقّة ، ونزل السلطان منها في دار الوزارة الكبرى»[3] ، وبذا تمكّن صلاح الدين من صهر السلطة والشعب في بوتقة واحدة صلبة ، وحتّى يدعّم عمله ، أمر ببناء سور واحد يضمّ سُكنى الشعب – الفسطاط – والقاهرة ، كما أمر ببناء قلعة في الوسط على جبل المقطّم ، سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٧م[4]. وانطلق صلاح الدين ، بعد أن اطمأنّ إلى تماسك وقوّة جبهته الداخلية ، صوب المواجهة مع الصليبيين ، فتحقّق نصر حطّين ، وتحرير معظم مدن ساحل بلاد الشام ، وفتح القدس[5] ، ممّا أحدث هزّة عنيفة في أوساط الغرب الأوروبي ، فتحرّك الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا على رأس جيش ضخم ، ولكنّه تعرّض لمصاعب جمّة كان آخرها غرقه أثناء عبوره نهراً صغيراً في كيليكية ،

(١) وليم الصوري : الموسوعة – ج ٧ – ص ٢٩٣-٢٩٧. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج١ – ص ١٥٠.

(٢) وليم الصوري : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٧ – ص ١٧٠.

(٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار – ج٢ – ص ٢٢٤.

(٤) ابن أبي الدم : الموسوعة – ج ٢١ – ص ٢٥٣. ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٢ – ص ٥٢.

(٥) العماد الأصفهاني : الموسوعة – ج ١٣ – ص ٧٥. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ٩٦.

وتشتّت جيشه ، وانتهاء خطره[1] ، فيما نجح رتشارد قلب الأسد ، ملك إنكلترا ، وفيليب الثاني أغسطس ، ملك فرنسا ، بالوصول إلى عكّا عبر البحر[2] ، ممّا حمل نتائج عدّة ، أهمّها إمكانية الاستغناء عن الطريق البري وعن مساعدة القسطنطينية ، وبالتالي لم يعد ضرورياً وجودها ، فضلاً عن أنّ ذلك يعني أهمية الطريق البحري للوصول إلى مصر ومهاجمتها ، بفعل دورها الأساسي والضروري لحماية القدس. وبذا مهّدت الحملة الصليبية الثالثة طريق البحر ، وأبرزت حاجة الصليبيين الملحّة للاستيلاء على مصر ، لأنّها الضمانة الكبرى لوجودهم في بلاد الشام ، ولاستيلائهم على القدس.

ولكن رتشارد قلب الأسد أخفق في تحقيق أيّ من تلك الأهداف عبر الطرق العسكرية ، وذلك بفضل تحرّكات صلاح الدين وبراعته ، وإمكانات مصر ، وشجاعة أسطولها ، كما أخفق رتشارد في نيل بعض من تلك الأهداف عبر الطرق السلمية التفاوضية ، من خلال إصراره على نيل طريق ولو بجزء بسيط ، صوب مصر ، فتمسّك صلاح الدين برفضه إتاحة تملّك عسقلان ، أو طريق الداروم ، من قبل الصليبيين ، لأنّه كان يدرك أطماعهم وطموحاتهم تجاه مصر.

وقامت الحملة الصليبية الرابعة بالتوجّه صوب مصر ، ولكن إرادة التجّار البنادقة أبت إلاّ السير صوب القسطنطينية ، وتحقّق ذلك ، ودُمّرت المدينة[3] ، ولكنّ الحملة الصليبية الخامسة سارت مباشرة صوب مصر ، ورست على شواطئ دمياط ، ودخلت إليها ، غير أنّ وحدة الفعل والرؤية بين القاهرة ودمشق عطّلت أحلام الصليبيين ومشاريعهم ، فأخفقت الحملة ، وجلت مدحورة صوب بلادها[4] ، ونهض الإمبراطور الألماني فردريك الثاني — مضطرّاً — ليقوم بالحملة الصليبية السادسة ، التي كانت غريبة في أحداثها ونتائجها ، وطبيعية في ردّة فعل الشعب العربي تجاهها ، فاستنكر العلماء والفقهاء ، وبكى الناس

---

(١) ابن الوردي : المصدر المتقدم — ج٢ — ص ١٤٦. ابن الفرات : المصدر المتقدم — مج ٤ — ج١ — ص ٢١٦.

(٢) ابن الأثير : الكامل — ج١٢ — ص ٦٣. ابن واصل : مفرّج الكروب — ج٢ — ص ٣٥٠.

(٣) فيلهاردين : الموسوعة — ج ١٠ — ص ١١٧. روبرت دي كلاري : الموسوعة — ج ١٠ — ص ٢٨٦.

(٤) ابن واصل : مفرّج الكروب — ج٤ — ص ٩٩. الحنبلي : شفاء القلوب — ص ٣٠٧.

واستهجنوا[1].

وظلّت مصر الهدف الصليبي المأمول ، فقامت الحملة الصليبية السابعة ، الـتي قادهـا لويس التاسع ، ملك فرنسا ، ولكنّ مصر – شعباً وأرضاً – أبتْ واتّحدت في مواجهة هذه الحملة ، وأُسِر لويس التاسع ، ووضع في القيد والسجن[2] ، وفدى نفسه حتّى رحل خائبـاً صوب عكّا[3] ، ولكنّه عاد ليجدّد أحلامه فقاد الحملة الصليبية الثامنة صوب تونس ، علّـه يحظى بمصر ، فأصابته الحمّى ومات مقهوراً[4].

وخبت جذوة الحماسة الأوروبية تجاه الحملات الصليبية بعد تحرير عكّـا علـى يـد الأشرف خليل ، وجلاء الصليبيين عن بلاد الشام ، حيث ساد الغرب الأوروبي إحـساس بالخيبة واليأس ، وغمره يقين كامل من أنّ أيّ حملة كانت ستبوء بالإخفاق إذا لم تتكلّـل بالقضاء على قوّة مصر والاستيلاء عليها ، لذا ظهر نداء شبه موحّد ، أطلقه الدعاة اللاتين ، مفاده أنّ مصر هي الهدف الأهمّ والأغلى ، بل الأوحد ، لأي حملة قادمة ، فكتب الراهب الفرنسيسكاني فيدانزيو ، والداعية الإسباني ريموند لول ، والمحامي الفرنسي بـيير دوبـوا ، وبركارد ، والداعية الإيطالي مارينو سانوتو ، الذي يُعدّ كتابه من أهمّ المشاريع التي قُدِّمت لحثّ البابوية وحكّام أوروبا على القيام بحملة صليبية ضدّ المسلمين ، خصوصاً وأنّه ركّـز وبشدّة على مصر ، كهدف أساسي ورئيس لأيّ حملة مرتقبة ، والقضاء عليها حسب رأيه يحمل كلّ الحلول لمشكلات أوروبا وغاياتها ، لذا كان رأيه الغالب دوماً «ضرورة محاربـة المسلمين في مصر ، إذا ما أردنا استرداد الأرض المقدّسة»[5] ، لأنّ «مـصر هـي الدولـة الأساسية للسلطان ، إذا قُهِر فيها تحطّم كلياً ، وإذا لم يُغلَب كلياً ، فإنّه بـسبب الـضائقة القريبة منه بهذا الشكل ، والواقعة في داخل مملكته ، سوف يطلب الصلح مرغَماً»[6] ، وتمّياً

---

(١) ابن واصل : المصدر نفسه – ج٤ – ص ٢٤٣. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ٢٣١.

(٢) جوانفيل : الموسوعة – ج ٣٦ – ص ١١٨-١٢٠. ابن تغري بردي : المصدر المتقدم – ج٦ – ص ٣٦٤.

(٣) جوانفيل : الموسوعة – ج ٣٦ – ص ١٥٠. ابن سباط : المصدر المتقدم – ج١ – ص ٣٥٢.

(٤) متّى باريس : الموسوعة – ج ٥٠ – ص ١٨٤٤. المقريزي : السلوك – ج١ – ق٢ – ص ٣٦٤.

(٥) مارينو سانوتو : الأسرار – الموسوعة – ج ٣٨ – ص ١٣٠.

(٦) مارينو سانوتو : المصدر نفسه – الموسوعة – ج ٣٨ – ص ١٣١.

من يحقّق أحلام الدعاة ، فقام بطرس الأول دي لوزغنان ، ملك قبرص ، بحملتــه صــوب مدينة الإسكندرية لينتزع منها منافسة ميناء فاماغوستا القبرصي ، ويرسّــخ رخــاء بــلاده ودورها الجديد ، لكنّ حملته أخفقت ، سوى في تدمير الإسكندرية وخرابها[1].

وهكذا كانت مصر هدفاً أساسياً ورئيساً لمعظم الحملات الصليبية ، حتّى تلك التي لم تحطّ على أرضها ، فإنها كانت ترمي إلى الوصول إليها ، ولكن مــصر – بمواردهــا وإرادة شعبها – تمكّنت من دحر الغزاة ، وقادت عملية التحرير ، ومع ذلــك ظلّــت بالنــسبة للصليبيين هدفاً مهماً ، وحُلُماً كبيراً..

ولكن أين مصر وشعبها ممّا جرى ؟

فإذا كان نور الدين قد جعل مصر شاميةً في سياسته العسكرية والوحدوية، فإن مصر غدت فعلاً شاميةً في وجهتها، ومقدسية في همّها ، وعلى الرغم من بعض المنّات والعثــرات من حكامها، فإن الــشعب كــان حاضــراً دومــاً، ففــي ١٦ جمــادى الأولى ســنة ٥٨٧هـ/١١حزيران ١١٩١م، كان صلاح الدين أمر بتسيير سفينة كبــيرة من بـــيروت، وشحنــها بالآلات والأسلحة والمير و الرجال، لإمداد حامية عكا عن طريق البحر ، وكان عدة رجالها المقاتلين ستمائة وخمسين رجلاً، ولكن السفينة الإسلامية لم تكد تصل إلى مياه عكا ، حتّى حاصرتها سفن رتشارد قلب الأسد، ملك إنكلترا وأحاطت بــها مــن كــل جانب، وعندئذ أبى رجال السفينة الاستسلام ، وظلوا يقاتلون أربعين سفينة مــن ســفن الأعداء حتّى أحرقوا إحداها ، وعندما يئس المقاتلون في السفينة من النجاة، ورأوا أمــارات الغلبة عليهم ، وأنــهم لا بد وأن يقتلوا ، قال مقدمهم: « والله لا نقتل إلا عن عــز، ولا نسلّم إليهم من هذه البطسة شيئاً»[2] فوقعوا في البطسة من جوانبــها بالمعاول فهــدموها ، و لم يزالوا كذلك حتّى فتحوها من كل جانب أبواباً فامتلأت ماء، فغرق جميع من فيها وما

---

(١) النويري الإسكندراني : الإلمام – ج٢ – ص ١٧٨. المقريزي : السلوك – ج٣ – ق١ – ص ١٠٤.

(٢) ابن شدّاد : النوادر السلطانــية – الموسوعة – ج١٥ – ص ١٧٤. ابن واصل : مفرّج الكــروب – ج٢ – ص ٣٥١. ويورد القول نفسه تماماً.

فيها من الآلات والمير وغير ذلك، ولم يظفر العدو منها بشيء[1].

وعندما قدمت حشود الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر، وتمكنت سفنها من دخول نهر النيل، والرسو قبالة منزلة العادلية ، كان موقف الكامل محمد- بعد وفاة والده العادل-قد ازداد سوءاً ، لإخفاقه في مواجهة المد الصليبي ، إضافة إلى نزوح قبائل بدوية من سيناء والشرقية، لاستغلال حالة الفوضى التي أعقبت قدوم الصليبيين ، فقطع هؤلاء البدو الطرق ، وأغاروا على القرى، ونهبوها، فكان ضررهم على المسلمين ، أشد قسوة من الغزو الصليبي نفسه، زد على ذلك فإن الكامل كان تعرض لمؤامرة خطيرة ، دبّرها له أحد قواده الأكراد ، المعروف بابن المشطوب ، بهدف عزله وإحلال أخيه الصغير-الفائز بن العادل-مكانه في الحكم ، مما اضطر الكامل إلى التسلل من معسكره في العادلية ، متجهاً شمالاً صوب أشموم طناح ، وتبعه في صباح اليوم التالي معظم جنده، تاركين وراءهم كل ما معهم من مؤن وأسلحة ، فأضحى الطريق سالكاً أمام الصليبيين ، الذين تقدموا صوب العادلية ، بعد عبورهم نهر النيل، واستولوا على معسكر المسلمين، وغنموا كل ما فيه، بغير منازع ولا ممانع ، في ٢٠ ذي القعدة ٦١٥هـ/٧ شباط١٢١٩م[2]، وبدا للجميع أن الجبهة الإسلامية كانت على وشك الانهيار ، وأن سقوط مصر كلها بات قريباً من أيدي الصليبيين ، ولكن توحيد جهود قادة دمشق والقاهرة، وتنظيم تحركاتهم ، والتنسيق فيما بينهم ، خيَّب ظن المتشائمين ، ودقَّ المسمار الأقوى في نعش إخفاق الحملة الصليبية الخامسة، إذ قدم المعظم عيسى -صاحب دمشق-وأنهى مؤامرة ابن المشطوب[3] ورفع من معنويات الجيش المصري وأخيه الكامل ،

---

(١) العماد الأصفهاني : الموسوعة - ج١٣ - ص ٣٢٨. ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ج١٢ - ص ٦٥. ابن شدّاد : المصدر نفسه - الموسوعة - ج١٥ - ص ١٧٤. ابن العديم : زبدة الحلب - ج٢ - ص ٥٩٤-٥٩٥. ابن واصل : المصدر نفسه - ج٢ - ص ٣٥١. ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات - مج ٤ - ج٢ - ص ٦-٧.

(٢) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة - ج٣٤ - ص ٥١. ابن الأثير : الكامل - ج١٢ - ص ٣٢٥-٣٢٦. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة - ج٤٥ - ص ٧٦٣-٧٦٤. ابن واصل : مفرّج الكروب - ج٤ - ص ١٧. ابن الفرات : المصدر المتقدّم - مج ٥ - ج١ - ص ٢٤٨-٢٤٩. المقريزي : السلوك - ج١ - ق١ - ص ١٩٦-١٩٧.

(٣) ابن الأثير : المصدر نفسه - ج١٢ - ص ٣٢٥. أبو شامة : الموسوعة - ج٢٠ - ص ٢٢٣. ابن واصل : المصدر نفسه - ج٤ - ص ١٨. ابن الفرات : المصدر نفسه - مج ٥ - ج١ - ص ٢٥٠-٢٥١. المقريزي : المصدر نفسه - ج١ - ق١ - ص١٩٧-١٩٨. ابن تغري بردي : المصدر المتقدّم - ج٦ - ص ٢٣٠-٢٣١.

ثمّ عاد إلى بلاد الشام ليضغط على أملاك الصليبيين ، كما هدم أسوار بيت المقدس، وبعض القلاع الإسلامية[1] ، لجعلها بحالة تمكن المسلمين من استردادها إذا ما سقطت بيد الصليبيين ، وكثّف المعظم تحركاته لجمع إمدادات بلاد الشام وإرسالها إلى الكامل في مصر، كما قام بشحذ همم أفراد وأمراء الأسرة الأيوبية للوقوف بجانب الكامل ودعمه ضد الخطر الصليبي.

وفي شهر ربيع الأول سنة ٦٢٦ هـ/شباط سنة١٢٢٩م، عقد الكامل محمد مع فردريك الثاني اتفاقية يافا ، وتنازل له بموجبها عن القدس، واستاء المسلمون في كل بقاع العالم الإسلامي من التهاون والتفريط بمقدسات الأمة، وعندما بعث الكامل محمد «فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، اشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل،وأذّنوا على بابه في وقت الأذان،....، واشتد الإنكار على الملك الكامل ، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار»[2].

وفي دمشق اجتمع عدد لا يحصى من الناس الغاضبين ، وقد شُنّفت آذانهم، وخفقت قلوبهم ، لموعظة الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزي ، الذي جلس بجامع دمشق ، وذكر فضائل القدس ، وانتقد تخلي الكامل عنها للصليبيين ، وعدَّ ذلك خيانة ، ومما قاله:« انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة ، وكم جرت لهم على تلك الأماكن من دمعة ، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وفت ، ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت، أحسن الله عزاء المؤمنين ،يا خجلة ملوك المسلمين ، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات ، لمثلها تتقطع القلوب من الزفرات ، لمثلها تعظم الحسرات»[3] وبعد هذه الموعظة أفتى بشرعية قتال

---

(١) أولفر أوف بادربورن : الموسوعة — ج٣٤ — ص ٥٣. ابن الأثير : المصدر نفسه — ج١٢ — ص ٣٢٧. روجر أوف ويندوفر : الموسوعة — ج٤٥ — ص ٧٥٨. أبو شامة : الموسوعة — ج٢٠ — ص ٢٢٢. ابن واصل : المصدر نفسه — ج٤ — ص ٣٢. ابن الوردي : المصدر المتقدم — ج٢ — ص ١٩٦. المقريزي : المصدر نفسه — ج١ — ق١ — ص ٢٠٤.

(٢) المقريزي : السلوك — ج١ — ق١- ص ٢٣١.

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان — الموسوعة الشامية — ج١٥ — ص ٧. أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب — ص ٣١٢.

الكامل ، وأخيه الأشرف ، لعقدهما صفقة تسليم القدس للإمبراطور الألماني فردريك الثاني بشكل شائن.

كما أنشد سبط ابن الجوزي قصيدة، من ثلاثمائة بيت، منها:

على قبة المعراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من صخرات

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

فلم ير في ذلك اليوم إلا باكٍ أو باكية[1].

ولنذهب سوية ونحط رحلنا عند الصالح إسماعيل-صاحب دمشق- الذي دفعه خوفه من الصالح أيوب ، سنة٦٣٨هـ/١٢٤٠م،إلى مكاتبة الصليبيين ، وتنازَلَ لهم عن حصني صفد والشقيف ، وطلبَ إليهم السير معه لمحاربة مصر والصالح أيوب ، وهنا ثار رجل لا يخاف في الحق لومة لائم ،ونطق بكلمة حق في وجه حاكم متخاذل ، إنه الشيخ عز الدين بن عبد السلام، الذي قطع الدعاء للصالح إسماعيل من خطبة جامع دمشق ، وأنكر ما فعله غاية الإنكار[2].

ولنبق مع ذلك الحدث ، إذ «أن الملك الصالح نجم الدين ، لما بلغه حركة الصالح إسماعيل من دمشق ومعه الفرنج، جرد العساكر إلى لقائه، فالتقاهم، وعندما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام إلى عساكرِ مصر طائعة ، ومالوا جميعاً على الفرنج ، فهزموهم وأسروا منهم خلقاً لا يحصون»[3].

يا لروعة ذلك المشهد ، عساكر مصر وبلاد الشام اتحدت تتبع فطرتها السليمة ، وأن العدو لا يحابي على حساب الأمة، وضد مصيرها.

ولننتقل إلى حقبة الحملة الصليبية السابعة، فبعدما عبرت مقدمة الجيش الصليبي قناة بحر أشموم ، في شهر ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ/شباط سنة١٢٥٠م، وباغتت معسكر

---

(١) ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٤ – ص ٢٤٦. المقريزي : السلوك – ج١ – ق١ – ص ٢٣٣. الحنبلي : المصدر نفسه – ص ٣١٢.

(٢) ابن واصل : مفرّج الكروب – ج٥ – ص ٣٠٢. أبو الفداء : المختصر – الموسوعة – ج٢٢ – ص ١٥٨. المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٠٤.

(٣) المقريزي : المصدر نفسه – ج١ – ق٢ – ص ٣٠٥.

المسلمين ، واستشهد الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، أصاب الغرور كونت دي أرتو- أخو لويس التاسع- فاندفع ومقدمة الجيش تجاه أزقة المنصورة وأرجائها لمطاردة فلول القوات المصرية، التي ما لبثت أن نظّمت صفوفها، واستجمعت قواها، بعد أن تولى قيادتها ركن الدين بيبرس البندقداري ، بينما بادر أهل المنصورة إلى قذف الجنود الصليبيين بالأحجار والطوب، من الأسطح والنوافذ، ورشقوهم بالسهام والنبال ، وانجلت المواجهة عن مقتل أكثر من ألف وخمسمائة صليبي ، أبرزهم كونت دي أرتو-نفسه-وثلاثمائة من فرسانه، وعدد كبير من فرسان الداوية[1].

لقد أدرك الصليبيون منذ البداية خطورة دور مصر وأهميته ، ففكروا بغزوها ، حتّى قبل استيلائهم على القدس ، وعاد بلدوين الأول – ملك بيت المقدس- ليزحف صوبها ، وكنا رأينا فيما تقدم ، كيف قرر رتشارد قلب الأسد ومعظم قادة الحملة الصليبية الثالثة ، رفع الحصار عن القدس ، سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م، والسير مباشرة تجاه مصر[2] ، ولم تقم الحملة الصليبية الرابعة إلاّ للسير صوب مصر ، ثمّ تغير مسارها، ولكن الحملتين الخامسة والسابعة رستا على شاطئ دمياط ، وأخفقتا في تحقيق أي هدف ، وقامت الحملة الثامنة للالتفاف على مصر ، وأخفقت أيضاً ، ولكن مصر ظلّت حلماً كبيراً يراود الصليبيين حتّى أمد بعيد ، فكتبوا وخططوا وصرخوا بأن مصر هي الهدف الأول.

وبعد، فالأمة تملك شعباً مقداماً لا يعرف الخنوع، ويرفض الذل والاستسلام، والبلاد في الوقت نفسه مستهدفة من قبل الأعداء، لسبب أو لآخر ، أو للأسباب مجتمعة ، فما هو الحل ؟ وكيف يمكن النهوض بالأمة والتصدي للطامعين بخيرات البلاد، والراغبين بهدم مقدساتها؟.

الإجابة ، ومن خلال البحث ، كانت واضحة وبشدة ، إنها الوحدة ، وخصوصاً بين مصر وبلاد الشام، وها هو وليم الصوري- المؤرخ الصليبي المعاصر لحقبة الحملة

---

(١) متى باريس : التاريخ الكبير – الموسوعة – ج٤٨ – ص ١١٣٣-١١٣٩. جوانفيل : حياة القديس لويس – الموسوعة – ج٣٦ – ص ٨٩. ابن أيبك : كنز الدرر – ج٧ – ص ٣٧٧.

(٢) أمبرويز : الموسوعة – ج٣٣ – ص ٦٠٢-٦٠٣. ابن شدّاد : الموسوعة – ج١٥ – ص ٢٣٨-٢٣٩. رتشارد دي تمبلو : الموسوعة – ج٣١ – ص ١٧٧.

الأولى - يصف دخول نور الدين إلى دمشق، وتوحيد بلاد الشام تحت سلطته، فيقول:«كان هذا التغيير مشؤوماً بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة، فقد برز خصم مرعب بدلاً من رجل بلا سلطة- إشارة إلى أبق- جعله ضعفه غير مؤذ للمسيحيين ، وقد استمر يدفع إليهم جزية سنوية حتّى هذا الوقت»[1].

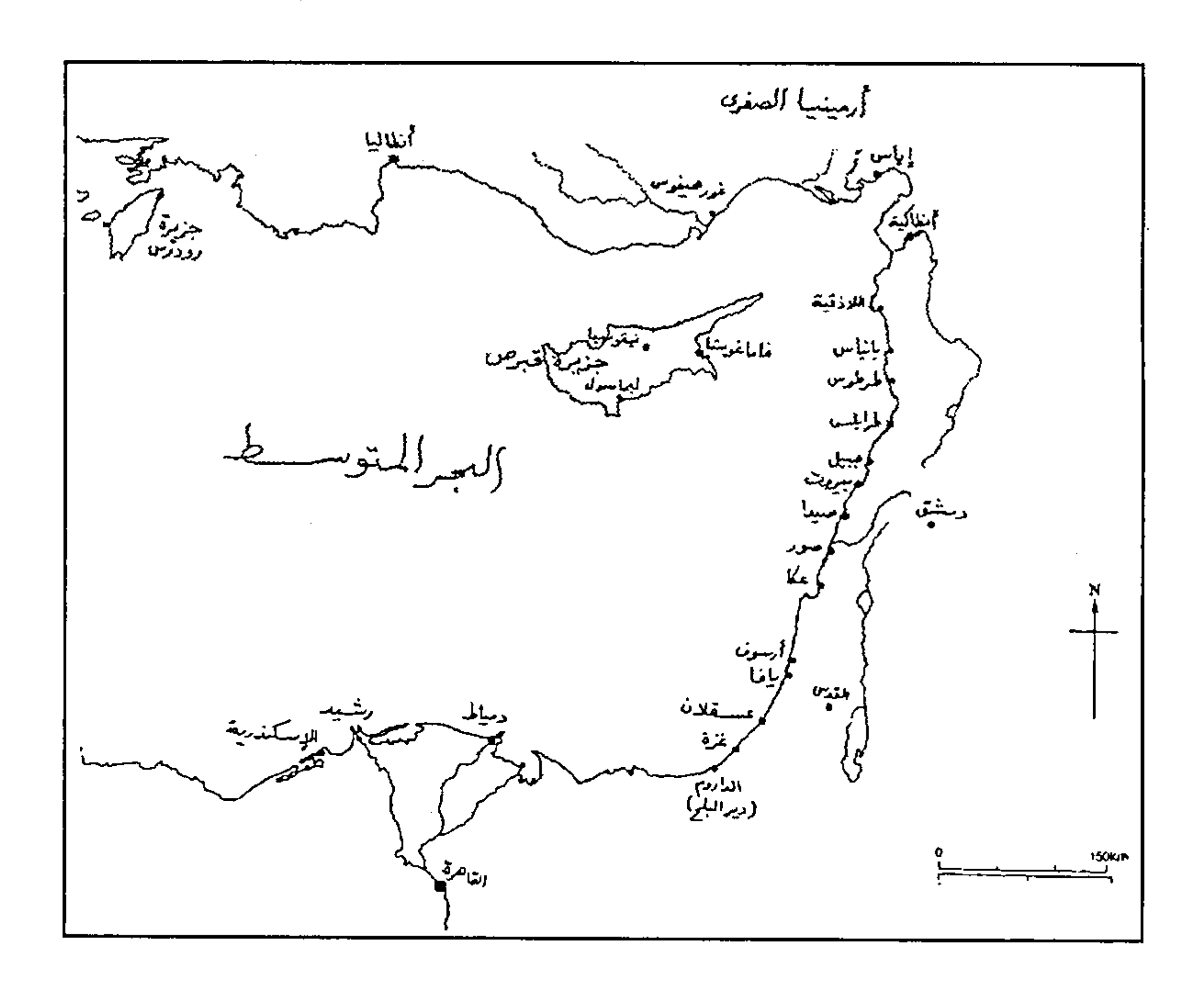
فالوحدة هي الرد الأقوى والأنجح لصد الغزاة ، وتحرير الأرض، والحروب الصليبية خير دليل ، فحين أدرك الفاطميون أنهم غُبِنوا، وأن لا فرق بين الثور الأسود والأبيض ، وأن العدو ليس بمحرر، ولا هو صديق، بدؤوا يتلمسون خيط المقاومة ، وحصل نوع ما من التنسيق مع دمشق، فكانت النتيجة إخفاق الحصار الصليبي سنة٥٠٥هـ/١١١١م، وما أن ثبت حكم صلاح الدين في مصر حتّى سخّر كل مواردها وطاقاتها البشرية والمادية لطرد الصليبيين من بلاد الشام ، وما أن حطّت الحملة الخامسة على ثرى مصر ، حتّى خرجت النجدات من بلاد الشام والموصل وسنجار لترد الغزاة وتصدّهم عن دمياط، وحينما علم أهل دمشق بسقوط دمياط-نفسها- سنة٦٤٧هـ/١٢٤٩م، بيد جحافل الحملة الصليبية الخامسة، ساروا وانتزعوا مدينة صيدا من الصليبيين بعد حصار وقتال، فكان لهذا الخبر أثر طيب في نفوس أهل مصر[2] ، إذ خفف عنهم بعضاً من مصاب دمياط ، ورفع من معنوياتهم وذكّرهم أن ليسوا وحدهم في ساح الوغى.

---

(١) وليم الصوري : الموسوعة الشامية – ج٧ – ص ١٧٠.

(٢) المقريزي : السلوك – ج١ – ق٢ – ص ٣٣٧.

الخرائط



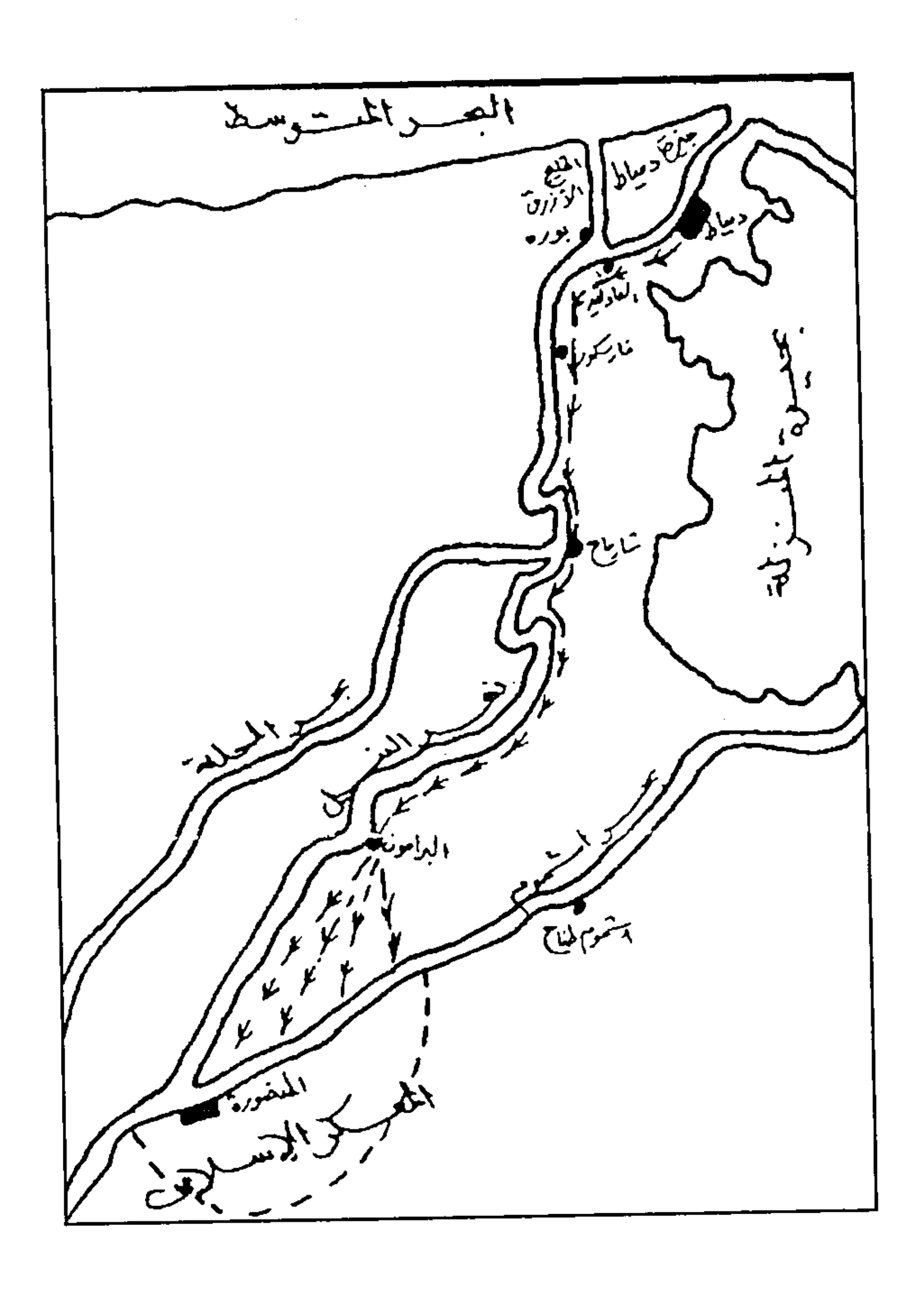
خريطة رقم (١)

شرق البحر المتوسط وساحل بلاد الشام ومصر[١]

---

(١) عاشور : قبرص والحروب الصليبية — ص ٥٨.

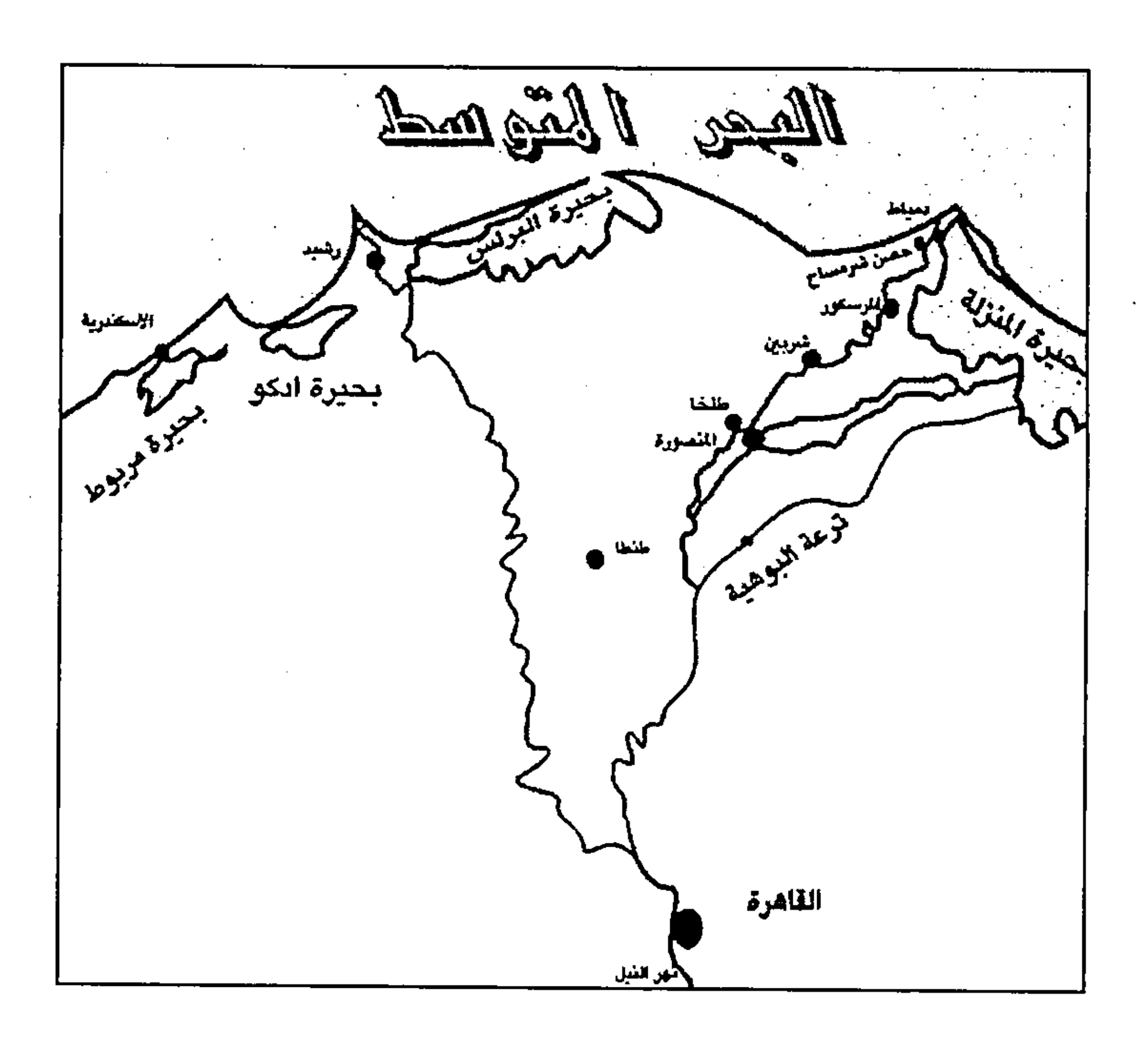
Edbury: Op. cit, p. 8.



خريطة رقم (٢)

خط سير الحملة الصليبية الخامسة من دمياط إلى المنصورة[١]

(١) عمران : الحروب الصليبية — ص ٣٦٦.

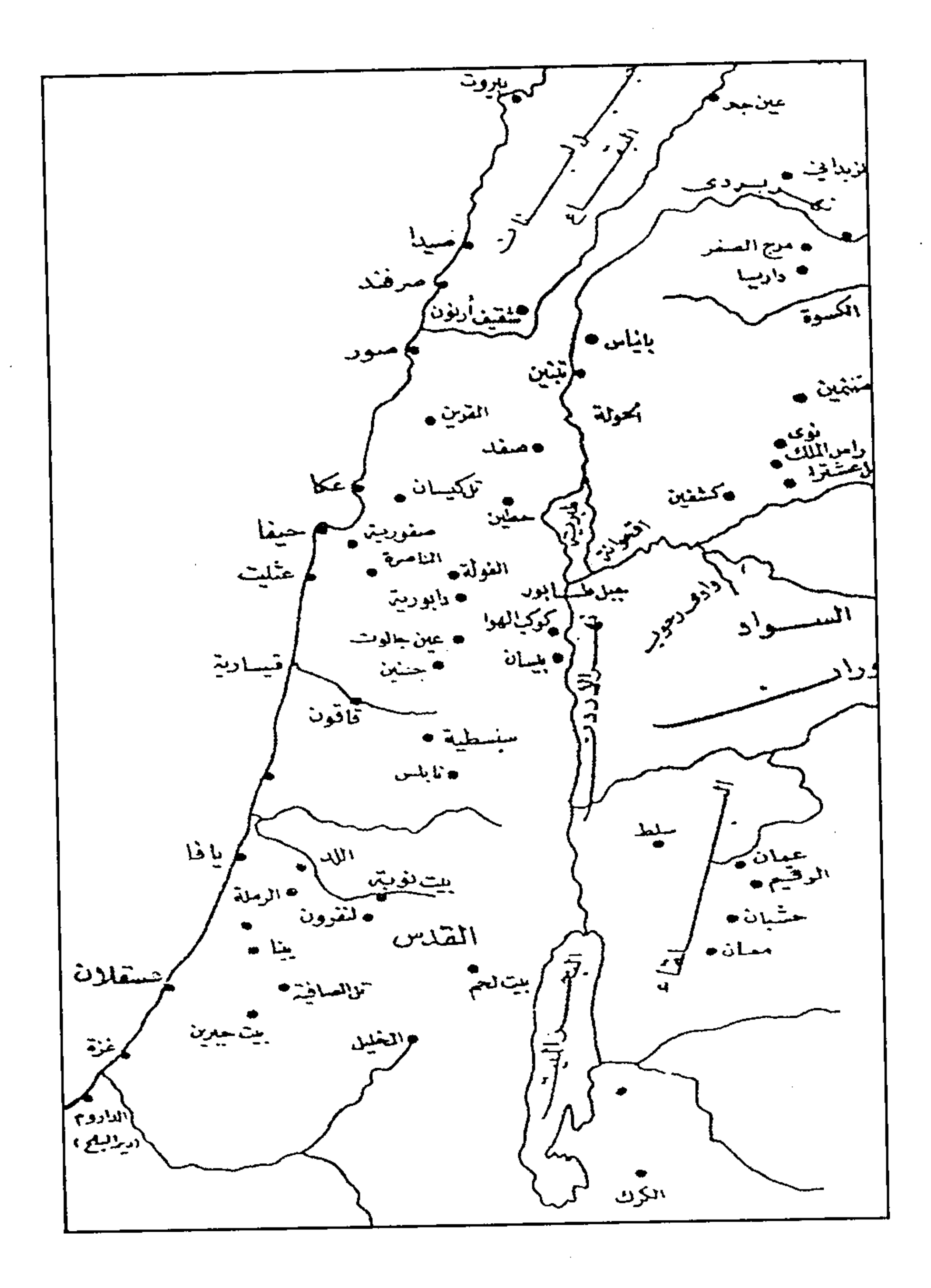


خريطة رقم (٣)

مسرح عمليات الحملة الصليبية السابعة[١]

---

(١) عمران : المرجع نفسه – ص ٣١١.



خريطة رقم (٤)

بلاد الشام – القسم الجنوبي[١]

---

(١) د. سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية – ج١ – ص ١٢٦.

قائمة

بالمصادر والمراجع العربية

والمترجمة إلى العربية

والأجنبية

أولاً – المصادر العربية :

ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني)

١- الكامل في التاريخ – ١٣ جزءاً – دار صادر – بيروت – ١٩٩٥م.

٢- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية – الموسوعة الشامية – ج١٤.

ابن الأزرق الفارقي (أحمد بن يوسف بن علي)

- تاريخ آمد وميافارقين – الموسوعة الشامية – ج١١.

الأصفهاني (العماد محمد بن محمد)

- البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان – الموسوعة الشامية – ج١١.

الأصفهاني (العماد الكاتب محمد بن محمد)

- الفتح القسي في الفتح القدسي – الموسوعة الشامية – ج ١٣.

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد المصري الحنفي)

- بدائع الزهور في وقائع الدهور – تحقيق : محمد مصطفى – (٥) أجزاء – القاهرة – ١٩٨٣م.

ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله)

- كنز الدرر وجامع الغرر – (٩) أجزاء :

الدرّة المضية في أخبار الدولة الفاطميـــة – تحقيق : صلاح الدين المنجّد – ج٦ – القاهرة – ١٩٦١م.

الدرّ المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب – تحقيق : د. سعيد عبد الفتاح عاشور – ج٧ – القاهرة – ١٩٧٢م.

البغدادي (أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي)

- نصوص من تاريخه ورحلته – الموسوعة الشامية – ج١٤.

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – (١٦) جزءاً – مصر – ١٩٦٣م.

ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن محمد بن جعفر)

- المنتظم في تواريخ الأمم والملوك – الموسوعة الشامية – ج١١.

الحريري (أحمد بن علي)

- الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين – الموسوعة الشامية – ج٢٣.

الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله)

- معجم البلدان – (٥) أجزاء – دار صادر – بيروت – ١٩٧٧م.

ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم)

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – الموسوعة الشامية – ج٢١.

ابن أبي الدم (شهاب الدين إبراهيم)

- التاريخ المظفري – الموسوعة الشامية – ج٢١.

الذهبي (الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد)

- العبر في خبر من غبر – (٥) أجزاء – الكويت – ١٩٨٤م.

ابن سباط (حمزة بن أحمد بن عمر)

- تاريخ ابن سباط – تحقيق : د. عمر عبد السلام تدمري – جزآن – لبنان – ١٩٩٣م.

سبط ابن الجوزي (أبو المظفر يوسف قزا أوغلي)

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان – الموسوعة الشامية – ج١٥.

السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن تمام)

- طبقات الشافعية – الموسوعة الشامية – ج٢٣.

أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم)

- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية – الموسوعة الشامية – الأجزاء (١٧-١٩)

- الذيل على الروضتين – الموسوعة الشامية – ج٢٠.

ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم)

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية – الموسوعة الشامية – ج١٥.

ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد)

١- بغية الطلب في تاريخ حلب – الموسوعة الشامية – ج١٦.

٢- زبدة الحلب من تاريخ حلب – تحقيق : د. سهيل زكار – جزآن – دار الكتاب العربي - دمشق – ١٩٩٧م.

زبدة الحلب من تاريخ حلب – الموسوعة الشامية – ج١٦.

ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله)

- تاريخ مدينة دمشق – الموسوعة الشامية – ج١١.

العظيمي (محمد بن علي)

- تاريخ العظيمي – الموسوعة الشامية – ج١١.

ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي)

شذرات الذهب في أخبار من ذهب – (٨) أجزاء – بيروت – د.ت.

العمري (ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى)

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار – الموسوعة الشامية – ج٢٣.

العيني (بدر الدين محمود بن أحمد)

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – الموسوعة الشامية – ج٢٤.

أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود)

- المختصر في أخبار البشر – الموسوعة الشامية – ج٢٢.

ابن قاضي شهبة (بدر الدين أبو الفضل محمد بن تقي)

- الكواكب الدرية في السيرة النورية – الموسوعة الشامية – ج٢٣.

ابن القلانسي (حمزة بن أسد)

- تاريخ دمشق – تحقيق : د. سهيل زكار – دار حسّان - دمشق – ١٩٨٣م.

- تاريخ دمشق – الموسوعة الشامية – ج١١.

ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل)

- البداية والنهاية – تحقيق : أحمد فتيح – (١٤) جزءاً – دار الحديث – القاهرة – ١٩٩٤م.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي)

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمّة الفاطميين الخلفا – الموسوعة الشامية – ج٢٥.
- السلوك لمعرفة دول الملوك – (٤) أجزاء :

الجزآن الأول والثاني – تحقيق : د. محمد مصطفى زيادة – القاهرة (١٩٣٤-١٩٥٨م).

الجزآن الثالث والرابع – تحقيق : د. سعيد عبد الفتاح عاشور – القاهرة (١٩٧٠-١٩٧٣م).

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار – جزآن – منشورات وزارة الثقافة – دمشق – ١٩٨٧م.

ابن نظيف (محمد بن علي)

- التاريخ المنصوري – الموسوعة الشامية – ج٢١.

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)

- نهاية الأرب في علم الأدب – الموسوعة الشامية – ج٢٢.

النويري الإسكندراني (محمد بن قاسمك بن محمد)

- الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية – تحقيق : د. عزيز سوريال عطية – (٧) أجزاء – مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد الدكن – الهند – (١٩٦٨-١٩٧٦م).

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم)

١- التاريخ الصالحي – الموسوعة الشامية – ج٢١.

٢- مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب – (٥) أجزاء :

الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق : د. جمال الدين الشيّال – القاهرة – (١٩٥٣-١٩٦٠م)

الجزآن الرابع والخامس تحقيق : د. حسنين محمد ربيع – القاهرة – (١٩٧٢-١٩٧٧م).

ابن الوردي (زين الدين عمر)

- تاريخ ابن الوردي – جزآن – المطبعة الحيدرية – النجف – ١٩٦٩م.

ثانياً : المصادر المترجمة إلى العربية :

الأرمني (سمباط)

- تاريخ سمباط – الموسوعة الشامية – ج ٣٦.

أرنول :

- ذيل تاريخ وليم الصوري – الموسوعة الشامية – ج ٨.

أمبرويز :

- صليبية رتشارد قلب الأسد – الموسوعة الشامية – ج (٣٢ / ٣٣).

بادربورن (أولفر أوف)

- الاستيلاء على دمياط – الموسوعة الشامية – ج ٣٤.

باريس (مـتّـى)

- التاريخ الكبير – الموسوعة الشامية – الأجزاء (٤٦-٥٠).

تشارترز (فولتشر أوف)

- تاريخ الحملة إلى القدس – الموسوعة الشامية – ج٦.

جوانفيل (جين)

- حياة القدّيس لويس – الموسوعة الشامية – ج ٣٦.

دوبوا (بيير)

- استرداد الأرض المقدسة – الموسوعة الشامية – ج ٣٧.

دي تمبلو (رتشارد)

- حملة الملك رتشارد إلى أراضي القدس المقدسة – الموسوعة الشامية – ج ٣١.

دي جيل (ريمون)

- تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس – الموسوعة الشامية – ج٦.

دي سوخم (لودولف)

- وصف الأرض المقدسة – الموسوعة الشامية – ج ٣٩.

دي نوفار (فيليب)

- حروب فردريـــك الثاني ضدّ الإيبلينيين في سورية وقبرص – الموسوعة الشامية – ج ٣٥.

ديسيتو (رالف أوف)

- صورة التاريخ – الموسوعة الشامية – ج ٣٠.

دي فيتري (جاك)

- تاريخ القدس – الموسوعة الشامية – ج ٣٤.

دي كلاري (روبرت)

- سقوط القسطنطينية للصليبيين – الموسوعة الشامية – ج ١٠.

الرهاوي المجهول

- روايات المؤرخ الرهاوي المجهول بالسريانية – الموسوعة الشامية – ج٥.

سانوتو (مارينو)

- الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة - الموسوعة الشامية - ج ٣٨.

السوري (ميخائيل)

- تاريخ ميخائيل الكبير - الموسوعة الشامية - ج٥.

الصوري (وليم)

- تاريخ الحروب الصليبية (وهو ترجمة د. سهيل زكار لكتاب تاريخ أعمال أنجزت فيما وراء البحار) - جزآن - دار الفكر - دمشق - ١٩٩٠م.

- تاريخ أعمال أنجزت فيما وراء البحار - الموسوعة الشامية - ج٧.

ابن العبري (غريغوريوس بن هرون بن توما الملطي)

- روايات ابن العبري بالسريانية - الموسوعة الشامية - ج٥.

فريزنغ (أوتو أسقف)

- «المدينتان» و«أعمال فردريك بربروسا» - الموسوعة الشامية - ج ٢٩.

فيتيلوس

- رسالة في وصف الأرض المقدسة - الموسوعة الشامية - ج ٣١.

فيلهاردين (غوفري)

- الاستيلاء على القسطنطينية - الموسوعة الشامية - ج ٦.

كومينا (آنا)

- الألكسياد - الموسوعة الشامية - ج٦.

كيناموس (يوحنا)

- أعمال يوحنا ومانويل كومينوس - الموسوعة الشامية - ج ٢٩.

مؤلف مجهول

- يوميات صاحب أعمال الفرنجة - الموسوعة الشامية - ج٦.

ووزز بيرغ (جون أوف)
- وصف الأرض المقدسة — الموسوعة الشامية - ج ٣٤.
ويندوفر (روجر أوف)
- ورود التاريخ — الموسوعة الشامية - ج (٤٤/٤٥).

ثالثاً – المصادر الأجنبية :

Clari, Robert of:
The conqest of Constantinople ,translated from the old French by: Edger Homles McNeal, Columbia University Press, U. S. A , 1936.

Edessa, Matthew of:
Armenia and the Crusades , translated from Armenian by : Ara Edmond Dostourian , U.S.A , 1993.

Francorum, Gesta:
et a liorum Hierosolimitanorum , translated by : Rosalind Hill , London , 1962.

Joinville, John of:
The Life of St. Louis «The letter of St. Louis» , translated from French by : René Hague, London , 1955.

Joinville & Villehardouin, Jean De and Geoffroy De:
Chronicles of the Crusades ,translated from French by: Margaret Shaw, England , 1963.

Machaut, Guillaume de:
The Capture of Alexandria, translated by: Janet Shirley & Peter W. Edbury, Ashgat Publishing Limited, London, 2001.

Paderborn, Oliver of:
The Capture of Damietta , Translated by : John J. Gavigan , Oxford University Press , 1948.

Saint-Pathus, Guilleume De:
Vie De Saint Louis, Paris , 1899.

Vitalis, Orderic:
The Ecclesiastical History , translated from Latin by: Marjorie Chibnall , 6 Vols , Oxford University Press , 1975.

رابعاً : المراجع العربية :

بيطار (د. أمينة)

- تاريخ العصر الأيوبي – منشورات جامعة دمشق – دمشق – ١٩٨١م.

البيومي (د. محمد رجب)

- صلاح الدين الأيوبي – دار القلم – دمشق – ١٩٩٨م.

جمـــول (جـــميل)

- حلب والحروب الصليبية – رسالة ماجستير غير منشورة – جامعـــة دمـــشق – ٢٠٠٠م.

حسن (د. حسن إبراهيم)

- تاريخ الدولة الفاطمية – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ١٩٦٤م.

حسين (د. حمدي)

- دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك – الإسكندرية – ١٩٩٦م.

زكّـــار (د. سهيـــل)

١- الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية – صدر منـــها (٦٤) جـــزءاً – دمشق – ١٩٩٥/٢٠٠٤م.

٢- حطين مسيرة التحرير – دار حسّان – دمشق – ١٩٨٤م.

٣- الجامع في أخبار القرامطة – جزآن – دمشق – ١٩٨٧م.

زكّـــار ، جونـــي ، إسمـــاعيل (د. سهيل ، د. وفاء ، د. اكتمال)

- حروب الفرنجة (الصليبية) – منشورات جامعة دمشق – دمشق – ٢٠٠٤م.

زيتون (د. عادل)

- تاريخ العصور الوسطى الأوروبية – منشورات جامعـــة دمـــشق – دمـــشق – ١٩٨١م.

سالم (د. السيد عبد العزيز)

- طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي – دار المعارف – الإسكندرية – ١٩٦٦م.

سرور (د. محمد جمال الدين)

١- سياسة الفاطميين الخارجية – دار الفكر العربي – القاهرة – ١٩٦٧م.

٢- تاريخ الدولة الفاطمية – دار الفكر العربي – القاهرة – ١٩٩٤م.

سيّد (د. أيمن فؤاد)

- الدولة الفاطمية في مصر – الدار المصرية اللبنانية – القاهرة – ١٩٩٢م.

الشهابي (قتيبة)

- معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية – منشورات وزارة الثقافة – دمشق – ١٩٩٥م.

ضامن (محمد)

- إمارة حلب في ظل الحكم السلجوقي – دار أسامة – دمشق/بيروت – ١٩٩٠م.

طقوش (د. محمد سهيل)

- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام – دار النفائس – بيروت – ١٩٩٩م.

عاشور (د. سعيد عبد الفتاح)

١. تاريخ أوروبا في العصور الوسطى – دار النهضة العربية – بيروت – ١٩٧٢م.

٢. الحركة الصليبية – جزآن – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٩٤م.

٣. قبرص والحروب الصليبية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ٢٠٠٢م.

عاشور (د. فايد حماد)

- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية – بيروت – ١٩٨٨م.

العبّادي (د. أحمد مختار)

- في التاريخ العباسي والفاطمي – الإسكندرية – ١٩٩٣م.

العبود (د. نافع توفيق)

- الدولة الخوارزمية – منشورات جامعة بغداد – بغداد – ١٩٧٨م.

عطية (د.حسين محمد)

- إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – ١٩٨٩م.

علي (د. وفاء محمد)

- قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام – القاهرة – ١٩٨٧م.

عمران (د. محمود سعيد)

- تاريخ الحروب الصليبية – الإسكندرية – ١٩٩٦م.

غنيم (د. إسمت)

- الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضدّ القسطنطينية – جدّة – ١٩٧٨م.

غوانمة (د. يوسف حسن درويش)

- إمارة الكرك الأيوبية – دار الفكر – عمّان – ١٩٨٢م.

القوصي (د. عطية)

- تاريخ دولة الكنوز الإسلامية – القاهرة – ١٩٧٦م.

مصطفى (د. شاكر)

١- في التاريخ الإسلامي – دار طلاس – دمشق – ١٩٩٨م.

٢- صلاح الدين – دار القلم – دمشق – ١٩٩٨م.

النخيلي (درويش)

- السفن الإسلامية على حروف المعجم – دار المعارف – الإسكندرية – ١٩٧٩م.

نعينع (د. سهير محمد)

- حملة بطرس الأول لوسنيان على الإسكندرية - القاهرة - ٢٠٠٢م.

يوسف (د. جوزيف نسيم)

- العدوان الصليبي على مصر - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٨١م.

خامساً : المراجع المترجمة إلى العربية :

باركر (إرنست)

- الحروب الصليبية - ترجمة : السيد الباز العريني - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - د.ت.

زابوروف (ميخائيل)

- الصليبيون في الشرق - ترجمة : إلياس شاهين - دار التقدم - موسكو - ١٩٨٦م.

غروسيه (رينيه)

- الحروب الصليبية - ترجمة : أحمد إيبش - دار قتيبة - دمشق - ٢٠٠٢م.

فِشر (هـ. أ. ل.)

- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - ترجمة : د. محمد مصطفى زيادة - جزآن - القاهرة - ١٩٦٦م.

مؤلّف مجهول

- تاريخ البابوات - ترجمة : شحادة ميلاد أبي خليل - منشورات صوت المحبة - لبنان - ١٩٨٨م.

سادساً : المراجع الأجنبية :

- **Alphandéry**, Paul: La Chrétienté L'idée De Croisade , Paris, 1959.
- **Angold**, Michael: The Byzantine Empire (1025-1204) , U. S. A , 1984.
- **Armstrong**, Kahen: Holy War , London , 1988.
- Atiya, Aziz Suryal: The Crusade in the Later Miiddle Ages, London , 1938.
- **B, H. G.**: Chronicles of the Crusades , London , 1903.
- **Barber**, Malcolm: The New Knighthood , Cambridge University Press , 1994.
- **Barker**, Ernest: The Crusades , Oxford University Press , England , 1925.
- **Barraclough**, G.: The Medieval Papacy, London, 1975.
- **Belloc**, Hilaire: The Crusade , London , 1937.
- **Billing**, Malcolm: The Crusades , Great Britain , 2000.
- **Bingham**, Caroline: The Crowned Lions , London , 1978.
- **Blyth**, Estelle: Jerusalem and the Crusades , London , 1936.
- **Braber**, Malcolm: Crusaders and Heretics, 12th centuries , Great Britain , 1995.
- **Bradford**, Ernle: The Sword and the Scimitar , London , 1974.
- **Brand**, Charles M.: Byzantium confronts the West (1180-1204), Cambridge, 1968.
- **Bréhier**, Louis: L'eglise Et L'Orient Au Moyen Age Les Croisades , Paris , 1921.
- **Bridge**, Antony: The Crusades , London , 1980.
- **Brundage**, James A.: The Crusades - U. S. A , 1976.
- **Brundage**, James A.: The Crusades, Holy War and canon Law , England , 1991.
- **Cahen**, Claude: Orient et Occident au temps des Croisades, Paris, 1983.
- **Cairns**, Trevor: Medieval Knights , Cambridge , 1992.

- **Calthrop**, M. M. C.: The Crusades , London, 1936.
- **Cardini**, Franco: Europe and Islam , Translated from Italian by : Caroline Beamish , Oxford , 2001.
- **Cassady**, Richard F.: The Norman Achievement, London, 1986.
- **Chalandon**, Ferdinand: Histoire de la Première Croisade.
- **Chamberlain**, Michael: The Crursader era and the Ayyubid dynasty , tow volume , Cambridge , 1998.
- **Chrisp**, Peter: The Crusades , England , 1992.
- **Cole**, Penny J.: The Preaching of the Crusades to the Holy Land (1095-1270) - , U. S. A , 1991.
- **Commnen**, Anna: The Alexiad, (Eng. Trans.) London, 1967.
- **Corbishley**, Mike: The Middle Ages , Oxford , 1990.
- **Coulton**, G. G.: Crusades, Commerce and Adventure, London, 1930.
- **Cox**, George W.: The Crusades , London, 1874.
- **Daniel**, Norman: The Arabs and Mediaeval Europe , London , 1975.
- **Dictionary of World History** , London , 1973.
- **Donovan**, Joseph P.: Pelagius and the Fifth Crusade , Philadelphia , 1950.
- **Douglas**, David C.: The Norman Achievement, London, 1969.
- **Edbury**, Peter W.: The conquest of Jerusalem and the third Crusade , England , 1996.
- **Edbury**, Peter W.: The Crusading policy of King Peter I of Lusignan of Cyprus, England, 1977.
- **Erbstösser**, Martin: The Crusades , Translated from Germany by: C.S.V. Salt , United Kingdom , 1978.
- **Finucane**, Ronald C.: Soldiers of the faith , London , 1983.
- **Gabriel**, Francesco: Arab Historians of the Crusadea , Translated from Italian by : E. J. Costello , London , 1984.
- **Ghazarian**, Jacob G.: The Armenian Kingdom in Cilicia during the Crusades , England , 2000.

- **Gibb**, Christopher: Richard the Lion heart and the Crusades , England , 1985.
- **Gillingham**, John: Richard I , England , 1999.
- **Godfrey**, John: 1204 The Unholy Crusade , Oxford , 1980.
- **Griffiths**, Ralph A.: History of Britain, Oxford University Press, 1984.
- **Grousset**, René: Histoire Des Croisades Et Du Royaume France De Jérusalem- 3 vols , Paris- 1936.
- **Hamilton**, Bernard: The Crusades , England , 1998.
- **Haskins**, C.H.: The Normans in European History, London, 1935.
- **Heath**, Ian: Awargamers' guide to the Cusades , England , 1980.
- **Hill**, George: A History of Cyprus , 4 Vols , Cambridge University Press , 1948.
- **Holden**, Matthew: The Crusades , London , 1973.
- **Holt**, Peter Malcolm: The age of The Crusades, London, 1986.
- **Housley**, Norman: The Crusaders , Great Britain , 2002.
- **Housley**, Norman: The Avignon Papacy and the Crusades, Oxford , 1986.
- **Hyland**, Ann: The Medieval War Horse , Great Britain , 1994.
- **Jacoby**, David: Studies on the Crusader States and on Venetian Expansion , Great Britain , 1989.
- **Jean**, Richard: The Crusades, Cambridge University press, 1999.
- **Jeffery**, Geo: Cyprus under Richard I , London.
- **Jones & Ereira**, Terry and Alan: Crusades , London , 1994.
- **Jones**, J. A. P.: The Crusades , London , 1984.
- **Jordan**, William Chester: Louis IX and the challenge of the Crusade , U. S. A , 1979.
- **Kedar**, B. Z.: The Horns of Hattin , Jerusalem , 1992.
- **Keeling**, Annie E.: The Nine Famous Crusades of the Middle Ages, London , 1889.

- **Kerr & Cantab**, Anthony J. C. and M. A.: the Crusades , Great Britain , 1966.
- **King**: The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.
- **Krey**, August C.: The First Crusade , Princeton University Press , 1958.
- **Labarge**, Margaret Wade: Saint Louis «The Life of Louis IX of France» , London , 1968.
- **Lane-Poole**, Stanley: Saladin and the fall of Jerusalem , London , 2002.
- **Lane-Poole**, Stanley: A History of Egypt in the middle ages , London , 1968.
- **Lawrence**, T. E.: Crusades castles , Oxford , 1988.
- **Lewis**, A. R.: Nomads and Crusaders - U. S. A , 1988.
- **Lilie**, Ralph Johannes: Byzantium and the Crusader States (1096,1204) , Oxford University Press , 1993.
- **Lobban**, R. D.: The Crusades , London , 1966.
- **Lock**, Peter: The Franks in the Aegean (1204-1500) - , U. S. A , 1995.
- **Lloyd**, Simon: English Society and the Crusade (1216-1307) , Oxford University Press , 1988.
- **Lyons &** Jackson, Malcolm Cameron and D. E. P.: Saladin the politics of the Holy War , Cambridge , 1997.
- **Magdalio**, Paul: The Medieval Empire (780-1204) - «The Oxford History of Byzantium» - Oxford , 2002 , pp. 195-196.
- **Maquarrie**, Alan: Scotland and the Crusades , Great Britain , 1997.
- **Marshall**, Christopher: Warfare in the Latin East (1192,1291) , Cambridge , 1992.
- **Mayer**, Hans Eberhard: The Crusades , Oxford University Press , 1988.
- **Moss**, Miriam: The Crusades , England , 1986.
- **Mundy**, John H.: Europe in the High Midlle Ages (1150-1300) , England , 2000.

- **Munro**, Dana C.:The Kingdom of the Crusaders , U. S. A , 1935.
- **Murray**, Alan: the Crusader Kingdom of Jerusalem , Great Britain , 2000.
- **Nicholson**, Robert L.: Tancred , U.S.A , 1940.
- **Nicolle**, David: The Crusades , London , 1988.
- **Oldenbourg**, Zoé: The Crusades , Great Britain , 1999.
- **Oman**, Charles: A History of the art of war in the Middle ages , tow volume , U.S.A , 1969.
- **Ostrogorsk**, G.: History of Byzantine State, Oxford, 1956.
- **Ostrogorsky**, George: History of The Byzantine State , U. S. A , 1957.
- **Paetow**, Lois J.: The Crusades and other historical Essays , U.S.A , 1968.
- **Paine**, Mike: The Crusades , Great Britain , 2001.
- **Payne**, Robert: The Dream and the tomb , London , 1986.
- **Pernoud**, Régine: The Crusades , London , 1962.
- **Partner**, Peter: God of Battle , London , 1997.
- **Campbell**, George A.: The Crusades , Great Britain , 1938.
- **Peters**, Edward: Christian Society and the Crusades (1198-1229) , U. S. A , 1971.
- **Phillips**, Jonathan: Defenders of the Holy Land , Oxford University Press , 1996.
- **Powell**, James M.: Anatomy of a Crusade (1213-1221) , Philadelphia, 1986.
- **Prawer**, Joshua: Crusade Institutions , Oxford University Press , 1980.
- **Purcell**, Maureen: Papal Crusading policy , Netherlands , 1975.
- **Queller**, Donald E.: Medieval Diplomacy and the Fourth Crusade , London , 1980.
- **Reston**, Jr, James: Warriors of God , London , 2001.
- **Riant**, Comte: Archives de L'Orient Latin , II tome , Paris , 1964.
- **Richard**, Jean: La Politique Orientale de Saint Louis , Paris , 1976.

- **Richard** Jean: Saint Louis , translated from French by: Jean Birrell , Cambridge , 1992.
- **Richard**, Jean: The Latin Kingdom of Jerusalem, Translated from French by Janet Shirly, Holland, 1979.
- **Rogers**, Randall: Latin siege War fare in the twelfth century , Oxford University Press , 1992.
- **Ross**, Stewart: A Crusading Kinight , England , 1986.
- **Runciman**, Steven: A History of The Crusades, 3 vols, Cambridge, 1988.
- **Sargent-Baur**, Barbara N.: Journeys Toward God , U. S. A.
- **Saunders**, J. J.: Aspects of the Crusades, New Zealand, 1962.
- **Schama**, Simon: A History of Britain , London , 2002.
- **Schyinges**, Rainer C.: Kreuzzugsideologie und Toleranz , Stuttgart , 1977.
- **Setton**, Keneth M.: A History of the Crusades , 6 vols , U. S. A , 1958.
- **Siberry**, Elizabeth: Criticism of Crusading (1095-1204) , Oxford University Press , 1985.
- **Smail**, R. C.: Crusading Warfare (1097,1193) , Cambridge , 1956.
- **Smail**, R.C.: The Crusades in Syria and the Holy Land , London , 1973.
- **Smith**, Jonathan Riley: The Crusades , Oxford , 1995.
- **Southern**, R. W.: Western views of Islam in the Middle Ages , Harvard University Press , 1962.
- **Stevenson**, W.B.: The Crusaders in the East, Cambridge University press, 1907.
- **Stone**, Edward Noble: Three Old French Chronicles of the Crusades , U.S.A , 1939.
- **The new Cambridge Medival History** , 7 vols , Cambridge University Press , 1999.
- **The Oxford dictionary of World religions** , Oxford University Press , 1997.
- **The Times Books**: History of Europe , London , 2001.
- **Theis**, Dan: the Crescent and the Cross , U.S.A , 1978.

- **Thomas**, John: The Crusades , London , 1957.
- **Thorau**, Peter: The Lion of Egypt, England, 1992.
- **Throop**, Palmer A.: Criticism of the Crusade , Amsterdam , 1940.
- **Tibble**, Steven: Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem, Oxford University press, 1989.
- **Treece**, Henry: The Crusades , U.S.A , 1962.
- **Turner** & Heiser, Ralph V. and Richard R.: The Reign of Richard Lion Heart , England , 2000.
- **Tyerman**, Christopher: England and the Crusades , U. S. A , 1988.
- **Vitriaco**, Jacobi De: Libri Dvo , England , 1971.
- **West**, Anthony: The Crusades , London , 1967.
- **Wiener**, Wolfgang Müller-: Castles of the Crusades, London, 1966.
- **Wise**, Terence: The Wars of the Crusades , London , 1978.

المحتوى

Cruciferous movement is considered one of the struggle series between east and west generally , and the Islamic east and the Christian west specially . If this movement appeared as campaigns and gatherings moved from Europe to Shaam country to size Jerusalem , and to extract it from Muslims hands, this movement looked to Egypt and turned its eyes towards it , as Crusaders in Shaam country , and specially in Jerusalem , realized that Egypt , with its large human and physical resources, was the center of the real resistance in the Islamic World against the cruciferous invasion . So they , to ensure their occupation of Jerusalem and to ensure their ability to expand in the various areas in Shaam country , had to dominate Egypt and to put their hands on its resources .

On the basis of what I mentioned above , I chose " Egypt and the Cruciferous wars " to be the title of my doctorate research . Maybe many Arab , and non Arab , historians and researchers wrote studies and scientific researches connected with the cruciferous wars and the Egyptian role in them , but most of these studies were restricted in their searching , or limited in their analyzing , and general in their geography , so they did not research principally about Egypt , but they passed that to Shaam country and small Asia (Turkey) . If it is not allowed to neglect some researches , or to ignore their results and conclusions , our research formed an attempt for a new reading , maybe we cauld find out what Egypt represented in the respect of the warmongers of the cruciferous campaigns . As their efforts directed towards Egypt firstly , as the keys of Jerusalem were in it , and because it , i.e. Egypt , in their opinions , was the head of the snake which they wanted to eat , and it was an endless resource of abilities which they wanted to control on . As well its strategic site made it the point of crossing and meeting . Besides , Egypt kept playing a leading comprehensive role . So naturally , Crusaders focused all their force towards Egypt .

I talked in it about the coming of the first campaign to Shaam country , and its siege of Antakia , and how it received a Fatimian delegation to ally with the Crusaders , against Saljocians , and I discussed this information and clarified its

results , and the consequence of cooperation with the nation enemies , whatever their aim was .
My plan in working was to start after the introduction with an entrance about the most important references which I depended on . Then I divided my research into six chapters . The first one under the title " Fatimians and the first cruciferous campaign " . I talked in it about the coming of the first campaign to Shaam country , and the siege of Antakia , and how they received there a Fatimian delegation to ally with the Crusaders against Saljocians . I discussed this information and clarified its results and the consequence of the cooperation with the nation enemies. So , it was obvious , in the second chapter , to talk about " the struggling for power in Egypt and the end of the Fatimian caliphate . And we explained that the Islamic-Christian struggling took a new line with the dead of Baldwin the third , the king of Jerusalem , and the devolution of the power to his brother Ammori the first , as he turned his eyes toward Egypt which was suffering from weakness , disorder and the extent of political assassination . And I clarified exactly what Egypt formed in the politics of Nouridden and Ammori the first . And I mentioned the movement of the first campaign by Nouridden to Egypt , which he assigned Assadidden Sherkoh for its leadership, and the cruciferous reaction towards that , and the movement of Ammori the first to Egypt . Then I counted the reasons that pushed Nouridden to send his second campaign towards Egypt , and the battle of " Babeen / tow gates " which Muslims won it under the leadership of Shirkoh .
The third chapter was under the title " Aiobians and the third cruciferous campaign " , which came to the east as a result of Hitteen Battle and the conquest of Jerusalem by Saladen , and the appealing for aid by the crusaders from the European west . So the German emperor Fredrick Barbarossa moved towards the east , but he drowned in a river and his danger vanished .
Then I talked about the severe siege that Crusaders imposed on Akka , and the arriving of the French king Philip August and the English king Richard (heart of lion) , and the falling of Akka which followed that . And I explained the impact of its falling

upon Muslims and Saladen . Then I moved to the battle of Arsof and its hard and severe result on Muslims . Also I mentioned the results of this battle , and went into the political events after that, as negotiation started between the tow sides Muslims and Christians . And I clarified the reasons of each party to accept this negotiation .

In the forth chapter I completed the talking about " Aiobians and the fifth and sixth cruciferous campaigns " . I searched in the sailing of the campaign from Akka in a tremendous army towards Dimiat , which Crusaders besieged fiercely . I moved to explain the military operations between Muslims and Crusaders, the falling of Al-Selsela tower , death of Al-Adel , the arriving of western European support under the leadership of vice of Pope Bilagios . I clarified the affect of his leadership and the alienation it caused between clergymen and military leaders , which was one of the failure of this campaign .

Then I sailed in the fifth chapter , and moved to talk about the circumstances of the raising of the seventh cruciferous campaign. Then I moved to talk about the preparations of the campaign and its sailing . And discussed in detail the position of Fredrick the second towards it . Then I mentioned the Aiobian moving to stop the Crusaders who sailed with Luis the ninth , the king of France , towards Cyprus k then they moved to Dimiat , where the campaign captured it easily .

In the sixth chapter we had careful stopping with the campaign of Peter the first Du Lozgnan on Alexandria . I mentioned the situations of the Crusaders and Egypt in the eighth century after Hijra / the tenth after Christ . I explained the role of the warmongers in the preparing of the campaign , and the reasons of choosing Alexandria to be its target . Then I moved to talk about the campaign and its arriving to Alexandria , and dealt in detail with the destruction that it caused for the city , spoliation and plundering . I brought out the reasons of the campaign leaving , and the failure of Peter the first in controlling Alexandria . Also I counted the results of the campaign and its affect on all parties .

Finally I ended my research with an attempt to draw a simple and clear image of the results of this study . I demonstrated in the conclusion the philosophy and the essence of the research .